

منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية
سلسلة الدراسات المترجمة (44)

أصول السكان في ليبيا
آراء غربية - الجزء الأول

ج . كامب

البربر الذاكرة والهوية

ترجمة
جاد الله عزوز الطلحي

تقديم
محمد الطاهر الجراري

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
2005

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (105)

سورة التوبة



منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية
سلسلة الدراسات المترجمة (44)

أصول السكان في ليبيا
آراء غربية - الجزء الأول

ج . كامب

البربر الذاكرة والهوية

ترجمة
جاد الله عزوز الطلحي

تقديم
محمد الطاهر الجراري



الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
2005

2005 ميلادية

مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية
طرابلس - ليبيا

رقم الإيداع: **2005/6400** دار الكتب الوطنية/ بنغازي
ردمك: **ISBN 9959-23-087-2**

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب
بنغازي - ليبيا
هاتف: **9097074 - 9096379 - 9090509**
بريد مصور: **9097073**
البريد الالكتروني: **nat- lib- libia @ hotmil.com**

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

محمد الطاهر الجراري

أغلب الدراسات الحالية تميل إلى ترجيح أن استقرار العنصر الليبي (البربري[1] – الأمازيغي) المنتشر حتى الآن بالعديد من مناطق الشمال الأفريقي كان متواجداً هناك خلال منتصف الألف الرابع ق.م. (بارتش 1991 ص.189، سطر 25 -ص202، سطر 13) والاختلاف في الوقت الحاضر يتمحور حول المكان الذي قدموا منه:

1. **أوروبيون**: جاءوا على هيئة جماعات مختلفة واستقروا بالمنطقة وتداخلوا تدريجياً ـ لغوياً وحضارياً وسلالياً ـ مع الأقوام الأفريقية التي كانت تستوطن المنطقة قبلهم، وقد امتد هؤلاء في الاتجاهات المتاحة خصوصاً النوبة التي وصلوها منذ زمن المملكة القديمة في مصر.
2. **صحراويون نوبيون**: من اصل صحراوي تجمعوا بمناطق النوبة بعد جفاف الصحراء وزاولوا حرفة الرعي ولهم صلات لغوية كثيرة مع جماعات افرو- آسيوية (Afro-Asian) ترجح انتماءهم إلى أصل واحد.
3. **شرقيون**: من أصل شرقي يتكلمون لغة سامية.

[1] ـ في العصور القديمة لم يُعط سكان أفريقيا اسماً جامعاً واحداً لهم، وأقدم قبائلهم هي التحنو والليبو والمشواش، وأكثر الأسماء شيوعاً تاريخياً هي الليبيون والمور والبربر، وفي الفترة الأخيرة ظهر اسم الامازيغ الذي هو شبيه باطلاق اسم العرب على كل الحضارات القديمة في الشرق. ومعلوم ان اسم العرب ظهر تاريخياً لأول مرة في القرن الثامن ق.م. دالاً على مجموعة محددة من سكان الشرق تماماً كاسم الامازيغ الذي ظهر لأول مرة في التاريخ في القرن السادس ق.م. من قبل هيكيتايوس وبعده في القرن الخامس ق.م. من قبل هير الا على جماعة محددة من سكان الشمال الأفريقي.
(O.Bates 1970:53) ومادة البربر (The Encyclopaedia of Islam. Leiden (19

حول هذه النقاط الثلاث اختلفت الآراء والأهواء لكن حسمها ، ووفقاً للشروط الأكاديمية الحالية ، يتم عبر ثلاثة مجالات معرفية هي:

1. الحفريات الأثرية التي تبحث في الإنسان وبقاياه من فخار ومعادن ومعمار ورسوم وفنون ونقوش وعادات دفن وأشكال هياكل عظمية وغيرها. ومقارنة كل ذلك بمقياس التطور الزمني وبما عند الآخرين من الجيران والأباعد.
2. علم اللغات الذي قد يتغير صوتاً وشكلاً لكنه يظل دائماً وفياً لهيكله العظمي النحوي الصرفي الذي يبقى محافظاً على جذوره وأصوله عبر الأقوام والأزمان .
3. الدراسات التاريخية المتمحورة حول المصادر التاريخية المكتوبة والوثائق الأصلية بكافة أشكالها.

وجميع هذه المجالات المعرفية عادة ما تكون حركتها التطورية بطيئة ومتخصصوها ندر، وذلك لاتساع مجالاتها وكثرة متطلباتها التقنية والأكاديمية والمادية.

ولإشراك قارئ اللغة العربية في آخر المستجدات في هذه المجالات العلمية حول الأسئلة أو السؤال الوارد أعلاه قام الأستاذ جاد الله عزوز الطلحي مشكوراً بالترجمة عن الفرنسية لعمل تاريخي طبع أربع مرات في لغته الأصلية في فترة قصيرة نسبياً وقام بتأليفه أحد ابرز مؤرخي شمال أفريقيا القديمة وهو الأستاذ الفرنسي جبرييل كامب.

ما بين الزمن الذي وضع فيه الكتاب وهو أوائل الثمانينات[1]، والزمن الذي نقل فيه إلى العربية سنة 2005 ما يقرب من ربع قرن، خلال هذه الفترة ساعدت روح الانفتاح الدولي على السماح للعديد من البعثات الأثرية المحلية والعالمية لزيارة المنطقة وإجراء العديد من البحوث والتنقيبات. ونتيجة لذلك استجدت عدة نتائج علمية أثرنا وضعها بين يدي القارئ للتعرف على آخر الآراء العلمية الأوروبية ـ الأمريكية حول مسألة الأصول السكانية للمنطقة العربية.

---

[1] ـ طبع الكتاب أربع مرات آخرها سنة 1997.

وهذه هي مادة الجزء الثاني من هذا الكتاب الذي تولى فيه الأستاذ الدكتور عماد الدين غانم مشكوراً ترجمة عمل لغوي ألماني صعب لأحد ابرز المتخصصين في اللغات الشرقية المقارنة في الفترة الأخيرة وهو الأستاذ اوتو روسلر.

واستكمالاً للمثلث التاريخي اللغوي الأثري تكرم الأستاذ الدكتور محمد الباشا بترجمة المقالات عن اللغة الإنجليزية. وقد عُمد إلى أن تكون هذه المقالات حديثة وممثلة لأوسع دائرة من المدارس الأثرية الأوروبية الأمريكية.

ولإحاطة القارئ وتحفيزه سنستعرض مفاصل الأعمال الثلاثة وأهدافها.

أولاً ـ الدراسة التاريخية :

خصص الجزء الأول من الكتاب لمؤلف الأستاذ جابرييل كامب المعنون (البربر*الذاكرة والهوية) والذي طوعت فيه مجالات الانتروبولوجيا والآثار والنقوش واللغات وغيرها لتحقيق دراسة تاريخية رجح فيها المؤلف الوحدة الثقافية للبربر على الوحدة العنصرية إذ لا وجود في التاريخ، حسب رأيه، لعرق بربري بملامح عرقية محددة، وأول ظهور لهم يعود للألف الثامن ق.م. وقد جاءوا على فترات متعاقبة من الشرق وتغلغلوا تدريجياً بالمنطقة، وهم موزعون الآن على اثني عشر (12) بلداً أفريقياً. وكان لهم دور بارز غفله المؤرخون[1]، مما حفزه هو لوضع هذا المؤلف.

في فصل الجذور يستعرض المؤلف الإشارات التاريخية لأصل البربر ثم يتطرق إلى الاكتشافات الأثرية وتسمياتهم ولغاتهم ورسوماتهم الصخرية ومقابرهم المتشابهة مع مقابر المصريين ثم علاقتهم مع الفينيقيين وممالكهم القديمة وعلاقتهم بالرومان والمسيحية ثم الفتح الإسلامي وجهدهم في نشره وممالكهم التي أسسوها خلاله.

---

[1] ـ لابد من الإشارة هنا إلى أن هذا غير دقيق ويكفي التذكير بكتاب ابن خلدون الذي تناول فيه تاريخ البربر بإسهاب غير مسبوق.

(*) ـ أشكر الأستاذ عثمان سعدي على دعمه. والخص نقاشي معه بأنه في المسألة السكانية الناس أوصياء على أنسابهم، لكن في التاريخ هناك آراء ضبطت مصادرها وشرحت لغاتها واستقرت لأن حضارتها بادت وأهمها لآراء الكتاب الإغريق والرومان والبيزنطيين والمسلمين الأوائل ـ وهي على ما بها من خيال وخرافة تمثل أهم وأقدم مصادرنا حول المسألة السكانية في ليبيا أو في غيرها.

وهناك المؤلفات الحديثة ورغم تلونها بالسياسة أحياناً لكن المعايير في الاختيار بينها هي أستاذية المؤلف في المجال وموضوعيته ومتى اتسقت آراء المحدثين مع المصادر القديمة والدراسات اللغوية والأثرية صار عندنا ما يمكن أن نطلق عليه الحقيقة التاريخية القابلة دائماً للنقاش والتغير بمنهج العلم وموضوعيته.

ويخصص فصلا خاصا للعلاقة البربرية الفينيقية التي كانت من التداخل والقوة حتى أن اللغة الرسمية للممالك البربرية القديمة كانت اللغة الفينيقية والديانة القديمة الأكثر انتشاراً بينهم كانت الديانة الفينيقية واستمر الأمر كذلك حتى خلال معظم فترة العهد الروماني . وبعد وقفة عند النقوش الإغريقية واللاتينية يفرد فصلاً عن الإسلام والعرب والبربر، ومنه يعود فيخصص فصلاً لديانة البربر قبل الإسلام ويبرز الكبش كمعبود بربري قديم وصلته بالديانة المصرية وكذلك الصلة الدينية بين المعبودات الفينيقية والبربرية وبالذات بعل آمون وأخيراً الإسلام.

الكتاب مفيد وبه معلومات جيدة لكن ينقصه التوثيق أو الإحالات المنهجية المعروفة بين جمهور الأكاديميين المحترفين. ورغم أن العلم لا وطن له لكن يظل المؤلف ابن بيئته خصوصاً عندما لا يقيد نفسه بالمنهج العلمي، لهذا على القارئ أن يتنبه إلى ذلك خصوصاً ما يتعلق بالإسلام وتشريعاته في الطلاق والزواج والحرب والسلام وغيره او الانصهار العرقي والتشابك السكاني بالمنطقة ، او الخصوصيات الثقافية والاجتماعية المحلية وغيرها كثير. فشخصيا أرى مثلا انه تحيز للانعزال على الاختلاط وأحياناً التعصب على التسامح الذي يطبع أهل هذه المنطقة أكثر من أية جهة في العالم، كما أن المؤلف بدا أحياناً انتقائياً في نماذجه التي لم يجهد نفسه في توثيقها واكتفى، اعتماداً على أستاذيته في المجال، بحصيلته الثقافية الأوروبية فقصر التشبيه في معظم الأحيان على قبرص أو صقلية أو أيبيريا غاضاً الطرف عن الشرق المتعارف عليه تاريخياً[1] وجغرافياً.

ثانياً ـ الدراسات الأثرية :

حتى الآن أقدم الهياكل وجدت بإثيوبيا ويعود تاريخها إلى ثلاثة ونصف (3.5) المليون سنة وعليه قدمت إثيوبيا كمكان تعايشت فيه الشعوب التي تحدثت لغات

---

(1)- جل الدراسات التاريخية الحديثة ترى رأي كامب حول الاصل الشرقي للبربر منهم مثلاً مكبرني و هيي Mcburney & Hey 1955 ومكبرني Mcburney 1967 والاستاذ فيليب سميث Philip E. Smith 1982 P.342-404 والاستاذ ميتنجلي D. Mittingly 1995 P.19 والاستاذ ميشيل بريت Michael Brett. 1997 P.14

عرفت بعائلة اللغة الأفريقية الآسيوية Afro - Asiatic Super Languages Family والتي تشمل الأمهرية Amharic والكوشية Cushitic والسامية Semitic وجميعها متواجدة باثيوبيا المعاصرة.

اللغويون حالياً يرجحون شمال شرق أفريقيا أي المنطقة الواقعة ما بين نهر النيل والبحر الأحمر وشمال السودان، مكاناً لانطلاق اللغات الأفروآسيوية. ومن هنا توزعت اللغات الرئيسية لهذه العائلة في اتجاهات وأزمان مختلفة وهي الأساس لما تتحدثه الشعوب الحالية لشمال وشمال شرق أفريقيا وجنوب غرب آسيا.

وأول اللغات التي انفصلت كانت الأمهرية Amharic في حوالي ثلاثة عشر (13.000) ألف سنة واستقرت بالهضاب الإثيوبية ، بعدها انفصلت الكوشية Cushitic واستقرت بالقرن الأفريقي وآخر اللغات المنفصلة كانت السامية Semitic التي انفصلت عن البربرية والمصرية وهاجر أصحابها واستقروا في شبه الجزيرة العربية .(John Turner 1992:1) .

وإلى هذه الفرضية يشير الأستاذ فيليب بقوله:

"إن الساميين كانوا مرة في العصور السابقة مع فرع آخر من الجنس الأبيض هو الفرع الحامي شعباً واحداً في ناحية من نواحي أفريقيا الشرقية وأنه من هذا الشعب تفرع ما دعوناهم بعدئذ بالساميين وعبروا إلى الجزيرة العربية عن طريق باب المندب فيما يظن وهذا يجعل أفريقيا الموطن المرجح للجنس السامي الحامي والجزيرة العربية المهد للشعب السامي والمركز الذي تفرعوا منه". (فيليب حتى 1994، ص39 ، السطر20 – 25).

وفي حوالي منتصف الألف الرابع ق.م. خرج مهاجرون ساميون من الجزيرة العربية في اتجاهين أحدهما توجه شمالاً إلى وديان دجلة والفرات أو الهلال الخصيب واختلطوا بالسومريين ونتج عنهم الأكاديون والأشوريون والبابليون وغيرهم. أما الفرع الثاني فقد توجه غرباً نحو وادي النيل وشمال أفريقيا وهناك اختلطوا بالسكان وتأسست الحضارة المصرية.

وفي منتصف الألف الثالث (2500 ق.م.) خرجت هجرة سامية أخرى حملت العموريين إلى الهلال الخصيب، والكنعانيين والفينيقيين إلى غرب الشام وفلسطين (فيليب حتى 1994: 26–28 . M. Kobusiewicz. In: F. Klees & R. Kuper (eds.) 1992 p. 209–218).

في الألف الثاني ق. م. تقريباً هاجرت مجموعات تتحدث السامية من جنوب الجزيرة العربية وعبروا البحر الأحمر واستقروا على شواطئه ومرتفعاته ومعهم نقلوا اللغة السبئية وحروف هجائية كانت شائعة بجنوب الجزيرة العربية واختلطوا مع سكانها الأصليين وأسسوا حضارة اكسوم التي استمرت إلى ما بعد المسيحية. (John W. Turner. 1991:1-2).

وفي منتصف الألف الثاني ق.م. تقدم العبرانيون إلى فلسطين طاردين أمامهم جماعات من الكنعانيين الذين تقدموا غرباً صوب مصر التي لم يستطيعوا الاستقرار فيها بسبب الازدحام فاتجهوا غرباً واستوطنوا شمال أفريقيا كما يصرح القديس اوغسطين من القرن الرابع الميلادي "اسالوا فلاحينا من هم :- يجيبون بالبونيقية انهم شنانيون أي كنعانيون" (G.Camp 1995: 16) وبعده أكد هذه الهجرة المؤرخان موسى الخيروني من القرن الخامس الميلادي وبروكوبيوس البيزنطي (500 – 565 م)، أي ما قبل الإسلام بقليل والذي كتب ما نصه:

من الواجب الآن ذكر بدايات مجئ شعوب المور[1] (المغاربة) لليبيا وكيف استقروا بها.

عندما انسحب العبرانيون من مصر ووصلوا لحدود فلسطين، وبعد موت موسى عليه السلام وآلت القيادة من بعده ليوشع ابن نوح ، فقام بقيادة شعبه إلى فلسطين

---

[1] ـ كلمة المور Moor , Mauri سامية بمعنى المغرب او المغاربة (انظر المادة في Encyclopaedia of Islam. Leiden (1993)) ويؤصلها الاستاذ ماريندين من جامعة كامبردج بقوله المنطقة غرب سرت من اشهر واقدم سكانها الجيتوليون Gaetulians الذين هاجرت اليهم أقوام من غرب آسيا باسم الماوري Mauri واستقروا معهم . (انظر Sir William Smith , **A Classical Dictranary of Greek and Roman Biography, Mythology and Geography,** ***revised by G. E. Marindin***, London 1904).

وبفضل الجرأة الخارقة لما تعود عليه البشر استطاع امتلاك البلاد، وبعد هزيمته لسكان المنطقة استولى على المدن بطريقة لا تقاوم. في هذه الفترة كل البلاد الممتدة على البحر من صيدا حتى الحدود المصرية كانت تسمى فينيقيا. وكان يحكمها ملك واحد من القدم كما يروي كل كتاب التاريخ الفينيقي. في هذه البلاد تعيش قبائل عديدة مثل الجيرجيسيتيس Gergesites و الجيبوسيتيس Gebusites وأقوام أخرى بأسماء مختلفة حسب ما هو وارد في تاريخ العبرانيين. وعندما ايقنت هذه الشعوب بان القائد الغازي لا قبل لهم به هاجروا من ارض آبائهم وأجدادهم وتوجهوا صوب مصر التي كانت على حدود بلدهم. وعندما وصلوا وجدوا مصر مكتظة بالسكان كعادتها من القديم فواصلوا مسيرتهم إلى ليبيا. وفيها أسسوا مدناً كثيرة واستولوا على كل ليبيا حتى أعمدة هرقل. وهناك عاشوا حتى وقتنا الحالي يتكلمون اللغة الفينيقية. وقاموا ببناء قلعة بنوميديا حيث تقوم الآن مدينة تدعى تيجسيس Tigisis وفي ذاك المكان يوجد عمودان مصنوعان من صخر ابيض على مسافة قريبة من نبع كبير وعليهما كتابة فينيقية تقول: "نحن من فر من أمام وجه يوشع السارق ابن نون Nun أو نوح"، ومن قبلهم كانت تعيش في ليبيا شعوب قديمة جداً حتى قيل بأنهم أبناء الأرض. ولهذا السبب يقال بان ملكهم أنتايوس Antaeus الذي صارع هرقل قرب كليبيا (قليبيا) Clypea، هو من نبات الأرض. وفي فترات لاحقة توجهت الجماعات التي هاجرت من فينيقيا مع الملكة ديدو Dido إلى ليبيا وانظموا إلى السكان الليبيين باعتبارهم أقارب لهم. وبالفعل سمح الليبيون بإرادتهم الحرة للنازحين الجدد بتأسيس قرطاجة والاستقرار بها. ومع مرور الزمن صارت قرطاجة مدينة قوية ومشهورة مما أدى إلى قيام حروب بينهم وبين جيرانهم الذين كما أسلفنا كانوا قد سبقوهم بالمجيء من فلسطين وهم من يطلق عليهم إلى يومنا هذا اسم المور Moor (المغاربة)، وقد هزمهم القرطاجيون واضطروهم للعيش على مسافة بعيدة من قرطاجة.

فيما بعد سيطرت روما على الكل وأسكنت المور (المغاربة) في الأطراف البعيدة من أرض ليبيا المسكونة، في حين أخضعت القرطاجنيين والليبيين الآخرين لحكمها وضرائبها، وفي فترات لاحقة كسب المور (المغاربة) في عدة معارك ضد الوندال واستولوا على موريتانيا الممتدة من جاديرا Gadira(طنجة)، إلى حدود

نوميـديا، إضـافة إلى معظـم البـاقي مـن ليبيـا. هـذه إذا قصـة اسـتقرار المـور (المغاربة)[1] في ليبيا".(Procopius V.W. II (Iv) 9.12-29).

هذه الهجرات والروايات التاريخية القديمة حول الأصول الشـرقية للبربـر أو الأمـازيغ وجـدت الآن دعمـاً علميـاً لهـا في آخـر الدراسـات الأثريـة (الاركيولوجية) ونوجزها في الآتي: ـ

أ ـ في مقـال بعنـوان العصور الحجريـة القديمـة شمـال وشـرق أفـريقيا يسـتعرض الأسـتاذ بـيير فيرمـيرش Pierre M. Vermeersch [2]، العلاقات مابين الأدوات الحجرية Lithic Artifacts من شـرق أفريقيـا والأخـرى التي هي من شمال أفريقيـا وتظهـر بعـض الاختلافـات نتيجـة الاختلافات في توفر المادة الخامـة فلكـل محـاجره ففـي شمـال أفريقيـا ومناطق النيل الأحجار أكثر قابلية للتشكل من مثيلاتها في شـرق أفريقيـا، عليه فالسكاكين الحجرية وغيرها من الأدوات تكون أكثر توفراً في شمـال أفريقيا ووادي النيل عنها في شرق أفريقيـا لهـذا نجـد الأدوات الحجريـة العائدة للعصر الحجري القديم الأعلـى تتـوفر بكميـات اكـبر في الشـمال الأفريقي والنيل عنها في شرق أفريقيا.

في مناطق النجـف وبرقـة أهملـت التقنيـة الشـرق متوسـطية قبـل سـنة 40,000ق.م.، في مناطق وسط النيل استمر تقنيات شرق البحـر المتوسـط حتى ما بعد 35,000 ألف سنة ق.م. ، وهكذا اختلف اختفاء هذه التقنيـات من منطقة لأخرى بين مناطق شمال إفريقيا والنيل وشرق أفريقيا.

في مناطق الغرب والصحراء لا توجـد مسـتوطنات تعـود للعصـر الحجـري القديم الأعلى . وفقاً لكلارك (Clark , 1982) حضارة الديان DABBAN

---

[1] ـ يجمع غالبية الكتاب الكلاسـيكيون علـى هجـرة البربـر (الامـازيغ) مـن المنـاطق الشـرقية ، كـل الكتـاب المسلمون قالو بالاصل الشرقي للبربر متطابقين في الاغلب مع بروكربيوس ومن قبله مـن كتـاب الحضـارتين الاغريقية والاثينية.

[2] Pierre M. Vermeersch (1992) ***The upper And late Paiaolithic of Northern And Eastern Afica*** ,in Frank Klees & R. Kuper (eds) "***New Light on The Northeast Africa Past***". Heinrich _ Barth _ Institut. Koln (1992) . P. 100 _ 153. المقال مترجم كاملا في الجزء الثاني من الكتاب .

لم تتطــور محليــاً ويفضــل هــاهن (Hahn,1984) واوماســيب (Aumassip,1986) مقارنتها بحضارات بلاد شرق المتوسط.

منذ بدايـات العصر الحجـري القديـم المتأخـر وصلت وادي النيـل تقنيـات جديدة لعلها قدمت من الشــرق حيـث عرفـت هــذه التقنيـات مـن العصــر الحجـري القديـم الأعلـى. وقد انتشـرت هـذه التقنيــات في مناطــق شمـال أفريقيا خلال فترة الحضـارة الابروماوروسية Ibero _ Maurusian.

لقــد قــدمت عــدة افتراضــات حــول اصــل الحضــارة الابروماوروسـية IberoMaurusian وفقاً للأستاذ كامب (Camps, 1974:88) فإنهـا جاءت مـن السـبيلية Sebilian او الحافيـة Hafan، الاسـتاذ مـاكبيرني (Mcburny , 1967) يرجعهـا الى حضـارة شـرق وهـران Oranian Eastern ووفقاً للأستاذين كلوس ووينـدورف (Close & Wendorf , 1990) ازدهــرت الحضــارة الايبروماوروســية IberoMaurusian بمناطق المغرب التي كانت شبه خاويـة وقتـها ، ويفتـرض الأسـتاذان أن بعض حوافز ازدهارها قد جاءت من الشرق ، ذلك لأنه من الجنوب تقع الصحراء المفرطة الجفاف والمسـتحيلة العبـور The Hyperarid and impassable Sahara، حيث لم يتعرف فيها حتى الآن على وجود أي مواقع أو مستوطنات خلال فترة العصر الحجري القديم المتأخر، أمـا إلى الغرب فهناك الاطلنطي والى الشمال تقع جنـوب أوروبـا حيـث البشـر، خلال تلك الفترة، يختلفون حضارياً وعرقياً عن سكان المغرب.

ولم يبق إلا الشرق مصدراً يؤكده التشـابه بـين المنطقـتين، مـثلاً في احد المواقـع E71K12 قـرب اسـنا Esna بمصـر عثـر علـى لقيـات تتطابق بغرابة محيرة مع نظائرها في الحضارة الابروماوروسية التي عثـر عليها في تامر هات Tamar Hat بالجزائر.

لقد استمر تأثير مناطق الشرق على مصر والمغرب خـلال بعـض فتـرات العصر الحجري القديم المتأخر.

ب ـ في مقال بعنوان "جماعات عصر الهولوسين Holocene بغرب ووسط الصحراء إعادة تقييم" تتحدث الأستاذة بربرا بارتش عن الفترة المطيرة الممتدة ما بين 9500 ق.م. و 6000 ق.م. التي كان فيها الاستقرار البشري على حواف البحيرات واعتمد الإنسان في حياته على صيد الحيوانات والأسماك وأغلبية المستوطنات البشرية التي عثر عليها تعود للألف السابع ق.م. ومن الأدوات التي عثر عليها ، أسلحة حربية لصيد الأسماك وكذلك أدوات عظمية حسب ما توفر من التنقيب في مناطق مالي كما عثر أيضاً على أدوات للرحى وأيضاً أدوات فخارية.

العلاقة بين أدوات ومميزات هذه المواقع مع مستوطنات العصر الحجري الحديث غير محددة حتى الآن، الفخاريات في هذه الفترة عليها زخارف منحوتة وطين مختلف وأدوات فخارية كبيرة تدل على الاستقرار، ويؤكد الباحثون اتساع رقعة هذه المستقرات في مناطق الصحراء من الغرب حتى ليبيا كما يؤكدون اختلاف التركيبات السكانية لأقوام هذه الفترة الممتدة من العصر الحجري القديم إلى الوسيط، إلا أن الباحثين يرجحون ذلك الاختلاف في الشكل البشري إلى تطورات بشرية محلية.

الدراسات في ليبيا التي أجرتها باربرا بارتش أوضحت أن هذه المستقرات كانت تعمر أكثر في الفترات التي تقل فيها الأمطار وقد حددت الفترة ما بين 8500 ق.م. و8200 ق.م. مرحلة لهذه المستقرات، وقد عثرت الباحثة على بقايا بيوت من الخوص (الأكواخ) مما يدل على نمو ظاهرة الاستقرار مما يعني جمع الحبوب ورحيها وطهيها خصوصاً مع كثرة بقايا أدوات الرحى التي عثر عليها في مناطق التنقيب.

وقد زكت باربرا بارتش في ابحاث ما بعد سنوات 1987 ما سبق وان اكتشفه ماكبيري (McBurrey & Hey 1955) من حيث التطوير الداخلي البسيط للأدوات الحجرية خلال هذه المرحلة. في الفترة ما بين 1989 و1990 ركزت باربرا بارتش في دراستها على مناطق جادو بالجبل الغربي وبالذات مناطق وادي العين الزرقة ووادي بازينا ووادي غان Chan بغريان.

الأستاذة باربرا بارتش تشير في بحثها (ص192) إلى أن الأستاذ ماكبيري عثر في وادي غان Chan بغريان، وفي مناطق سرت على أدوات من العصر الحجري الحديث تداخلت بشكل غريب وتعسفي على مناطق تسود فيها أدوات العصر الحجري القديم والوسيط. وقد زكت الأستاذة باربرا بارتش هذه الاستنتاجات وتأكدت هي الاخرى من التداخل في أدوات العصر الحجري الحديث مع العصر الحجري القديم والوسيط في مناطق سرت وغريان (Barich & Grumet 1991 P. 193) حتى أشكال الرسوم الصخرية المسماة مرحلة الرؤوس المستديرة Round Head طرأت عليها تغيرات في هذه الفترة، عثر أيضاً على رسومات وأشكال على الطريق الممتدة من نالوت إلى غدامس.

والمؤلفة باربرا بارتش تعترف بتشابه بين هذه الرسومات والأشكال في هذه المناطق ومثيلاتها في وسط الصحراء، والمؤلفة تزكي اقتراح الأستاذ جبلينك Jelinek 1977 بتوقيت هذه التغيرات ببداية العصور الحجرية الحديثة وتكامل الصورة السكانية في كل المنطقة من ليبيا إلى المغرب كما تدل عليه القرائن الأثرية وتؤشر كلها إلى تحركات بشرية جديدة في المنطقة.

في الألف الرابع ق.م. بدت تجمعات سكانية مستقرة واضحة المعالم في المنطقة، هذه التجمعات كانت تزاول الصيد أيضاً إلى جوار صناعة الغذاء والرعي، حوالي الألف الرابع تأكد تواجد الأبقار التي كانت ترعى على الأعشاب المتوفرة.

الاختلاف هو مصدر هذا التغيير في الحياة بداية من العصر الحجري الحديث هناك من يضعه تغير قادم مع أقوام أو بتأثير أقوام من المغرب الشمالي وآخرون منهم الأستاذ Vernet يرى أن الصحراء هي مصدر هذا التغيير. الأقوام الجديدة تجيد الالتقاط وصناعة الفخار والاستقرار والزراعة لعدد من المحاصيل.

هذه الحياة تأثرت بفعل التغير المناخي خلال الألف الثالث ق.م. وفي هذه الفترة بدأ ظهور الجماعات التي يعتبرها الباحثون الطلائع الأولى للبربر

Pro-Berber Groups والتي جلبت معها بداية الصناعات الحديدية للمنطقة الممتدة ما بين النيجر وموريتانيا، ويضع الأثريون تاريخ الألف الثالث والثاني ق.م. زمنا لهذا التغيير وهذه الهجرة للمغرب[1].

ج ـ وفي مقال بعنوان "مستوطنات عصر المولوسين بالصحراء الشرقية" تتحدث **انبلا كلوس** عن الفترة ما بين الألف الثامن والألف السابع ق.م. التي تعرضت فيها الصحراء إلى جفاف ولكن مع استمرار المناخ المطير . وقد تكرر الجفاف النسبي في الفترة ما بين 6700 ق.م. و 6500 ق.م. . تدريجياً صارت أمطار الجنوب تتقهقر جنوباً .

ومع منتصف الألف السادس ق.م. لم تعد وديان الصحراء المصرية كافية للاستيطان البشري أما مناطق شمال غرب السودان فإن المطر استمر بها حتى حوالي 4000ق.م. وما بعدها بعدة قرون. الصحراء الشرقية كانت شبه جافة مع وجود حيوانات تعيش على بقايا مياه العصر المطير : الزرافة والغزال وخراف برية باسم Barbary Sheep.

- أول أثار لوجود بشري في المنطقة عثر عليها في وادي هوار Wadi Howar وتعود لحوالي 8000 ق.م.
- الفترة مابين 7900 ق.م. و 5500 ق.م. شهدت استيطان بشري في قلب المناطق الجافة بالصحراء الشرقية ووجدت المنازل والمستقرات البشرية وهناك ما يدل على أن الجماعات الصحراوية كانت تقيم بالصحراء على مدار السنة .. ...
- ويبدو محتملا جداً أن المجموعات الصحراوية ظلت محافظة على اتصالها وتبادل بضائعها مع المناطق الشرقية وقد عثر على منتوجات وبقايا حيوانات بشرية تعود لمناطق وادي النيل والبحر الأحمر (Angela E. Close p.172).

---

(1) ـ Barbara Barich (1992) Holocene Communities of Western and Central Sahara : A Reappraisal , In Frank Klees & Rodolph Kuper (eds.), "***New Light on The Northeast Africa Past***" . Heinrich – Barth – Institut. Koln (1992) المقال مترجم بالكامل في الجزء الثاني من الكتاب

- إنسان هذه المرحلة استأنس الحيوان: النعاج والماعز ظهرت في حضارة نبتا NABTA في أقصى الجنوب الشرقي لمصر . هناك نوع معين من الماعز يعرف باسم CAPROVIDS تم استأناسه أصلا بجنوب غرب آسيا خلال الألف التاسع ق.م. ولم يعرف بأفريقيا ولهذا فإن وجود بقايا هذا النوع من الماعز يدل على انه حضر مع رعاة أو مهاجرين من غرب آسيا. في منتصف العصر الحجري الحديث عثر على هذا النوع من الماعز أي CAPROVIDS في حضارة نابتا NABTA بجنوب شرق مصر وهذا يعد الأقدم وجوداً بإفريقيا (Angela E. Close P. 172 L.22-32).
- أظهرت الأدوات الحجرية تشابها مع ما هو متوفر في الصحراء الشرقية (Angela E. Close P. 175 L.5-7) في مناطق سيوة والقطارة (Siwa & Qattara) أدواتها الحجرية أقرب إلى أدوات الحضارة القفصية الليبية وحضارة هوافطيح ببرقة Haua Fteah والفيوم بمصر .
- يمكن القول أن الحواف الشمالية للصحراء الشرقية كانت حضارياً مختلفة عن المناطق الوسطى والجنوبية من الصحراء .
- إن العلاقات الحضارية بين وادي النيل والصحراء يستدل عليها من تواجد ازميل مقور Gouge في المنطقتين ويعود تاريخه للألف السادس ق.م. ويوجد هذا النوع من الأدوات في مناطق وسط وادي النيل والصحراء الشرقية وكذلك بمناطق وسط الصحراء، وأيضاً في الفترة ما بعد 6000 ق.م. عثر في مناطق نابتا NABTA على أدوات متوفرة في وادي النيل.
- بعد الألف السادس خصوصاً بعد 5500 ق.م. الصحراء الشرقية ازدادت جفافاً مما اضطر سكانها إلى الهجرة إما شرقاً أو جنوباً، وكان الاتصال قديماً ومتصلا فيما بين وادي النيل والصحراء، وخلال الألف السادس ق.م. هجر الكثير من سكان الصحراء أماكنهم واستقروا بوادي النيل مما دفع إلى التفاعل خلال فترة ما قبل الأسرات حتى عهد الأسرات الحضاري.

- في نهاية العصر الحجري الحديث العلاقات بين وادي النيل وشمال غرب السودان[1] كانت شبه مقطوعة.

د - وحول الصلات بين وادي النيل وجنوب غرب آسيا يتحدث الأستاذ مايكل كوبوزيويكسيMichal Kobusiewicz عن حضارة الفيوم الأولى بمصر التي يؤرخها العلماء بالفترة ما بين 6075 ق.م. و5540 ق.م. ويرجعون أصولها إلى حضارات الشرق الأدنى أما حضارة الفيوم الثانية المسماة موريان Moerian فيرجحونها تاريخياً إلى الفترة ما بين 5410 ق.م. و 5010 ق.م. ويرجحون أصولها إلى الصحراء الشرقية (M. Kobusiewic2 1992 P.210).

- من حضارات العصر الحجري الحديث بمصر حضارة مرمردة Merimde بالدلتا وهي الأخرى بدأت بمؤثرات شرقية بينما في الفترة المتأخرة تطورت الحضارة محلياً مع تأثيرات افريقية وعن هذه الحضارة تطورت حضارة مصر خلال الألف الرابع ق.م.

- فترة ما قبل الأسرات أرخت بنسبة كربون 14 في البقايا المادية للحضارة وتبتت في الفترة ما بين 2800 ق.م. و2100 ق.م.

- حضارة طريف.Tarifian B على الضفة الشرقية للنيل قرب الأقصر أصلها شرقي خصوصاً حضارة نقادة NAGADA تؤرخ هذه الحضارة بالفترة ما بين 3200 ق.م. و 3100 ق.م.

- حتى السبعينات اعتبرت الدلتا غير صالحة للاستيطان بسبب الرطوبة والوحل لكن أخيراً اثبت العلماء عدم صحة هذه الفرضية وقد عثر على الكثير من المقابر لدحض الفرضية القديمة. قدر زمن المقابر في الفترة ما بين 3300 ق.م. و 2900 ق.م. حضارة هذه المنطقة تعاملت تجارياً وحضارياً مع فلسطين وبقية مناطق

---

(1) - Angela E. Close (1992), Holocene Ocupation of the Eastern Sahara , In Frank Klees & Rudolph Kuper(eds) , ***"New Light on The Northeast African Past"-*** Heinrich – Barth - Institut . Koln (1992) P. 155-181 المقال مترجم بالكامل في الجزء الثاني من الكتاب

جنـوب غرب آسيا وكـان مركزها منشيـة أبو عمر نقطة العبور بين فلسطين ومصر، المـواد المكتشفة تظهـر تشابهاً بيـن حضـارة نقادة NAGADA بأعلى مصر وحضارة فلسطين وحضارات مصر بالدلتا. غالبية المواد المكتشفة في منطقة الدلتا تشير إلى تطور داخلي علاوة على تأثر بالشرق وخصوصاً فلسطين.

- يمكن القول بان حضارة مصر في فترة العصر الحجري الحديث قد بدأت حوالي الألف السابع ق.م. ويؤكد الباحث انه أصبح من المؤكد أن تأثيراً خارجياً قد مورس على التطور الحضاري في مصر، وأكثر المناطق تأثيراً على حضارة مصر في العصر الحجري الحديث هي جنوب غرب آسيا ويظهر ذلك جلياً في المصنوعات الحجرية والفخارية. وهناك من الأثريين الآن من يرى أن كل حضارة مصر في تلك المرحلة جاءت من جنوب غرب آسيا وقد انتشرت هذه الحضارة بسرعة في كل أنحاء مصر فوصل أثرها إلى حضارة البداري في جنوب مصر (Michal Kobusiewicz 1992 . P. 212 – 213)

كان هذا مستوى انتقال الأثر الشرقي عبر الدلتا أما عبر الصحراء الشرقية فان العلماء حالياً يتبنونه هو الآخر. وباستعراض بقايا الهياكل العظمية لحضارات مصر في العصر الحجري الحديث عثر على بعض التشابه بين ساكني مصر وسكان الصحراء الكبرى وهذا الأثر عثر عليه في مناطق حضارتي البداري العائدة للعصر الحجري الحديث وحتى حضارة نقادة NAGADA التي تعد من حضارات ما قبل الأسرات.

هذا التشابه يرجحه الباحثون إلى تغير الطقس في مرحلة العصر الحجري الوسيط مما اضطر الناس إلى الهجرة نحو وادي النيل ومنها الدلتا والفيوم وقد تكررت مثل هذه الهجرات نحو النيل بازدياد فترات الجفاف وتكرره.

أول حضارات العصر الحجري الحديث هي حضارة نقادة وواضح من هياكلها العظمية لجوء سكان الصحراء إلى مناطق النيل هرباً من الجفاف الذي بدأ يجتاح الصحراء وقد جلب معهم هؤلاء السكان حرفة رعي واستئناس الحيوان

وعلى هؤلاء السكان قامت حضارة البداري وهي أول حضارات العصر الحجري الحديث وقد تأثرت حضارياً بالشرق أي جنوب غرب آسيا.

ومع بداية الألف الرابع ق.م. حدثت تغيرات كبيرة هي أهم سمات مرحلة ما قبل الأسرات واهم المراكز الحضارية لهذه المرحلة هي المعادي أو مادي MAADI وهليوبوليس HELIOPOLIS ومنشية أبو عمر Minshat Abo Omar وبوتو Buto وبجنوب مصر مناطق هيراكنبولوس Hcirakonpolis ونقادة NAGADA وبارمجارتيل Baumgartel، كل الدلائل الأثرية الأخيرة تشير إلى تغيرات أساسية حدثت بوادي النيل خلال هذه المرحلة السابقة للأسرات. الأثر الخارجي في هذه المرحلة ظاهر جداً على كافة الصعد الأثرية. في هذه الفترة الصحراء القريبة كانت في هذه المرحلة جافة تماماً ومهجورة من قبل الناس ولم يعد لها أي أثر حضاري بعد ذلك. لكن مرحلة ما قبـل الأسرات غاصة بالأدلة المؤيدة لعلاقات قوية ومتصلة مع مناطق الشرق الأوسط وخصوصاً فلسطين .

إن الأدلة كثيرة على تغلغل حضري وبشري من فلسطين وبقية مناطق الشرق الأوسط نحو مصر، وابرز الأدلة متوفرة في بقايا الفخار والمعمار. ونظراً لكثرة هجرة الشرقيين نحو مصر ازدحمت مناطق وادي النيل بالسكان.

وقد زاد استئناس الحمار من فرص التبادل التجاري وسرعة الانتقال من مكان لآخر. ازدياد الثروة لدى البعض تؤشر عليه كثرة الموجودات في المقابر واختلافها من شخص لآخر وفقاً لثرائه. كما أن التغير في مستويات المعيشة ظاهر بين آثار المباني فهناك مبانٍ فارهة تقترب من القصور كما في منطقة هيراكوبنوليس Hierakonpolis. المستوطنات زادت عدداً وحجماً كما أن طبقة الحرفيين Craftsmen بدأت في الظهور خلال تلك الفترة ففي خلال منتصف الألف الرابع ق.م. توصل الإنسان في تلك المنطقة إلى اختراع صهر النحاس Copper وتمكن إنسان تلك الفترة من توظيف النحاس لصنع أدوات نحاسية تساعد الإنسان في حياته وأول التنظيمات الجهوية بدأت في الترسخ بالمنطقة ويتزعم كل تنظيم الشيوخ المحليين ومع نهاية الألف الرابع ق.م. ظهرت أول المراكز الحضارية في مصر العليا.

العلاقة المتبادلة بين حضارات أو ثقافات العصر الحجري الحديث بوادي النيل ومناطق شمال شرق أفريقيا لازالت غير واضحة وتحتاج لبحوث مستقبلية.

أما عن الاتصالات والتبادل مابين حضارات وادي النيل وحضارات جنوب غرب آسيا أي الشرق الأوسط فقد ثبتت بالدليل القاطع مما ساعد على ظهور التجمعات الحضرية وتوحدها فيما بعد في كتلة حضارية واحدة هي حضارة وادي النيل[1].

ثالثاً ـ الدراسات اللغوية :

اللغات ومدى اتفاقها أو تعارضها من حيث التكوين والتركيب الصرفي والنحوي واللفظي تعتبر من أهم المواضيع التي يستخدمها العلماء لتقرير التقارب والتباعد بين المجموعات البشرية.

وقد أوقف الأستاذ اوتو روسلر (1907 – 1991) النمساوي حياته لدراسة اللغات الشرقية وصرف ما يزيد عن خمسين عاماً من الجهد الأكاديمي المركز لإثبات أن المصرية والبربرية والكوشية والتشادية شقيقات اللغات السامية وفروع من أسرة واحدة وعقد لهذا الفرض مقارنات بين البربرية والاكادية والعربية والبونيقية والإثيوبية وغيرها. وقد قيمه يونيل اربيتمان من معهد الإسلاميات بجامعة برنستون بأنه تربع على قمة علوم اللغات الشرقية.

وتعتبر مقارناته ودراساته للغات الليبية القديمة أوثق جهد علمي موضوعي معاصر يمكن الركون إليه في التعرف على حدود تطور الأمازيغية المعاصرة بلهجاتها المختلفة.

لهذا كله اختيرت له ثلاث مقالات حدد هو هدفها ونتيجتها بقوله "أن ما يتوخاه المؤلف أن يكون بوسعه الإثبات بان اللغة الليبية هي لغة سامية بمقدار زائد،

---

(1) - Michal Kobosiewics (1992) in Frank Klees and Rudolph Kuper (edit.) ***New Light on The Northeast African Past***. Heinrich – Barth - Institut Koln 1992 P. 210 – 215
المقال منشور كاملاً بالجزء الثاني من الكتاب.

وإلى درجة أنه لم يعد ممكناً فصلها عن السامية ويمكن أو يجدر أن تعتبر منها. وأنه يجب أن تسلخ عن مركب الحاميات المربك وهي أول كسب إيجابي لعلم اللغات السامية على الأرض الأفريقية، ويجب أن تعد من بين اللغات السامية...... وأن العمق الزمني الذي نتوغل فيه في إطار مقارنتنا اللغوية الليبية السامية يقع خلف أقدم السلالات السامية والمصرية في بلاد الرافدين ووادي النيل".

مقدمة المترجم

أكرر. لست مؤرخاً ولا مترجماً، ولكني أحاول أن أترجم أعمالاً كتبت من قبل آخرين حول تاريخ ليبيا. وأقوم بهذا العمل لدوافع سبق لي التطرق إليها عندما ترجمت كتاب الأستاذ جاك تيرى من جامعة لوفان البلجيكية عن تاريخ الصحراء الليبية في القرون الوسطى.

قد يرى بعض ممن سيتاح لهم قراءة هذا الكتاب أنه بعيد الصلة بتاريخ " ليبيا " فهو يركز على " شمال أفريقية " بالمعنى الذي كرسه الفرنسيون خلال الحقبة الاستعمارية، أي تونس والجزائر والمغرب.

بالفعل، لا يتطرق هذا الكتاب لـ " ليبيا " بالمعنى الحديث إلا عرضاً. بالرغم من هذا فالكتاب وثيق الصلة بليبيا والليبيين. فالكلمات، ليبيا، الليبيون، والليبـي ـ بمدلولات مختلفة: جغرافية، واثنية، وثقافية ولغوية تحتل مساحة كبيرة من هذا الكتاب. سنرى أن المؤلف تناول كعناوين " النقوش الليبية "، و " الفرسان الليبيون " و " الليبي:اسم بقدم التاريخ " و " أصول الكتابة الليبية " وقدم الليبية والتيفناغ "......، وتحدث ـ ولو عرضا ـ عن برقة وطرابلس وفزان وبو نجيم وزليطن، وجبل نفوسة، والنجيلة وغيرها من المواقع الليبية.

سنرى أن الكلمة " ليبيا ومشتقاتها " وجدت واستمرت منذ ما قبل التاريخ، عبرت أحياناً عن أعراق، وأحياناً عن ثقافات، واتخذت مدلولات سياسية وجغرافية في أحقاب أخرى. وتنقلت هذه المفاهيم تتسع لتشمل كل الشمال الأفريقي غرب مصر في أزمان، وتضيق حتى تكاد تختفي، دون أن تختفي، في أزمان.

هذا من جانب.

من جانب آخر يتناول الكتاب قوماً ـ أو أقواماً ـ كونوا ـ ولازالوا يكونون ـ صلب سكان ليبيا. أقوام لعبوا في تاريخ هذه المنطقة ـ الشمال الأفريقي ـ بشكل خاص وتاريخ أفريقيا والمتوسط عامة دوراً متميزاً. ساهموا في كل الحضارات التي شهدتها المنطقة بناة أساسيين ولم يكونوا مجرد متفرجين هامشيين كما حاول أن يوحي بذلك كثيرون من المؤرخين لخدمة أغراض. كونوا حضارة وممالك قبل الفينيقيين، وكانوا شركاء في بناء الحضارة القرطاجية..... وتفاعلوا مع الرومان... وأعطوا المسيحية أباءً موسسين وقديسين ومفكرين وكتاباً من ألمع من شهدتهم المسيحية في مراحل تأسيسها الأولى. مر علي هؤلاء القوم كثيرون.....منهم من لم يترك فيهم أثراً ومنهم من أثر عميقاً... وبقوا هم هم بثقافتهم ولغاتهم وشموخهم وسموهم الروحي حتى اليوم...

جاءهم الإسلام..... بسماحته وبساطته في القرن السابع فتحولوا إليه جماعات. وفي فترة قصيرة كان التحول كاملاً... وأصبحوا دعاته الذين نشروه في أفريقيا..... وعبروا به إلى أوروبا..... ودافعوا عنه كلما أستهدف من الغزاة سواء في المشرق أو المغرب، في ميادين القتال أو على صعيد الفكر.

لم يترددوا في تبنى العربية المشرقية ـ لغة القرآن ـ لغة..... فتعربوا..... "ولكن هذا التعريب لساناً الذي سهلت له أسلمة شمال أفريقيا والصحراء صاحبه بداية من القرن الحادي عشر الميلادي تعريب اجتماعي ثقافي أدى إلى اندماج لغالبية سكان الدول المغاربية. لقد كان هذا الإندماج كبيراً لدرجة أن كل السكان تقريباً في بلاد معينة (تونس وليبيا) يقولون أنهـم عرب، لكن الحقيقة هي أن من النادر أن يوجد من بينهم من يجرى في عروقه بعض الدم العربي؛ هذا الدم الذي جاء به الفاتحون في القرن السابع أو البدو الغزاة في القرن الحادي عشر: بنو هلال وبنو سليم وبنو معقل والذين لم تتجاوز أعدادهم مائتي ألف حسب التقديرات الأكثر تفاؤلاً. "

يتناول الكتاب ـ كما هو واضح من اسمه ـ البربر من منظور أوروبي. لهذا أقدمت على ترجمته، بالرغم مما يراه البعض من " حساسية " في الموضوع، وأرى " أن من العبث.....الصمت خوفاً من الحساسية الموهومة..... "(*).

وأكرر أنني عندما أقدم على ترجمة كتاب..... فلا يعني هذا ـ بالضرورة ـ تسليمي بكل ما ورد فيه أوحبي له. قد يكون العكس صحيحاً، فأنا أومن بأن فضيلة الحوار تتطلب فضيلة الاستماع إلى الآخرين، فيما نحب وما نكره، وفيما نتفق فيه معهم وما نختلف معهم حوله.

يبدأ المؤلف بالتساؤل عن أصول البربر. من هم؟ من أين أتوا؟ ويستعرض "أساطير قديمة وحديثة " تصدت للإجابة عن هذه التساؤلات.

تقول الأسطورة الأقدم من بين هذه الأساطير " أن سكان أفريقيا الأوائل هم الجيتوليون والليبيون، وهم برابرة أجلاف يتغذون بلحوم الوحوش وأعشاب المراعي مثل القطعان "، ثم عَبَر في وقت متأخر فرس وميديون وأرمن تحت قيادة هرقل من أسبانيا واختلطوا بالسكان المحليين وتكونت مجموعتان؛ "النوميديون" "والموريون"، ثم يتناول المؤلف ما أورده هيرودوت، وما جاء به "Procope بروكوب عن أن أصول البربر كنعانية: " فقد أحدث احتلال يوشع بن نون للأرض الموعودة رحيل الأقوام الذين كانوا يقطنون الشاطئ. وبعد أن حاول هؤلاء الاستقرار في مصر ووجدوها مزدحمة بالسكان توجهوا نحو ليبيا التي احتلوها حتى أعمدة هرقل..... " وتذهب أساطير أخرى مذاهب شتى غير ما سبق تعود بهم إلى أصول هندية..... أتروسكية..... وميسنية......

هذا ما كان من القدماء.

في القرون الوسطى قال أبن خلدون بأن البربر من ولد كنعان بن حام بن نوح. ونسبهم آخرون ـ كلياً أو جزئياً ـ إلى العرب اليمانية.

(*) د. على فهمي خشيم ـ سفر العرب الأمازيغ.

في زمننا دافع أوربيون عن الأصول الإغريقية والايجية للبربر... وقال آخرون منهم بالأصل السلتي والشمال أوربي... والجنوب أوروبي... والايبيري... بل وذهب الخيال بالبعض إلى القول من أنهم قوقازيون وسومريون..... أو من هذه القارة الغامضة التي اختفت " اطلانطيس ".

"من المؤكد أن الأصعب هو البحث عن البلدان التي لم يأت منها البربر".... هذا ما انتهى إليه المؤلف قبل أن يقول كلمته استناداً إلى المعطيات الأنثروبولوجية والأركيولوجية واللغوية: " إن بين أيدينا بالمتوسطين الكبسيين، أول المغاربة الذين يمكن لنا بكل ثقة وضعهم على رأس سلسلة نسب البربر. هذا يعنى 9000 سنة تقريباً! وتتوافق كل المعطيات على التسليم بأن لهؤلاء الكبسيين أصلاً مشرقياً كما قلنا أعلاه. ولكن وصولهم بلغ من القدم درجة تجعل من عدم المبالغة في شيء القول بأنهم محليون حقيقيون. "

استعرض المؤلف في الفصل الثاني الذي اختار له عنواناً مثيراً " أقوام على هامش التاريخ "..... البربر القدماء في الأزمان شبه التاريخيه مؤسساً على أعمال التنقيب في آثار المقابر والمدافن: البازينات والدلمنات والنواويس ومحتوياتها من المتاع والتي يظهر منها ومن النصوص " أن أفريقيا الشمالية لم تشهد وحدة سياسية أو ثقافية طوال عصور ما قبل التاريخ والفترة الانتقالية إلى التاريخ....." فقد كانت هناك دوماً بربريا الشرقية وبربريا الوسطى وبربريا الغربية وبربريا شبه الصحراوية بحدود متغيرة باستمرار طوال القرون.

تساءل المؤلف بعدها عن التسمية " البربر "..... ما أصلها..... ويتوقف عند " الليبي. اسم بقدم التاريخ "..... وعند الاسم الحقيقي للبربر..... وأصل اسم النوميديين..... والممالك المسيلية والماسيسلية.....وعند المورين والجيتوليين..... وإدارة القبائل في العهد الروماني.

أعطى المؤرخون العرب من القرون الوسطى صورة مختلفة للبربر. فلم تكن هناك شعوب بالنسبة لهؤلاء المؤرخين وإنما قبائل واتحادات قبائل في

منطقة واحدة وقد تنتشر في مناطق متباعدة. ويبرز المؤلف ـ في هذا الإطار ـ الرحلة الجملية المتمثلة في ظهور قبائل كبيرة تستعمل الجمال للتنقل بسرعة في الصحراء والتي " لم تبدأ في ممارسة ضغط حقيقي مقلق على طرابلس الغرب إلا في القرن الرابع "، ونشرت هذه القبائل حالة من عدم الاستقرار في آخر عهد الإمبراطورية الرومانية في المنطقة. وقد كان لوصول هؤلاء الجمَّالين "نتائج هائلة على البلاد والسكان ". كانت أبرز قبائلهم زناتة.

ثم كان الفتح العربي في القرن السابع، وما صاحبه من تحول البربر إلى الإسلام واختفاء الممالك البربرية المسيحية، والدور التاريخي الكبير الذي لعبه البربر في نشر الإسلام وفى تكوين الدول والممالك والإمبراطوريات التي شهدتها المنطقة.

ثم كانت الهجرة الهلالية إلى شمال أفريقيا في القرن الحادي عشر، وما تبعها من تكوين " الإمبراطوريات البربرية الكبيرة "؛ المرابطون والموحدون.

كانت نهاية الحكومات البربرية في القرن الثالث عشر.

كرس المؤلف الفصل الثالث من الكتاب " لاستعراض السيطرة الأجنبية وعمليات التثاقف " خلال مختلف العهود التي مرت ببلدان البربر، وهى محاولة لتحليل رد فعل البربر في مواجهة الثقافات الخارجية الوافدة.

يرى المؤلف أن الحضارة البونيقية هي نتاج لعمل مشترك وتفاعل ثقافي بين الفينيقيين والبربر. " عند وصول الفينيقيين الأوائل لم يكن الليبيون مجرد صعاليك بؤساء، أي مجرد نوع من السكان المحليين الغارقين في بدائية ما قبل التاريخ ". بالفعل " توضح بدايات قرطاج أنه لم يكن على المدينة مواجهة عداوة مكشوفة، وإنما كان عليها ـ على الأقل ـ مواجهة مطالب من سلطة منظمة لامن مجموعات بدوية صغيرة. " وقد استقر تعايش ناجح وتثاقف واسع عميق شمل كل الجوانب؛ اللغة والدين والفنون. ولا أدل على عمق هذا التثاقف من استمرار استعمال اللغة البونيقية من قبل البربر قروناً طويلة بعد تهديم قرطاج.

انتقلت السيطرة على أفريقيا الشمالية عملياً إلى الإمبراطورية الرومانية بعد هزيمة قرطاج سنة 201 قبل الميلاد وحتى قبل تهديم المدنية سنة 146 قبل الميلاد وتحويل أراضيها إلى ولاية رومانيـة. لم يكن المجتمع الروماني جامداً وإنما كان مجتمعاً ديناميكياً يتيح للمجتهد، من خلال آليات مستقرة، الترقي الاجتماعي والاندماج. ومثل ظهور المسيحية وانتشارها في أفريقيا الرومانية رباطاً ثقافياً قوياً إضافياً. وبالفعل تروَّم الكثير من البربر ثقافياً ولغوياً واستمرت المسيحية بينهم حتى القرن الحادي عشر.

بعكس الفينيقيين والرومان، لم يترك البيزنطيون والوندال بين البربر عقباً ثقافياً يذكر سواء في العقلية أو في الجانب المادي.

يتساءل المؤلف في نهاية هذا الفصل " كيف أصبحت أفريقيا الشمالية المسكونة من البربر المتروَّمين جزئياً والمتمسحين جزئياً في بعض قرون مجموعة من البلدان المسلمة بالكامل والمعربة إلى مدى بعيد لدرجة أن غالبية السكان يقولون عن أنفسهم، أو يعتقدون، أنهم من أصول عربية؟ " ويحاول ـ بموضوعية إلى حد كبير ـ الإجابة على هذا السؤال.

ينتقل المؤلف في الفصل اللاحق إلى "البربر والدين" ويتناول فيه المعتقدات الدينية ـ أو مظاهر التقديس المختلفة ـ منذ ما قبل المسيحية. يتوقف مطولاً عند المعتقدات التي ظهرت عند البربر قبل الديانات السماوية وكيف أنهم قدسوا الحوادث الطوبوغرافية، والنجوم، والحيوانات،... كما ألَّهو ملوكهم أحياناً، ويقر بأن من الصعب الكشف عن تلك المعتقدات " لأنها لم تحظ بنفس وسائل التعبير التي كانت للدين الرسمي الحضري ". تبنى البربر المسيحية، وقدمت كنيستهم الكثير من الشهداء من كل الطبقات. وقد كانت مسيحية البربر في البداية ديانة متشددة ومن هنا برزت الكثير من الإنشقاقات التي لم تولد في أفريقيا وإنما كانت امتداداً لحركات نبعت من خارجها. كما أعطت الكنيسة الأفريقية للمسيحية أساتذة كباراً وقادة فكرمرموقين مثل ترتوليان، وسيبريان، وأوغسطين.

في القرن السابع الميلادي وصل الإسلام إلى أفريقيا الشمالية، وبسرعة تحول البربر بأعداد غفيرة إلى الإسلام. " كانت بساطة العقيدة الإسلامية تناسب البربر كثيراً. " ولسوء الحظ يجد الرجال دائماً الأسباب للتنازع " وبالفعل نشأت بين البربر بعض البدع ولكنها حتى وإن عَمَّر بعضها طويلاً، انتهت دون أن تترك أثراً مثل حركة البرغواطة وبعض الحركات المتطرفة الخوارجية. وقد حرص البربر بعناد على بقاء الإسلام نقياً طاهراً وماحركتا المرابطين والموحدين إلا أمثلة على هذا الحرص.

ينتهي الكتاب بتأكيد أن هناك استمرارية بربرية تسبح فيها أفريقيا الشمالية بكاملها، والاستمرارية لا تعني المحافظة المطلقة. وتتمثل هذه الاستمرارية بشكل خاص في المحافظة على تقاليد فنية وبعض أنماط التفكير وتصرفات اجتماعية متميزة. " إن البربري يكتسب بسهولة ولكنه يهجر بصعوبة ". وكمظاهر لهذا الدوام يتناول المؤلف اللغة، وحروف الكتابة، والقلاع المخازن الجماعية، وصناعة الفخار المقولب، والصناديق القبائلية، والحدادة، والمجوهرات بأشكالها المختلفة، ثم يتطرق لتنظيم السلطة وتطورها في مختلف العهود، والأوضاع الاجتماعية.

حاولت في الصفحات القليلة السابقة أن أقدم مختصراً ـ أرجو الا يكون مخلاً ـ لمحتوى الكتاب وهو ـ بكل تأكيد ـ لا يغني عن الإطلاع عليه.

بقي أن أقول:

إن الترجمة ـ بالنسبة لـي ـ قراءة متأنية تستظهر مقاصد المؤلف وتستوعب روح النص، وهى محاولة مرهقة للتعبير عن هذه المقاصد والروح بلغة عربية تحترم ما قاله المؤلف مع ما تتطلبه هذه الأمانة من حرص على الوضوح.

بالرغم من أن هذا الكتاب في التاريخ إلا أن موضوعه يختلف عن موضوعْي تجربتيْ السابقتين في الترجمة. فهو يعالج فترة زمنية تمتد من مشارف العصور الجيولوجية إلى الأزمان الحديثة وبتركيز خاص على الفترة منذ ما قبل

التاريخ مروراً بالحقبة شبه التاريخية إلى الأزمان الحديثة ومن ثم فهو يختلف في " لغته " عن لغة تاريخ الزمن التاريخي، وقد مثَّل هذا لي صعوبة إضافية لم أواجهها في السابق. واجتهدت.

حفل الكتاب ـ كما سترى ـ بمصطلحات خاصة بالعلوم المعنية بما قبل التاريخ وبأسماء الأعـلام من التاريخ القديم سواء منها ما تعلق بأسماء الأشخاص أو الأسر والقبائل و " الشعوب " أو بأسماء الأماكن والمواقع. وقد اعتمدت في تهجية أسماء الأعلام بشكل أساسي على ثلاث مراجع عندما أسعفتني هذه المراجع:

-تاريخ أفريقيا الشمالية، تأليف شارل أندري جوليان وترجمة محمد مزإلى وبشير بن سلامه.

-التاريخ الليبي القديم للدكتور عبد اللطيف البرغوثي.

-الحضارة الفينيقية في ليبيا للدكتور عبد الحفيظ الميار.

وقد حافظت على تسميات تقسيمات العصور كما وردت عند المؤلف مع كتابتها بحروف عربية. وأخذت نفسي بكتابة جميع أسماء الأعلام بالحروف اللاتينية إلى جانب كتابتها بالحروف العربية مستثنياً الأعلام العربية.

رأيت من المفيد التوقف عند بعض الكلمات والأسماء التي ترددت كثيراً في هذا الكتاب وأخذت مدلولات مختلفة مع تغير العهود والأزمان، أو أنها في تقديري تحتاج لبعض الشرح المبسط لفائدة غير المتخصصين:

أولاً: ما قبل التاريخ ترجمة لـ Préhistoire: تعنى زمنياً الفترة الممتدة من ظهور الإنسان على الأرض إلى ظهور أول نصوص مكتوبة. ولما كان ظهور الإنسان على الأرض محل نقاش واختلاف ـ أو بتعبير أدق ـ يتغير من منطقة إلى أخرى، كما أن ظهور النصوص المكتوبة متباين كذلك، فإن هذه الفترة الزمنية تختلف طولاً من مكان إلى آخر.

يُصنَّف ما قبل التاريخ زمنياً إلى:

- العصر الحجري الذي يقسم إلى القديم والوسيط والنيوليتى.
- عصر النحاس (الشلكوليتى).
- عصر البرونز.
- عصر الحديد.

يُغطي العصر الحجري القديم Paleolithique الفترة ما قبل التاريخية الممتدة من ظهور الإنسان على الأرض (خلال العصر الجيولوجي الرباعي) حتى الألف الثامن قبل الميلاد. ويتوافق العصر الحجري الأوسط "Mesolithique " مع الفترة الممتدة من نهاية العصر الحجري القديم (الألف الثامن قبل الميلاد) إلى الألف الخامس قبل الميلاد بداية العصر الحجري الأخير (النيوليتى) الذي يمتد زمنياً بين نهاية العصر الحجري الأوسط وبداية عصور المعادن، أي بين الألف الخامس قبل الميلاد ومنتصف الألف الثالث قبل الميلاد، وقد تم تحديد بدايته بظهور الأدوات من الحجر المصقول. ويعتبر (النيوليتى) اليوم الزمن الحقيقي لبداية الحضارات فقد شهد ظهور الفخاريات والرعي والزراعة ومن ثم فهو يعرف اليوم بـ " مرحلة النمو التقني للمجتمعات الإنسانية ووصولها إلى الاقتصاد المنتج ".

تختلف أهمية عصر النحاس من منطقة إلى أخرى وهو يلي عصر النيوليتى ولكنه في غالب الأحيان يدمج في آخر النيوليتى أو في بداية عصر البرونز.

يغطي عصر البرونز الفترة بين نهاية النيوليتى وبداية عصر الحديد ويتميز ببروز صناعة المعادن والعديد من المعدات البرونزية المستعملة في الأغراض المدنية والعسكرية. وقد أحدثت صناعة صهر المعادن تحولاً حقيقياً في جميع مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للبشر. تُحدد بداية عصر البرونز ـ عادة ـ خلال الألف الثالث قبل الميلاد (وهو سابق في بعض المناطق مثل إيران وفلسطين ومصر) نهايته حوالي سنة 600 قبل الميلاد.

تختلف الفترة الزمنية التي يغطيها " عصر الحديد " اختلافاً كبيراً من منطقة إلى أخرى، فهو يتوافق في أوروبا مع الألف الأخير قبل الميلاد بينما ظهرت المصنوعات الحديدية في الشرق الأوسط في بدايات الألف الثاني قبل الميلاد وقد يكون بدأ في الصين في الألف الثالث.

هذا وقد ترجمنا كلمة Protohistoire وهي تعني الفترة الانتقالية من " ما قبل التاريخ " إلى " العصور التاريخية " بتعبيرين؛ " قبيل التاريخ " و " شبه التاريخ " واستعملناهما لنفس الدلالة دون تمييز.

ثانياً: أفريقيا: يختلف المقصود بـ كلمة أفريقيا أينما وردت في هذا الكتاب حسب السياق. فهي قد تعني القارة الأفريقية كما هي معروفة اليوم. وعندما يتعلق السياق بالعهد الروماني فإن أفريقيا في هذا الكتاب تعني في غالب الأحيان مجموع الأراضي الشمال أفريقية التي حكمتها روما وجعلت منها ولاية رومانية بعد هدم قرطاج سنة 146 ق.م. وقد اقتصرت " ولاية أفريقيا " في العهد الروماني في البداية على شمال شرق تونس ثم توسعت بعد هزيمة الملك النوميدي يوبا الأول لتشمل شواطئ طرابلس الغرب وتونس وشرق الجزائر، ثم امتدت في مرحلة لاحقة لتشمل شمال الجزائر والمغرب، وشهدت في الأخير توسعات نحو الجنوب خاصة في ليبيا الحالية. بعد الفتح العربي وطوال أغلب العصور الوسطى عنت كلمة أفريقيا الولاية الواقعة غالباً بين وادي لبده شرقاً ومنطقة قسطنطنية في شرق الجزائر غرباً.

ثالثاً: ليبيا والليبيون: تعني ليبيا في عهد الفراعنة ما هو معروف من أفريقيا غرب النيل، والليبيون هم سكانها. وعرّفها الإغريق بالمنطقة الساحلية حتى أطراف الصحراء الممتدة من النيل إلى ساحل المحيط الأطلسي. كتب هيرودوت " إن ليبيا محاطة من كل جوانبها بالبحر إلا في الجزء الذي تتصل به بآسيا ". في الزمن الروماني سميت أفريقيا المنطقة الممتدة من وسط " ليبيا الحالية " إلى المحيط الأطلسي غرباً وكان يطلق على سكانها " الليبيون "

وكان الرومان يقسمونهم إلى الجيتوليين في الشرق، والنوميديين في الوسط، والموريين في الغرب. منذ الفتح الإسلامي اختفت هاتان الكلمتان ـ أو كادتا ـ حتى بداية الحركة الاستعمارية الحديثة لتأخذ كلمة ليبيا دلالتها الحالية. وسنرى أن مؤلف هذا الكتاب تناول تحت عنوان فرعي: "الليبي: اسم بقدم التاريخ" تطور مدلولات هذه الكلمة وأفاد بأن كل سكان أفريقية من البيض كانوا حسب هيرودوت ليبيون وذلك باستثناء الفينيقيين والإغريق، وكان المؤرخ اللاتيني سالوست يعتبر الليبيين سكان السواحل فقط. ويبدو أن الاسم استعمل منذ الألف الثاني قبل الميلاد من قبل المصريين لتسمية الأقوام الواقعين غرب النيل. وقد وسَّع إغريق برقة الاسم ليشمل كل سكان الشمال الأفريقي، ثم ضُيِّق عند القرطاجيين والإغريق ليقتصر استعماله على سكان الشمال الشرقي للمغرب الكبير دون غيرهم أي سكان المناطق المحكومة من قرطاجة، ويبدو أن " بلد الليبيين " كان يعني في المملكة المسيلية النوميدية إحدى الولايات.

رابعاً: حرصت على ترجمة الكلمات الآتية بما هو مبين أدناه أينما وردت في الكتاب:

Le Maghreb: المغرب الكبير، وهى كلمة أخذت عند الفرنسيين مدلولاً جغرافياً سياسياً محدداً (تونس والجزائر والمغرب). ولكنها أخذت في الأزمان السابقة ـ مدلولات جغرافية ـ مساحية ـ سياسية مختلفة.

Le Maroc: المغرب حالياً. وقد عنى بها المؤلف أينما أوردها المملكة المغربية.

Les Maures: الموريون، وقد تجنبت استعمال كلمة المغاربة لأنها أوسع في مدلولها من كلمة " الموريين " التي استعملت في أغلب العصور عند الأوربيين لتعني سكان الجزء الغربي من المغرب الكبير.

Tripolitaine: طرابلس الغرب، وهي منذ استعمالها أخذت مدلولات جغرافية سياسية متغيرة إلى أن أصبحت تعني كل ليبيا الحالية من بداية العهد العثماني إلى أن استعمل الإيطاليون كلمة ليبيا للتعبير عن ليبيا الحالية.

هذا وكتبت الأسماء القديمة للمواقع والمدن أينما وردت، وأوضحت الأسماء الحديثة لها بين " قوسين " أو في " حاشية " إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك.

أنهى هذه المقدمة المختصرة بحديث شريف:

عن مالك عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال هؤلاء الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هؤلاء فقام إليه معاذ بن جبل فأخذ بتلبيبه حتى أتى به النبي ﷺ فأخبره بمقالته فقام رسول الله ﷺ مغضبا يجر رداءه حتى دخل المسجد ثم نودي الصلاة جامعة فحمد الله وأثني عليه ثم قال يا أيها الناس إن الرب رب واحد وإن الأب أب واحد وإن الدين دين واحد ألا وإن العربية ليست لكم بأب ولا أم إنما هي لسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي فقال معاذ وهو آخذ بتلبيبه يا رسول الله ما تقول في هذا المنافق فقال دعه إلى النار قال فكان فيمن ارتد فقتل في الردة.

لعل في هذا الحديث دعوة للتدبر وللتعالي على العصبيات المؤسسة على نقاء الدماء، وجميعنا يدرك أن الإدعاء بصفاء الأعراق ـ خاصة في المنطقة الممتدة من غرب آسيا إلى المحيط الأطلسي ـ إدعاء يتناقض مع حقائق التاريخ المؤكدة المدعومة من العلوم الحديثة التقريبى منها والصحيح. لا أحد ينكر على آخر تميزه الثقافي ولكن التميز الثقافي قد لا يتسق في كل الحالات ـ باستثناء المجموعات الصغيرة المعزولة الهامشية ـ مع وحدة عرقية بقدر ما يمثل تراكماً لتعاقب أقوام وتفاعلاتها في حيز جغرافي معين.

في الختام يطيب لي أن اجزل الشكر لكل من قدم لي مساعدة في إنجاز ترجمة هذا الكتاب، وهم كثيرون. أذكر من بينهم الأخ / الدكتور على أبو القاسم الشيباني (أمين المكتب الوطني الاستشاري) الذي قدم لي من التسهيلات وسخر لي من الظروف ما مكنني من أداء هذه المهمة، كما يستحق الذكر الأخ/ سعيد حامد الذي تكرم بمتابعة هذا العمل ومراجعته، ولولا ما بذله من جهود لما تيسر للترجمة أن تظهر بالمستوى الذي صدرت به، وقد كان لتشجيع الأخ الدكتور محمد الجراري مدير مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية لي ومساندته المستمرة أثر وأي أثر. كما لن أنسى جهود الأختين آمنة محمد الفزاني، وأمال إبراهيم عبد الله البنا اللتين تحملتا الكثير في أعمال التصحيح والطباعة والمراجعة.

والله من وراء القصد

جاد الله عزوز الطلحي

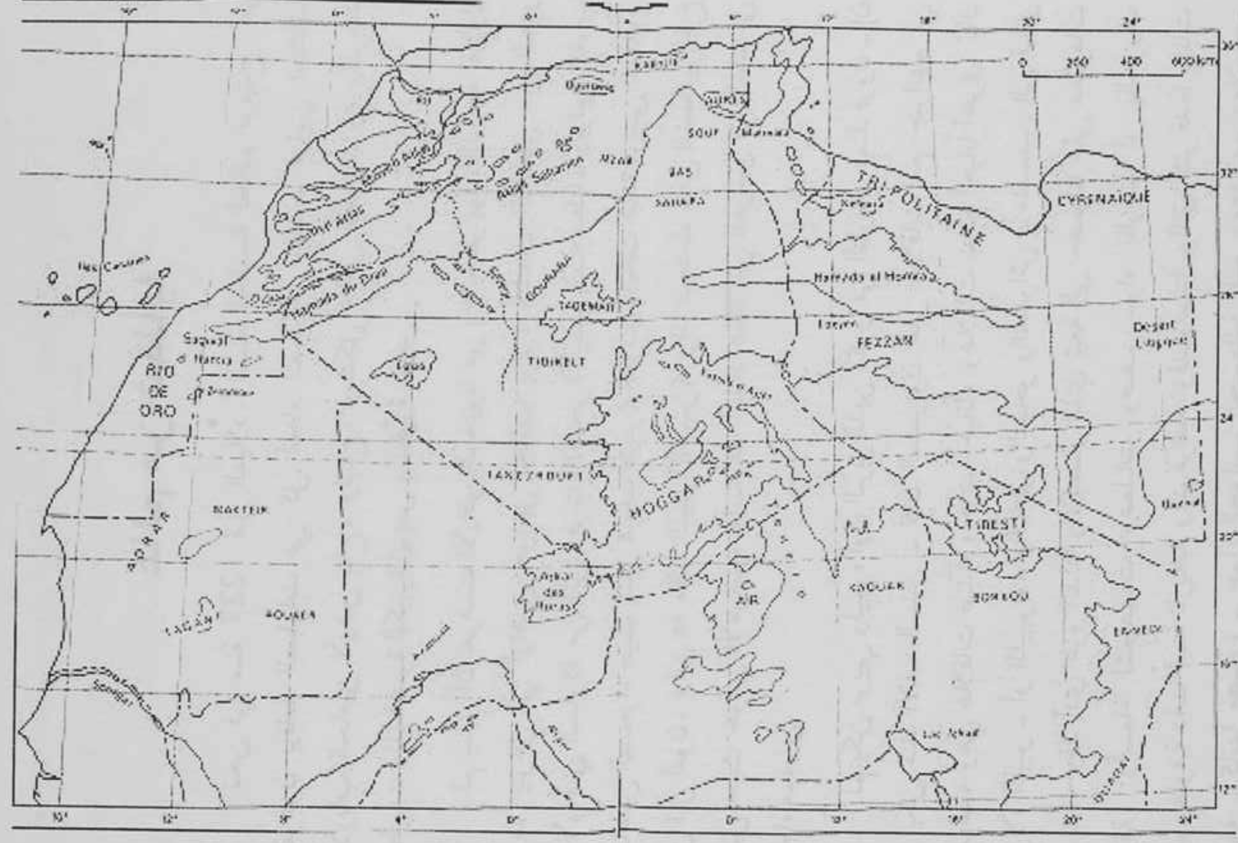
طرابلس في 2005/03/03

عالم من شظايا

نحن في سنة 1227 قبل الميلاد، السنة الخامسة لحكم مرنبتاح. أمر الفرعون بإقامة الصلوات في كل أنحاء المملكة، وتقديم قرابين استثنائية للأرباب الحامين لأرض بتاح، ولبتاح، وبشكل خاص لأمون ـ رع وللربات الطيبات وللساحـرة الكبيرة إيزيس وللخيِّرة نفتيس.

لم يسبق أن تعرضت الأرض المحبوبة من رع لخطر بهذه الدرجة. فلأول مرة، يتوغل في أراضي حورس تحالف برابرة الشمال القادمين من الجزر والأراضي المباركة من (ترى فرت) (البحر الأبيض المتوسط)، وبرابرة الغرب القاطنين الصحراء حيث ينتشر هبوب التيفون المؤذى، تحت قيادة مرييـى الملعون من قبل أمون، وابن دد ملك الليبو (الليبيين). وقد صعدت سفن الشماليين فرع النيل حيث خوابي الأموات، وانتشرت أعداد هائلة من الغربيين في الدلتا في اتجاه ممفيس.

لم يكن مرييي وليبيوه أول البربر الذين ذُكروا في التاريخ. فمنذ قرون ـ إن لم يكن منذ آلاف السنين ـ كان المصريون على علاقات مع جيرانهم في الغرب، وهي علاقات صدام وحرب أحياناً، وعلاقات سلام أحياناً أخرى. كان هؤلاء الليبو ـ أو الليبيون، والتحنو والتمحو والمشواش ـ منقسمين إلى قبائل عديدة، وقد أدى غزو الدلتا والانتصار الذي تبعه إلى حصولنا على معلومات دقيقة، وأسماء لشخصيات وعمليات وصف سواء بالرسم أو بالحروف الهيروغلوفية ذات قيمة تاريخية واثنوغرافية. وقد وصلنا بوثائق أكثر قِدماً بيانات دقيقة ـ كأنها مصورة ـ حول الجوانب الجسمانية لليبو ومعداتهم وملابسهم وأسلحتهم؛ حتى الوشـم كان موضحاً.


RIO
DE
ORO
ADRAR
TIDIKELT
TANEZROUFT
HOGGAR
AIR
TIBESTI
FEZZAN
TRIPOLITAINE
CYRENAIQUE
SOUF
BAS
SAHARA
Désert
Libyque
0 200 400 600 km

بالرغم من مرور آلاف السنين، وبالرغم من تواصل تاريخ غني بالغزو والاحتلال ومحاولات الدمج من أقوام من نفس المجموعة العرقية، بقى هؤلاء البربر في إقليم هائل المساحة يبدأ من غرب مصر. وفي زمننا الحاضر ينتشر أقوام يتكلمون البربرية في حوالي اثنى عشر بلداً إفريقياً تمتد من المتوسط إلى جنوب النيجر ومن الأطلسي غرباً إلى مشارف النيـل شرقاً.

إن هذه المنطقة التي تغطي الربع الشمالي الغربي للقارة الأفريقية لا يتكلم جميع سكانها البربرية! فاليوم تمثل اللغة العربية في هذه المنطقة اللغة السائدة في الاتصالات وفـي التجارة، والدين، والدولة، إلا في الطرف الجنوبي الممتد من تشاد إلى السنغال حيث الفرنسية هي اللغة الرسمية. هكذا تمثل المجموعات الناطقة بالبربرية جزراً معزولة عن بعضها البعض وتشهد اختلافاً في اتجاهات التطور. ويختلف حجم هذه المجموعات وأهميتها من مكان إلى آخر. ففي الوقت الذي تعد فيه كل المجموعات القبائلية في الجزائر، والبرابر والشلوح في المغرب مئات الآلاف من الأشخاص وقد تصل الملايين أحياناً، لا يتجاوز عدد المتحدثين بالبربرية في بعض الواحات العشرات من الأشخاص. لهذا السبب، لا تعنى الخرائط التي توضح انتشار البربرية، الكثير. فبالرغم من المساحة الصحراوية الشاسعة في الجزائر ومالي والنيجر التي تنتشر فيها لهجات الطورق (التماشق)[1] لا يتعدى عدد البدو والقليل من المزارعين فيها الناطقين بهذه اللغات البربرية 250 ألف إلى 300 ألف شخص، وهو عدد لا يتجاوز سكان مزاب الذين يشغلون مساحة في شمال الصحراء أقل ألف مرة من مساحة المنطقة التي يحتلها الطوارق. كما يصل عدد المجموعة القبائلية عشر مرات عدد سكان منطقة الأوراس الأكثر اتساعاً، وحيث يتحدث السكان لهجة بربرية مختلفة.

---

(1) يكتبها د. محمد سعيد القشـاط، التماشـاك، في كتابـة " التـوارق ـ عـرب الصـحراء الكبرى ". المترجم

في الواقع، لا توجد اليوم لغة بربرية، بمعنى أنها تمثل انعكاساً لمجموعة بشرية واعية بوحدتها، كما لا توجد أمة بربرية، بل أكثر من ذلك لا يوجد عرق بربري. ويجمع كل المختصين في اتفاقهم حول هذه الجوانب السلبية... بالرغم من هذا، البربر موجودون.

إن المجموعات والمجتمعات الناطقة بالبربرية حالياً، ونعد من بينهم الأقوام الناطقين بلغتين، شظايا لعالم تفجر.

كان اللسان البربري ـ يبدو أن لغة بربرية مشتركة موغلة في القدم لم توجد إلا في مخيلة اللغويين ـ مجموعة لغات تغطى كامل المنطقة التي أشرنا إليها وكانت أقرب إلى بعضها البعض من اللهجات المتحدثة حالياً، وذلك باستثناء تيبستي وطن التيدا لغة التبو.

استعمل الأفريقيون القدماء في المغرب الكبير، نظام كتابة ـ الليبي ـ الذي تولدت عنه أبجدية التيفناغ[1] المستعملة من قبل الطوارق، وقد وجدت كتابات ليبية وتيفناغية قديمة بأعداد كبيرة في مناطق هى اليوم معربة بالكامل (تونس، شمال ـ شرق الجزائر، والغرب ومنطقة طنجة في المغرب، وشمال الصحراء......). وفي بلدان الشمال تنافست هذه الكتابة مع البونيقية ثم مع اللاتينية، ومن المسلم به أنها كانت منسية تماماً عندما أُدخلت الحروف العربية في القرن السابع، بينما بقيت وتطورت وفق عبقريتها الخالصة في البلدان الصحراوية حيث لم تواجه منافسة من أي لغة أخرى. وقد توسعت هذه الأبجدية حتى جزر الكناري التي كان سكانها القدماء " القونشيون" يتكلمون لهجة قريبة من البربرية.

تأسيساً على ما سبق، يمكننا التأكيد بأنه كان لأسلاف البربر في زمن

---

(1) هكذا كتبها عبد اللطيف البرغوثي صاحب التاريخ الليبي القديم ـ منشورات الجامعة الليبية. المترجم

معين، نظام كتابة خاص بهم، وقد انتشر هذا النظام ـ كما انتشروا هم ـ من البحر المتوسط إلى النيجر.

إن الحجة التي يمكن الدفع بها في مواجهة هؤلاء الذين ينكرون ـ مكابرةً ـ التوسع القديم للسان البربري أو يشككون في القرابة الحقيقية بين البربرية واللغة الليبية، التي كان يتكلمها الإفريقيون القدماء، هي ما تقدمه الدراسات اللغوية لأصل أسماء الأماكن؛ فحتى في البلدان المستعربة بالكامل بقيت أسماء مواقع لا يمكن تفسيرها إلا بالبربرية.

هكذا، طوال قرون، تقهقرت البربرية التي كانت في السابق حاضرة في كامل المنطقة أمام العربية، ولكن هذا التعريب لساناً الذي سهلت له أسلمة شمال أفريقيا والصحراء، صاحبه بداية من القرن الحادي عشر الميلادي تعريب اجتماعي ـ ثقافي أدى إلى اندماج حقيقي لغالبية سكان الدول المغاربية. لقد كان هذا الاندماج كبيراً لدرجة أن كل السكان تقريباً في بلدان معينة (تونس، ليبيا) يقولون ـ ويعتقدون ـ أنهم عرب، لكن الحقيقة هي أن من النادر وجود من يجري في عروقه بعض الدم العربي من بينهم؛ هذا الدم الذي جاء به الفاتحون في القرن السابع أو البدو الغزاة في القرن الحادي عشر: بنو هلال وبنو سليم وبنو معقل والذين لم تتجاوز أعدادهم مائتي ألف حسب التقديرات الأكثر تفاؤلاً.

إن المغاربة، حتى المستعربين منهم، يختلفون عن عرب الجزيرة، وعرب الشام الذين تعربوا قبلهم. إن من المكونات السكانية للمجتمعات الإسلامية الشمال أفريقية والصحراوية، مغاربة يتكلمون العربية أو عرب ـ بربر، ومغاربة ناطقون بالبربرية واحتفظوا بالتسمية " البربر " التي سماهم بها العرب.

تبرز من بين العرب ـ البربر الذين لا يمثلون كياناً اجتماعياً مميزاً ـ مثلهم مثل البربر ـ، مجموعة حضرية قديمة ذات أصول مختلطة حيث من المهم أن يؤخذ في الاعتبار الحضور السابق للإسلام في المدن، واللاجئون المسلمون من أسبانيا (الأندلس)، والقادمون الجدد الذين يطلق عليهم ـ عادة ـ الأتراك

دون تمييز بالرغم من أن أغلبهم بلقانيون أو اغريق من الأرخبيل اليوناني. كما أن هناك مجموعات من المزارعين المستقرين. وأخيراً هناك البدو الرحل في شمال الصحراء " الرقيبات، الشعامبة، أولاد سليمان) وهم الأقرب لسانياً وثقافياً إلى القبائل العربية البدوية. ومن بين هؤلاء يمكن العثور على أحفاد حقيقيين لبني سليم وبني معقل.

إلى جانب الأقوام العرب والمستعربة تعيش مجتمعات بربرية، وهي ـ مثل العرب ـ كلها مسلمة باستثناء القونشيين القدماء من جزر الكناري الذين تمسحوا واندمجوا في الأسبان، وبعض الأسر القبائلية النادرة التي تحولت إلى المسيحية في نهاية القرن التاسع عشر. ومازال هؤلاء البربر أكثر تنوعاً من المجموعات العربية ـ البربرية. ويمكن التعرف عند الأقوام الناطقين بلهجات بربرية مختلفة ولكنها متقاربة لدرجة يمكن معها نعتهم بالبربر دون تردد، على كل الأنماط التقليدية للحياة في بلدان البحر المتوسط والبلدان شبه الاستوائية. إن زرّاع الأشجار فلاحون حقيقيون مرتبطون بأرضهم، كالقبائليين الجبليين وسكان منطقة الريف في المغرب وهم من أصحاب الزيتون والكروم أو مثل زارعي البساتين في الواحات المهتمين بالنخيل وأشجار المشمش والخضار، ولكن هناك من يزاولون زراعة الحبوب في الجبال الجافة مثل المطماطة في الجنوب التونسي والشلوح في الأطلس المغربي، وهم ـ المطماطة والشلوح ـ يعرفون بناء المدرجات على السفوح الشديدة الانحدار للحفاظ على التربة والرطوبة، كما أن مناطق أخرى يقطنها " شُجَّار ـ رعاة شبه رحل مثل الشاوية في الأوراس الذين تعود تسميتهم العربية لطبيعة نشاطهم (الشاوية تعني الرعاة). أي تناقض بين هؤلاء الجبليين الأجلاف، والمجتمعات الحضرية الصحراوية التي تخصصت في العمليات التجارية الكبيرة العابرة للصحراء وتجارة التجزئة في التل الجزائري؛ والمزابيين الذين يعود انعزالهم وتخصصهم الاقتصادي إلى تفردهم المذهبي (أباضية)! كما يزاول رعاة جبليون آخرون تنقلات طويلة كما

هو الحال بالنسبة للمجتمع القوي لآيت عطا في جبل سرهو وما حوله (الجنوب المغربي) أو بنى مقلد في الأطلس الأوسط. وأخيراً هناك الرحل الصحراويون الذين يزاولون تربية قطعان سَغِبة من الإبل والماعز والذين كان قطع الطرق ـ حتى بداية القرن العشرين بالنسبة للطوارق ـ عملية تكميلية عادية لمواجهة الموارد المحدودة التي ينتزعونها من طبيعة قاسية.

أي روابط مشتركة بين الجمّال الملثم باللثام الأزرق النيلي الجاف كفرع سنط شائك، والبقال المزابي الطيب، والبستاني القبائلي والراعي البرابري؟ إنها روابط أقوى مما يقال ويعتقد.



أولاً، هناك اللغة[1] التي تنتسب إليها لهجاتهم المختلفة. إن وحدة المفردات اللغوية في كل هذه اللهجات أمر مسلم به في كل المنطقة الممتدة من جزر الكناري إلى سيوة في مصر، ومن البحر المتوسط إلى النيجر. وقد قاومت المبادئ الأساسية للغة والنحو وحتى الجَرس بفاعلية انفصالاً قديماً كما قاومت اختلاف أساليب الحياة. ان الوحدة الأساسية في اللغة تتسق بالضرورة مع التقارب في التفكير حتى لو اختلفت أساليب السلوك والتصرف الظاهرية. إن

(1) استعملت " اللغة " مرادفه " للسان "، اتساقاً مع الغالب حالياً. المترجم.

هذه القرابة العميقة تنعكس في التنظيم الاجتماعي. إن القواعد المشتركة ـ وهي في غاية البساطة ـ في الأشكال الفنية أدت إلى الحديث خطأ عن فنون بربرية حاضرة كذلك عند الناطقين بالعربية: إن الأمر يتعلق بفن ريفي مغاربي وصحراوي يميل بشدة إلى الأشكال الهندسية بتفضيل للمستطيلات على الأشكال المقوسة والمجسدة. وبغض النظر عن التقنيات، تخضع النماذج لنفس القواعد الهندسية الصارمة، والمعقدة أحياناً، التي توجد سواء على الخزف أو النسيج أو الجلد أو الخشب أو الحجر. يمثل هذا الفن الموغل في القدم عند الحضر المستقرين استمرارية مدهشة، فهو مرتبط بهؤلاء الأقوام طوال القرون بغض النظر عن التحولات الدينية والاندماجات الثقافية. إنه حاضر دائماً في لاوعي المغاربة وهو أشبه ما يكون بنهر جار على السطح أحياناً وفي باطن الأرض أحياناً أخرى، وكثيراً ما تحجبه عند المستقرين، ثقافات وافدة، ولكنه قادر على الانبعاث بطريقة مدهشة في كل مرة تضعف فيها الفنون الوافدة الأكثر تعقيداً. إنها فنون مستقلة عن مسار التاريخ.



بالرغم من عدم وجود جنس بربري ـ ولم يوجد قط ـ، يسلم علماء الانثروبولوجيا اليوم أن للسكان البيض في شمال غرب أفريقيا سواء الناطقين منهم

بالبربرية أو الذين استعربوا لغة وتقاليداً، أصل واحد أساسي، فهم ينحدرون في غالبيتهم من المجموعات المتوسطيه القديمة التي جاءت من المشرق في الألف الثامن ـ أو حتى قبله ـ وانتشرت ببطء في المغرب الكبير والصحراء.

لا يبدو أن البربر اعتقدوا في أي مرحلة من مراحل تاريخهم الطويل أنهم يمثلون وحدة عرقيه ولغوية. وفي الحقيقة، لا يمكن العثور على الوحدة البربرية إلا في مجموع السمـات السالبة. فالبربري هو غير الأجنبي أي غير البونيقي وغير اللاتيني وغير الوندالي وغير البيزنطي وغير العربي وغير التركي وغير الأوربي (فرنسي، أسباني، إيطالي). عند استبعاد هذه الطبقات الثقافية المختلفة ـ بعضها ضئيل وبعضها بالغ الأهمية والتأثير ـ سنجد النوميديين والجيتوليين الذين استمر المنحدرون منهم بإصرار خدّاع تحت أسماء أخرى وعقائد أخرى، يمارسون نفس أسلوب الحياة وحافظوا على تقنيات ذات ديمومة مدهشة لاستغلال الموارد في طبيعة شحيحة. لهذه الاستمرارية تفسير بالغ البساطة: لم يعرف البربر ـ مزارعين وبدواً ـ الثورة الصناعية التي تقلب العادات والتقنيات إلا في طرف ضيق من موطنهم. منذ بعض العقود بدأت هذه الثورة في التوسع حتى شملت الأرياف وأكثر المناطق الصحراوية بعداً، ونتج عن هذا تلاشي الخاصيات المميزة، وهكذا تختفي عادات قديمة قدم التاريخ.

في نفس الوقت الذي بدأت فيه هذه المميزات والعادات تتلاشى، نشأت ـ كما لو كان الأمر يتعلق بتعويض غير حقيقي ـ أعمال فولكلورية بواسطة مجموعات جردت من أدميتها وتقاد إلى جماهير الحضر كحيوانات مدربة بصبر. ما أجمل ـ بسذاجتها وبساطتها ـ موسيقى المرتفعات الصخرية التي يولدها الراعي من مزماره الأخن!.

قد يراودنا الميل إلى القول بأن تاريخ شمال أفريقيا والصحراء ما هو إلا تاريخ الغزو والاحتلال الأجنبي الذي عاناه البربر بدرجات متفاوتة من الصبر والتحمل. وأن دورهم في التاريخ اقتصر على " المقاومة " وأبرز مظاهرها

الفصل الأول

الجــذور

الجـــذور

نادراً ما نجد أقواماً بُحث عن أصولهم بهذه الدرجة من المثابرة المتصلة والخيال، مثل البربر. فمنذ أقدم العصور كانت الروايات متداولة حول أصول سكان أفريقيا سواء في أوساط العلماء أو عند رواة الأساطير. إن أكثر هذه الروايات انتشاراً هي التي أوردها لنا سالوست " Salluste " والتي درستها بدون انقطاع أجيال من طلاب المدارس المتوسطة على صفحات " De bello jugurthino ".



أساطير قديمة وحديثة

* هرقل وأسطورة الأصول الفارسية والميدية :

يقول سالوست "Salluste" إن سكان أفريقيا الأوائل هم الجيتوليون والليبيون، وهم برابرة أجلاف يتغذون بلحوم الوحوش أوأعشاب المراعي مثل القطعان. بعد ذلك، وفي وقت متأخر، عبر ميديون وأرمن وفرس تحت قيادة هرقل من أسبانيا إلى أفريقيا واختلط الميديون والأرمن بالليبيين، والفرس بالجتوليين. وبينما استقر الميديون والليبيون سريعاً في مدن ـ وعُرفوا دون تمييز بينهم بالمغاربة "Maures " ـ وتبادلوا المنتجات مع أسبانيا، عاش الجيتوليون والفرس حياة رحل وسموا بالبدو " Nomades ". بالرغم من ذلك زادت قوة الأخيرين بسرعة تحت التسمية " نوميديون " وسيطروا على كل البلاد حتى مشارف قرطاج.

أورد سالوست " Salluste " هذه الأسطورة من ترجمة يعتقد أنها نقلت إليه من كتب بونيقية للملك هيمبسال "Hiempsal". ويعتقد س. جسل "S. Gsell" أن الملك هيمبسال " Hiempsal " مؤلف هذه الكتب وليس مجرد حافظ لها. ومن غير المستبعد أن يهتم ملك نوميدي بتوثيق الروايات الأسطورية كتابة أو يعيد نسخها حرفيا تقريباً من الأرشيف القرطاجي الذي تركه الرومان بين أيدي أسلافه.

أعطى سالوست " Salluste " عن العصر الأول السابق لهرقل، أو بدقة أكثر على ملقار "Melgar"، الإله الفينيقي الذي اعتبر ابناً لألخمين "Alcmene"، الصورة المعتادة التي يرسمها الباحث غير المتمرس خطأً للأزمان البدائية. إن هؤلاء الليبيين والجيتوليين - وهم رعاة وجامعو ثمار - ينتمون، دون شك، لما قبل التاريخ ويضعهم سالوست " Salluste " - أو بالأحرى هيمبسال " Hiempsal " - في أزمان الأساطير. علينا - في هذا الخصوص - أن نسلم بوجود عنصرين من السكان في أفريقيا القديمة. وما الذي يمكّننا من هذا التمييز غير الاختلاف في أساليب الحياة الناجم عن الظروف الجغرافية، أي على مواطن هؤلاء الأقوام؟ ويجمع المؤرخون القدماء والمعاصرون على أن الجيتوليين كانوا بدواً رحلاً، توجد بقايا آثارهم المندثرة من شواطئ المحيط إلى خليج سرت. ولما كان الجيتوليون بدواً فإننا نستنتج أن الليبيين الذين تحدث عنهم هيمبسال " Hiempsal " و"كانت لديهم في وقت مبكر مدناً"، هم أسلاف المستقرين.

لقد برز هذا التمييز البسيط قبل كل من سالوست " Salluste "وهيمبسال "Hiempsal "، فقد كتب أبو التاريخ هيرودوت " Herodote " (IV, 181,186,191) بعد وصفه لسلسلة طويلة من الأقوام من مصر حتى بحيرة تريتون " Lac Triton ":

" لقد انتهيت لتوي من تناول الليبيين الرحل القاطنين على امتداد البحر. وبعدهم في الداخل توجد ليبيا الحيوانات المتوحشة.... لكن في غرب بحيرة تريتون " Lac Triton " (أي في الشمال، بسبب الخطأ في تحديد الاتجاهات

للساحل ابتداء من الأراضي القرطاجية) لم يعد الليبيون رحلاً وليست لهم نفس العادات... إنهم قوم من المزارعين... لديهم مساكن ويسمون المكسيس Maxyes ". باختصار وتبسيط شديد ولكنه صحيح، يقابل هيـرودوت Herodote " ليبيا الشرقية حيث يقطن الرحل وهى منخفضة ورمليـة حتى نهــر تريتون Triton، وليبيا إلى الغرب من هذا النهر المسكونة من مزارعين وهي جبلية كثيرة الغابات جداً...".

إن لهذه العبارة الأخيرة مدلولاً بالغ الأهمية لأنها لا تنطبق فقط على أراضي قرطاج الساحلية وهي سهول مستوية، ولكن على كل أفريقيا الشمالية، بلد الأطلس.

إن الافتراضات الأكثر جدية تحدد موقع بحيرة تريتون " Lac Triton " في إقليم محدود المساحة نعرف أن هيرودوت نفسه حدده بين كنيبس[1] " Cinyps " نهر في شرق لبدة لبتس ماجنا) وجزر قرقنة (جزيرة سيرونيس Cyraunis).

مازال الجغرافيون يضعون الحد الجنوبي لأفريقيا الشمالية عند شط الجريد في تونس: إن هذا التوافق سيكون مستغرباً لو لم يتوافق مع ما تمليه الطبيعة.

لكن، ما الذي أتى بالفرس والميديين والأرمن في الرواية حول الجذور النوميدية والمورية؟ من التقليدي في النصوص القديمة توقيع أصول الأقوام في المشرق لاعتقاد القدماء أن لحضارتهم جذوراً في شرق العالم القديم " Oekoumene"، وفي غرب هذا الأخير كان يمتد المحيط حتى حدود العالم غير المعروفة على وجه الدقة. ولكن، لماذا الفرس والميديون؟ لننظر عن قرب فـي نص سالوست " Salluste ": " عبر الميديون والفرس والأرمن الذين كانوا في جيش هرقل ـ المتوفي في أسبانيا ـ إلى أفريقيا على مراكب واحتلوا البلدان

---

(1) وادي كعام شرق لبدة. المترجم

المجاورة لبحرنا. واستقر الفرس أبعد من الآخرين، في جانب المحيط...وقد انصهروا تدريجياً ـ عن طريق الزواج ـ في الجيتوليين ". يقدم لنا توطن الفرس المزعومين جنوباً تفسيراً لوجودهم غير المتوقع في الجزء الغربي من موريتانيا. وقد أفاد العديد من المؤلفين الإغريق والرومان بوجـود قومين؛ الفاروسيين " Pharusiens " و البيرورسي " Perorsi " في جنوب المغرب، غالباً بين الأطلس، ودراع والجوير. من هؤلاء المؤلفين سترابون " Strabon " وبلين " Pline" ناقلاً عن بوليب " Polype "، وبومبونيوس ميلا " Pomponius Mela"، وبطليموس وجغرافي رافين " Ravenne[1] " المجهول، وبريسسيان القيصري " Priscien de Cesaree " ناقلاً دينيس البريجيت " Denys le Periegete" وغيرهم كثيرون ممن قرأهم بصبر وأناة ج. ديسانج "Desanges. J". إن التشابه في الأسماء والتقارب المكاني دفع بعض المؤلفين ـ خاصة س. جسل " S.Gsell " ـ إلى القبول بأن القومين في الحقيقة قوم واحدة.

ليس هـذا بالمـؤكد، ولكن من المقبول أن التشابه أو التجانس المصطنع بين فاروسي، " Pharusii "، وبيرورسى " Perorsi "، وبرساى " Persae " هو السبب الأساسي في وصول الفرس المدَّعي إلى موريتانيا. لهذا السبب يذكر بلين " Pline " الأكبر عَرَضاً أن الفاروسي " Pharusii" الذين يسميهم أحياناً بيروسي " Perusii " " كانوا في الماضي فرساً " (V,46).

إن جناساً آخر، وبطريقة تفكير مشابهة كان المؤلفون القدماء مغرمين بها، يفسر حضور الميديين في أفريقيا. وكما سيتاح لنا رؤيته، هناك العديد من القبائل البربرية القديمة كانت تحمل في القدم التسمية مازيس " Mazices ". ويتعلق الأمر في الواقع بتسمية يعطيها أغلب البربر لأنفسهم: إمازيغن (مفردها أمازيغ). وقد كتب الأجانـب هذا الاسـم بأشكال مختلفة: مشواش "Meshwesh " من قبل المصريين، ومازييس " Mazyes " أو " ماكسيس

(1) مدينة إيطالية. المترجم.

Maxyes " من قبل الإغريق، ومازيس " Mazices " ومادیس " Madices " من اللاتينيين. وقد أوضح المؤرخ العظيم ابن خلدون في القرن الرابع عشر أن فرع البرانس من البربر ينحدر من مازيغ. ليس من المستغرب أن يعود بعض سكان أفريقيا بسلاسل أنسابهم إلى مازيغ أو ماديغ لأنهم اتخذوا هذا الاسم طوال تاريخهم. ومن المحتمل أن نجم عن هذه التسمية ظهور الميديين، أسلاف الموريين، مع الفرس الذين أصبحوا الفاروسيين " Pharusiens ".

* أصول كنعانية :

ما هو مشهور أكثر حول أصل الموريين " Maures " رواية أحدث مما سبق ذكره لأنها تعود إلى القرن السادس الميلادي، وقد أوردها بروكوبيوس " Procope "، والموريون لفظ عام كان يعني في ذلك الزمن، كل الأفارقة الذين حافظوا على تقاليدهم وأسلوب حياتهم، خارج الإطار الثقافي الحضري الذي نمته روما. فحسب رواية بروكوبيوس " Procope " أحدث احتلال يوشع بن نون للأرض الموعودة رحيل الأقوام الذين كانوا يقطنون الشاطئ. وبعد أن حاول هؤلاء الإستقرار في مصر ووجدوها مزدحمة بالسكان، توجهوا نحو ليبيا التي احتلوها حتى أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) وأسسوا عدداً كبيراً من المدن. يؤكد بروكوب: " وقد بَقِي فيها خلفهم ومازالوا يتكلمون لغة الفينيقيين حتى اليوم. وقد شيدوا أيضاً حصناً في نوميديا في المكان الذي ترتفع فيه مدينة تيجيسيس "Tigisis". وهناك، بالقرب من العين الكبيرة تنتصب مسلتان من الحجر الأبيض نقش عليهما بحروف فينيقية وبلغة الفينيقيين ما معناه: نحن الذين هربنا بعيداً من أمام الشرير يوشع بن نون (II,10,22).

رافق بروكوبيوس " Procope " في أفريقيا الجنرال البيزنطي بيلساريوس " Belisaire " وخلفه سولومون " Solomon " اللذين حاربا في إقليم تيجيسيس " Tigisis " في جنوب سيرتة-! (قسطنطينة)، وقد يكون رأى أو عرف بوجود

مسلات بونيقية، أو ليبية باحتمال أكثر. إن هذه المنطقة (سيقوس " Sigus " سيلا " Sila "، تيجيسيس " Tigisis ") غنية بالمسلات الكبيرة التي تمثل أحيا مناهير[1] منحوتة وتحمل تسميات ليبية. هـذه الأحجار الضخمـة (منها اثنان في متحف قسطنطينة) الحاملة كتابات غامضة أو غير مفهومة لفقراء رجال الدين من وسط نوميديا قد تكون مبعث الرواية " التاريخيـة " لبروكـوبيوس " Procope ".

تستند هذه الرواية كذلك على بينة أخرى نجد أثرها، قبل ذلك بقرن، في رسالة للقديس أوغسطين " Saint Augustin " جاء فيها: " إذا سألتم فلاحي من هم: يجيبون بالبونيقية أنهم شنانيون. أو لا يتفق هذا الشكل المحرف بلهجتهم مع كنعانيين؟ ".

لقد كان موضوع تحدث الفلاحين الأفارقة، جيران هيبون "Hippone"[2] باللغة البونيقية في القرن الخامس الميلادي ـ أي بعد أكثر من خمسمائة سنة من تخريب قرطاج ـ مثار نقاش لمدة طويلة من الزمن. وقد تساءل س. كورتو " C. Courtois " عما إذا لم يكن القديس اوغسطين يعني بلفظ " Punice: لهجة من لهجات البربر. حجج كورتوا في هذا المقام غير مقنعة. وأعتقد ـ مثل سومان " Ch. Saumagne " و أ. سيمون " A. Simon ـ أن القديس اوغسطين كان يشير حقيقة إلى لهجة سامية، ولكننى لن اندهش إذا ما قُدم في يوم من الأيام البرهان على أن لفظ بونيقي " Punique " كان يستعمل في التراث الثقافي الإفريقي في ذلك العصر، للتعبير دون تمييز عما هو غير روماني أو إغريقي. سنرى لاحقاً كم كانت الحضارة البونيقية شديدة التأثير في أسلاف البربر. من المرجح أن الفينيقيين هم الذين ادخلوا الاسم " كنعانيين " إلى أفريقي بالرغم من عدم وجود نص يدعم هذا الافتراض. ويذهب علماء كثيرون مثل أ. دى فيتا " A. di Vitta " إلى تفسير رواية بروكوبيوس " Procope " بالذكرى الغامضة لأقدم تغلغل فينيقي في الغرب، وكان سابقاً لتأسيس قرطاج.

---

(1) مناهير عبارة عن نصب عمودية مرتفعة. المترجم

(2) عنابة حالياً. وهى مدينة في الجزائر. المترجم

جذور أخرى أسطورية من العصور القديمة

إن ما تقدم ليس الأصل الوحيد الذي نقل إلينا من العصور القديمة. ويعود الفضل في تصنيف هذه الأصول إلى س. جسل " S. Gsell " بسبب تبحره الذي لا يقارن. لنتوقف عند الأساسيات: كان الموريون ـ وفق سترابون " Strabon " ـ هنوداً جاءوا إلى ليبيا تحت قيادة هيراكليس " Heraklés ". كما اقترح المؤرخ اليهودي فلافيوس جوزيف " Flavius Josephe " أصلاً مشرقياً أكثر قرباً، إذ يؤكد بكل ثقة في تعليقه على الفصل العاشر من كتاب ألجينسبا " La Genese " ان أويلاس " Euilas "، أحد أبناء كوش، هو والد الاويلياويين " الذين يسمون اليوم الجيتولوى: الجيتوليين ".

يُنسب البربر إلى جذور أخرى، خاصة عند المؤلفين الأغريق؛ هكذا يقول هيرودوت أن المكسيس "Maxyes" الذين يمكن اعتبارهم بربراً مستقرين ومزارعين، يدعون أنهم ينحدرون من الطروادين " Troyens ". وكصدى لهذه الرواية الشائعة في الأوساط الكلاسيكية هناك تأكيدات كثيرة: يذكر هيكاتي "Hecatée" مدينة كوبوس "Cubos" التي أسسها الأيونيون "Ioniens" بالقرب من هيبو ـ اكرا، منطقة عنابه حالياً. وفي نفس المنطقة كانت مدينة مشالة " Meschela " ذات المنشأ الإغريقي حسب ديودور الصقلي " Diodore de Sicile ". وأعتقدت أن في إمكاني اقتراح تفسير لهذا الوجود الإيوني على الشاطئ الجزائري ـ التونسي. ففي شمال نوميديا وفي غرب تابراكا (طبرقة الحالية) ـ أي في نفس المنطقة ـ يُوقع بطليموس "Ptolémée" قبيلة الإيونتى " Iontii ". ومن ثم ليس من المستحيل أن التشابه في الأسماء أحدث بعض الخلط لصالح الأكثر شهرة عند بعض ناسخي هيكاتي "Hécataée " وان ديودور " Diodore " فسر هذا الخطأ بإعطاء منشأ إغريقي

للمدينة الواقعة في موطن من يعتقد أنهم إيونيين. يبدو أن هذا التقارب ايونتي ـ الأيونيين " Ioniens ـ Iontii " يقع في هذه السلسلة من الخيال والخلط التاريخي ـ اللغوي حول أصول البربر، التي تكاثرت منذ القدم.

هكذا يقول بلوتارك " Plutarque " مستوحياً ـ على ما يبدو ـ يوبا الثاني " Juba II " ملك موريتانيا العالم المعاصر للأمبراطور أوغست "Auguste " أن هيراكليس "Heraklés " ـ الحاضر دائماً! ـ ترك في شمال موريتانيا الطنجية أولبيين " Olbiens " وميسينيين " Myceniens ". ونعلم أن بطليموس " Ptolémée " ذكر من بين أقوام هذه الجهة الموسينى " Muceni " والذين يبدو أن أسمهم وراء هذه الأسطورة الأخرى. إنني لا أجرؤ على تقديم مقاربة أخرى... وهى بين أولوبليانى " Ouoloubiliani " (سكان فولوبيليس المذكورين من قبل بطليموس) والأولبيين " Olbiens " المذكورين من بلوتارك " Plutarque ".

* أساطير القرون الوسطى حول أصول البربر :

حافظ مؤرخو القرون الوسطى على الطريقة القديمة من التفكير بملامح عديدة، وباعتبارهم مشرقيين محكومين بالنظام الأبوي ومغرمين بشكل خاص بسلاسل النسب التى لا تنتهي، لذلك وضعوا أساطير كثيرة حول أصول البربر أو كرروها. فقد كرَّس ابن خلدون ـ وهو أعظمهم ـ فصلاً كاملاً من كتابه الضخم " تاريخ البربر " للعديد من سلاسل النسب التي أوردها قبله كتاب من اللغة العربية كانوا ـ غالباً ـ من أصل بربري. أعطى كل هؤلاء المؤلفين أصلاً مشرقياً للفروع المختلفة من البربر. وكان أكثرها شيوعاً ما قال به بروكوبيوس "Procope ". يقول البكري إن اليهود طردوهم من سوريا ـ فلسطين بعد موت جالوت " Goliath "، ويتفق مع المسعودي في أنهم أقاموا مدة قصيرة جداً في مصر.

يأخذ ابن خلدون موقفاً قاطعاً لصالح ما يقول: " والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم (البربر) أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح كما تقدم في أنساب الخليقة، وان اسم أبيهم مازيغ وأخوتهم اركيش وفلسطين إخوانهم بنو كسلوحيم بن مصرايم بن حام، وملكهم جالوت سمة معروفة له. وكانت بين فلسطين هؤلاء وبين بني اسرائيل بالشام حروب مذكورة. وكان بنو كنعان و واكريكيش شيعاً لفلسطين فلا يقعن في وهمك غير هذا. وقد يكون هذا الطرف الأخير أوقع في الخطأ من اعتبر جالوت بربرياً بينما هو من فلسطين إخوان البربر. ولا يجب التسليم بأى رأى آخر إلا ما رأيناه، فهو الوحيد الحقيقي الذي لا يعـدل عنه. " (ترجمة دى سلين de Slane).

بالرغم من إلحاح ابن خلدون، علينا أن نأخذ في الاعتبار رأياً آخراً لأنه لا يخلو من توابع، وقد قدمه لنا بدقة:

" ولا خلاف بين نسابة العرب أن شعوب البربر التي قدمنا ذكرهم كلهم من البربر إلا صنهاجة وكتامة فأن بين نسابة العرب خلافاً والمشهور أنهم من اليمنية، وأن افريقيش لما غزا أفريقية أنزلهم بها.

وأما نسابة البربر فيزعمون في بعض شعوبهم أنهم من العرب، مثل لواتة يزعمون أنهم من حمير... ".

بقى المؤلفون الأوربيون المعاصرون منقسمين لمدة طويلة حول جذور البربر. وقد أظهر هؤلاء المؤلفون قدرة على التخيل لا تقل - إن لم تكن أكبر - من أسلافهم القدماء أو الذين يعودون للقرون الوسطى، مع تصنع اعتمادهم على حجج علمية لدعم افتراضاتهم.

خلال القرن التاسع عشر وبداية قرننا[1] يمكن ترتيب الشروح والمقترحات

---

(1) يقصد القرن العشرين. المترجم.

المختلفة وفق نوعين من البحوث: الأولى ذات طابع لغوى ويمثلها بشكل خاص الفقهاء الألمان، والثانية ذات طابع اركيولوجى وانثروبولوجي وهى من عمل الفرنسيين.

كنعانيون أم هنود؟

بحث فقهاء اللغة والمستشرقون عن دعم الأصل المشرقي بحجج جديدة، معتمداً بعضهم في ذلك على الحكايـات الإغريقية واللاتينية، وآخرون منهم على النصوص العربية. يضع موفر " Movers " كل الثقة في روايات سالوست " Salluste " وبروكوبيوس " Procope "، ويعتقد أن الكنعانيين الهاربين عبروا إلى أفريقيا على المراكب الفينيقية وأختلطوا بالليبيين البدائيين الذين من المعتقد أنهم علموهم الزراعة وأصبحوا الليبيين ـ الفينقيين الذين أشارت إليهم العديد من النصوص القديمة. وقد رأينا أن بعض المؤلفين في العصر الحالي مثل أ. دى فيتا " A. di Vitta " يعتقدون ان الرواية الكنعانية هي صدى ذكرى امحت لتوسع فينيقي سابق على تأسيس قرطاج.

ساند انتشار علم المصريات أيضاً الرواية المشرقية لأن علماء كثيرين اعتقدوا بلجوء جزء من الهكسوس ـ وهم من سوريا وآسيا الصغرى ـ بعد طردهم من مصر، إلى أفريقيا ومن المحتمل أنهم اختلطوا بالليبيين.





جرة مطلية، ترميتين

منطقة القبائل / الجزائر

يقدم كالتبرونر " Kaltbrunner " وريتر " Ritter " من جانبهما "البراهين" على الأصل الهندى للمغاربة (الموريين) الذى قال به سترابون "Strabon "، فهما يقولان بأن التسمية بربر نظير لتسمية الورليفارا السكان القدماء جداً لدكان " Dekkan ". ويبدو لهما أن التسميات ميناء بربرة في الصومال والبرابرة (مفردها بربري) القاطنون بين الشلال الأول والشلال الرابع على النيل، والتسمية المكانية بِربِر في السودان علامات لغوية على الطريق بين شبه القارة الهندية والمغرب الكبير.

بالمقابل، دافع د. برتولون " Bertholon " بحماس في السنوات الأولى من القرن العشرين على الأصل الأغريقي أو الإيجى[1]. وعدَّد بلامبالاة، الأسماء والكلمات البربرية ذات الأصول الإغريقية أو الهيلينية القديمة، حسب

(1) نسبة إلى بحر إيجة. المترجم

اعتقاده. وقــد كتــب بمساعــدة إ. شانتر " E. Chantre " مجلداً كبيراً حول الـ " أبحاث الأنثروبولوجية في بربريا الشرقية " (1913م) حيث يدعم رأيه حول أصول هؤلاء الأقوام بحجج أنثروبولوجية وحتى إثنية. تجرأ المؤلفان على كتابة ما يلي: " ينقسم الخزف البربري إلى ثلاث مجموعات:

1- خزف خشن مصنوع يدوياً يُذكر بخزف الدلمنات[1] وهو يعود ـ بشكل خاص ـ إلى القبائل المنتمية الى العرق الكبير الدوليشو سيفالى[2]، ويتسق امتداد هذا الخزف مع امتداد هذا العنصر الإثنى.

2- خزف مصنوع باليد يُذكر بالنماذج البدائية من بحر إيجة....إن هذا الخزف يتوافق مع توزيع الأقوام الذين يشتملون على نسبة مهمة من عرق مستطيلي الرأس قصار القامة.

3- خزف ذو حواشٍ مزينـة بالحفـر أصلـه مـن جربـة موطـن قصيـرى الرأس " brachycephales " وقد أنتشر إلى نابل ثم إلى مدينة تونس وهو مستوحى من قبرص، وهو أقل خشونة من الخزف السابق " (P. 560).

هكذا إلى هذه الاستنتاجات الغريبة أدت البحوث المؤسسة على افتراضات وعلى الاعتقاد الجازم بثبات الأعراق الإنسانية والتقنيات طوال آلاف السنين!

البربر والغال والدلمنات

يبدو ان البحث حول الأصول كان يمكن أن يستفيد بشكل مأمون من تطور الأبحاث الأركيولوجية في شمال أفريقيا وبشكل خاص من التنقيب في نُصب ما قبل التاريخ المتعلقة بالأموات والموجودة بكثرة في شرق الجزائر

(1) نُصب قوامها حجر مسطح موضوع فوق مجموعة من الأحجار، وهو من عصور ما قبل التاريخ.

(2) المستطيل الرأس. المترجم.

ووسط تونس. للأسف! في هذا المجال أكثر من غيره من المجالات، أدت الأحكام الإثنية ـ وحتى الوطنية ـ المسبقة إلى أسوأ الأخطاء. لقد شدت نُصب ما قبل التاريخ الحجرية في شمال أفريقيا اهتمام الرحالة الأوربيين في وقت مبكر، فمن منتصف القرن الثامن عشر ذكر شو " Shaw " نصب بنى مسوس بالقرب من مدينة الجزائر. وفي سنة 1883 م وصفها النقيب روزى " Rozet " تحت التسمية " النصُّب الدرويدية[1] المجاورة لسيدي فرج "، وقد كان الجراح قويون "Guyon" أول من بدأ التنقيب فيها سنة 1846 م. وكتب في التقرير الذي قدمه لأكاديمية الفنون والآداب: " لها مظهر النصب الدرويدية التي رأيتها في سومور (Saumur) وفـي مواقع أخرى فـي فرنسا. وينسب بعض علماء الآثار هذه النصب إلى الغاليين الذين كانوا يخدمون في الجيوش الرومانية، ويجوز لنا كذلك نسبتها إلى الوندال.... ".

إن الرغبـة في وجود نفس الوقائع الأركيولوجية على جانبي المتوسط قد تشرح وتبرر ـ بشكل ما ـ الحضور " السلتى "[2] ثم الفرنسي في الجزائر. يظهر هذا أيضاً عند واحد من أحسن علماء الآثار والمستعربين من الإمبراطورية الثانية ل. ش. فيرو (L. Ch. Feraud) الذي بدأ أبحاثه سنة 1860 م. شرع ل. ش. فيرو بعد ثلاث سنوات مع عالم الحفريات الإنجليزي كريستي (Christy) (وهو نفسه الذي كان قد بدأ التنقيب في آثار ما قبل التاريخ في وادى فيزير La Vezere مع إ. لارتى E. Lartet) في التنقيب في المقبرة الميجاليثية[3] الواسعة في رأس عين بومرزوق بجوار قسطنطينة وتولدت لديه القناعة أن نصب الدلمنات مقابر للغال الرومان المستقرين في أفريقيا.

---

(1) مشتقه من درويد التي تعني الكاهن الغالي. المترجم

(2) مجموعة أقوام ذات حضارة واحدة كانت تقطن جزءاً من أوروبـا القديمـة، وأكثـرهم شهرة الغاليون. المترجم.

(3) متعلقة بأثار ما قبل التاريخ المشيدة من الحجارة الضخمة. المترجم.

في هذا العصر، الذي شهد ازدهار علم آثار ما قبل التاريخ، كانت كل الحجج ـ حتى أكثرها مدعاة للشبهة ـ تُقدم لتأكيد الأصل السلتى، ومن ثم الفرنسي، لنصب الدلمن الجزائرية. في سنة 1862 م ظهر في سلسلة كتب الدليل الشهيرة (دليل جوان Guides Joanne) المسار التاريخي والوصفى للجزائر لمعده ل. بيسى L. Piesse. يوضح هذا الكتيب في الصفحة 71 وصفاً مختصراً لنصب بنى مسوس التي ينسبها لفيلق من النبالة. ولكن المقاربة التي أقترحها ل. بيسى L. Piesse استناداً إلى كتابة لاتينية في أومال "Aumale" تبدو نتيجة مضحكة لتفسير خاطئ.

* أصول شمال أوربية :

برزت فكرة أن نصب الدلمن سابقة زمنياً للسلت والغاليين وتطورت تدريجياً، ولكن هذه الفكرة الأكثر دقة زمنياً لم يصاحبها اهتمام كبير بفحص الوقائع. هكذا، كان أ. برتراند (1863A. Bertrand م) ـ ككثيرين من معاصريه ـ يعتقد بوجود " شعب الدلمن " الذي طُرد تدريجياً من آسيا ومن أوروبا الشمالية والجزر البريطانية ثم من بلاد الغال وأسبانيا واستقر في أفريقيا الشمالية. في إطار نفس الرؤية، واستناداً إلى علم المصريات الوليد الذي وضَّح أن بين الأقوام الليبيين الذين هاجموا مصر في عهد مرنبتاح ورمسيس الثالث تمحو شقر، يشرح هـ. مارتن H. Martin أن الغاليين احتلوا أفريقيا الشمالية، بعد عبورهم جبال البرانس وأسبانيا، وأقاموا الحضارة الميجاليثية " Megalithique " قبل أن يهاجموا مصر.

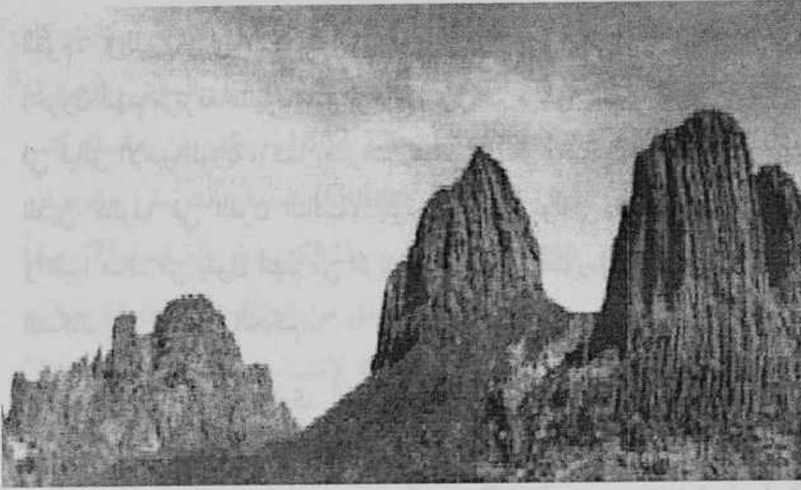
إن الوجود المؤكد لأقوام ـ أو بشكل أدق لأفراد ـ ذوي عيون فاتحة في مناطق جبلية عديدة بالقرب من الساحل وهم حالياً من الناطقين بالبربرية، أعطى مصداقية خلال زمن طويل لأسطورة الأصل الشمال أوروبي لهؤلاء

القوم، والذين يرى البعض أنهم أوروبيون وهـم بناة الميجاليثات، ويرى آخرون أنهم مرتزقة غاليون عند قرطاج، ويراهم فريـق ثالـث غاليين ـ رومانيين في فيالق الإمبراطورية، كما يعتبرهم البعض الآخر أحفاد القراصنـة الأوروبيين الذين كانوا، في القرن الثالث، يترددون على نواحى مضيق جبل طارق، وأخيراً هناك من يقول أنهم من الوندال الذين لا يُتصور إنهم لم يتركوا أثراً في السكان بعد قرن من الحكم.

جاءت حجج أخرى أنثروبولوجية لتلتحم بهذا الهذيان التاريخي ـ الأركيولوجي؛ هكذا يقول ج. بورقينيا " J. Bourguignat "، بعد عالـم الأنثروبولوجيـا برونر ـ بـي " Bey ـ Bruner "، أن نصب ركنية " Roknia " كانت من عمل قبائل بربرية اختلطت بالمصريين والسود " محكومين بجنس من أرياس انحدروا من إيطاليا إلى صقلية ومن صقلية إلى أفريقيا " (1868 م).

* من القوقاز إلى اطلانطيس :

تحتل شبه جزيرة ايبيريا المكان المفضل في الأبحاث الأوروبية حول الأصول الأوروبية للبربر. إن هناك بعض التطابق المثير في أسماء المواقع بين ضفتي المضيق، منها أسماء أنهار ومدن، وهوما يدعم هذه الحجة. إن مقاربات واهية مع لغة الباسك تسمح بالقول أن البربر والإيبيريين متقاربون في الأسماء بقدر تقاربهم جغرافياً. وبما أن التاريخ القديم عرف كذلك أيبيريين في القوقاز يرى فيهم بعض المؤلفين أسلافاً لأيبيريي الغرب،... هذا أصل آخر محتمل للبربر. إن فقه اللغة ودراسة النصوص المعتمد على التعريب، والذي ازدهر بشكل خاص في أوساط أنصاف البحاث في المغرب، شرح ـ وبجدية ـ استناداً إلي مقاربات ارتجالية.... ان البربر ينحدرون من السومريين!



صخور بازيلتية في تدجيمايين (الهوجار)

هكذا ذكرت كأصول للبربر كل من المشرق بالمعنى الواسع (الميديين والفرس)، وسوريا وبلاد كنعان، والهند، وجنوب الجزيرة العربية، والتراقيا، وبحر إيجة وأسيا الصغرى، وكذلك شمال أوروبا، وشبة جزيرة ايبيريا، والجزر الإيطالية وشبه الجزيرة الإيطالية،.... من المؤكد أن الأصعب هو البحث عن البلدان التي لم يأت منها البربر!

لا شك أن بعض الكتاب شبه العلميين وجدوا للمشكلة حلاً سهلاً يتمثل في أن البربر، بكل بساطة، هم من تبقى من سكان أطلانطيس. البراهين كثيرة: لقد كانت أطلانطيس تقع في هذا الجزء من المحيط القريب من ليبيا، وجزر الكناري عبارة عن شظايا منها. أو لم يكن أول سكان لجزر الكناري، القونشيون، يتحدثون اللغة البربرية؟

يفضل آخرون توقيع الإمبراطورية الأسطورية في قلب الصحراء؛ في الهوجار[1] وهو بلد بربري آخر تلفه الأسرار.

---

(1) الهوجار دائم الغموض وإلا ماكان الهوجار. المؤلف

المعطيات الأنثروبولوجية

مازال موضوع تكوين البربر ـ أو بتعبير أكثر دقة المجموعات المختلفة من البربر ـ محل خلاف حاد ونقاش لأنه طُرح بشكل خاطئ. لقد أثرت النظريات الشائعة منذ بداية البحوث لدرجة أن أي محاولة للتفسير كانت تستند تقليدياً على الغزوات، والهجرات، والفتوح، والاستعمار. ماذا لو لم يأت البربر من أي مكان؟!.

بدل البحث العشوائي المستند إلى تشابهات غامضة من كل نوع ودمج معطيات مختلفة ـ إن لم تكن متناقضة ـ أو ليس من الأجدى الإنطلاق من فحص البربر أنفسهم، والمتبقيات البشرية السابقة على العصر التاريخي، وهو العصر الذي نعرف أن السكان الحاليين كانوا قد استقروا من قبله.

إننا ـ باختصار ـ يجب أن نعطي منطقيا الأولوية لعلم الأنثروبولوجيا. لكن هذا العلم لا يسمح اليوم، بتحديد أي خاصية أصيلة " بربرية " في مجموع سكان جنوب المتوسط. إن خاصية أخرى هي التي تسمح اليوم بذكر المجموعات البربرية في الربع الشمالي ـ الغربي لأفريقيا وهي ثقافية أكثر منها جسمانية. وتبقي اللغة العنصر الأساس من بين المعطيات الثقافية.

سنعرض فيما يلحق، بالتتابع، المعطيات الأنثروبولوجية واللغوية.

*** الإنسان العاقل[1] L,HOMO SAPIENS في المغرب الكبير :الإنسان العتيري[2]:**

دون البحث في أصول الإنسان في أفريقيا الشمالية علينا بالرغم من ذلك أن نعود بسرعة إلى الوراء زمنياً آلاف السنين لنفهم كيف تكوَّن سكان هذه

---

(1) الإنسان العاقل. المترجم.

(2) إنسان العصر الحجري المتوسط. المترجم.

المنطقة الشاسعة المحصورة حالياً بين الصحراء والبحر المتوسط. لنبدأ مع بداية العصر الذي يسميه مؤرخو ما قبل التاريخ في أوروبا بالباليوليتى الأعلى "Paleolitique Superieur " أي حوالي 30000 سنة قبل ميلاد المسيح. في تلك الآونة تأكد بشكل نهائي النوع الإنسان العاقل " Homo ـ Sapien وشكله الأكثر شيوعاً ـ إن لم يكن الأقدم ـ في أوروبا هو إنسانُ الكرومانيون "Cro ـ Magnon" وقد خلف إنسانَ الكرومانيون " Cro ـ Magnon " إنسان نياندرتال " Neandertal "الذي يضعه علماء الحفريات اليوم في نوع الإنسان العاقل " Homo -Sapiens "؛ ولكن يبدو أنه لا ينحدر منه مباشرة، في أوروبا على الأقل. في أفريقيا الشمالية لا يبدو أن الوقائع اتبعت نفس المسار. فهنا لا يمكن الربط الزمني بين الصناعة والثقافة والعصر الباليوليتي الأعلى "Superieur Paleolithique " كما رُبط في أوروبا الغربية. ففي تلك الفترة كانت التقنيات التي يسميها مؤرخو ما قبل التاريخ "بالتشذيب الرقائقي" و"التهذيب غير المتناسق " نادرة جداً، بينما كانت موجودة كل التقنيات الموستيرية[1] (moustériennes) والليفالوازية[1] (Levalloisiennes) من العصر الباليوليتى الأوسط.



صناعية ايبيرية ـ مغاربية

---

(1) نسبة إلى مدن ومواقع في فرنسا. المترجم.

بالرغم مما تقدم، سنرى تطور صناعات أصلية تمثل امتداداً وتحسيناً للصناعات الموستيرية " Mousterien " في كل البلدان التي سيقطنها البربر وليس في غيرها من الأماكن. وسميت هذه الصناعه بـ " عتيرية " "Aterien ". وقد تم فـي الشمـال الغربي لأفريقيا ـ وربما على وجه التحديد على الساحل القريب من هران ـ اختراع وضع مقبض مميز لهذه الصناعة، وهو عبارة عن سويق في الجزء الأسفل من الأداة الحجرية ينجز بلمسات متعاقبة. إن هذه التقنية لتثبيت الأداة إلى مقبضها غير معروفة في الموستيري الأوروبي وقد تم تنفيذها في كل أنواع الأسلحة والمعدات: المسامير، والمكاشط، والمجارف، والمثاقب، والمناقيش.....

حتى السنوات الأخيرة لم يكن من المعروف إلى أى نوع أنساني تنتمي هذه الصناعة، فشكلها العام الذي يشبه الموستيرى يدفع المتخصصين إلى الاعتقاد بان الأمر يتعلق بإنسان نياندرتال " Neandertal " الشبيه بالإنسان المكتشف في جبل إرحود " Irhoud " (المغرب) في وسط موستيرى واضح. نادر من العلماء (منهم كامب Camps) من ذهب إلى القول بإن الإنسان العتيرى قد يكون إنسان عاقل من النوع الحديث. لقد قدم اكتشاف ديبينا "Debenath " في دار السلطان (منطقة الرباط) سنة 1975 م الدليل أن الإنسان العتيري هو الإنسان العاقل العاقل في شكل أكثر بدائية من إنسان الكرومانيون "Cro ـ Magnon" كما أنه يشبه إلى حد كبير إنسان الموستيرى من جبل ارحود لدرجة تسمح بالقول أنه ينحدر منه. ومن المفيد أيضاً معرفة العلاقة بين الإنسان العتيرى وخلفه المعروف منذ زمن بعيد في المغرب الكبير تحت التسمية إنسان مشتى العربي.

إنسان مشتى العربي

يشبه إنسان مشتى العربي إنسان الكرومانيون ويشترك معه في الملامح الجسمانيـة الغالبة: طول القامة (1,74 متر في المتوسط للرجـال)، والسعـة

الكبيـرة للجمجمـــة (1650 سم3)، وعدم التناسق بين الوجه وهو عريض وقصير وذى محاجر ذات أشكال مستطيلة عرضها أكبر من ارتفاعها، والجمجمة وهى مستطيلة إلى متوسطة الطول.



منظر أمامي وجانبي

جمجمة إنسان من نوع مشتى العربي (شرق الجزائر)

منذ بداياته ارتبط إنسان مشتى العربي بصناعة عرفت باســم " الأيبيرية ـ الموريـة " " Iberomaurusien " والتي احتلت كل المناطق الساحلية ومناطق التلال. وقد اكتسبت الصناعة الأيبيريـة ـ المورية المعاصـرة للمجدلينـى " Magdalenien " و الإزيلينى " Azilien " الأوروبيين، منذ ذلك الوقت مميزات صناعة العصر الحجري بسبب صغر حجوم قطعها الحجرية والتي هي في غالب الأحيان نصيلات صغيرة، يسوى أحد جانبيها بحيث يشكل ظهراً ويبقى الجانب الآخر حاداً. وقد كانت هذه الأشياء عبارة عن معدات وأنواع من قطع الغيار، وبتثبيتها في أذرع خشبية أو عظمية تشكل معدات أو أسلحة فعالة.

كان الاعتقاد تقليدياً أن لإنسان مشتى العربي القريب من إنسان الكرومانيون جذور خارجية. فقد تصور البعض أن إنسان مشتى العربي جاء من أوروبا، وعبر أسبانيا ومضيق جبل طارق لينتشر في نفس الوقت في كل من المغرب وجزر الكناري التي احتفظ سكانها الأوائل القونشيون بنفس الملامح الجسمانية قبل اختلاطهم بالمحتلين الأسبان.

لقد اعتقد آخرون بإن إنسان مشتى العربي ينحدر من الإنسان العاقل الذي كان ظهوره في المشرق (إنسان فلسطين)، وانطلقت من هذا الموطن الأصل هجرتان؛ فرع أوروبي من المعتقد أنه أعطى إنسان كرومانيون، وفرع أفريقي تولد عنه إنسان مشتى العربي.

إن الأصل المشرقي والأصل الأوروبي، عنصران لبديل سبق لنا معرفته في الروايات الأسطورية للعصور القديمة، وفى الشروح الارتجالية في الزمن الحديث، كما يوجدان في الافتراضات العلمية الحالية لسوء الحظ. يعاني هذا وذاك من عيوب تجعل من الصعب قبولهما. هكذا لا يمكن وجود معالم لطريق هجرة عناصر الكرومانيون عبر أسبانيا، أكثر من ذلك أن ملامح الجماجم من العصر الحجري الأعلى الأوروبي أقل بروزاً من ملامح جماجم من يُدَّعى بأنهم أحفادهم المغاربة. ويمكن سياقة نفس التبريرات في مواجهة الفرض القائل بالأصل الشرق أوسطي لإنسان مشتى العربي: وليس هناك من وثيقة انثروبولوجية بين فلسطين وتونس يمكن أن تدعم هذا الافتراض. بالإضافة إلى ما تقدم، نعرف أن سكان الشرق الأوسط في نهاية العصر الحجري القديم الأعلى هم من النطوفيين[1] " Natoufiens " من نوع البحر المتوسطى القديم الذي يختلف جوهرياً مع إنسان مشتى العربي. إذا كانت عناصر مشتى العربي تنحدر من أصول شرق أوسطية، كيف يمكن شرح أن جميع أسلافهم غادروا هذه المناطق دون أن يتركوا فيها أي أثر على الصعيد الأنثروبولوجي؟.

يبقى لنا الأصل المحلي، وهو الافتراض الأبسط (وبسبب هذه البساطة ـ دون شك ـ لم يلتفت إليه!)، والأكثر وضوحاً منذ اكتشاف الإنسان العتيري "Aterien". ويسلم اليوم علماء الانثروبولوجيا المتخصصون في أفريقيا الشمالية مثل د. فيريمباخ " Ferembach " و م.ش.شملا " M.C.Chamla " بتسلسل مستمر ومباشر منذ النياندر تاليين الشمال أفريقيين (إنسان جبل ارحود)

---

(1) نسبة إلى وادي النطوف في فلسطين. المترجم

حتى الكرومانيون (رجال مشتى العربي). ويعتقد أن إنسان دار السلطان العتيري " Atérien " هو الوسيط ولكنه كان قد اكتسب ملامح الإنسان العاقل العاقل.

لدينا أعداد كبيرة من متبقيات إنسان مشتى العربي، ويمكن تقدير عدد العناصر المنتمية إلى هذا النوع الإنساني من عصر ما قبل التاريخ بخمسمائة، تم جمعها أو التعرف عليها في مواقع مختلفة في شمال أفريقيا. إنهم لا ينتمون كلهم إلى العصر الايبيرى ـ الموري، فحوالي أقل من المائة منهم معاصرون لصناعات أحدث وتبلغ أعمارهم أقل من عشرة آلاف سنة. لقد كانت عناصر إنسان مشتى العربي كثيرة في العصر النيوليتى[1] خاصة في غرب الجزائر وعلى الساحل الأطلسي. وفي هذا العصر عبرت إحدى الجماعات الذراع البحري الذي يفصل جزر الكناري عن القارة الأفريقية واستوطنت هذا الأرخبيل.

تطورت مجموعة إنسان مشتى العربي في المكان، وبَقِيَ الذين استوطنوا الساحل (كهوف وهران، ونواحي مدينة الجزائر) أشداء حتى النهاية، بعكس هؤلاء الذين استقروا في الدواخل (كولمانتا، جبل فرطاس، وداموس الحمار) الذين برز فيهم بوضوح ميل إلى النحافة، وتناقصت أطوال قاماتهم، وعظامهم أقل سمكاً، وجماجمهم أقل استطالة والبروزات العظمية أقل ظهوراً والأسنان أقل حجماً. وقد أظهرت أبحاث م. س. شلما M.C.Chalma الحديثة أن هذا الضمور ليس نتيجة التزاوج والاختلاط مع أنواع إنسانية أحدث، ولكنه تطور داخلي. وهذه الظاهرة ليست حكراً على عناصر إنسان مشتى العربي ولا على أفريقيا الشمالية.

" ما هو مستغرب أكثر هو اكتشاف أُ. ديتور O. Dutour لقوم نيوليتيين بملامح إنسان مشتى العربي ـ بشكل لا يقبل الشك ـ في حاسى العبيود في عمق الصحراء المالية. "

---

(1) النيوليتى " Neolithique " هى الفترة المحصورة بين الألف الخامس والألف الثالث قبل الميلاد. المترجم.

لقد اندثر نوع إنسان مشتى العربي تدريجياً أمام الآخرين، ولكنه اختفاء غير كامل. هكذا تمثل الجماجم المشتويدية[1] "Mechtoides" 8% من مجموع جماجم ما قبيل التاريخ والجماجم البونيقية المحفوظة من مقابر تلك الأزمان (شملا، 1976Chamla م). إننا نعرف كذلك جماجم مشتويدية في شرق الجزائر من العصر الروماني وقد تجاهل الاركيولوجيون الكلاسيكيون المتبقيات الإنسانية من هذا العصر لمدة طويلة. وما زالت اليوم بعض عناصر نادرة من نوع مشتى العربي في السكان الحاليين الذين ينتمون كلهم تقريباً إلى تشكيلات مختلفة من النوع المتوسطي. إن هذه العناصر النادرة تمثل 9% على الأكثر من سكان المغرب الكبير، وهى أكثر بشكل واضح في جزر الكناري.

إننا بالرغم مما تقدم، لا نستطيع وضع إنسان مشتى العربي بين الأسلاف المباشرين للبربر.

* المتوسطيون القفصيون[2] الأوئل:

آكلو الحلزونات:

من الألف الثامن ظهر في شرق المغرب الكبير نوع جديد من الإنسان العاقل " Homo ـ Sapien " يحمل ملامح بعض سكان المتوسط الحاليين. وهو كذلك طويل القامة (175 سم للرجال في مدجز Medjez II، و162 سم للنساء) ولكنه يختلف عن إنسان مشتى العربي في أن قوته أقل، وفي تناسق أكثر في العلاقة الجمجمية ـ الوجهية حيث تتناسب جمجمة مستطيلة مع وجه مرتفع وضيق، والمحاجر أكثر تربيعاً والأنف أضيق. إن البروزات العظمية في هذا النوع الإنساني الجديد أكثر ظهوراً؛ وبشكل خاص فإن طرف الحنك

---

(1) المنتمية لنوع إنسان مشتى العربي. المترجم.

(2) من Capsa ـ الاسم القديم لقفصة ـ المترجم.

ليس منحرفاً إلى الأمام، وهذه الخاصية كانت شائعة جداً ـ إن لم تكن ثابتة ـ عند العناصر الإنسانية من مشتى العربي.

وصف هذا النوع بالمتوسطى شبه القديم[1]، "Protomediterranean". وقد وجدت مجموعات شديدة التقارب انثروبولوجياً في نفس العصر أو قبله بقليل في المشرق (النطوفيون ـ Natoufien) وفي بلدان متوسطية مختلفة وهى كما يبدو منحدرة من نوع كومب كابل " Combe Capelle " (المسمى في وسط أوروبا بإنسان برنو Brno)، وهو يختلف عن إنسان كرومانيون "Cro ـ Magnon".

من الواضح أنه لم يكن في إمكان إنسان مشتى العربي ولادة المتوسطيين شبه القدماء. إن هؤلاء الذين حلوا محله تدريجياً ظهروا أولاً في الشرق، بينما كانت عناصر مشتى العربي لا تزال أثناء النيوليتى " Neolithique "باعداد أكبر في غرب البلاد. ويوضح هذا التقدم التدريجي من الشرق إلى الغرب بجلاء، ضرورة البحث عن ظهور هذا النوع البشري المتوسطى شبه القديم خارج حدود المغرب الكبير. ويسلم، اليوم، كل المتخصصين من انثربولوجيين ومؤرخي ما قبل التاريخ بأنه جاء من الشرق الأوسط.

استناداً إلى م.س. شملا M.C. Chamla، يمكن تمييز مجموعتيين مختلفتين من المتوسطيين شبه القدماء، أكثر المجموعتين شيوعاً من النوع الفرعي امجيز II Medjez تتميز بجمجمة مرتفعة، والمجموعة الثانية الأقل انتشاراً من النوع الفرعي عين دوقارة " Ain Dokkara " ذات جمجمة أعلاها أكثر انخفاضاً وأحياناً أدفق[2] دون أن تظهر عليه ملامح زنجية والتي أخطأوا في جذب الاهتمام إليها.

---

(1) استعلمنا تعبير المتوسطى شبه القديم لترجمة المصطلح "Protoméditerraneen". المترجم.

(2) طويل الفكين بارز الأسنان





جمجمة إنسان قفصي من نوع المتوسطى شبه القديم

(موقع مدجز *II*) من الامام والجنب

الحضارة القفصية

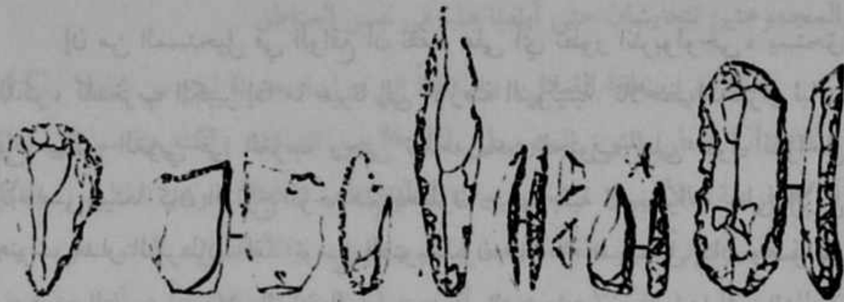
كان هؤلاء الرجال حملة صناعة قبل تاريخية سميت بالقفصية "Capsien"، من الاسم القديم لقفصة التي عثر بالقرب منها على مكونات هذه الثقافة لأول مرة. ويغطي القفصي " Caspien " فترة أقصر من الأيبيرى ـ الموري "Iberomaurusien"، فهو يمتد من الألف الثامن إلى الألف الخامس قبل الميلاد.

بفضل العدد الكبير للمواقع التي عثر فيها على هذه العناصر ـ والتي سميت على سبيل الطرفة بالحلزونيات (Escargotieres) ـ وبفضل نوعية أعمال التنقيب التي جرت في هذه المواقع، عرفنا بشكل مرضٍ القفصيين وأنشطتهم. ويمكننا، بالنسبة لحالتهم، الحديث عن حضارة تُظهر مكوناتها الإقليمية عبر تونس والجزائر، بعض الملامح الثابتة. دون التوقف طويلاً عند صناعة الحجر المميزة بمعدات على شفرات أو نصيلات أحد أطرافها مسوي، ومناقيش، وأجسام ذات أشكال هندسية (أهِلَّة، مثلثات، شبة منحرفات) ـ

وهى في غاية الجمال ـ ولافتة للنظر بنوعيات تشكيلها الذي كان يتم بالضغط أحياناً خلال القفصى الأعلى، وهو ما يعطى نصيلات مميزة. كما أنها متميزة ـ أيضاً ـ بدقة التشطيبات ـ لقطع راقية الصنع. ولكن للقفصى ملامح مميزة أخرى لها أهمية أكبر بالنسبة لعلماء الآثار وعلماء السلالات وأقصد الأعمال الفنية. إنها الأقدم في أفريقيا ويمكن التأكيد بأنها أصل العجائب الفنية للنيولوليتى. ومما يزيدها أهمية أنها منبع الفن البربري. وتظهر هده الأعمال في جانبين؛ النحت والنقش. إن الأحجار القفصية المنحوتة نادرة جداً ومعروفة خاصة في موقع المقطع بالقرب من قفصه (تونس). وهى عبارة عن أشكال مخروطية من الأحجار الجيرية الهشة مزينة أحياناً بحزوز وأقنعة إنسانية أو رؤوس حيوانات. إن الأثر الأكثر إثارة للاهتمام هو تمثال صغير لإنسان يقتصر على الرأس والرقبة وينتهي بشكل مخروطي. إن معالم الوجه في هذا التمثال غير مبينة ولكن الوجه يحمل حزوزاً، بينما الشعر وهو طويل معالج بعناية. إن جزءاً سميكاً من الشعر مقطوع بعناية فوق الجبهة مع خصلتين ثقيلتين تنحدر كل واحدة منهما من جانب وتغطيان الأذنين.

إن النقوش القفصية هي الأكثر إثارة للاهتمام، وهي في أغلب الأحيان على ألواح من الأحجار الجيرية، ونادراً ما تكون على جدران المآوى، والأكثر شيوعاً كذلك مادة لعبت دوراً مهماً عند بعض المجموعات القفصية وهى قشور بيض النعام. وتمثل أعمال الحفر في بعض الأحيان رسوماً، بعضها بدائي لحيوانات وهى بداية للفن العظيم للرسومات الحيوانية للعصر النيوليتى الإفريقي، وهى في غالب الأحيان رسوم تجريدية وهندسية بشكل أساسي. وهذه هي الحالة في أغلب أعمال الزينة على قشور بيض النعام. من بين مجموعات الخطوط المستقيمة، والمنحنيات، والتنقيط تُلاحظ كثرة التربيعات، والشارات والمثلثات، وهناك درجة من العلاقة بين بعض أعمال التزيين القفصية أو النيوليتية هذه وبين ما ما يزال البربر يستعملونه في الوشم والنسج والرسم

على الفخار أو الجدران، وهى علاقة يصعب معها استبعاد الاستمرارية في هذا الميل الفطرى للديكور الهندسي، خاصة وأن شواهد الاستمرار خلال الفترة الانتقالية من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور الحديثة ليست منعدمة.



صناعة حجرية من القفصي النموذجي

(موقع الأوتد. شرق الجزائر)

استقرار البربر القدماء

لا تختلف العناصر البشرية القفصية إلا قليلاً مع السكان الحاليين لأفريقيا الشمالية؛ البربر و " العرب " الذين أهمل الأركيولوجيون، في بداية الأبحاث، الاحتفاظ بهياكلهم العظمية المكتشفة في المحلزات لاعتقادهم بأنها نتيجة أعمال دفن في زمن متأخر. بل إن إحدى هذه الجماجم بقيت لبعض الوقت في قلم محكمة عين مليلة ـ مدينة صغيرة في شرق الجزائر ـ للاشتباه في عملية دفن سرى لضحية جريمة قتل.

مهما كان الأمر، فإن بين أيدينا بالمتوسطيين القفصيين، أول المغاربة الذين يمكن لنا بكل ثقة، وضعهم على رأس سلسلة نسب البربر. هذا يعني

9000 سنة تقريباً!. وتتوافق كل المعطيات على التسليم بأن لهؤلاء القفصيين أصلاً مشرقياً كما قلنا أعلاه. ولكن وصولهم بلغ من القدم درجة تجعل من عدم المبالغة في شيىء القول بأنهم محليون حقيقيون.

إن من المستحيل في الواقع أن نقف على أي تطور انثربولوجي، يستحق الذكر، للمغرب الكبير إذا ما عبرنا إلى الأزمنة النيوليتية. نلاحظ استمرار ثبات نوع مشتى العربي في الغرب وحتى تقدمه نحو الجنوب على طول سواحل الأطلسى بينما كان الزنوج لوحدهم يحتلون حينها بقية الصحراء، على الأقل جنوب مدار السرطان. لقد توسع المتوسطيون القدماء تدريجياً. كان وصولهم في فجر التاريخ، ونلاحظ أن المدفونين في الجشوات[1] وغيرها من النصب الميجاليثيه[2] من النوع المتوسطى أياً كان موقعهم، باستثناء المناطق الجنوبية حيث يمكن تمييز العناصر الزنجية الشكل. عليه يكون المغرب الكبير على الصعيد الأنثروبولوجى متوسطياً ـ وحتى بربرياً ـ منذ ذلك الوقت.

هناك ملاحظة أخرى تفرض نفسها مباشرة: إن بعض هؤلاء المتوسطيين ذوو قامات أقصر، وملامحهم العضلية أقل وضوحاً وعظامهم أقل سمكاً، أي أن هياكلهم أكثر نحافة. إن الاختلافات مع المتوسطيين شبه القدماء ليست حادة: هناك أشكال وسيطة ومراحل انتقالية كثيرة بين المتوسطيين الأقوياء والمتوسطيين الضعفاء. كما لا توجد إزاحة لهؤلاء من أولئك لأن هذين النوعين الفرعيين من العرق المتوسطي مستمران حتى اليوم. تكون المجموعة الأولى النوع الفرعي المتوسطي ـ الأطلسى الممثل بوضوح في أوروبا من شمال إيطاليا حتى جاليسيا[3] Galice، ويسمى الثاني الأيبيرى ـ الجزيري وهو يغلب في جنوب أسبانيا وفي الجزر الإيطالية وشبه الجزيرة الإيطالية.

---

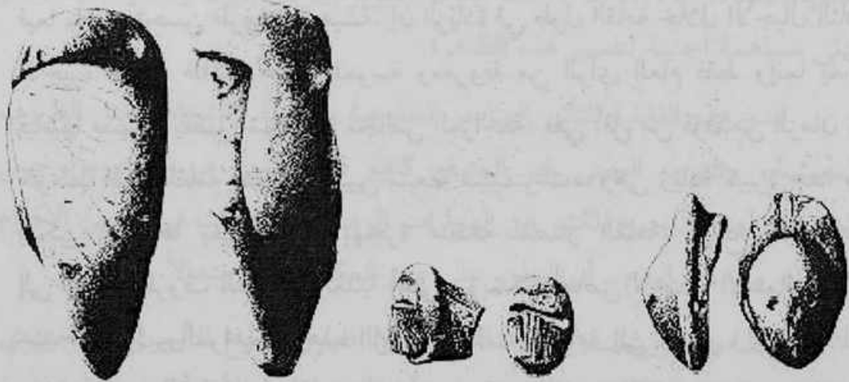
(1) كومة من التراب أو الحجر مخروطية الشكل توضع قديماً فوق القبور. المترجم.

(2) متعلق بآثار ما قبل التاريخ المقامة من الأحجار الضخمة. المترجم.

(3) إقليم في شمال أسبانيا مطل على الأطلسي. المترجم.

إن هذا النوع الفرعي منتشر بكثرة في منطقة التلال الشمال أفريقية خاصة في المرتفعات الساحلية لشمال تونس، ومنطقة القبائل، والريف في شمال المغرب بينما حفظ النوع القوى أكثر عند البربر البدو (الطوارق). لكن المجموعتين تتعايشان حتى أيامنا هذه في نفس المناطق.

هكذا في منطقة القبائل، واستناداً إلى دراسة حديثة لـ م.س شملا M.C. Chamla يغطى النوع المتوسطى 70 % من السكان ولكنه ينقسم إلى ثلاثة أنواع فرعية: الأيبيرى ـ الجزيرى Ibero ـ Insulaire، وهو الغالب، ويتميز بقامة قصيرة إلى متوسطة، ووجه ضيق وطويل، والأطلسي ـ المتوسطى، وهو كذلك ممثل بشكل واسع، وهو أقوى وذو قامة أكثر ارتفاعاً ورأس متوسط، والنوع الفرعي الصحراوي وهو أقل انتشاراً (15%)، ذو قامة طويلة ورأس مستطيل بوجه طويل. هناك عنصرثانٍ يسمى بالألبينى Alpin بسبب قصر رأسه، ووجهه القصير وقامته القصيرة ويمثل حوالي 10 % من السكان تقريباً، ولكن م. س. شملا M.C. Chamla يأبى أن يدمجهم مع الألبيين الحقيقيين، ويميل أكثر إلى تفرع قصير الرأس من النوع المتوسطى.

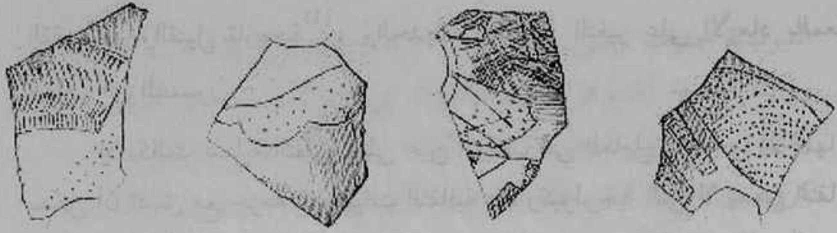


منحوتات صغيرة قفصية في المقطع

كما أن هناك عنصراً ثالثاً له صلة ما بالشكل الأرمنى ويمثل نفس نسبة العنصر السابق في السكان ويتميز بوجه ممدد وجبهة قصيرة. بالإضافة إلى ما تقدم يوجد بعض الأفراد بأعداد صغيرة جداً، لبعضهم ملامح إنسان مشتى العربي، وآخرين مولدين من عنصر زنجي قديم، وأفراد فاتحى لون البشرة والعيـون والشعر.

تعقيد وتنوع

يوضح هذا المثل تنوع سكان المغرب الكبير. لقد تجاوزنا الزمن الذي كانت فيه النموذجية العرقية الهدف النهائي للبحوث الأنثروبولوجية. كان حينها من المغري دمج " الأنـواع " أو " الأعراق " في مجموعات بشرية وافدة اندمجت، طوال قرون، في نوع أو أنواع عديـدة أقدم منها. لقد أثبتت البحوث الحديثة في العالم كله مدى قابلية جسم الإنسان وحساسيته للتغيرات، خاصة فيما يتعلق بتحسن ظروف المعيشة. إن الزيادة في طول القامة خلال الأجيال الثلاثة الأخيرة ليست ظاهرة عامة ملموسة ومعروفة من الرأي العام فقط وإنما يمكن قياسها بسهولة بفضل سجلات مجالس المراجعة. ففي أقل من قرن من الزمان زاد متوسط طول القامة عند الفرنسيين سبعـة سنتيمترات، وهى زيادة كبيرة جداً ولا يمكن تفسيرها بغزو، ولا بهجرة منظمة لقصار القامة. يرجع هذا النمو إلى تحسن ظروف المعيشة وتغذية أغنى، وبشكل خاص لاختفاء الأعمال الشاقة عند الأطفال والمراهقين. هذه الزيادة تختلف من أمة إلى أخرى، كما تختلف داخل نفس الأمة ومن إقليم إلى آخر، كل ذلك بعلاقة مباشرة مع التنمية الاقتصادية. هكذا زاد متوسـط الطول في تيزى أوزو (منطقة القبائل ـ الجزائر)



بقايا قشور بيضة نعام مزينة

بنقوش هندسية من القفصى الأعلى

(مواقع كاف المزاوية، بئر حماريه، وعبرى كلارينف

شرق الجزائر وتونس)

من 164,6 سم إلى 167,4 سم في بضع سنوات بين سنتى 1927م، و 1958م، بينما لم يزد متوسط الطول في المنطقة المجاورة، الأخضرية (بالسترو ـ سابقاً)، وهى أفقر، إلا 1,2 سم بين سنتى 1880م، 1958م، وهى زيادة لا تبدو مهمة.

أثبتت أعمال أخرى أن شكل الجمجمة كان يتغير بـ " انسياق جينى " "Derive Genetique"، كما يقول البيولوجيون، دون إمكانية استحضار أدنى مساهمة أجنبية لتفسير هذه الظاهرة.

تبدو هذه القابلية للتأثر بالعناصر الخارجية والحساسية تجاهها مثل الظروف المعيشية، والتوجه الجينى غير المتوقع كافية عند كثيرين من الأنثروبولوجيين الحديثين لعدم اللجوء للكثير من الهجرات الوهمية والغزوات في تكوين الأقوام القدماء. ويبدو ـ اليوم ـ أن التطور على عين المكان أكثر احتمالاً.

هكذا يفسر شملا M.C. Chamla ظهور التفرع الأيبيرى ـ الجزيري lbero ـ Insulaire في داخل المجموعة المتوسطية الأفريقية بعملية ضمور بسيطة أدت إلى نحافة أكثر. لا يظهر أي اختلاف في أشكال جماجم العصور

القفصية، والقبيل تاريخية[1]، والحديثة، وأقتصر التغير على الأبعاد بالمعنى العام، أي الضمور.

إذا كانت عملية التطور على عين المكان هي العامل الأساس إلا أنها لا يمكن أن تتسق مع حزمة المعطيات الثقافية والأركيولوجية التي لا يمكن النقاش في أنها ذات أصل خارجي.

* الضغط المستمر من المشرق :

يكوِّن المتوسطيون القفصيون الأوائل الأساس لسكان المغرب الكبير الحاليين دون شك، ولكن الحركة التي أتت بهم من الشرق الأوسط إلى شمال أفريقيا لم تتوقف، ولو للحظة، طوال أزمان ما قبل التاريخ. وليس هؤلاء المتوسطيون القفصيون إلا الأسلاف لسلسلة طويلة من المجموعات بعضها قليل العدد، وأخرى أكثر عدداً. لقد قُسِّمت هذه الحركة، التي لم تتوقف تقريباً طوال آلاف السنين، استجابة لحاجات البحث الأركيولوجى والتاريخي، إلى " غزوات " أو " فتوحات " ما هي إلا لحظات في فترة متصلة.

أُدخلت بعد الأزمان القفصية، في النيوليتى، الحيوانات الأليفة؛ الضان والماعز التي كانت أصولها غريبة، وأول النباتات المزروعة التي كانت، كذلك، من مصدر خارجي. لم تصل هذه الحيوانات والنباتات لوحدها، وربما يكون الرجال الذين جلبوها قليلي العدد. في ذلك العصر كان الجزء الأكبر من الصحراء مسكوناً برعاة شكلهم زنجي. ومن المحتمل أن بعض مجموعاتهم تنقلت نحو الشمال حتى وصلت المغرب الكبير بسبب الجفاف الذي حدث بعد الألف الثالث. لقد تم التعرف على بعض النماذج الزنجية الشكل في المواقع

---

(1) لقد استعملنا التعبيرين: شبه تاريخي، وقبيل تاريخي لترجمة لفظ Protohistorique. وهى تعنى المرحلة الانتقالية بين " ما قبل التاريخ ـ Préhistoire " " والتاريخ ـ Histoire ". المترجم.

النيوليتية جنوب تونس، وقد أشار ديودور الصقلي Diodore de Sicile في روايته لحملة أغاتوكل Agathocle في القرن الرابع قبل الميلاد إلى أقوام يشبهون الأثيوبيين (وهو ما يعنى أقواماً سود البشرة) في منطقة التلال التونسية، كروميرى حالياً. لكن هذا الحضور الأفريقي الخالص يبدو ضئيلاً إذا ما قورن بالحركة غير البارزة ـ ولكنها مستمرة ـ التي تواصلت في عصر المعادن عندما ظهر مربو الخيول (" الخيليون ـ Equidiens " في الفن الصخري)، وسائقو العربات ثم الفرسان الذين احتلوا الصحراء واستعبدوا الأثيوبيين.

حتى خلال الحكم الروماني ثم الوندالي والبيزنطي يمكننا تصور التحركات الطويلة للقبائل المشاغبة بعض الشيء خارج خطوط التحصينات الرومانية " Le Limes " ثم في نفس الأراضي التي كونت الإمبراطورية. هكذا كان التجمع القبلي الذي سماه الرومان ليفاتة Levathae (ينطق Leouathae) في القرن الرابع في طرابلس الغرب ثم وجد في العصور الوسطى تحت اسم لواتة بين الأوراس والوارسنيس Ouarsenis. ولواتة، كقبائل كثيرة أخرى، تنتمي إلى مجموعة زناتة وهى الأحدث من بين مجموعات ناطقة بالبربرية تختلف لغتها عن لغة المجموعات الأقدم التي يمكن تسميتها بالبربر القدماءPaleoberberes. إن القلاقل التي أثارها ظهور زناتة بالإضافة إلى الاضطرابات السياسية والدينية والاقتصادية التي عانت منها الولايات الإفريقية، سهلت كثيراً مشاريع الغزو العربية في القرن السابع. بعد ذلك بأربعة قرون، لم يمثل تعاقب الغزوات البدوية لبنى هلال وسليم ومعقل إلا لحظات حفظها التاريخ بسبب نتائجها العميقة الأثر لحركة بدأت قبل ذلك بعشرات الآلاف من السنين.

* الإسهامات المتوسطية :

إذا كان سكان المغرب الكبير قد احتفظوا بتفرد مؤكد عن سكان الشرق الأوسط، سواء من الناحية الجسمانية أو الثقافية، فهذا مرجعه تيار آخر شمال

جنوب تداخل مع التيار الأول، وأثر بقوة تاركاً بصمات على هذه الأراضي الغربية.

لقد ظهر التيار المتوسطي منذ النيوليتى. شهد الساحل المغاربي عندها نفس الزراعات ونفس أساليب صناعة الفخار التي عرفتها المناطق الأخرى في غرب المتوسط. وبينما ظهرت جنوب مضيق جبل طارق تقنيات مميزة مثل الزخرفة بالصدف البحري decor Cardial وهو أسلوب أوروبي يمتد إلى شمال المغرب، انتشرت في الشرق صناعات من السبج[1] أتت من الجزر الإيطالية. لا يمكن تفسير توزيع نصب القبور والمدافن مثل الدلمنات والنواويس[2] المكعبة في عصور أحدث إلا باستقرار دائم لمجموعة أو مجموعات متوسطية قادمة من أوروبا. إن لهذه المساهمة المتوسطية الخالصة أهمية ثقافية أكبر من أهميتها الانثروبولوجية. وإذا كان يمكننا القول بإمكانية انتقال بعض المكونات الثقافية لوحدها إلا أن النصب والطقوس الجنائزية، تبدو لي، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمجموعات العرقية لدرجة لا يمكن معها تصور عبور بناء الدلمنات أو حفر النواويس لمضيق صقلية وانتشاره في شرق المغرب الكبير دون أن يُحضرها أقوام متسقون معهم.

دون التقليل من الأهمية الطاغية لمجموعة المتوسطيين الأوائل Protomediterranean وهى مجموعة قارية أصلها من الشرق وشهدت عمليات إثراء متتابعة، فإنه لا يمكننا إهمال المساهمات المتوسطية الخالصة الأحدث زمنياً والأقل أهمية على الصعيد الأنثروبولوجى ولكنها أكثر ثراء على الصعيد الثقافي.

إن سكان المغرب الكبير وحضارته الريفية وليدا تداخل هذين العنصرين الأساسين بالإضافة إلى مساهمات ثانوية لعناصر جاءت من أسبانيا والصحراء طوال قرون.

---

(1) حجز زجاجي أسود. المترجم.

(2) مفردها ناووس وهو مدفن تحت الأرض.المترجم.

خزفيات صدفية

اشقار. المملكة المغربية

المعطيات اللغوية

لا يمكن إغفال إسهام الدراسات اللغوية في محاولات تحديد أصول البربر باعتبار أن اللغة، اليوم، هي العامل الأكثر أصالة المميز للمجموعات البربرية المبعثرة في الربع الشمالي ـ الغربي للقارة الإفريقية.

* حذر ضروري :

تبنت اللغات البربرية الكثير من الكلمات الأجنبية وبربرتها بسهولة: فنجد في البربرية كلمات لاتينية وعربية (يقدر عدد المفردات المأخوذة عن العربية بـ35 %، في لغة القبائل)، وفرنسية، وأسبانية.... يبدو أن اللغة الليبية كانت سهلة التأثر بالغزو اللغوي.

عليه، لابد لنا من التحفظ أمام الاقتراحات العديدة والعشوائية لربط علاقة بين البربرية ولغات أجنبية قديمة مختلفة قَدمَّها هواة أو بحاث غير حذرين. فحسب برثولون Bertholon، تعتبر اللغة الليبية لهجة هيلينية جاء بها الثراسيون ويرى فيها آخرون تأثيرات سومرية أو طورانية. وفي وقت أقرب، أُبرز الأصل القديم الباسكى استناداً إلى حجج أقل صبيانية. في بداية القرن[1] كان

(1) المقصود القرن العشرون. المترجم

الهواة يعتقدون أن في استطاعتهم تأسيس القرابة اعتماداً على تكوين قوائم طويلة من المفردات اللغوية ومقابلتها بمفردات من اللغة موضوع المقارنة. إن مثل هذه المقاربات سهلة، هكذا يمكن ملاحظة توافقات غريبة للمفردات اللغوية البربرية مع اللهجات الهندية الأمريكية كما مع اللغة الفنلندية.

يشرح هذا الهذيان الثقافي الموقف شديد التحفظ للمتخصصين في البربر، الذي يذهب أحياناً إلى حد الشك في العلاقة بين البربرية والليبية، أو على وجه الدقة، وصل الحذر بهؤلاء المتخصصين إلى حد دفعهم إلى التأكد من أن اللغة المكتوبة بحروف ليبية هي في حقيقتها شكل من أشكال البربرية القديمة.

يظهر هذا الموقف الحذر في نص شهير لـ أ. باسي A. Basset: "باختصار يستند المفهوم السائد بأن اللغة البربرية، لغة محلية واللغة المحلية الوحيدة حتى فترة من ما قبل التاريخ، أساساً إلى حجج سالبة، فلم تقدم لنا البربرية أبداً كلغة أدخلت، ولم يؤكد لنا أبداً وجود أي لغة محلية أخرى أو اختفاؤها". (La Langue berbere. LAfrique et L'Asie ،1956)

* النقوش الليبية :

تبقى أغلب النقوش الليبية عصية على القراءة والفهم، بالرغم من عددها وانقضاء قرن من البحث. إنه وضع غريب، كما أشار مؤخراً س. شاكر، خاصة وأن في حوزة اللغويين الكثير من الأوراق التي منها: كتابات بلغتين بونيقية ـ ليبية، ولاتينية ـ ليبية، ومعرفة الشكل الحديث للغة، وإذا لم يكن لدينا البرهان القاطع على وحدة لغة أقوام شمال أفريقيا القدماء فإن كل المعطيات التاريخية والمواقعية والأعلامية والمفردات اللغوية، وشهادات المؤلفين العرب، تؤكد القرابة بين اللغتين الليبية والبربرية. وباستعمال الحجة السالبة التي أوردها أ.باسى A.Basset ـ ولكنها قوية في رأيي! ـ، التي تقول بأنه إذا لم تكن الليبية شكلاً قديماً من البربرية فليس بوسعنا أن نرى متى وكيف تكونت البربرية.

لسوء الحظ، لا يسعفنا النظام الكتابي للغة الليبية، المكون من الحروف الصامتة فقط، في إعادة التكوين الكامل للغة التي ينقلها.

* قرابة البربرية بلغات أخرى :

بالرغم مما تقدم، اقتُرح تأثر اللغة البربرية باللغات الأخرى القريبة منها جغرافياً في وقت متقدم، ونستطيع القول منذ بداية الدراسات. فمنذ 1838 م، وضح شامبليون Champollion علاقة قرابة بين البربرية واللغة المصرية القديمة في تقديمه لمعجم اللغة البربرية Dictionnaire de Langue berbere لـ فانتور دى برادي Venture de Paradis. كما قال آخرون ـ وهم كثيرون ـ بعلاقة اللغة البربرية بالسامية. وكان لابد من انتظار التقدم الحاسم الذي تحقق في دراسة السامية القديمة ليقترح م. كوهن M. Cohen سنة 1924م دمج البربرية في الأسرة الكبيرة المسماة الحامية ـ السامية Chamito ـ Semitique التي تضم بالإضافة إلى المصرية القديمة (والقبطية التي هى شكلها الحديث) الكوشية والسامية. ولكل واحدة من هذه المجموعات اللغوية ما تتفرد به ولكن بينها من القرب ما جعل مختلف المتخصصين يسلمون بمقترح م. كوهن M. Cohen.

لا يقتصر هذا التماثل على مجرد تشابه المفردات ولكنه يؤثر في بناء اللغة ذاته، مثل نظام الأفعال، والتصريف وملامح الجذور الثلاثية للكلمات وذلك بالرغم من أن في البربرية الكثير من الجذور الثنائية، ولكن هذا يعود إلى " البِليَ " الصوتي وهو قوى في البربرية بشكل خاص، ويسلم بذلك كل المتخصصين.

مهما يكن من الأمر، تؤكد القرابةَ الملاحظة داخل المجموعة الحامية ـ السامية بين البربرية والمصرية والسامية المعطياتُ الأنثروبولوجية التي تشهد، هي كذلك، على الأصل المشرقي البعيد للبربر.

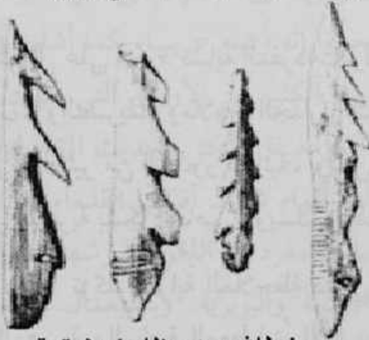


نصب ليبي من إقليم هيبون

(عنابة . الجزائر)

احتلال البربر القدماء للصحراء

تحد اليوم، أكبر صحراء في العالم بلدان المغرب الكبير. وفي الوقت الذي بدأت فيه المغامرة البربرية بوصول المتوسطين القفصيين القدماء قبل ميلاد المسيح بحوالي سبعة آلاف سنه لم تكن الصحراء قاحلة تماماً بعد، بل كانت في وسطها موطن حضارة أكثر أهمية من بربريا الشمالية.



خطاف من عظام نيوليتية

اراووان . مالي

* الصحراء النيوليتية :

بدأت الظواهر الثقافية الشديدة التعقيد، التي يضمها مؤرخو ما قبل التاريخ تحت اللفظ " Neolithisation "، في مرتفعات وسط الصحراء قبل ألفي سنة من بدئها في الأقاليم الشمالية. كانت مناطق شاسعة، خاصة الأكثر انخفاضاً، قد أصبحت قاحلة، ولكن بحيرات يبلغ عمقها أحياناً عشرات الأمتار كانت تغطي مساحات كبيرة تكسوها اليوم تلال من الرمال وطبقات من الأحجار العضوية في جنوب تبستي وتاسيلي انجار وفي جنوب وغرب الهوقار، وكذلك في الجزء الجنوبي من موريتانيا. هكذا توجد مواقع على ضفاف هذه البحيرات القديمة أو على طول الوديان ذات التدفق شبه المستمر التي كانت تغذيها، تشتمل أحياناً على بقايا أسماك ذات أحجام كبيرة نوعاً ما ومعدات صيد مثل الصنارات والمخاطيف من عظام، وهي غير متوقعة الوجود في مثل هذا البحر من الرمال. ويُظهر تحليل حبوب اللقاح ـ بالرغم من أنها لا تقدم نتائج مؤكدة في الصحراء ـ أن مناخاً رطباً إلى حد ما كان مستقراً في الألف السابع في الجبال لدرجة أن القمم، وهى مرتفعة جداً (Tahat, 2910 م)، كانت تغطيها الأحراج المورقة، وأشجار البلوط والزيزفون والجوز وجار الماء والدردار، بينما صنوبر الألب يمتد على السفوح والمناطق المنخفضة حيث كانت تنمو كذلك أشجار العرعر والميس والبطوم والزيتون.



منظر لطقوس من الرقص والقفز البهلواني حول ثور.
رسم من الأسلوب البقري. تى. ن. هاناكاتن. (تاسيلي انجار)

في هذا المحيط الطبيعي انتظمت أول حضارة لها صناعة الخزف، ويبدو أن هذه الحضارة لم تأخذ شيئاً من الخارج. وهي سابقة للنيوليتى (تقع أغلب التواريخ الأقدم بين 7000 و 6000 قبل الميلاد)، أو على الأقل في قدم النيوليتى في بلدان حوض النيل. في جميع الأحوال، ليس لهذه الحضارة أي جذور متوسطية، فقد كان قاطنو وسط الصحراء حينها ذوي طابع زنجي. لقد وجدت هذه البقايا البشرية جنوب خط يتراوح بين خطي عرض 25 درجة و27 درجة شمالاً، وتفصل النيوليتي ذا الطابع القفصي عن النيوليتي الصحراوي ـ السوداني.

❊ الفنانون البقريون. ظهور المتوسطيين :

ظهر تغير ظاهر في السكان في النيوليتي المتوسط الذي يتوافق في الفن الحجري مع المرحلة البقرية التي سميت هكذا بسبب كثرة رسوم قطعان الأبقار الأليفة. فقد ظهر أقوام من الجنس الأبيض في تاسيلي، وإليهم تعود أجمل الجدرانيات (style d' Iherir). ولكن الزنوجة تغلب كمياً: فالرجال عادة ممشوقو القوام ولهم لحي صغيرة غالباً، ويشبهون كثيراً الفلانيين الذين يتنقلون في أيامنا الحالية في منطقة الساحل. كما تصفف بعض النساء شعورهن في شكل خوذة تشبه ما عند بعض الأقوام النيليين حتى اليوم، وفي هذه المجموعة زنوج حقيقيون طويلو الفكين بارزو الأسنان، غليظو الشفاه وذوو شعر أجعد.

في المجموعة الأخرى، التي يبدو أنها أحدث، تظهر بجلاء الملامح المتوسطيـة للوجوه. فللرجال شعور طويلة، ولحي رقيقة بارزة إلى الأمام في أكثر الأحيان. وتغطى وجوه الرجال والنساء والأطفال، في بعض الرسوم، كما فـي إقليـم أهيريـر Iherir (ابرى كين Abri Khene)، رسوم أو وشوم. بينما يرتدي الرجال إزرات بسيطة وأحياناً قبعات، ترتدى النساء أثواباً توحى زخارفها بأنها مصنوعة من نسيج. وتبدو النساء مزينة ببذخ في بعض المناسبات بتنورات



صيد الأسد

(أسلوب بقري حديث اهرن (تاسيلي انجار)

دائرية وأوشحة طويلة. ولممارسة أعمالهن المنزلية تثبت النساء إلى الثوب واقياً يغطي الجزء الأسفل مصنوعاً من جلد الماعز أو الغزال.

لدينا ـ بكل وضوح ـ في هذه الرسوم صور لأوائل السكان المتوسطيين الذي كانوا يتوغلون في الصحراء. من ثم فإن من الصعب تحديد تاريخ وصولهم وأماكنهم الأصلية. لقد استمرت المرحلة البقرية من الألف الرابع إلى منتصف الألف الثاني، ولا نعرف على وجه التحديد الزمن الذي شهد أول ظهور للبِيض خلال هذه المرحلة. ويبدو أنهم قاموا بتربية الحيوانات الصغيرة أكثر من الزنوج، بالرغم من أنه ليس في حوزتنا أي أحصائيات حول الموضوع. ولما كانت تربية الحيوانات الصغيرة أقل في متطلباتها من تربية الأبقار فإن من الممكن التفكير في أن يكون وصولهم في نهاية فترة رسوم مرحلة البقريين عندما كان الجفـاف يزداد. تسند هذا الرأى بعض الملامح الثقافية المشتركة مع الخيليين Equidiens.

أما عن أصلهم فمن المعتقد أنه شمالي. استناداً إلى هذا الرأي، صعد هؤلاء الرعاة من المنخفضات الصحراوية الجزائرية التونسية إلى مرتفعات وسط الصحراء حيث دخلوا في اتصال مع أحفاد زنوج النيوليتى الصحراوى - السوداني.

لا يبدو أن المغرب الكبير كان مجرد جسر للأقوام البيض الذين توغلوا في الصحراء. كان من الممكن أن هؤلاء أتوا مباشرة من الشرق بالتفافهم حول تبستي من الشمال أو بالوصول إلى وسط الصحراء عبر فزان بعد سلوكهم شواطئ برقة.

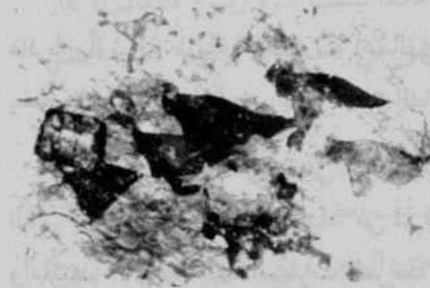


انيقات تاسيلي

أسلوب بقري حديث، اهيرين

(ينتمي هذا المنظر لنفس جدارية المنظر

السابق الذي يمثل أشخاصاً من النوع المتوسطى)



ثيران حاملة

في اهيرين (تاسيلي انجار)



راع وصياد في نفس الوقت، يحمل هذا الرجل من النوع المتوسطي

رسوماً على الوجه. وهو مسلح برمح وعصا قذف. ينتمي الخروف إلى نوع

" ***Ovis Longipes*** " مثل الخراف الطوارقية والسودانية الحالية.

(اهيرين. تاسيلي انجار)



رسوم من الأسلوب الخيلي

في تمادجرت (تاسيلي انجار)

* الخيليون، سائقو العربات :

تزايدت الأهمية الاجتماعية وربما الديموغرافية للأقوام المتوسطيين طوال المرحلة اللاحقة التي تتوافق مع النيوليتي الأخير والأزمان شبه التاريخية " Protohistorique ". وتعرف هذه المرحلة، فيما يتعلق بالجانب الفني بالعصر الخيلى " époque caballine " ويسمى بالخيليين " Equidiens " الأقوام الذين ربوا منذ ذلك الوقت الخيول، التي مثلوها باهتمام في أعمالهم الفنية في الكهوف.

يمثل ظهور الحصان في أفريقيا ظاهرة تاريخية سابقة بقليل لغزو الهكسوس لمصر كما أوضحت ذلك أعمال التنقيب في النوبة. والحصان معروف جيداً في مصر منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد، ومن المسلم به أنه أنتشر من هناك بسرعة عبر الصحراء ليصل بعد ذلك إلى شمال أفريقيا. ومن هذا الحصان الأول بَقِيَ نوعان متجاوران حتى الآن؛ أحدهما على النيل السوداني وهو النوع الدنقلى، والآخر في المغرب الكبير وهو النوع المغربي. ويتفرد الحصان الإفريقي، بنوعيه الدنقلاوى والمغربي، ببعض الخواص: فهو، مثل الحمار، ليس له إلا خمس فقرات صُلبية بخلاف الخيول الأخرى التي لديها ست فقرات. ورأس هذا الحصان كبير إلى حد ما ومحدب جانبياً وكفله قصير منخفض ومنبت الذيل واطئ. وهذا النوع في مجموعه ليس حسن المظهر لكن قدرته على تحمل المشاق والجوع والعطش والسير في الأراضي الجبلية تجعل منه ركوبة ثمينة. والنوع المغربي ركوبة الخيالة الخفيفة الممتازة من مسينيسا إلى الأمير عبد القادر، لعب دوراً حاسماً طوال التاريخ المغاربي!

يقر البيولوجيون والأركيولوجيون جميعهم، بالأصل الشرق اوسطى للحصان المغربي. بالرغم من ذلك، هناك من يدعون بأصله المحلي الشمال إفريقي أو بأنه من أصول أوروبية. ولكن لا يمكن القبول بهذين الإدعائين. فلا يوجد أي حصان حقيقي " Equus Caballus " في أفريقيا في بداية عصر الهولوسين " Holocene " بينما لا تنعدم بقايا الحمير ورسومها.

من السهل التعرف على الأعمال الفنية للخيليين من رسوم ونقوش، وذلك بسبب أسلوبهم الخاص. فبالرغم مـن نوعيتها الفنية الكبيرة إلا أنها أقل واقعية من مناظر البقريين الكبيرة. فأوضاع الحيوانات وحركات الأشخاص المرسومة عند الخيليين، متيبسة خالية من الحركة، وهناك تفصيل مهم يتمثل في أن الوجوه غير موضحة، وتوضع محلها تلقائياً ألواح أو أعواد قصب مشطورة؛ يتعلق الأمر بمحرم حقيقي. تناقصت أعداد البقريات بسبب الجفاف وأصبحت سيقانها طويلة ومتصلبة، أما الخيول فهي مرسومة غالباً في حالة عدو ـ طائر في شكل ثابت لكنه ديناميكي، ومربوطة إلى عربات خفيفة يقودها حوذي واحد.

لقد اهتم المؤرخون بهذه العربات الصحراوية، ويمكننا القول إن هذا الاهتمام كان منذ بدايات التاريـخ لأن هيرودوت أشـار إليها مرتين. كانت المرة الأولى ليقول إن الجرمنتيين " Garamantes " الذين سكنوا فزان الحالية وتاسيلي انجار كانوا يطاردون الأثيوبيين على عرباتهم ذات الأربعة خيول، وأكد في الثانية أن الليبيين هم الذين علَّموا الإغريق ربط العربات إلى أربعة خيول. وقد لا يخلو هذا التأكيد من أهمية عندما نفكر في التشابه المثير بين رسوم المزهريات الإغريقية في المرحلة الهندسية (خاصة مزهريات ديبيلون Dipylon) والرسوم الخيلية epuidiennes؛ فحتى الأشكال العامة للخيول ومعدات سائقي العربات تقدم تشابهاً مدهشاً!.

بالرغم مما تقدم، كانت العربات الصحراوية غالباً بجوادين، ولكن في فزان، بلاد الجرمنتيين على وجه التحديد، وجدت نقوش نادرة تمثل عربات من ذات الأربعة خيول. كما أن رسوماً نادرة لعربات ذات أربعة خيول ذكرت في الأطلس الصحراوي وتاسيلي، وتبدو هذه أحدث من العربات ذات الجوادين. إن خفة العربات ذات الجوادين تستبعد فكرة أن هذه العربات استعملت في نقل البضائع، بل كان من الصعب أن يركبها أكثر من شخص

بسبب المركب المصنوع من الجلد المضفور. إن " طرق العربات " المزعومة والمرسومة عشوائياً على خرائط بربط نقاط وجدت فيها رسومات عربات، ليست مسالك للسير ومن الواضح أن العربات رسمت في مواقع لا يمكن أنها عبرتها: مثل الأنقاض أو المرتفعات التي لا يمكن للجمال والحمير الوصول إليها إلا بصعوبة.





عربات ذات أربعة خيول
رسوم وادي زقزة (فزان)



عربة ذات أربعة خيول
مرسومة في صافية البارود
(الجزائر)

يوحى ما سبق أن العربة الصحراوية كانت للوجاهة، وليست للاستخدام العادي. أو لم تكن كذلك في الإلياذة التي توضح لنا أن الأبطال كانوا يركبون عرباتهم للذهاب إلى ميدان المعركة، ولكنهم يحاربون راجلين؟

إن طريقة الصحراوية لربط الخيول إلى العربة التي درست بالتفصيل حديثاً من قبل ج.سبرويت Spruytte, J ثم كانت موضوع إعادة تكوين، طريقة فريدة تختلف عن طريقة الربط المصرية وطريقة الربط الإغريقية. إنها في منتهى البساطة، فليست للحيوان أطواق على الأكتاف ولا لبب. ويربط مجر العربة

أحياناً إلى الرأس وأحياناً أخرى إلى قضيب مستعرض يمر تحت رقبة الحصان حسب ج. سبرويت J Spruytte، والوصلة ليست موضحة بدقة على الرسوم، ومن المعتقد أنها حبل مرن. وتصل الأعنةُ السائقَ مباشرة بفم الحصان ومن ثم فهي طويلة دون أي نظام تحكم جانبي. لعل هذا هو السبب في أن الخيليين كانوا في أحيان كثيرة، يقطعون ذيول خيولهم حتى لا تتعقد الأعنة مع شعر الذيل. وللسبب نفسه يبدو أن الأعراف كانت تقص قصيرة. لكن استعمالات شعر الذيل قد تقدم تفسيراً لقطعها.

كان الخيليون مسلحين بالحراب والرماح، وكان الرجال يلبسون تنانير أو جلاليب قصيرة متصلبة تتوقف عند منتصف الفخذ وتتوسع في طرفها. تبدو هذه التنانير متشابهة في كل شيء مع التبتك Tebetik التي كان يلبسها حتى وقت قصير الفقراء والعبيد في الهوقار. كانت النساء ترتدى أثواباً طويلة تتسع أحياناً، وتبقى مستقيمة في أحيان أخرى، وتمتد حتى العرقوب. وتوحي بعض الرسومات مثل رسومات كهف تامادجرت Tamadjert أن الفتيات كن يلبسن تنانير قصيرة بثنيات مثيرة.

يبدو أن الخيليين سائقي العربات، كونوا طبقة محاربة، فرضت سلطتها على الأقوام من أشباه الزنوج، أو بتعبير أدق، سود البشرة الذين سبقوا الخيليين ولم يكونوا قد اختفوا بعد. إن هؤلاء غير ممثلين في الرسوم والنقوش الصخرية، ولكن هذا لا يدهش؛ فالقاعدة العامة تقضي بألا يظهر في الفن الرسمي إلا العرق الحاكم. حتى في أيامنا هذه، تمثل النقوش دائماً جمَّالين عرباً - بربراً مسلحين بالحراب والبنادق، ولا تمثل قط مزارعي الواحات السود وهم يمثلون ثمانية أعشار سكان الصحراء.

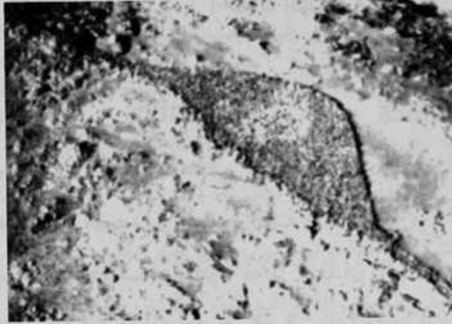
* * *

* **الفرسان الليبيون ـ البربر، أحفاد الطوارق :**

ترك الخيليون العربة وأصبحوا فرساناً فقط، وسيعرفون عند قدماء المؤرخين بالجيتوليين Getules والجرمنتيين Garamantes. وقد أحكم هؤلاء الفرسان من جنس متوسطى سيطرتهم شيئاً فشيئاً على سكان الصحراء بينما لم يستطع أسلافهم ذوو البشرة البنية الاستمرار في تربية قطعانهم الضخمة مـن البقر بسبب الجفاف وهبطوا نحو البلدان المنخفضة؛ النيجر والسنغال وتشاد أو انحصروا في مساحات ضيقة في الواحات النادرة وقبلوا حكم البدو البيض من البربر القدماء paleoberberes.

ترك هؤلاء الحكام المحاربون المسلحون بالحراب والخناجر ذات المقابض ثم بسيوف الطوارق الكبيرة آثارهم على صخور الصحراء. فهم أصحاب هذا الفن المبسط الذي يُظهر ركوباتهم وعمليات صيدهم للنعام والوعول أو الأسود، لكنهم يحبون، بشكل خاص، أن يرسموا أنفسهم في جبهية ساذجة ناسية رقة أسلوب البقريين أو حتى الخيليين القدماء، الرأس يعلوه ريش نعام ويلبسون جلابيب ضيقة جداً على الخصر، وهو ما يعطيهم شكلاً غريباً يوحى بالساعة الرملية. وسادة الصحراء هؤلاء المسلحون دائماً أو بشكل شبه دائم، هم الأسلاف المباشرون للطوارق.

سننسب إلى هؤلاء الرؤساء، عن طيب خاطر، النصب الجنائزية أو التعبدية المهمة المصنوعة من الحجر المجفف والتي يتجاوز طول بعضها في تاسيلي نجار 300 متر. وهي إما أعمال تبليط ضخمة في شكل هلال مفتوح نحو الشرق تمتد أحياناً بتفرعات، وإما نصبا لها فراغات دائرية أو بيضاوية وممراتها الموصلة إلى الركام المركزى موجهة نحو الشرق أيضاً، أو بازينات Bazinas كبيـرة مرتبة بعناية ومزودة باماكن مختلفة للتعبد مثل الممرات، والكوات، والمذابح، والأحجار المنصوبة..... إن النصب الجنائزية كثيرة جداً ومتنوعة للغاية في وسط الصحراء وغربها، وكان فقراء الناس يكتفون بمجرد كومة من الحجر أو التراب أو نصب صغيرة دائرية.



أدبني (نصب للموتي من الحجر المجفف بتفرعات على المحور.

منطقة عين اكر (الهوقار)



ادبنى نصب بتفرعات في شكل V من منطقة عين اكر

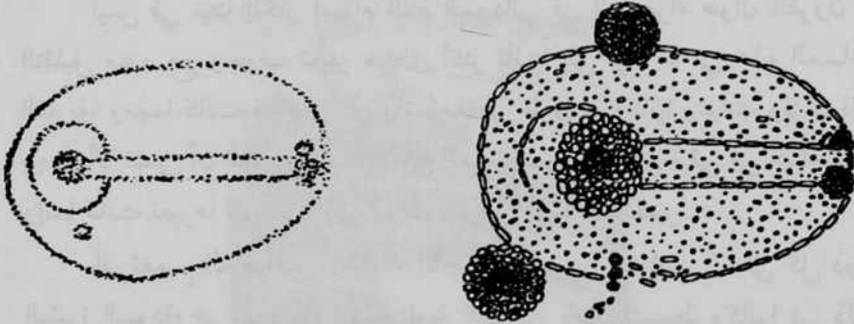


محارب وحصانه رسم في اكادن

اارني، الايير ـ النيجر

المزارعون السود

هكذا نصل إلى الاستنتاج بأن الشعوب السوداء سكنت الصحراء دائماً ولكنها خضعت تدريجياً لهيمنة البربر القدماء: خيليين، وجرمنتيين، وجيتوليين ثم طوارق، وعرباً ـ بربراً في شمال الصحراء. لم يختف الصحراويون سود البشرة قبيل التاريخيين، ومن المؤكد أنه لم يكن في استطاعة أحفادهم الهاراتين (الذين يسمون بالتماشق إزقاغن وتعني الحمر) الاحتفاظ بخصائص الأثيوبيين وهي عديدة وغير دقيقة. ولا شك أيضاً، أنهم تأثروا خلال القرون بدماء زنجية خالصة من أصول سودانية في العديد من المرات. وإذا كان علينا أن نبحث في المجموعات البشرية الحالية عن هؤلاء الذين حافظوا على خصائص الأثيوبيين القدماء فيجب أن نلتفت إلى التبو والفولاني.



نصب كبيرة بأسوار.

فادنون (تاسيلي انجار)

يصل طول المحور الكبير للنصب اليساري 78 متراً

يعيش هؤلاء الأقوام ـ التبو والفولاني ـ في المنطقة الواقعة مباشرة جنوب مدار السرطان التي تقسم الصحراء إلى منحدرين، أحدهما يغلب فيه البيض

والآخر يقطنه السود بالكامل تقريباً. وقد اعتقد لفترة طويلة من الزمن أنهم مولَّدون من الاتصال بين المجموعتين الكبيرتين، المتوسطيين والسودانيين، وهكذا تكونت ملامحهم المميزة. ومن هنا جاء القول بأن للتبو دماء بربرية في أجسام سودانية. إن الدراسات الأحدث تؤيد فرضية قديمة (Vallois 1951) تقول بأن هذه المجموعات المختلفة تتكون " من مخزون بدائي لم يشهد تغيرات لا في اتجاه التحول إلى السود ولا في اتجاه التحول إلى البيض. وأن التزاوج بين السود والبيض لم يكن إلا ثانوياً، مغيراً في مواقع مختلفة الجنس المحلي ليقربه أحياناً من السود وأحياناً أخرى من البيض ".

إننا نعتقد بأن الهاراتين من أصول محلية وهم أحفاد الأثيوبيين تهجنوا بعض الشيء خلال الآلاف الأخيرة مع عناصر بيض متوسطيين (ليبيون ـ بربر ثم عرب ـ بربر) في شمال الصحراء ووسطها، ومع أشباه الزنوج السودانيين في الجزء الجنوبي والغربي منها.

ليس في نيتنا إنكار إسهام الدم السوداني في الصحراء طوال القرون أو التقليل منه، مع وجوب تمييز مناطق أكثر تأثيراً إلى حد ما في هذه المساحة القارية. ومهما كانت فظاعة الرق واتساعه عبر طرق موريتانيا وتوات وفزان فإننا يجب ألا ننسى أن الغالبية الساحقة من العبيد السود لم تكن تبقى في الواحات، وإنما كانت تعبرها للوصول إلى المدن وموانئ المغرب الكبير.

إن تعميم الجغرافيين وعلماء الأجناس لتعبير " هاراتين " على كل ذوى البشرة السوداء في المناطق الصحراوية كان من باب التبسيط وكانوا في ذلك على نهج كرسته الإدارات.

مهما كان أصل الكلمة، لا أعتقد أننا يجب أن نعطي بالضرورة محتوى عرقياً لمفردة ذات مدلول اجتماعي ـ اقتصادي: فالهاراتي هوبستاني مستعبد إلى حد ما من قبل البربر المحتلين (الذين تعود هيمنتهم في الغالب لنهاية النيوليتي) وهم من الجنس الأبيض، بينما كان المُستعبَدون من الملونين المختلفين عن الزنوج الحقيقيين في المناطق السودانية.

الهاراتيون بقايا أقوام قضت الظروف المناخية والسياسية بحصرهم في الواحات بينما لم يعرف أسلافهم الأثيوبيون ـ وهم لابد مختلفون فيما بينهم ـ حياة الاستقرار. وخضع الهاراتيون لعمليات تهجين مختلفة فتميزوا عن المجموعات السوداء الأخرى من غير أشباه الزنوج في شمال القارة الأفريقية.

ليس من المستغرب في شيء هذه الاختلافات الحادة بين الهاراتيين والفولانيين والتبو، ثلاثتهم ـ في تقديرنا ـ أحفاد الأثيوبيين من العصر النيوليتي والعصر شبه التاريخي Protohistorique والعصر القديم وذلك لأن الوثائق النادرة الأدبية والفنية المتعلقة بعلم العظام التي في حوزتنا توضح أن أولئك الأثيوبيين كانوا شديدي الاختلاف فيما بينهم. بالإضافة إلى التنوع في أساليب الحياة (ومن ثم النظم الغذائية) بين الهاراتيين المستقرين في واحات شمال الصحراء ووسطها، والتبو البدو في تبستي، والفولاني الرعاة في منطقة الساحل، لا يمكن إلا أن تكون له آثار جسمانية متباعدة على هذه المجموعات الثلاث المنبثقة من أقدم السكان الصحراويين.



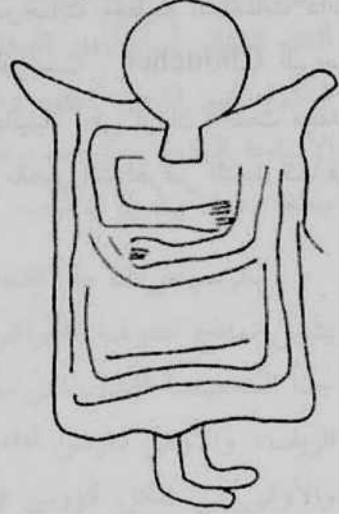
قواس زنجي الشكل من عصر البقريين. تحمل الثيران على قرونها هياكل أكواخ وهي ممارسة لازالت موجودة عند الفولاني. ملجأ جبارين (تسيلي نجار)

الفصل الثاني

أقوام على هامش التاريخ

أقوام على هامش التاريخ

البربر القدماء في الأزمان شبه التاريخية



تسمح المعطيات الأنثروبولوجية واللغوية بمعرفة مدى قدم أقوام البربر. هل من الممكن تعميق معارفنا عن هؤلاء الأقوام إلى ما قبل أن تعطينا النصوص المكتوبة بعض الإيضاحات؟. ليس لعلم الآثار شبه التاريخية إلا مصدر واحد في أفريقيا الشمالية: أعمال التنقيب في آثار المقابر والمدافن. ولحسن الحظ فإن هذه الآثار كثيرة إذ إن الجثوات[1] والدلمنات[2] والنواويس[3] تعد بالآلاف:

النصب الجنائزية :

تتوزع الجثوات بانتظام في كل شمال أفريقيا، ويبدوا أنها محلية. بعضها مرتب بطريقة متميزة تعطيها أحياناً شكلاً معمارياً خاصاً مثل البازينات[4] ذات

---

(1) الجثوات: جمع جثوة وهى نصب مخروطي الشكل من التراب أو الحجر فوق قبر. المترجم.

(2) الدلمن: أثر من ما قبل التاريخ، عبارة عن حجر مسطح فوق عدد من الأحجار الرأسية. المترجم.

(3) ناووس: مدفن تحت الأرض. المترجم.

(4) " بازنيات (جمع بازينة) وهى مدافن تحت رجام مخروطية الشكل من حجارة كلها، أو نصفها من حجارة ونصفها من تراب " ـ من ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة لتاريخ أفريقيا الشمالية (ش. أ. جوليان). المترجم.

الدرج أو الأسطوانية ـ المخروطية. وبالعكس، يقتصر وجود الدلمنات والنواويس على مناطق محددة في شرق الجزائر وتونس وهى من أصل أجنبي متوسطي، وغير معروفة في الصحراء وفي الجزء الأكبر من المغرب الكبير. والدلمنات على الشاطئ بسيطة مزودة بممر رمزى مغطي، بينما في الداخل اندمجت الدلمنات مع البازينات المحلية بدرجات معطية الدلمنات ذات القاعدة، والدلمنات ذات الغلاف وحتى الشوشيت[(1)] Chouchet البرجية الشكل في الأوراس. تبدو بعض النصب الميجاليثية[(2)] في أزمان أحدث معقدة تعقيداً كبيراً؛ حجرات متعددة مع أورقة وحتى مقصورات لغرض التعبد كما في مكثر وألاز في وسط تونس.



حوانيت (نواويس)

محفورة في حجر صواني في سجنان (تونس)

---

(1) تسمية محلية لهذا النوع من النصب. المترجم

(2) ميجاليثى: متعلق بآثار ما قبل التاريخ المبنية من الحجارة الضخمة. المترجم

❊ أثاث المقابر وأساليب الحياة :

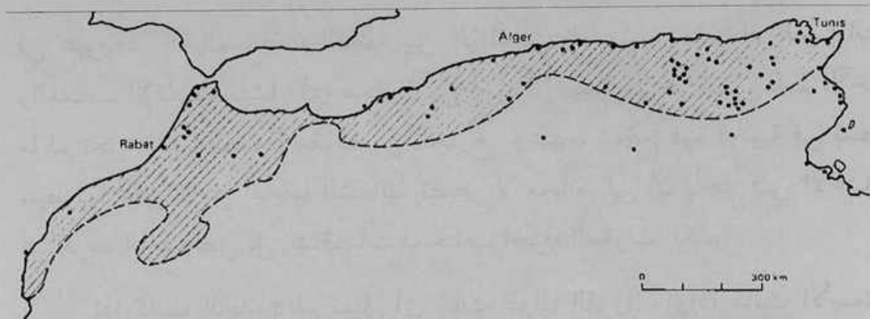
ستشد النموذجية شديدة التنوع لمقابر الفترة شبه التاريخية Protohistorique، وما وُضع فيها من أثاث، الانتباه لأن هذا الأثاث يشهد على مدى قدم ما يمكن أن نسميه منذ الآن، الحضارة الريفية البربرية. يتكون أثاث المقابر أساساً من الفخار المجسم، وذلك إذا ما استثنينا بعض الحلي النادرة التي تشمل أساور وخلاخيل وحلقاً من النحاس والبرونز، وبعض الأسلحة النادرة جداً المصنوعة من البرونز أو الحديد والمحصورة في مدافن منطقة وهران وشرق المغرب.

بالرغم من أن هذا الفخار شُكّل خصيصاً وحرق ليوضع في القبور فإنه يشمل نماذج متنوعة لأغراض مختلفة. لنترك مؤقتاً الأشياء الخزفية الصغيرة جداً المخصصة للنذور التي نجد مثيلاتها اليوم موضوعة في أماكن التبرك في الريف، والأواني لغرض أداء الطقوس مثل المزهريات البيضاوية في قسطل والأواني في شكل كؤوس في تيديس Tiddis المتميزة بزخرفة مطابقة للزخرفة التي يحملها الفخار الريفي حالياً (cf.ch.lVetV). سنفحص بسرعة الأشكال التي تحاكي الأشياء المنزلية. إن أكثرها هي الأقداح، والقصاع منها شكل مهذب سمى بالجفنة وآخر عميق سمى بالكأس. هذه الأواني البسيطة تُكون حتى اليوم الأساس للفخار المنزلي المغربي. وهناك صحون واسعة جداً مرتفعة الحواف ولها مثل الطواجين الحالية بروزات حلقية في القاع، وهى أطباق ما زالت تستخدم حتى اليوم لطهى الفطائر.

تتميز أعداد كبيرة من الصحون، والكؤوس، والأغطية، وبعض الأقداح والجفان بثقوب على الحواف موزعة في مجموعات، كل مجموعة من ثقبين. وتمثل هذه الثقوب لغرض التعليق، بالنسبة لعلماء الآثار وعلماء السلالات، أهمية البراهين. فيكفي أن تدخل في أي منزل ريفي في تونس أوالجزائر أو

جنوب المغرب لترى معلقاً على الجدران الجزء الأكبر من الأواني المنزلية التي بقيت تقنياتها وأشكالها وتزييناتها دون تغيير يذكر منذ الزمن شبه التاريخي. إن هذه الجزئية المتعلقة بالتعليق، تسمح بأن تنسب القبور التي وجدت فيها هذه الفخاريات إلى أقوام مستقرين.

يدعم الملاحظة السابقة أن النصب الجنائزية للفترة المعتبرة لا تحتوي كلها على فخاريات، وأن التي تحتوي من بينها على فخاريات ليست موزعة عشوائياً. وتشكل الستين مقبرة كبيرة شبه التاريخية Protohistorique التي تحتوى نصبها على فخاريات، عندما نضعها على خريطة، سلسلة من المجموعات، تقع أولاها في مثلث واسع، رؤوسه في خليج الحمامات في تونس وجنوب نمنشة على الحدود الجزائرية ـ التونسية، ومدينة الجزائر. وأبعد إلى الغرب تمتد مجموعة أقل في المساحة من الشليف الأعلى إلى منطقة وهران، وبعد فراغ يتوافق مع شرق المغرب، نجد نصباً تحتوي على فخاريات في منطقة محددة بتازة وطنجة ومصب سبو. وباستثناء أربع مقابر كبيرة، تقع كل هذه المقابر داخل منطقة حدها معروف جيداً للجغرافيين والزراعيين وهو خط الزراعة الجافة للحبوب. إن هذا التوافق كبير لدرجة تستبعد أن يكون نتيجة المصادفة. ومن ثم فالاستنتاج الذي يفرض نفسه بوضوح ودقة ولا تمكن المجادلة فيه هو: أن الأواني التي عثر عليها في مدافن الفترة الانتقالية من ما قبل التاريخ لها نفس خصائص الآواني المنزلية للسكان الحاليين المستقرين في هذه المناطق، وأن القبور التي تحتوي هذه الأواني تقع داخل منطقة الزراعة الجافة للحبوب، وعليه فإن السكان الذين كانوا يصنعون هذه المزهريات ويضعونها في قبورهم كانوا مستقرين، أو أكلة قمح كما يسميهم هيكاتى دى ميلي Hicaté de Milet.



تقع المقابر الكبيرة الشبه تاريخية

التي تحتوي على فخاريات في منطقة زراعة الحبوب البعلية

* الإقليمية في بربريا في الفترة قبيل التاريخية :

يظهر علم الآثار وكذلك النصوص أن أفريقيا الشمالية لم تشهد وحدة سياسية أو ثقافية طوال عصور ما قبل التاريخ Préhistorique والفترة الانتقالية إلى التاريخ Protohistorique أكثر مما شهدته طوال الأزمنة التاريخية.

توجد، مع ذلك، وحدة جغرافية لبلدان الأطلس، كما توجد وحدة عرقية تبرزها اللهجات البربرية.

لم تحقق هذه الوحدة ُالعرقية وحدةً ترابية أو سياسية إلا خلال بعض العقود في نهاية القرن الثاني عشر بحزم الموحدين. ما السبب الحقيقي وراء هذا العجز الأساسي؟

يبدو أن الجغرافيا لوحدها هي المسؤولة عما ينسب عادة للرجال. فليس لبربريا مركز مؤثر قادر على أن يجمع حوله الولايات الطرفية: فبين البلدان المتوجهة تقليدياً نحو شرق المتوسط وتلك المحاذية للمحيط تقتصر مساحة الحياة الزراعية على شريط ساحلي ضيق تقطعه جبال، ويتكون الباقي من سهول عالية أو هضاب سُهبية تمثل مناطق عبور طبيعية رائعة.... لا يقابل الغزاة عناء

في عبورها. إن المسافات الهائلة بين الإقليمين المتميزين وامتداد المسافات والعقبات الإقليمية تُفشل أي محاولة من أحد الإقليمين لإحتلال الإقليم الآخر ما لم تكن هذه المحاولة مقودة من الخارج. وعندما تنجح قوة أجنبية في بسط سيطرتها على كامل أفريقيا الشمالية تضطر لا محالة إلى أن تأخذ في الاعتبار عن قرب الخصائص بل التناقضات لمختلف أجزاء المغرب الكبير.

إذا كانت الحدود لم تمثل أي ثبات طوال القرون، وإذا كانت الأسماء تتغير وفق التقلبات التاريخية فقد كانت هناك دوماً بربريا شرقية تمتد في حدها الأقصى حتى هدنة Hodna وبابور Babors، وبربريا الوسطى التي تحدها غرباً ملوية والأطلس المتوسط، وبربريا الغربية حيث تنتظم السهول الأطلسية والجبال الأطلسية العظيمة في تناسق، وبربريا شبه الصحراوية حيث هضابها السُّهبية ترتبط مع القارة الأفريقية.

** ** **

بربريا الشرقية

كانت بربريا الشرقية منذ العصر النيوليتي على علاقة ببلدان شرق المتوسط وخاصة مع جارتها المباشرة صقلية.

عَبَر من الجزر الإيطالية وشبه الجزيرة الإيطالية إلى أفريقيا، نوعان من القبور المميزة؛ الحوانيت والدلمنات وبعض الأشكال الخزفية والفخاريات المطلية التي ما زالت تصنع حتى اليوم من قبل كثيرين من السكان الريفيين.

تنفرد بربريا الشرقية بالقبور المحفورة (النواويس) خاصة في رأس عنابة وشمال مجردة والجزء من الجزائر الواقع بين الحدود وسيبوس. وتظهر هذه القبور في صقلية وسردينيا منذ الشلكوليتي Chalcolithique وكانت لاتزال تحفر في عصر الحديد أيضاً.



دلمن على قاعدة متدرجة في بو نواره (الجزائر)

تُذكِّر الحوانيت في الجزائر وتونس، بسبب أبعادها الضئيلة وشكلها المكعب وغياب الممرات فيها (أو الأطوال القصيرة جداً لما يحل محلها)، بشكل خاص بقبور السيكول Sicules[1] من نهاية عصر البرونز (Pantalica, Cassibili). هكذا تبرز هذه الحوانيت أحدث العلاقات السابقة للفينيقيين مع صقلية. وقد استُمر في حفر مثل هذه القبور في العهد البونيقي بالرغم من أنها تقليد جنائزي سابق، ويختلف عن تقليد المدن الفينيقية الأفريقية. وربما تمثل هذه الحوانيت قبور من كان يسميهم المؤلفون القدماء بـ " الليبيين ـ الفينيقيين ".

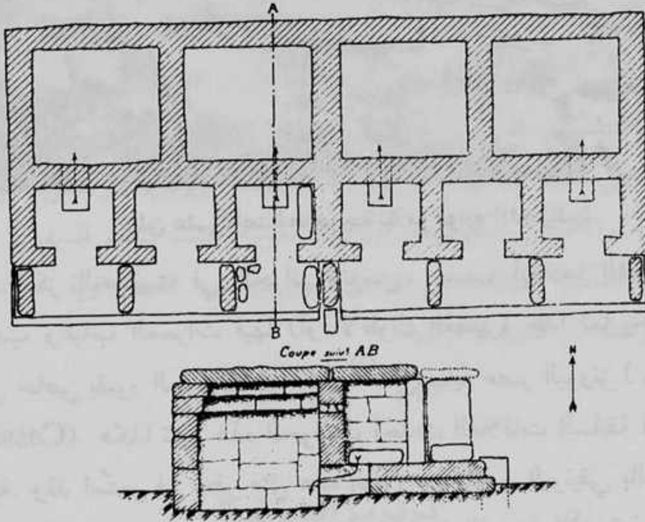
إن مبادلات سابقة مع صقلية وسردينيا وإيطاليا الجنوبية يمكن تبينها. ومن المحتمل تغلغل بعض أنواع الخزف من عصر البرونز ذات أشكال مميزة ومازالت باقية حتى اليوم كبقايا في الأواني المنزلية في الأوراس. وبينما تتوافق الحوانيت مع القبور السيكولية من نهاية عصر البرونز وبداية عصر الحديد تماثل الدلمنات الجزائرية ـ التونسية الأقدم القبور الميجاليثية المتوسطية من الشلكوليتي[2] Chalcolithique أو حتى من عصر البرونز.

---

(1) شعب هندي ـ أوروبي استقر في صقلية حوالي سنة 1000 قبل الميلاد. المترجم

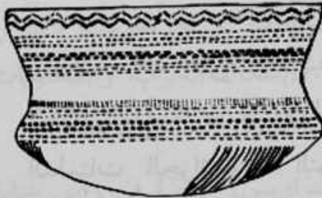
(2) فترة من ما قبل التاريخ تتوافق مع ظهور الحضارة النحاسية. المترجم

تغلغلت الدلمنات، مثل الحوانيت، في الدواخل ولكنها بلغت أبعد المواقع من منطقة دخولها على طول الساحل والتي يبدو من المرجح أنها واقعة على سواحل الجزائر الشرقية وتونس الشمالية. هكذا يمكننا في "بلاد الدلمنات" تمييز مناطق عديدة تختلف عن بعضها البعض بأشكال النصب وتنظيم المقابر.



مقطع في ضريح ميجاليثى مركب.

مكثر (تونس)





أواني جرسية الشكل. إلى اليسار من الابريبا (البرتغال)

وإلى اليمين من سيدي سليمان من الغرب. المغرب.

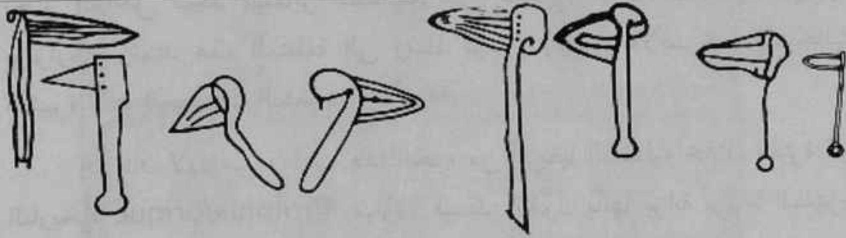
إن أول منطقة هى منطقة النفيضة في شرق تونس، ودلمنات هذه المنطقة صغيرة الحجم مسبوقة بممر دائماً ومتجاورة غالباً. وعلى الساحل الشمالي تغطى الدلمنات، بشكل متقطع، شريطاً يمتد من طبرقة إلى جيجلي ويتوقف فجأة غرب هذه المدينة. وهذه الدلمنات أكبر حجماً ومجمعة في مجموعات من مقابر صغيرة. يجب الدخول إلى المنطقة الثالثة وهى ملاصقة للمنطقة السابقة نحـو الداخل لنجد المقابر الضخمة التي تحتوي آلاف الدلمنات (ركنية، بونوارة). وتمتد هذه المنطقة إلى وسط تونس وتتميز بالأضرحـة الميجاليثية الكبيرة ذات الحجرات المتعددة والأروقة.

إذا كان لابد من وصف هذا الجزء من أفريقيا الشمالية خلال الفترة قبيل التاريخية Protohistorique بعبارة، فيمكن القول بأنها بوابة بربريا المفتوحة على الحضارات المشرقية برغم طوبوغرافيتها الصعبة وغاباتها، خاصة في شرق الجزائر. وإذا كانت قرطاج قد أثرت تأثيراً عميقاً في الجزء الأبعد إلى الشرق من هذه المنطقة فذلك لأنها وجدت فيهـا أراضٍ ممهدة من قبل. فقد أدخلت الاتصالات أثناء ما قبل التاريخ مع صقلية، ومالطا، وإيطاليا، وسردينيا، أول عناصر حضارة متوسطية. لقد احتفظت الفخاريات الريفية البسيطة التي مازالت تصنع وتلون حتى اليوم في جزء كبير من شمال أفريقيا، بذكري حية لهذه العلاقات قبل ـ البونيقية.

بربريا الغربية

صورة بربريا الغربية أقل وضوحاً من بربريا الشرقية، فهذا إقليم آخر متميز بمناخه وقربه من شبه الجزيرة الأيبيرية. ومنذ بدايات النيوليتي خضع إقليم طنجة لتأثير الحضارة الكرديالية من جنوب أسبانيا، وأدخلت في بداية الشلكوليتى مزهريات جرسية الشكل أصلها من البرتغال في منطقة أكثر اتساعاً

تصل إلى ضفاف الأطلسى في المغرب. لقد شهد عصر البرونز تطور التغلغل الأيبيري ونموه؛ الأسلحة من نوع الأرجارEL - Argar مثل الأطبار[1]، والخناجر ذات المسامير المثناة المرسومة بالعشرات على صخور جبال الأطلس الكبير البعيدة.



أنواع مختلفة من الأطبار محفورة في الأطلس الكبير (المغرب).

أما عن النصب الجنائزية، فإن ما يميز هذه المنطقة هو الجثوات[2] التي منها جثوة مزورة M'zora بحزامها من الصخور الأحادية والتي تبدو الأقدم. وتعود جثوة سيدى سليمان إلى القرن الرابع وهى تخفي مقراً جنائزياً حقيقياً مستطيل الشكل بممر وفناء وحجرة مغطاة بجذوع العرعر. يكثر نوع آخر من القبور ذات الأصل الأيبيري في وهران، وهو عبارة عن آبار جنائزية تأخذ شكل الصوامع. ولا توجد الدلمنات الصغيرة والنواويس من العصر البرونزي إلا في منطقة الريف.

إن الحضور الفينيقي على سواحل المغرب قديم جداً كما وضحته أعمال تنقيب موقادور Mogador وكما توحي بذلك الروايات شبه الأسطورية حول

(1) الطَّبَر: سلاح قديم يشبه الفاس. المترجم
(2) جثوة: ربوة صغيرة فوق ضريح. المترجم

التأسيسَ الموغل في القدم للكسوس Lixus (الأعراش). وقد ساهمت تجارة التجار المشرقيين في تفعيل المبادلات مع أسبانيا.

بربريا المتاخمة للصحراء

تمتد، جنوب مناطق التلال في كل من الجزائر وتونس، مساحات كبيرة ذات تضاريس متنوعة مقسمة إلى أحواض مغلقة؛ ولهذه السهوب امتدادها في جنوب المغرب حتى مصب دراع. والبداوة العاملة في الرعي هي أسلوب الحياة الأكثر تكيفاً مع الظروف الحيوية ـ الجغرافية لهذه المناطق، ولكن أعمال التجهيز المهمة مثل تكوين المصاطب على سفوح الأطلس الصحراوي ووجود العيون المائية يجعل من الممكن قيام زراعة محدودة في الجبال.

يشاهد في نصب الفترة شبه التاريخية في منطقة السهوب تطوراً ـ مهماً في بعض الأحيان ـ في العناصر المعمارية المخصصة للتعبد الجنائزي وبشكل خاص لممارسة الحضانة[1] (Tumulus ā chapelle)، التي ذكرها من قبل هيرودوت عند بدو الصحراء، ومازالت معروفة حتى اليوم عند الطوارق.

يبرز الغياب الكلي للدلمنات، والنواويس، والحوانيت والقبور في شكل صوامع، بالتوازي مع الكثرة النسبية للأذرع والتفرعات والمذابح والكوات والمصليات الخاصة المقرونة مع نصب مستطيلة أو مرتبطة معها غالباً. إن هذه هي المميزات الرئيسية لمناطق السهوب، وهي تظهر التأثير المتوسطي المحدود مصحوباً هنا بحضور أفريقي. لم تتوقف عملية التصحر في الصحراء عن الحد من الدور الذي تلعبه بلدان الشرق الأفريقي، ووادي النيل وليبيا وفزان، ولكن قبل أن يصبح الجمل أداة التنقل الوحيدة في المناطق الصحراوية أدخلت نباتات

---

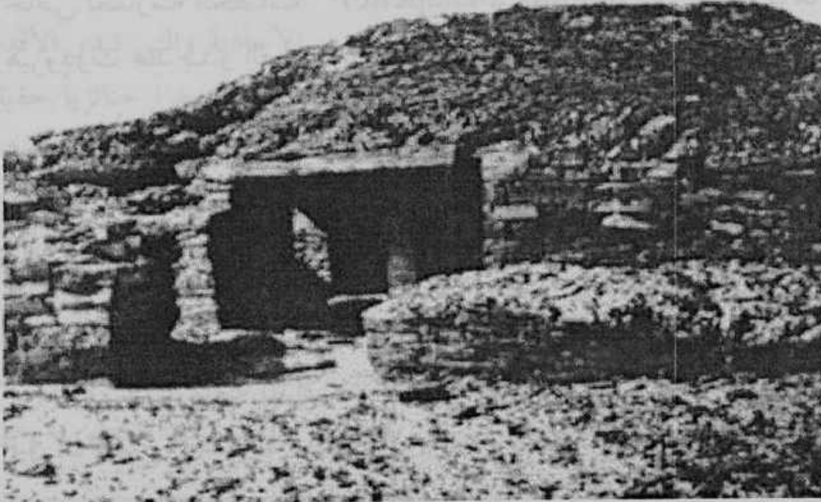
(1) ممارسة في القدم تقضي بالنوم في مكان العبادة أو قريب منه للحصول عن طريق الحلم عن وصفات للعلاج. المترجم

مزروعة وحيوانات أليفة عن طريق الجنوب الشرقي لبربريا في السهوب شبه الجافة اليوم.

بربريا الوسطي

تمتد بين خط جيجلي أو بسكرة ووادي الملوية، منطقة سنسميها بربريا الوسطي. وهي ـ على عكس الثلاث الأخرى ـ ليست لها صبغة مميزة وتبدو منطقة لقاء لعناصر ثقافية وافدة من خارجها.

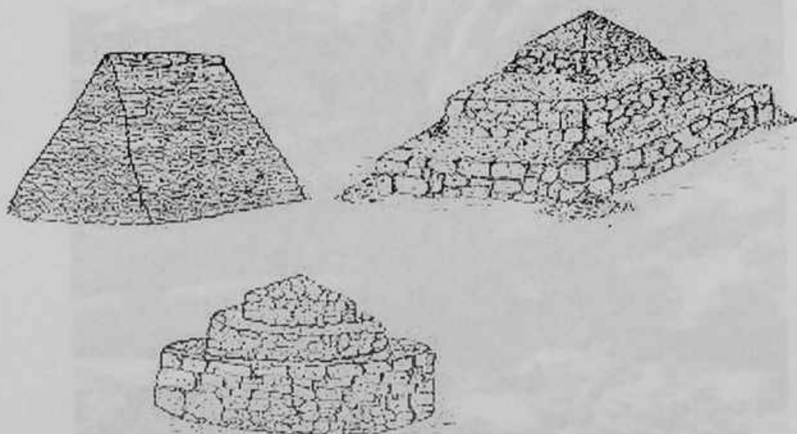
يجعل وجود مركز ميجاليثى ثانوي في منطقة القبائل من هذه المنطقة مجرد ملحق لبربريا الشرقية، بينما تفردت بقوة منطقة وهران بفضل علاقاتها القديمة مع أسبانيا. وبفضل حوض هدنة والشليف الأعلى ووادي ملوية امتد تأثير السهوب الجنوبية بتوسع عبر السهول.



جثوه بمصلى في تعوز تافلالت. المغرب.



نصب في النخيلة المغرب.



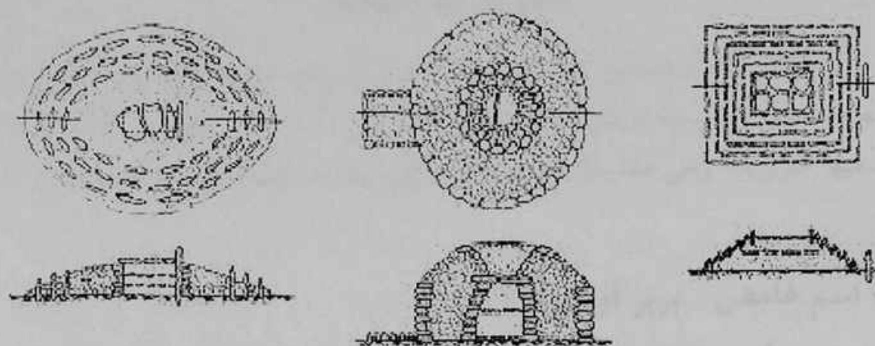
قبور جرمنتية (فزان)

استفادت منطقة وهران، مثل المغرب الأقصى، من قرب أسبانيا: ففي النيوليتي تتشابه الفخاريات المطبوعة في كهوف وهران وجنوب أسبانيا تشابها يجعل من الصعب التسليم بعدم وجود مبادلات كبيرة ومتكررة بين المنطقتين. وتوضح شواهد اكتشاف إدخال المزهرية الجَرَسية والأسلحة من نحاس وبرونز في منطقة وهران تطور المبادلات في عصور أحدث. وتوجد في منطقة وهران قبور في شكل صوامع من المحتمل أن أصلها أيبيري. ومن الملامح الأصلية التي تميز هذه المنطقة مهد قوة المساسيلية، شيوع عمليات حرق الموتى - وهي غير معروفة عملياً في المناطق الأخرى من المغرب الكبير - ووضع الأسلحة في القبور.

هكذا، كما في المناطق الأخرى من بربريا الوسطي، تفاعلت في هذه المنطقة التأثيرات الوافدة من الجنوب مع تأثيرات البلدان المتوسطية المجاورة، وسمحت سهولة التضاريس في منطقة وهران، وشرق المغرب خصوصاً باندماج هذه التأثيرات التي عملت بالتوازي في مناطق أخرى.



ممر قبائلي مغطي، مدخل لممر في أباريسن (الجزائر)



نماذج مختلفة من البازينات / الشليف الأعلى

وأولاد نايل (وسط الجزائر)

البربر في القدم

طوال آلاف السنين من عصور ما قبل التاريخ وطوال القرون المظلمة للمرحلة شبه التاريخية توطن سكان بيض من النوع المتوسطي لهم نفس اللغة التي نسميها البربرية، وهى منقسمة ـ دون شك ـ إلى لهجات عديدة منذ الأصول.

* اسم غامض : بربر أو باربار؟

هل أصل الكلمة محل نقاش؟ نقلت إلينا الكلمة عن طريق العرب الذين ميزوا منذ وصولهم إلى أفريقية (تونس) عناصر عديدة في السكان: الروم أو الموظفون البيزنطيون، وأحفاد الأفارقة المترومين وهم مسيحيو الديانة لاتينيو الثقافة، والبربر وهم منتظمون في ممالك صغيرة أو متجمعون في اتحادات أو قبائل وبقوا خارج الحضارة اللاتينية، وأغلبهم وثنيون وبعضهم متهودون، وفي وسطهم مجموعات صغيرة مسيحية مستقرة.

يُرى تقليدياً في لفظ البربر Berbere تحريف للصفة اللاتينية برباروس Barbarus (أجنبي بالنسبة للثقافة الكلاسيكية).

لست مقتنعاً تمام الاقتناع بهذا التفسير. فطوال قرون الإمبراطورية الرومانية كان الأفارقة غير المترومين يعرفون بأسمائهم الخاصة: لكل " ناس " (لِنقلْ لكل قبيلة لغرض التبسيط) اسم فهرسه الجغرافيون ومعروف جيداً من الإدارة الإمبراطورية. وعندما كان يُرغب في استعمال تسمية جماعية كان يُلجأ إلى التسميات القديمة مثل النوميديين (التي أُهمل استعمالها) والجيتوليين، وخاصة الموريين (Mauri) التي توسع استعمالها بمرور الزمن.

سبق لنا ملاحظة أن الاسم بربر Berbere كان يظهر هنا وهناك في

تسميات المواقع الجغرافية وأسماء الأعلام عند الحاميين ـ الساميين. تثير عندي هذه الملاحظة ـ بالإضافة إلى السابقة ـ الشك في التفسير التقليدي. بقى أن البربر كانوا، حتى وقت قصير وتحت تأثير التعليم، يحجمون عن استعمال هذه التسمية لأنفسهم.

* الليبي : اسم بقدم التاريخ :

كل سكان أفريقية من البيض ـ حسب هيرودوت ـ ليبيون إلا الفينيقيين والإغريق. وينقسم هؤلاء الليبيون إلى مجموعتين: البدو والمستقرين. وهذا ما يقوله عنهم سالوست Salluste عندما يتكلم عن الجيتوليين والليبيين، ولكنه يعطي هذا العرق معنى أضيق مما ذهب إليه هيرودوت، فهو يقصر استعماله على سكان السواحل. وقد كان للمفردة " ليبي " معان كثيرة حسب المؤلفين والعصور كما أوضح س. جسل S. Gsell.

يُعتقد منذ أقدم الأزمان أن لهذا الاسم أصل أفريقي استعمل للمرة الأولى من قبل المصريين منذ الألف الثاني قبل الميلاد لتسمية الأقوام الواقعين غرب النيل.

كان الريبو أو الليبو يقطنون الشمال ويعدون عدداً من القبائل (منهم الايموكيهيك Imukehek والكيهيك Kehek، والاكبت Ekbet). وقد استمر هذا التوقيع للريبو في شمال ليبيا حتى العصر الكلاسيكي[1]، وقد وسع الإغريق ـ إغريق برقة دون شك ـ الإسم ليشمل كل سكان الشمال الإفريقي. وقد يكون لاسم لبسيس (Lepcis) Leptis الذي يكتب في البونيقية LBKY نفس أصل اسم السكان. وبالفعل تظهر التسميات LBT و LBY في الكتابات البونيقية والبونيقية الجديدة.

---

(1) يقصد زمن الحضارة اليونانية والرومانية. المترجم

حل محل هذه التسمية العامة بعد قليل عند الإغريق والقرطاجيين معنى آخر ضُيق ليعني سكان الشمال الشرقي للمغرب الكبير دون غيرهم: وهو ما يعني بشكل خاص الأفارقة المقيمين في المناطق المحكومة من قرطاج. وقد سمي اللاتين، فيما بعد، هؤلاء الأقوام بالأفري afri وبلدهم أفريقيا. إننا نجهل الأصل الصحيح لهذا الاسم الذي يبدو أنه محلي.

أخذت الكلمة " ليبي " في المملكة المسيلية النوميدية معنى جغرافياً خاصاً، إذا ما اعتمدنا على الكتابة مزدوجة اللغة في مكثر التي أكد فيها صاحب الإهداء أنه فارس من " بلد الليبيين "

عليه فإن هذه المنطقة ليست في الجوار المباشر لمكثر، ولابد أنها ولاية خاصة من المملكة المسيلية وقد تكون منطقة لبسيس Lepcis[1]. أياً كان المعنى الصحيح لهذه التسمية فإن من المثير للاهتمام ملاحظة أن جزءاً من رعايا الملك المسيلي كانوا يسمون إدارياً بالليبيين، وهى تسمية أعطيت لهم من قبل أجانب. وتسمى إحدى قبائل السنغال اليوم بالليبو وهي بكل تأكيد الأصل القديم، وانتقلت تدريجياً نحو الجنوب الغربي من عالم الناطقين بالبربرية.

*** الاسم الحقيقي للبربر :**

بالرغم مما سبق، هناك عرق آخر أكثر انتشاراً في البلدان البربرية، ويسمح امتداده وارتباطه باسماء المواقع باعتباره الاسم الحقيقي للبربر. ويتعلق الأمر بالجذر م ز ق أو م.ز.ك MZG MZK الذي يوجد في كل من أسماء المازيس[2] Mazices في العصر الروماني والمكسيس[2] Maxyes عند هيرودوت، والمازيس عند هيكاتي Hécatée والمشواش في الكتابات المصرية.

(1) الاسم القديم للبدة. المترجم

(2) هكذا يكتبها صاحب التاريخ الليبي القديم ـ عبد اللطيف البرغوثي. المترجم

ويحتفظ كل من الإمساغ (Imusagh) في غرب فزان والإماجيغن Imagighen في الأيير والإمازيغن في الأوراس والريف والأطلس الكبير بهذا الاسم، التماشق هي لسان الطوارق الذين يسمون أنفسهم إموشاغ Imouchar.

بالرغم مما تقدم فلا القبائليين ولا الشاوية في الأوراس يعرفون حالياً هذا الاسم. ومن المؤكد أن هذا العرق شهد في شمال أفريقيا توسعاً هائلاً في القدم: إن الكتابات والنصوص تعطي الأشكال الآتية المؤكدة التهجية: المازييس Mazyes، المكسيس Maxyes، المازيس Mazices، وماديس Madices، ومازسنس Mazacenses، ومازازينس Mazazenes.

يمكن أن نضيف إلى القائمة السابقة العديد من مازيك Mazic ومازيكا Mazica التي توضحها الكتابات الجنائزية. ويدل استعمال المؤلفين لكلمة مازيس Mazices لأقوام مختلفين، بعضهم بدو رحل وآخرين جبليين، في عصور مختلفة وفي مناطق بعيدة جداً بعضها عن بعض على أن التسمية محلية وقبولها عام وشائع.

أثار أصل الاسم أمازيغ amazigh (Amaziy وجمعها Amaziyen) بعض الجدل، كما هو الحال بالنسبة لكل ما هو بربري. تقليدياً، يعطي لهذا الوصف معنى" نبيل" و " حر " معادل لكلمة " Franc " التي كان يتباهى بها الجرمانيون الذين أعطوا اسمهم لشعبنا[1]. وقد تبنى هذه الترجمة س. جسل S. Gsell الذي استند إلى نص لجان ليون الأفريقي الذي ترجم هكذا الاسم مازيس Mazices. هناك محاولة أخرى لـ ت. سارنيلي T. Sarnelli تربط هذا الاسم بالجذر ZWG، وتعني أحمر. وإذا كان هذا الجذر يُمكّن من تفسير اسم الزويكس Zauekes الذين كانوا يسكنون تونس في زمن موغل في القدم لأنهم ذُكروا من قبـل هيرودوت، و اسم إزقاغن Izaggaren في الهوقار إلا

---

(1) يقصد المؤلف بأن الجرمان أعطوا أسمهم " Franc " للفرنسيين. المترجم

أن ك.ج. براس K.G.Prasse يرى من المستحيل ربط علاقة بين هذا الجذر واسم الإمازيغن Imazighen وذلك لأسباب صوتية وصرفية[1].

بالنسبة لـ ش. دى فوكو Ch. De Foucauld تعود الكلمة الطارقية أماهق Amaheg (وجمعها lmouhay) إلى الفعل أهي ahay الذي يعني سلب piller. ومن ثم فإن كلمة أماهق Amaheg تعني السَّلاب، أي هذا الذي يغزو ويُغِير، أي المحارب، النبيل، الصريح. من سوء الحظ أن هذا التفسير التقليدي الذي يدعم ترجمة ليون الإفريقي لا يتوافق مع المعطيات الصوتية. إذ في لهجات الشمال يجب أن يكتب الفعل الذي يتوافق مع ahey, Awey وهذا يتطلب شكلاً Amawy بدل Amaziy المقبول الوحيد. عليه فإن من الأخذ بمبدأ الحيطة والحذر أن نتصور أن كلمة Amahey الطارقية تعود إلى نطق خاص لبربر الجنوب وأن الاسم Amaziy يعود (حسب س. شاكر) لجذر Iziy الذي اختفى دون ترك أثر إلا هذا العرق.

* أصل اسم النوميديين :

كان النوميديون يقطنون مناطق شاسعة بين إقليم قرطاج والمورين، وقد سمينا هذه المناطق بربريا الشرقية وبربريا الوسطى. عليه لم يكن من المستغرب أن تتكون مملكتان عند النوميديين عندما تكونت الممالك التاريخية: مملكة المسيليين التي كانت تحتل المناطق الأقرب إلى الإقليم القرطاجي وتمتد حتى منطقة سيرته[2] (قسطنطينة) وتتوافق تقريباً مع بربريا الشرقية، والمملكة الماسيسلية Masaesyle وهي أكثر اتساعاً وتحتل بقية الجزء الشمالي من الجزائر الحالية أي بربريا الوسطى. وقد رأينا أن علم الآثار قبيل التاريخية أبرز الأساس العميق لهذا التقسيم.

---

(1) من " الصرف " بالمعنى النحوي. المترجم

(2) هكذا يكتبها مترجما كتاب " تاريخ أفريقيا الشمالية ". المترجم.

أعطت بعض الكتابات المزدوجة، لاتنية ـ بونيقية، ولاتينية ـ ليبية تعود إلى محاربين قدماء من الجيش الروماني بالحرف اللاتيني العرق أو الصفة نوميدا (النوميداى).

إننا لا نعرف ـ لسوء الحظ ـ الاسم الليبي ولا البونيقى الذي يتطابق مع كلمة نوميدا اللاتينية.ومع هذا ليس هناك مبرر يدفع إلى الاعتقاد بأنها من الإغريقية (Nomades Nomades ـ بدو). ولو كان الرومان قد أخذوا هذه الكلمة مباشرة من الإغريق لادمجوها في نظام الإعراب اللاتيني. وإذا كان اللاتين سموا نوميداي نفس الأقوام الذين أطلق عليهم الإغريق، على إثر جناس، التسمية نوماد Nomades فيرجع هذا إلى وجود نموذج شمال أفريقي لدى كل من الإغريق والرومان، يبدو أقرب إلى البربر منه إلى البونيقيين. إننا نعرف عدداً كبيراً من أسماء الأعلام الليبية التي تبدأ بـ NM. واليوم، هناك مجموعة من الصيادين الفقراء البدائيين في موريتانيا تحمل الاسم نيمادي Nemadi. وبالرغم من أن الأصل البربري لاسم النوميديين احتمال كبير إلا أننا لا نأخذ بالتفسير القديم الذي اقترحه رن Rinn في منتصف القرن التاسع عشر، والذي أراد ترجمة هذه التسمية بالعبارة N' Middlen وتعني "بين الرعاة".

لا يمكن الأخذ بتفسير سترابون Strabon في جميع الأحوال، إذ يقول: "من قرطاج إلى أعمدة هرقل، البلاد غنية عموماً وخصبة، ولكن سبق وأن غزتها حيوانات متوحشة كما في كل الدواخل الليبية، حتى أنه يمكن الاعتقاد أن الاسم نوماد (النوميديون) الذي يحمله جزء من هؤلاء الأقوام جاءهم من أن الحيوانات المفترسة جعلت من المستحيل عليهم قديماً زراعة أراضيهم. " (33 و5 و II). وأضاف: " وقد فضل هؤلاء القوم أعمال قطع الطرق واللصوصية المطلقة وتركوا الأرض للهوام والحيوانات المتوحشة واختاروا حياة التنقل والبداوة مثل الأقوام الذين حُكم عليهم فيها بالبؤس وجفاف ترابهم وقسوة مناخهم. " (XVII، 15,3).

يبرهن إبراز هيرودوت أن بين الليبيين بدواً (وهم ليسوا من النوميديين) وعمالاً (وهم يسكنون مناطق نعرف أنها مسكونة من النوميديين) على أن التسمية الإغريقية ليست نتيجة ملاحظات عرقية[1] حول أساليب الحياة. إن من الواضح أن لا أحد تماماً يفكر في ترجمة " الليبيين النوميديين "، عندما يتحدث هيرودوت عن Albves vorades. ولا شك أن هذا لم يحدث إلا متآخرا، وبسبب التشابه بين الكلمة الليبية والكلمة الإغريقية vorades حاول الكتاب الإغريق، وتبعهم اللاتين، تفسير العرق الليبي بحياة البداوة التي كانت تنسب لهؤلاء الأقوام. إن سترابون Strabon، الذي يعرف جيداً إن المسيليين والماسيسليين يزرعون أراض من نوعية ممتازة (XVII,3,11)، يشرح بالتفصيل هذه الحياة البدوية المفترضة بالعدد الكبير للوحوش. وسنلاحظ أن الحيوانات المتوحشة تعرقل حياة الرعي أكثر من أعاقتها للزراعة.

* مملكة مسينيسا المسيلية ويوغرطة :

يبدو أن مملكة[2] الماسيسليين كانت الأقوى من بين المملكتين المعروفتين من بداية التاريخ، الذي يبدأ بالنسبة للنوميديين مع الحرب البونيقية الثانية. على هذا لم تستطع هذه المملكة الاستمرار بعد فشل السياسة الإفريقية لملكها سيفاكس Syphax. فبعد أن حاول هذا الأخير أن يلعب دور الحَكم بين روما وقرطاج اختار في النهاية جانب البونيقيين واستولى على المملكة المسيلية محققاً لبضع سنوات الوحدة النوميدية تحت حكمه. وأخيراً، خرجت المملكة المسيلية معززة من المحنة وكوَّن مسينيسا، ملك المسيليين، دولة نوميدية موحدة.

---

(1) المقصود ذات علاقة بالعلم الذي يبحث في خصائص الشعوب. المترجم

(2) يكتبها مترجما كتاب " تاريخ أفريقيا الشمالية " مملكة مازيسولة، كما يعربان "المملكة المسيلية " بـ مملكة ماسولة. وهو تعريب أنيق في تقديرنا. المترجم

بلاد المسيليين، بلاد الدلمنات

هل يعود نجاح المسيليين لقوة شخصية مسينيسا ورعاية الرومان فقط؟ أو لم توجد من قبل عوامل قوة وروابط تماسك والتحام مكنت المسيليين من مقاومة جيرانهم القرطاجيين و الماسيسليين بنجاح أحياناً وبعدم توفيق في أحيان أخرى؟ نلاحظ بداية أن بلاد المسيليين الممتدة على شرق الجزائر وغرب تونس كانت اكثر اتحاداً من جزء بربريا الذي احتله تدريجياً الماسيسليون. فبلاد المسيليين جبلية وغابية ملائمة لرعي الحيوانات الكبيرة وفيها كذلك هضاب وسهول في سفوح جبلية تربتها مناسبة جداً للحبوب. وقد أوضحت المقابر



نصب ميجاليثى كبير بممر مكشوف

ألاز (تونس)

النوميدية الكبيرة في هذه المناطق وجود فلاحين من المؤكد أنهم أكثر ارتباطاً بالأرض من نوميديي البلدان الغربية. ولا يمكن إهمال الظروف الجغرافية كما كانت الشروط التاريخية أكثر ملاءمة. كان المسيليون جيران القرطاجيين وعانوا

من عدوانهم مرات كثيرة ومنهم اقتبسوا العديد من عناصر الحضارة. ومنذ القرنين الرابع والثالث ذكرت مدن في بربريا الشرقية: فخارج الإقليم القرطاجي ولم يكن قد توسع بعد، كانت هناك دقة Dogga، وتبسة Tebessa وربما قسطنطينة. وتدفع المقابر الميجاليثية الكبيرة في منطقة مكثر إلى التفكير في أن هذه المدينة النوميدية بنيت قبل سقوط قرطاج. ومن المحتمل أن المسيليين كانوا يتملكون سيرتة (قسطنطينة) وهي مهد مهم للحضارة البونيقية في القرن الثالث. لم تمر هذه المدينة تحت حكم سيفاكس Syphax إلا قبل وقت قصير من حكم مسينيسا Massinissa.

إن ما رواه تيت ليف Tite ـ Live و أبيان Appien حول محاولات مسينيسا لاستعادة مملكة والده يوضح مدى ارتباط المسيليين الوثيق بملوكهم. وقد كان هذا الإخلاص، الذي لا تجب المبالغة فيه لأن مسينيسا عرف بعض الخيانات، عنصراً من عناصر التحام المسيليين.

الأسرة المسيلية ومدينة دقة

قد يكون هذا التلاحم وبعض التشابه جعلا من الصعب معرفة المكان الأصلي لقبيلة المسيليين من بين الأقاليم التي كانت تُكون المملكة. ولا تسمح التعديات القرطاجية بتحديد إلى أي مدى توسع الحكم المسيلي نحو الشرق بافتراض أن هناك مملكة مسيلية سابقة للتوسع البونيقي في وسط تونس وغربها. مع ذلك، لم تكن دقة تحت حكم القرطاجيين في عصر أغاتوكل "Agathocle". كان هناك في حينها ملك لليبيين يسمى ايليماس Ailymas يمارس سلطته على هذا الإقليم، كما أن هناك دلائل تشير إلى أن الأسرة المسيلية كانت قائمة من قبل. إذ إن من المعروف أن أسلاف مسينيسا كانوا يحكمون المسيليين وأن الأمير النوميدي مازتول " Mazetule " وهو خصم لكابوسا " Capussa "

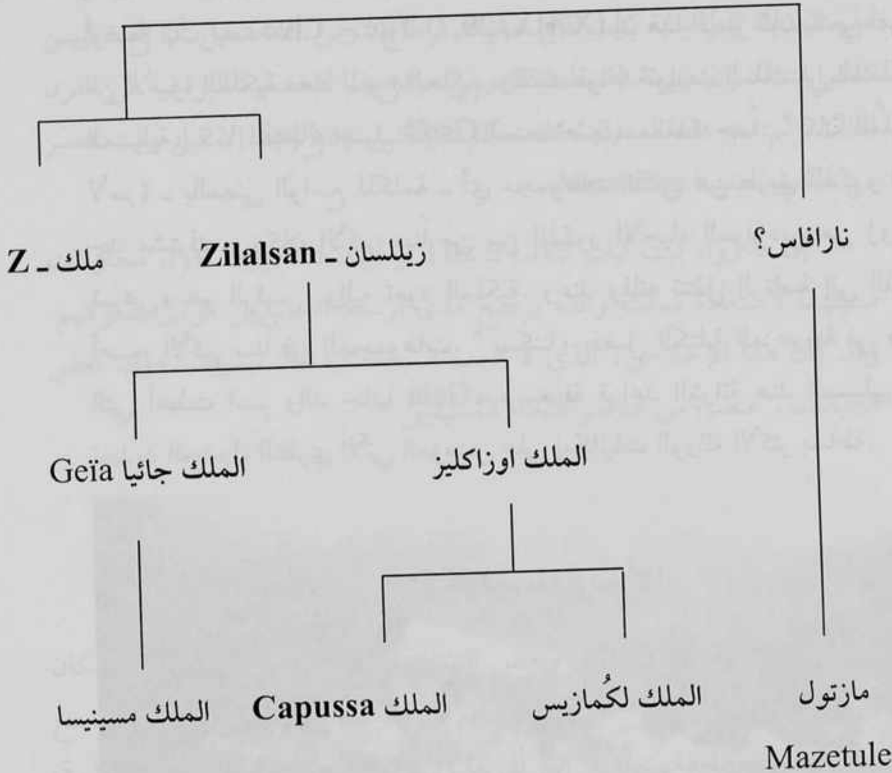
ومسينيسا " Massinissa "، لم يكن مثلهم ينتمي لنفس السلالة، وهو ما يضطرنا للبحث عن جدهم المشترك قبل أجيال عديدة سابقة لهم. إن ادعاءات مازتول " Mazetule " والعروض التي قدمها له مسينيسا " Massinissa " بعد أن تغلب عليه، تبين بجلاء أن لهذا الأمير أيضاً ملوكاً من بين أجداده. وقد أوضح تيت ليف Tite - Live (XXIX, 29,7) أن هذا الأمير كان ينتمي لفرع من الأسرة الملكية معاد للفرع الحاكم. وكانت قواعد توارث الملك في المملكة المسيلية، كما استطاع جسل Gsell استخلاصها، معقدة جداً: " كان المُلك لأسرة ـ بالمعنى الواسع للكلمة ـ أي مجموعات تلتقي عن طريق الذكور في جد مشترك... وكان الأكبر سناً من بين الذكور الأحياء المولودين من زواج شرعي، هو الرئيس. وإليه تعود الملكية. وعند وفاته تنتقل الرئاسة إلى الذي أصبح الأكبر سناً في المجموعات. " يمكننا، بفضل الكتابة المزدوجة في دقة التي أعطت اسم والد جائيا Gaia، وبمعرفة قواعد الوراثة عند المسيليين، تحديد الجدول النظري الآتي المؤسس على إمكانيات الوراثة الأكثر بساطة:



دولمن في ركنية.

الجزائر الشرقية.

س. ملك (ايليماس *Ailymas*؟)



تدفعنا هذه الاعتبارات إلى الاعتقاد بأن الأسرة المسيلية كانت تحكم منذ ما لا يقل عن أربعة أجيال في زمن مسينيسا. وعليه فإن من المحتمل أن الملك الليبي ايليماس Ailymas الذي تحالف مع أغاتوكل Agathocle ثم عاداه كان أحد أجداد مسينيسا. ربما كانت دقة التي أحتلها أيماك Eumaque بعد سنتين من موت هذا الملك هي عاصمته.

سيرتة مهد القوة المسيلية

يبدو من الصعب الأخذ بإن دقة والتلال العليا كانت مهد القوة المسيلية. لقد كانت هذه المنطقة تحت حكم القرطاجيين منذ الحرب البونيقية الأولى على الأقل. وإن من الصعب القبول بأن المملكة المسيلية تمكنت من البقاء والاستمرار بعد احتلال الإقليم الأصلي للقبيلة التي كانت تنتمي إليها الأسرة الحاكمة. إن حاكماً مثل جائيا Gaïa كان يحتفظ، بالرغم من تقلص أراضيه بسبب توسعات جيرانه، بدرجة من الاستقلال ولا يراعي إلا ولاء دستورياً حيال حلفائه البونيقيين، حتى وإن كانت قرطاج تمارس نوعاً من الحماية على المملكة المسيلية. ولم يكن في إمكان جائيا Gaia وابنه مسينيسا ممارسة مثل هذه السياسة لو كان إقليم المسيليين الخالص في أيدى القرطاجيين.

إننى ميال للبحث عن أصول أسرة مسينيسا في الطرف الغربي للمملكة، أي في منطقة سيرتة. من المؤكد أن هذه المدينة صارت عاصمة مسينيسا Massinissa وميكيبسا Micipsa ولكن جائيا لم يحكمها، فقد كانت حينها تابعة لسيفاكس Syphax. وإن واقعة دفن ميسبسا في خروب Khroub ـ وقد يكون مسينيسا نفسه ـ عنصر لصالح سيرتة. إن كثرة النصب الميجاليثية في إقليم سيرتة تسمح إلى حد ما بالاعتقاد بوجود إعمار كثيف حوالي جبل فرطاس حيث وجدت مسلات كبيرة موضح عليها الرؤساء المحليون في وادى خنقة وسيله. وتظهر بعض الوثائق الأركيولوجية أن النوميديين في هذه المنطقة كانوا على علاقة مع التجار البونيقيين منذ القرن الرابع أو الثالث وربما قبلهما.



ضريح نوميدي

دقة (تونس)



قسطنطينة، سيرتة القديمة تطل

على الحلوق العميقة في الرمل.

هناك وقائع أخرى تدعو للبحث عن الموطن الأول لهذه القبيلة أبعد قليلاً نحو الجنوب. وربما يوضح المدراسن، وهو قبر شخصية عظيمة، ملكاً لم تكن ذكراه قد غابت في العهد الروماني، وأن أسرة الملك الذي أقام هذا النصب في القرن الرابع أو الثالث كانت أصيلة الأوراس. وعليه يكون هذا الملك معاصراً للأسرة المسيلية، ومن الصعب تصور أنه خدم أميراً من أسرة حاكمة أخرى.

أعطى معماري مدراسن للنصب عناصر معمارية مقدرة من القرطاجيين مع محافظته على تقاليد المباني الجنائزية البربرية، وهو ما يستنتج منه أن الأمير، الذي أقيم له هـذا النصب، كان على علاقة بالقرطاجيين على الأقل، وأن إقليمه كان يمتد إلى جوار إحدى المدن البونيقية. إن أقرب مدينة مسكونة من الفينيقين في القرن الثالث هي سيرتة، ولكن من المشكوك فيه أن استطاعت

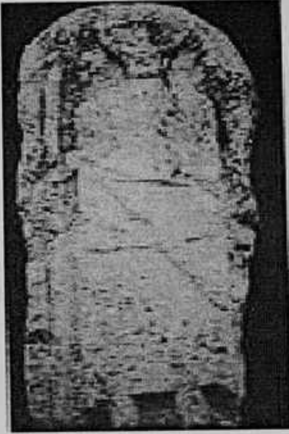
الأسر القليلة القاطنة لهذه المدينة إنجاب معماري قادر على إقامـة هذا النصب. وعليه يمكننا التسليم بأن الملك الذي دفنت رفاته في مدراسن بسط حكمه حتى سيرتة علـى الأقل، ومن الغالب إلى ما بعدها نحو الساحل ونحو الشرق.

هكذا نصل إلى الاستنتاج بأن المسيليين كانوا يسكنون إقليم سيرتة، وتكونت قوتهم بين هذه المدينة والأوراس.

كان الاسم ماسول (Massul) (Massyle) لايزال محمولاً في العهد الروماني: فقد وجد على تأبين في سيلا وفي كتابتين قرب وادي جرمان. ومن اللافت للنظر أن هذا الاسم نادر خارج هذه المنطقة حيث لم يعثر عليه إلا في كتابة في سيليوم Cillium (القصرين). ولازال واد صغير جنوب قسطنطينة يحمل الإسم مسيل M'syl

كانت المملكة المسيلية، قبل تحويلها إلى شريط ضيق محصور بين إقليم قرطاج والمملكة الماسيسلية، تشتمل نحو الغرب على منطقة سيرتة حيث أصل الأسرة الحاكمة. وإلى الشرق، حيث يبدو أن القرطاجيين تركوا الظهر التونسي، كانت هذه المملكة تغطي الجزء الأكبر من حوض بقردا (مجردة). ولا يظهر أن الصراعات الطويلة بين مسينيسا وقرطاج قد نشأت فقط بسبب طمع الملك النوميدي، بل كانت في الواقع مطالبات إقليمية مبررة عبَّر عنها مسينيسا بالتتابع كلما زادت قوته.

كانت المملكة المسيلية الضيقة نسبياً في الجزء الشمالي، تتكون من إقاليم شاسعة في المناطق الجنوبية التي تتنقل فيها قبائل الجيتوليين، وكانت تمتد حتى منطقة طرابلس الحالية. إننا نجهل تماماً العلاقات بين الملك وهؤلاء البدو وكيف كان هؤلاء يعترفـون بالسيادة النوميدية. وتتضح هذه الأسئلة الدقيقة إذا سلمنا بأن مفهوم السيادة عند البربر يستند إلى خضوع الأشخاص أكثر منه إلى تملك الأرض. ومن ثم لم تكن هناك إلا أهمية قليلة لضياع الأقاليم إذا احتفظت القبيلة ذات السيادة بتلاحمها.



مسلة لرئيس مسيلي
في عين خنقة. منطقة قسنطينة



مسلة بونيقية في الحفرة (قسنطينة)
تمثل مجموعة أسلحة تتوافق مع الأسلحة
الموجودة في الضريح في خروب (مقبرة ميسبسا)

* مملكة سيفاكس الماسيسلية :

خلال الحرب البونيقية الثانية، وعندما كان سكيبيون يحارب الجيوش القرطاجية في أسبانيا، كان سيفاكس Syphax، ملك الماسيسليين، هو أقوى الملوك الأفارقة. إن نص سترابون Strabon الذي تناول هذه المملكة هو الأوضح من بين كل النصوص: " بعد إقليم المور يأتي إقليم الماسيسليين الذي يبدأ في نهر ملوية Molochath وينتهى في رأس تريتون "Cap Tréton" (XVII,3,9).

مساحة المملكة

لن أعود إلى تحديد المولوشا Mulucha بالملوية. إن وقوع سيجا، عاصمة سيفاكس، على الضفة الشمالية لتافنا يجعل لا مجال للبحث عن

مولوشا إلى الغرب من هذا النهر: ولن يكون الخيار إلا بين ملوية وواديين صغيرين ساحليين (وادى كيس، ووادي تالتة). رأينا أعلاه أن الملوية، بالرغم من أنه لا يشكل حداً طبيعياً حقيقياً، إلا أنه كان يفصل بوضوح بين الولايتين الأركيولوجيتين، بربريا الغربية وبربريا الوسطى. ويطابق رأس تريتون، دون شك، رأس بوقرعون في شبه جزيرة كولو. وقد مر الحد بين نوميديا وموريتانيا القيصرية في وقت لاحق بالقرب من شبه جزيرة كولو عند الوادي الكبير(امساقة Amsaga). وقد مثل هذا الممر المائي الحد الشرقي لمملكة يوبا الثاني Juba II، ويتوافق أيضاً من الناحية الاركيولوجية مع الحد الغربي لبلاد سيرته الغنية بالنصب الميجاليثية التي تختفي فجأة غرب هذا النهر. لا يمكن أن يكون تحديد سترابون Strabon إلا تقريبياً وفي نطاق غير المحتمل الذي يفترض أن الحد بين المسيليين والمساسيليين كان محدداً على وجه الدقة وثابتاً.

عليه، كان المساسيليون يحتلون مساحة شاسعة تغطي ثلثي الجزائر وجزءاً من شرق المغرب. بل تذكرهم نصوص ونقش لاتيني، حتى الريف[1]. ولم تتوقف الأراضي التابعة لسيفاكس، ملك المساسيليين، عن التوسع على حساب المسيليين منذ ذكره للمرة الأولى في روايـة تيت ـ ليف Tite ـ Live وحتى التاريخ 203 الذي تحدد فيه مصيره ومصير مسينيسا، ومن ثم فإن من الصعب تعيين الحدود الأولية لمملكة سيفاكس Syphax. يبدو أن حد الملوية نحو الغرب الذي ظل قائماً بين بوخوس Bocchus وميسبسا Micipsa ثم بين بوجود Bugod وبوخوس الثاني BocchusII لم يشهد أي تغير منذ الممالك المعاصرة لباجا Baga وسيفاكس Syphax. وكان توسع هذا الأخير نحو الشرق سنة 205. وقد أنتهز فرصة النزاعات بين الأمراء المسيليين وحسم لصالحه وراثة كابوسا Capussa بطرد مسينيسا ومتابعته عن طريق مساعديه. هل تم ضم سيرتة في ذلك الوقت أم كانت من قبل جزءاً من أراضي المساسيليين؟

(1) إحدى مناطق المغرب. المترجم




نقود مسينيسا

توضح الاستشهادات السابقة لسنة 205 ـ خلافاً لما سبق ـ أن سيفاكس كان مستقراً في غرب مساسيليا ومهتماً بالمسائل الأسبانية قدر اهتمامه بالشؤون النوميدية. وعليه، كان ظهور سيفاكس في المناطق القريبة من بلاد المسيليين متأخراً وعلى علاقة بالقلاقل التي انفجرت في هذه المملكة بعد مقتل كابوسا Capussa. إنني أميل إلى الاعتقاد بإن سيجا Siga كانت هي عاصمة سيفاكس الحقيقية، ولم تصبح سيرتة العاصمة إلا بعد ضم إقليم المسيليين.

*** سيجا والمدن المساسيلية :**

كانت سيجا هي المدينة المساسيلية الرئيسية، وذكرت دوماً عاصمة لسيفاكس، وفيها استقبل سنة 206 سكيبيون Scipion واسدروبال Asdrubal في نفس الوقت. وهناك ـ دون شك ـ سك جزءاً من نقوده، واستمرت التقاليد النقدية في هذه المدينة حيث أقام فيها بوخوس Bocchus الأصغر ورشة جديدة لسك النقود.

إن كثرة قطع نقود سيفاكسSyphax النسبية التي عثر عليها في هذا الموقع، على عكس سيرتة، توضح بجلاء أن سيجا كانت هي الرأس الحقيقية للمملكة المساسيلية. بجوار سيجا أقيمت الجثوات الملكية في بني رنان. لم يذكر سترابون Strabon، الذي كان يستعمل وثائق سابقة لعصره، في شرق سيجا Siga إلا

ميناء الآلهة Port des Dieux (وهو عند الرومان Portus Divini، المرسى الكبير حالياً)، وإيول Iol (شرشل)، وسالدي Saldae (بجايه). ويبدو أن أرشيفه كان فقيراً للغاية فهو لا يتناول إلا النقاط التجارية البونيقية الرئيسية. وقد درس ج. فيلمو G. Vuillemot المراسي البونيقية على الساحل الوهراني التي يحق اعتبارها منافذ ومراكز تجارية لمساسيليا. إن بعضها يعود إلى عصر موغل في القدم، هكذا أمكن ترجيع المقبرة الموجودة في جزيرة راشقون Rachgoun المواجهة لمصب تافنا Tafna إلى القرنيين السادس والخامس. كما يعود موقع مرسى مداخ Madakh الذي كان يحتله الفينيقيون إلى عصر في نفس القدم، وقد هُجر من قبل في القرن الثالث بعد أن شهد ـ على ما يبدو ـ أول عملية تهديم تلاها احتلال من جديد. وقد أبرزت وثائق أحدث من جوار وهران، والأندلس، وسانت لو (Saint ـ Leu) أهمية المبادلات مع أسبانيا. ومن بين البضائع الموردة علينا ذكر المنتجات المعدنية التي كانت منعدمة في أفريقيا بشكل خاص. ومن بضائع التصدير نعرف اثنين: العاج وقشر بيض النعام. إننا لا نعرف ما إذا كانت هذه المواد مصدرة كمواد أولية فقط أم إن اللُّقي في أسبانيا صنعت في أفريقية. ويبدو أن المشغولات العاجية اشتُغلت في المدن الكبيرة الفينيقية في الشام، وقرطاج، وربما قادس Gades أيضاً، إذ إن تزيين الأمشاط والأكمام المصنوعة من هذه المادة ذات طابع مشرقي خالص.

المسألة بالنسبة لقشور بيض النعام أكثر حساسية. فقد اعتقد م. استرو M. Astruc، في كتاب بديع حول مقابر فيلاريكو Villaricos (أسبانيا) التي وجدت فيها المئات من بيض النعام المزين، أنه برهن على أن كل عمليات التزيين تقريباً كانت تتم محلياً. ولكن هناك أخرى تبين تشابها مع التزيين الهندسي البربري كما هو محافظ عليه حتى اليوم، وليس من المستبعد أن هذا البيض قد زين قبل تصديره، وفي وقت لاحق كانت المدن الأيبيرية الفينيقية تفضل الحصول على قشور بيض النعام خاماً وتقوم بتزيينه وفقاً للذوق المحلي، وفي الحقيقة لا يختلف هذا التزيين إلا قليلاً عما كان في المدن الإفريقية.

هناك منتج آخر كانت تصدره مساسيليا (أصبحت موريتانيا القيصرية في العهد الروماني) وهو خشب العرعر (Citrus عند المؤلفين اللاتين) الذي كانت تصنع من جذوعه طاولات نفيسة، وقد اشترى سيسرون Ciceron إحداها بمليون سسترس[1]. إن أهم مميزات هذا الخشب، بالإضافة إلى مقاومته الفائقة للبلى، كانت احتواءه على عروق عسلية اللون؛ بعضها كان متموجاً (Tigrinae) وبعضها الآخر حلقي (pantherinae). وكانت مواطن إنتاجه الرئيسية تقع غرب شرشل (الظهرة ووادي الشليف).

إننا لا نعرف شيئاً عن مدن الداخل، فقد كانت المعرفة بأفريقيا تكاد تكون مقصورة على الساحل. بالرغم من ذلك فإن من الصعب التسليم بأن لا تكون المواقع المتميزة المقطونة منذ الأزمان الحجرية قد أصبحت أماكن محصنة أو أسواقاً إن لم تكن الإثنين في نفس الوقت. إن شقفا من الفخاريات البونيقية من القرن الرابع بالقرب من مدينة الأصنام (Orleansville) هى أقدم الشواهد وأكثرها قارية على تغلغل التجارة الفينيقية في إقليم المساسيليين وذلك في حدود معارفنا الحالية. وتبرز منشآت من القرن الثالث في منطقة تيارت الأهمية التي بلغها هذا التواجد.

أبعد إلى الشرق، في وسط الجزائر، لم يقدم أي مركز داخلي، من خارج البلدات البونيقية، شواهد على معاصرته لسيفاكس Syphax أو أنه سابق عليه.

* تنظيم المملكة المساسيلية :

إننا لا نعرف شيئاً عن التنظيم السياسي والإدارة في مملكة المساسيليين. لقد تم التحقق من أن الملك وحده كان يضرب النقود ولم يكن لأي تابع، أو حتى لأي من المدن، هذه الميزة في هذا العصر على الأقل. ومن سلسلتين من

(1) سسترس: عملة رومانية قديمة. المترجم

النقود الحاملة رأس سيفاكس تظهر التي تبدو أنها الأحدث، الملك محاطاً بإكليل مثل الملوك الهيلينيين. وتظهر نقـود ابنـه فيرمينا Vermina (Verminad=)) المضروبة بعناية، الملك الشاب الأمرد بإكليل. من المحتمل أن نقود فيرمينا Vermina معاصرة للسلسلة الثانية من نقود سيفاكس Syphax بينما كان فيرمينا يقود الجيوش المساسيلية. مع ذلك، لا يمكننا أن نذهب بعيداً في هذه الاستنتاجات وتأكيد أن سيفاكس أشرك فيرمينا في ملكه.

إن تنوع المناطق التي كانت تُكون المملكة المساسيلية تجعل من المحتمل جداً الرأي القائل بأن الدولة كانت مجموعة من القبائل التابعة خضعت بالقوة لسلطة رئيس المساسيليين. نعرف أن هؤلاء أصيلو منطقة وهران وشرق المغرب، وفي هذه المنطقة بقيت قبيلة تحمل اسمهم في العهد الروماني (Pline، V، 17، 52؛ Ptolomée 5,2 IV). وهناك كانت تقع عاصمتهم سيجا Siga، ومن هذه الولاية الغربية كانوا يأخذون القوات التي سمحت لسيفاكس بلعب دور تاريخي مهم. ويتذكر سترابون Strabon، ناقلاً ـ دون شك ـ عن بوسيدونيوس Posidonius، هـذا التفوق القديم للولايات الغربية عند تناوله لمساسيليا، كتب: " في وقت من الأوقات كان جزء البلاد المجاور لموريتانيا يزود بنقود وجنود أكثر من المناطـق الأخرى، ولكن الكانتونات المجاورة للحـدود القرطاجية وأقاليم المسيليين هي اليوم، بالمقارنة مع غيرها، أكثر ازدهارا وأحسن في توفر كل الأشياء ".

هل كانت السياسة الطموحة والتوسعية لسيفاكس وراء انحدار المناطق الغربية؟ وفقاً لقاعدة عامة وصفها ابن خلدون منذ القرن الرابع عشر، تتآكل المجموعات الكبيرة المحاربة البانية للإمبراطوريات بسرعة. استمر ابن سيفاكس في الحكم على جزء ما من مساسيليا الغربية بعد فشل والده وعندما انتهت عملية التراجع بسط المسيليون؛ مسينيسا وأولاده، سلطتهم حتى جوار المورين.

❊ الموريون، غربيو أفريقيا:

يسمي المؤلفون الإغريق والرومان السكان الليبيين الأبعد إلى الغرب بالموريين عندما يذكرونهم بدل تسميتهم بالنوميديين، ولكن لم يصبح التمييز نهائياً إلا عندما عرف الرومان بوجود مملكة محلية في المغرب. وكان ارتيمودور Artémidor، في القرن الثاني قبل الميلاد، لايزال يعتبر نوميديين الليبيين القاطنين بجوار أعمدة هرقل. بالرغم من هذا، فإن من المحتمل أن التمييز بين النوميديين والموريين كان أكثر قدماً كما هو مسلم به عادة، ولم يكن الاسم " الموريون " إلا تعبيراً جغرافياً من أصل فينيقي.

منذ القرن السابع عشر، وإثر أعمال بوشار Bochart، كان يفسر أصل اسم الموريين على أنه اختصار لكلمة سامية: مهوريم Mahaurim التي تعني "الغربيون ". هكذا سمى الفينقيون سكان أفريقيا الشمالية الواقعين إلى الغرب (المغرب عند المؤلفين العرب)، ثم لما اكتسبوا معرفة أكثر بالليبيين في بربريا الشرقية احتفظوا بهذه التسمية للسكان في الطرف الأقصى غرباً، أي سكان المغرب (المغرب الأقصى عند المؤلفين العرب).

يلاحظ ج. جسل، بحذره المعهود، عدم وجود سبب لاستبعاد قول سترابون أن أصل كلمة موري Mauri محلي. أكثر من ذلك، يكتب بلين Pline أن القبيله الرئيسية من بين قبائل موريتانيا الطنجية كانت قبيلة الموريين التي لم تترك منها الحروب إلا بعض أسر (V، 17). وعلى أساس هذه النصوص بحث بعض المؤلفين عن أصل بربري لإسم الموريين. يطابق رن Rinn هذا الأصل مع الجذر ور Our الذي يوجد في أسم جبل عمور والذي يعني جبل، ومن ثم فإن الموريين تعني الجبليين، أي المستقرين في مواجهة الرعاة، وهي ترجمة لكلمة نوميديين حسب رن Rinn. ليس لهذا التفسير الكيفي المصاحب بترجمة خاطئة لسترابون أي قيمة.



مزهرية مصنوعة عن طريق الدولاب الدوار

وجدت في الجثوة الكبيرة، للا رهانو - المغرب

قارب البعض بين اسم الموريين والاسم الحالي (والقديم) لمرتفعات الأوراس (أورس، أوراسيوس)، فالحرف الصافر الذي كان يظهر في الاسم الإغريقي (Mavpovdlol) يجد هنا تفسيره. واستناداً لهذه الافتراضات، اعتُقد أنها تقدم البرهان على أن مملكة بوخوس المورية، وكان بوخوس معاصراً ليوغرطة، لم تكن في المغرب وإنما في الأوراس.

يصطدم هذا الانزلاق الهائل لكل جغرافية أفريقيا القديمة نحو الشرق بتناقضات تاريخية واضحة وضوحاً بيِّناً لا يسمح بقبوله. في حدود معارفنا اليوم، لا نستطيع أن نوقع الموريين، الذين نعرف أنهم كانوا يمتدون حتى المحيط، في أي مكان خارج بربريا الغربية.

*** المملكة شبه المجهولة**

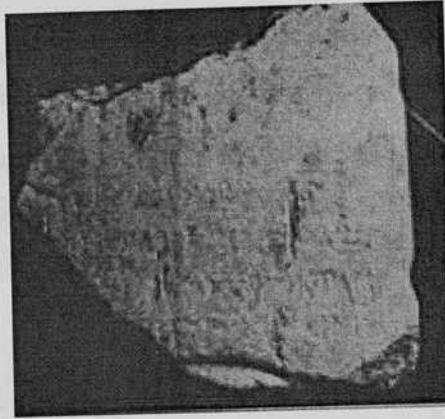
من باجا (*Baga*) إلى بوجود (*Bogud*) :

تبقى مملكة الموريين غير معروفة إلا في حدود ضيقة، بل يمتد عدم اليقين في معارفنا حولها ليشمل عصراً متقدماً في الزمن التاريخي. مع ذلك

تدفعنا وحدة الاسم الذي تحمله بربريا الغربية حتى وفاة بوجود Bogud وتشابه الأسماء التي حملها سادتها المتتابعون (باجا Baga، بوخوس Bocchus، وبوجود Bogud) إلى الاعتقاد بأن نفس العائلة حكمت منذ القرن الثالث قبل الميلاد حتى انتهائها بوفاة بوخوس الأصغر.

كانت عائلة بوخوس، في القرن الأخير قبل الزمن التاريخي، تسيطر على الأقاليم الممتدة حتى الأطلس على الأقل، بل إن بوجود Bogud ذهب لمحاربة الأثيوبيين، ولا يسمح هذا التأكيد من سترابون Strabon (XVll , 3 , 5) بالوثوق في أن مملكة باجا السابقة لبوجود بقرنين كانت بهذا الأتساع. مع ذلك، فإنني لا أعتقد أنها كانت بجوار المضيق لأن هذا الملك كان مهتماً بالمسائل النوميدية، وقد دعم ادعاءات مسينيسا في وراثة الحكم المسيلى وأعطاه 4000 رجل لحراسته. وبفضل هذا التوضيح المختصر من تيت ـ ليف Live - Tite (XXIX,29,7) يمكن التأكيد على أن باجا Baga لم يكن ملكاً صغيراً وانما عاهلاً كان يسيطر، على الأقل، على الأقاليم الواقعة بين المضيق ومساسيليا. وفي جوار هذه الأخيرة كانت تستوطن قبيلة الموريين التي أعطت أسمها للمملكة (Pline , V , 17). وخلال الصراع النهائي بين سكيبون Scipion وحنا بعل، أرسل باجا ـ الذي كان ما يزال حليفا لمسينيسا ـ وحدات عسكرية ساهمت في هزيمة القرطاجيين (Tite-Live. XXIX , 30,3).

تأكد لنا، بعد ذلك، عدم وجود تنظيم مركزي للمملكة المورية، فقد كان اسكاليس Ascalis في سنة 80 ق.م، وهو مُليك متحالف أو تابع لملك موريتانيا الذي كان حينها بوخوس Bocchus أو سوسوس Sosus، يحكم طنجة وجوارها. وقد أطاح به سرتوريوس Sertorius. وليس من الحذر في شيء أن ننسب إلى زمن باجا Baga تنظيماً مشابها للمملكة المورية، ولكن من المؤكد أن الممالك كانت أقل مركزية في الأزمان البدائية، فالملوك كانوا مجرد رؤساء لتجمعات فضفاضة، لا أكثر ولا أقل.



نقش بوني

فولوبيلس (المغرب)

كان الفينيقيون قد أقاموا منذ قرون عديدة نقاطاً تجارية مهمة على السواحل الأطلسية على جانبي مضيق جبل طارق. في أفريقيا كانت ليكسوس " Lixus " (لعراش) أقدم وأقوى مدينة تجارية في أقصىالغرب، وتعيد الحكايات الأسطورية تاريخ تأسيسها إلى سنة 1000 قبل الميلاد؛ وفي الواقع لا تسمح المعطيات الأركيولوجية، في الوقت الحالي، بالذهاب أبعد من نهاية القرن السابع قبل الميلاد. بالمقابل، كانت جزيرة موقادور Mogador مرتادة من قبل البحارة الشرقيين منذ القرن الثامن وقد تكون هي جزيرة سرنى Cerné المذكورة في رحلات حنون Hannon، وسكيلاكس Scylax، وبولب Polype، و بطليموس Ptolemée. وكانت توجد بين هذه الجزيرة والمضيق موانئ مثل سالا (Salé " Sala) التي أصبحت مدينة مهمة تحت حكم يوبا الثاني Juba II، أو باناسا على نهر سيبو.

تبقى العلاقات بين المملكة المورية وهذه المدن الفينيقية على شاطئ المتوسط وشاطئ الأطلسي غامضة إلى حد كبير، لكن التأثير البونيقي مدعوماً بالتأثير الأيبيري الأقدم، أثر تأثيراً عميقاً لدرجة ظهرت معها هذه المدن، حتى تلك الواقعة في الداخل، كبؤر للثقافة البونيقيه قبل أن تصبح مراكز للرَّوْمنة.

فمنذ القرن الرابع كانت الجرار الكبيرة المصنوعة في هذه المدن تباع للموريين في الأرياف ولامرائهم الذين ربما كانوا قد بسطوا سيطرتهم على هذه المدن ذاتها.

يقدم النقش في فولوبيلس Volubilis الذي يذكر سلسلة النسب للوالي القرطاجي Swy TNKN الدليل على أن المدينة كانت قائمة قبل القرن الرابع، وأن وظيفة الوالي أنشئت فيها منذ بداية القرن الثالث إن لم يكن قبله.

*** الإسم الذي أثرى :**

لا بد أن المملكة المورية، واسم الموريين بشكل خاص، عرفا توسعاً تدريجياً. جاء التوسع الأول على أثر حرب يوغرطة، فعندما سلم بوخوس الأول Bocchus I صهرَه وحليفه يوغرطة إلى سيلا Sylla أخذ مقابل خيانته وتحالفه الجديد الجزء الغربي من المملكة النوميدية التي هي مساسيليا القديمة.

تبعاً لقاعدة معروفة جيداً، أصبح الرعايا الجدد لبوخوس، ملك الموريين، موريين وسميت البلاد التي كانت في السابق نوميديا موريتانيا كبقية المملكة. مع ذلك بقيت التقسيمات القديمة التي ترجع إلى ما قبل التاريخ، وهذا يفسر أن الرومان بعد إعدام بطليموس Ptolemée آخر ملوك الموريين (40 قبل الميلاد تقريباً)، قسموا المملكة إلى قسمين موريتانيا القيصرية (مساسيليا قديماً) وموريتانيا الطنجية (أول مملكة للموريين).

كان تَروّم هذه الولايات أقل عمقاً من تروم ولاية أفريقية المحكومة من وال روماني " Proconsul " والتي نُظمت منطقتها العسكرية لاحقاً تنظيماً خاصاً تحت اسم نوميديا. يفسر هذا الاختلاف في التعمير واكتساب الثقافة بين المجموعتين من الولايات التحول التدريجي لاسم الموريين الذي استخدم أكثر فأكثر طوال قرون السيطرة الرومانية ليعنى هؤلاء في أفريقيا الذين بقوا خارج الثقافة السائدة والهياكل السياسية. فقد كان المورى بالنسبة للروماني أو الإفريقي

المتروم، مثلما سيكون عليه البربري بالنسبة للفاتح العربي تقريباً. هكذا سيوجد في أفريقية موريون Dii Mauri (أنظر أدناه، الفصل الرابع) ـ وسيكون ذكرهم أكثر في نوميديا وأفريقا منه في الموريتانتيين ـ وسيذكر المؤلفون في القرون الأخيرة من السيطرة الرومانية وفي عهد الوندال والبيزنطيين بصراحة عصابات ثم ممالك مورية في البلدان النوميدية القديمة وحتى إلى قلب تونس الحالية!.

احتفظ الأسبان في زمن إعادة الفتح وعلى اثرهم الأوربيون، بهذا الاسم وأعطوه قبولاً أوسع إذ استخدم ليعنى بشكل عام من نسميهم اليوم المغاربة والأفريقيين الشماليين. وقد أتى الموريون المطرودون من أسبانيا للاستقرار في المدن الأفريقية حيث أحتفظ لهم العرب ـ البربر باسم الأندلسيين.

أعادت ذكريات العصور القديمة الكلاسيكية مضافاً إليها مفهوم " داكن " الذي تعنيه الصفة الأغريقية Maupos (Mauros)، الحياة في العهد الاستعماري لاسم الموريين وموريتانيا لتعني السكان البدو ـ المعربين في أكثريتهم ـ والبلاد الواقعة في جنوب المغرب أي موريتانيا الطنجية القديمة.

الجيتوليون

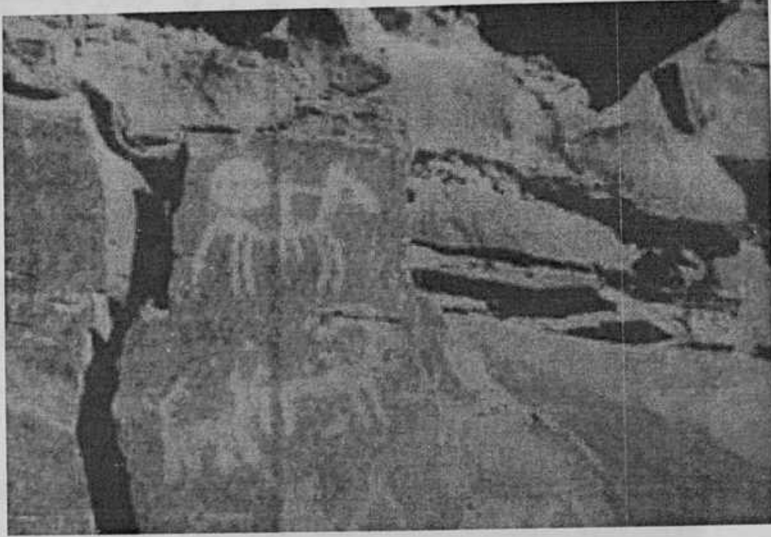
سمّى القدماء الشعب الثالث الذي قطن أفريقيا الشمالية الجيتوليين. إن موقع الجيتوليين غير محدد بشكل مؤكد، فقد ذكروا في المغرب والجزائر وتونس في نفس الوقت، كما لو كان الليبيون في هذه الأقاليم يكتسبون هذا الاسم تلقائياً انطلاقاً من خط عرض معين. لم يظهر هذا الاسم إلا متأخراً في الأدبيات، وسالوست هو أقدم مؤلف ذكره، وقد نَسب إلى الجيتوليين لعب دور مهم في تكوين النوميديين. ويقول تيت ليف Tite ـ Live أن الجيتوليين كونوا جزءاً من جيوش حنابعل (XXIII,18,1).

يبدو أن الجيتوليين كانوا خطرين جداً في موريتانيا الطنجية. فقد احتلت القبائـل الجيتولية؛ البانيور والأوتولول، الإقليم حيث أصل قبيلة الموريين. وقد توسع هؤلاء الجيتوليون جنوباً حتى الأثيوبيين، بل كان الوضع كذلك في الولايات الرومانية الأخرى في أفريقيا. خلال زمن طويل، جعل الجدل حول معنى كلمة الأثيوبيين من الصعب تحديد موقعهم: هل كان الجيتوليون يغطون السهوب والصحراء في نفس الوقت أم كانوا يحتلون الأطراف الجنوبية لمنطقة الأطلس وتركت الصحراء لأناس من الملونين؟ إننا اليوم على بينة بأن سكان الصحراء في القدم يشبهون السكان الحاليين، والمشكلة لم تعد مطروحة: كان الجيتوليون البدو يتنقلون في الصحراء والسهوب كالبدو الحاليين، بينما كان الأثيوبيون يحتلون الواحات مثل الحاراتين، حتى أنه يمكننا القول كذلك بأن أثيوبيا تبدأ شمالاً مع الواحات أو أن جيتوليا تستمر جنوباً إلى حدود البداوة البيضاء.

تدفع المؤشرات إلى الاعتقاد بأن الجرمنتيين، وهم شعب من البدو عاشوا في فزان وتاسيلي الأجر، كانوا من البربر وليسوا من الأثيوبيين كما يقترح س. جسل S.Gsell. وقد كانوا دائماً على علاقة بالجيتوليين. أبعد إلى الشرق، كان الليبيون الذين ذكرهم هيرودوت يتوغلون بعيداً في الصحراء: كان النسامونس (Nasamons) يذهبون إلى واحة أوجلة لجنى التمور أو بالأحرى أخـذ نصيبهـم منها، ويذهب بعضهم عند الأقـوام السـود المجاوريـن لتشـاد والنيجـر (22,II,172,182,IV). وفي أقصى الغرب كان الفاروسيون البدو الذين ميزهم استرابون عن الأثيوبيين، يقطنون بلداً " حيث تهطل الأمطار بغزارة في الصيف " (3,7,XVII)، ولا توجد مثل هذه الظروف المناخية حالياً إلا في جنوب وادي الذهب.

ليست حدود الأقاليم الجيتولية معروفة أكثر في الشمال منها في الجنوب. رأينا عدم التأكد السائد في المغرب الأطلسي، وعدم اليقين أكبر في وسط بربريا حيث يقتصر استرابون على القول بأن الجيتوليين يزرعون بعض الأقاليم. أبعد

إلى الشرق، من المعروف الثابت أن قفصة كانت في بلاد الجيتوليين في زمن يوغرطة. وقد جند ماريوس Marius وحدات جيتولية في جيشه وأعطاها أراضي في نوميديا وأفريقيا وقد بقى أحفاد الجيتوليين ماريوسيين مخلصين خلال الحروب الأهلية. بعد ذلك بنصف قرن استولى السيتيوس " Sittius " خلال الحرب الأهلية على " مدينتين جيتوليتين " بعد احتلال سيرتة؛ وهذا لا يعني أن هاتين المدينتين كانتا قريبتين من المدينة النوميدية.

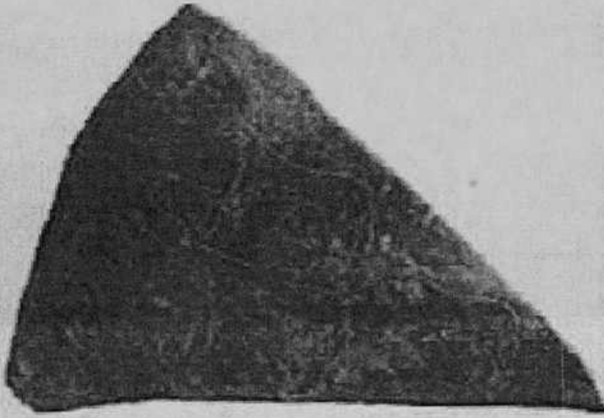


فارس يصطاد الخنزير البري

تينزولين (جنوب المغرب)

يعلق س. جسل أهمية كبيرة على تأكيد أبولليوس Apulée الذي يقول بأنه نصف نوميدي ونصف جيتولي وأن بلده مادور Madaure كانت واقعة بجوار نوميديا وجيتوليا (24,1,Apologia). بالمقابل يكتب سترابون Strabon أن بين جيتوليا والشاطئ المتوسطي " هناك الكثير من السهول والجبال، وحتى بحيرات كبيرة وأنهار، وبعض هذه الأنهار يتوقف فجأة ويختفي تحت

الأرض " (3,19,XVII). لا يبدو هـذا التوصـيف الصـحيح للمنـاطق جنـوب قسطنطينة مؤكـداً بقـول أبوليـوس Apulée. يضـع س.جسـل S.Gsell قبيلـة المزالمة الكـبيرة بـين الجيتـوليين اعتمـاداً في اعتقـادي، علـى نـص أبوليـوس Apulée، فعندما نعرف أن حد إقليم المزالمة Musalames كان يمـر بالكـاد على مسافة أربعة كيلومترات من مـادور Madaure وكـان أبولليـوس يقـول أن هذه المدينة مجاورة لنوميديا وجيتوليا، يكون من المغري الأخذ بهذه المقاربـة. لكن لم يقل تاسيت Tacite ولا أيٌّ من المؤلفين عنـد تنـاولهم للمزالمـة أنهـم من الجيتوليين. على العكس، لقد اعتبرهم تاسيت الـذي تحـدث عنـهم طـويلاً عنـد تناولـه لموضـوع ثـورة تاكفاريناس Tacfarinas، نوميديـين. ولا يمكننا



مسلة منقوشة على قبر بمصلى جرف طرية قرب بشار غربالجزائر.

منظر للحلب

الاعتراض بالقول أنه كان يستعمل الكلمة في معناها العام، فقد فرق بوضوح وعناية بين النوميديين (المزالمة) تحت قيادة تاكفاريناس Tacfarinas والمورين تحت قيادة مازيبا Mazippa وأخيراً الجرمنتيين. ويذكر بول أوروس Orose

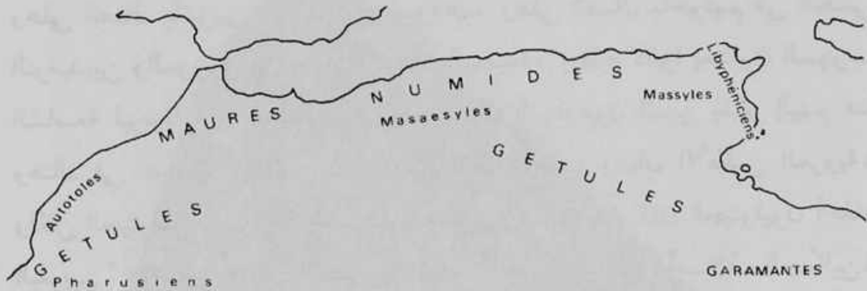
Paule مزالمة وجيتوليين في نفس الجملة وهو ما يوضح ضمنياً أن المزالمة غير الجيتوليين. وإذا كان المزالمة جيتوليين فيجب التسليم بأن بعض الجيتوليين لم يكونوا بدواً ومن الصعوبة تمييزهم من المزارعين االنوميديين لأن المقابر الكبيرة في قسطل وجبل مستيرى الواقعة في بلاد المزالمة كانت، بكل وضوح، مقابر أقوام من المزارعين المستقرين وليسوا رعاة رحلاً.

هكذا يتضح أنه لم يكن لكلمة جيتولي معنى سياسي، وليس لها كذلك أي معنى عرقي لأنها كانت مستعملة تلقائياً لتعني السكان الجنوبيين من المحيط حتى الأسرات بل حتى جنوب برقة (Strabon, XVII,3,19,23)، أي تعني أقواماً رحلاً بالضرورة.

كان الجيتوليون على اتصال بالجرمنتيين الذين يصعب تمييزهم عنهم، وعلى اتصال بأثيوبيى الواحات والسودان، وعلى اتصال باخوتهم في الجنس النوميديين والموريين في بلدان الشمال السعيدة، وعليه كانوا يحتلون السهوب الشاسعة لبربريا شبه الصحراوية. وقد يكون المزارعون الذين يشار إليهم هنا وهناك في جيتوليا مجموعات مستقرة تقطن أغلب وديان الأطلس المروية، ولكن الجيتوليين كانوا في غالبيتهم العظمى رعاة رحلاً. كان الجيتوليون أحفاد البقريين " Bovidiens " البيض من نهاية العصر النيوليتى وأسلاف الجمَّالين، وقد تعلم هؤلاء الفرسان من قبل الصعود نحو المراعي الشمالية كل صيف. وعلى طول الطريق، على طول هذه المصاعد الصحراوية في وسط بربريا أدخلوا بعض أشكال النصب التي يغلب فيها الطابع الأفريقي على الطابع المتوسطى.ويبدو أن هؤلاء البدو المحبين للتأمل كانوا يعطون أهمية أكبر للعبادة الجنائزية من جيرانهم في الشمال. فقد كانت المذابح والإشارات والسراديب والمصليات الملحقة بالقبور تبرز ممارسات غير معروفة للنوميديين أو الموريين.

* استمرار التقسيمات الإقليمية :

طوال التاريخ القديم، أي حتى الفتح العربي، أو على وجه الدقة حتى اللحظة التي أبرزت فيها المصادر العربية أفريقيا مختلفة، كان البربر دون أن يعرفوا قواعد إقليمية حقيقية، ينقسمون بدرجة من الديمومة وفق تقسيمات ثابتة من زمن ما قبل التاريخ: رحل في المناطق التي تحتلها ليبيا الحالية وجنوب المغرب الكبير حيث يسمون بالجيتوليين، وكانوا يسمون في الصحراء الشرقية بالجرمنتيين، ومستقرين وشبه رحل في الولايات الشمالية: الليبيون ـ الفينيقيون والأفرى في إقليم قرطاج، والنوميدين في غرب تونس والجزائر، والموريين في المغرب، وقد طغت التسمية الأخيرة على بقية التسميات وأصبحت، كما رأينا، تعني كل الأقوام غير المترومين في كل شمال أفريقيا.



بربر شمال أفريقيا الأوائل

يبدو التفريق بين الأفري والنوميديين والموريين، حتى بالنسبة للمؤلفين القدماء، نظرياً أكثر منه انعكاساً لواقع عرقي. فهذه التسميات تستند إلى المواقع الجغرافية للقبائل الرئيسية التي أعطت أسماءها أولاً للممالك الأفريقية ثم للولايات الرومانية. وقد قوّت سياسة حصر هذه القبائل في مساحات محددة والتي كانت إحدى ثوابت الإدارة الرومانية طوال قرون عديدة، هذا الأساس الإقليمي حتى ولو ترجم بتقليص هائل في المساحة المحافظ عليها.

لقد كان الأفارقة مُعدِّين بعض الشيء لهذا الأمر باتصالهم القديم بالقرطاجيين. فبعد أن أهمل القرطاجيون أن تكون لهم سيادة إقليمية حقيقية (كانوا حتى القرن الخامس يدفعـون جزية، او بدقة أكثر إيجاراً لإقليم مدينتهم، لملوك محليين صغار). وقد كونوا أول أقليم كان في البداية يقتصر على الجوار المباشر للمدينة ثم امتد حتى شمال الجزء الأكبر من تونس ووصل في وقت ما إلى منطقة تبسة في الجزائر. جرى هذا التوسع على حساب النوميديين والمسيليين الذين أعطوا أهمية كبرى لما بقى لهم من أراض كرد فعل على هذا التوسع. وقد كانت سياسة استعادة الأراضي التي أتبعها مسينيسا على حساب القرطاجيين طوال نصف قرن (201-150 قبل المسيح) ترمى إلى تقليص المدينة إلى إقليمها الذي كانت عليه في البداية، ولكنه في نفس الوقت كان يوسع مملكته نحو الغرب بإلحاق مملكة سيفاكس وابنه فرمينـا، أي مساسيليا.

كان اختفاء الممالك النوميدية والمورية لصالح روما على مراحل متعددة، وقد مرت قرابة القرنين من الزمان بيـن تهديـم قرطاج (146 قبـل الميـلاد) وضـم موريتانيـا (40 م. تقريباً). هكذا، لا نستطيع الحديث عن الجشع أو حتى على العجلة في السيطرة على حكـم أفريقيا. فبعد إعدام بطليموس Ptolemée، آخر ملوك موريتانيا، قسمت البلاد إلى ولايتين وفق ثابتة إقليمية من المهم الإشارة إليها، تتوافق إحدى هاتين الولايتين، موريتانيا القيصرية، بدقة مع الإقليم القديم للمساسيليين (وسط الجزائر وشرقها)، والأخرى، موريتانيا الطنجية مع المملكة المورية البدائية.

إدارة القبائل في العهد الروماني :

منذ ذلك الوقت، لم يكن أمام الرومان إلا قبائل أحياناً قوية جداً عندما تكون على رأس تجمعات حقيقية مثل الباكات Baquetes في موريتانيا الطنجية، والمزالمة Musulames في أفريقا والبافار في موريتانيا القيصرية. عرفت القبائل أو " الجنت " Gentes " أوضاعاً إدارية شديـدة الاختـلاف.

بعضها كان محكوماً بصورة محكمة من قبل ولاة (Praefectus Gentis) كانوا في الغالب ضباطاً ثانويين قدامي في الجيش الروماني من أصل محلي. وكان هؤلاء الولاة يستعينون في حالات الاضطراب بجند مساعدين محليين.

كانت أراضي القبائل المحكومة بالولاة في داخل الولايات الرومانية تحتفظ بتنظيمها السابق، وكانت تجد روح الاستقلال بسهولة في حال الاضطرابات وضعف السيطرة الإمبريالية، وتتخلص من " زعمائها " ما لم يكن هؤلاء من أعطى إشارة الثورة.

وفق الأماكن والعهود، كانت بعض التجمعات القبلية محكومة من رؤساء يمنح لهم اللقب الملكي المعترف به من قبل الولاه الرومان الذين كانوا يوقعون معهم اتفاقات تحالف ويسلمونهم رسمياً إشارات السلطة. كان هؤلاء الرؤساء، في عهد بروكوبيوس Procope (القرن السادس) يُسلمون تاجاً، وصولجاناً من الفضة، ومعطفاً أبيض، وسترة بيضاء، وأحذية ذهبية. وحالة هؤلاء الملوك "والأمراء " الباكات هي الحالة المعروفة أكثر من غيرها، لأنها برزت من خلال إهداءات عديدة اكتشفت في آثار فولوبيلس Volubilis (موريتانيا الطنجية). إن تكرار " هياكل السلام " هذه يبرز في الحقيقة ضعف السلام الروماني Pax Romana في المنطقة. وفي الصحراء كان للجرمنت ملكهم وكان للرومان معه علاقات رسمية متواصلة.





كتابات سماك اخ فريموس في توبسوبتو (تكلات. الجزائر)

* غموض الوظائف الإدارية، والرئاسات البربرية في نهاية الإمبراطورية:

صاحب ضعف السلطة الإمبراطورية في آخر عهد الإمبراطورية الرومانية زيادة قوة الرؤساء المحليين، وهو أمر طبيعي. وشهدت نهاية القرن الرابع صعود أسر كبيرة جمعت بين المناصب الإدارية في الولايات الرومانية والزعامات التقليدية. وتقدم هذه الأسرة الأميرية في منطقة القبائل أحسن الأمثلة: كان الوالد فلافيوس نوبل Flavius Nubel يمتلك أرضاً واسعة ودارة محصنة ـ قد نسميها اليوم برجاً ـ في منطقة بلاد جيتون (منرفيل سابقا)، ولـه شيد الضريح الجميل المجاور، على ما يبدو. وقد تزعم ابنه الأكبر فيرموس Firmus سنة 372 حركة تمرد واسعة تغطى مساحة كبيرة من موريتانيا القيصرية، وقد لقى القائد البربري الدعم من قبائل عديدة في مناطق القبائل، والأوراس، والظهرة. واستولى على عاصمة الولاية قيصرية " Caesarea (شرشل) وأحرق إكوسيوم Icosium (مدينة الجزائر). وقد تطلب الوضع الماجيستر ملتيوم " Magister Militum " ثيودوس Theodose، والد الإمبراطور الذي جاء بعد ذلك ويحمل نفس الاسم، على رأس حملة حقيقية لوضع حد لهذا العصيان. ويعرف التاريخ أربعة أخوة لفيرموس تقلدوا، بدورهم، أرفع المناصب: ساماك Sammac، وكان يمتلك قلعة بترا Petra في وادي الصومام جنـوب بجاية، وجلدون Gildon الذي شارك إلى جانب ثيودوس Theodose في الحرب ضد أخيه فيرموس Firmus، وأصبح فـي عهـد هونوريـوس Honorius كونت أفريقيـا Comte d' Afrique، أي أكبر سلطة عسكرية في كل الولايات الأفريقية. وقد تمرد بدوره ضد السلطة الإمبريالية، وعلى وجه الخصوص ضد ستلكون Stilicon الوزير القوى لهونوريوس الضعيف.عندما أعلن جلدون Gildon الولاء للإمبراطور الآخر (الأبعد)، اركاديوس Arcadius الذي كان مقـره في القسطنطينية، أوقف

تسليم الزيت والقمح الأفريقيين، وكان هذا استعمالا لسلاح اقتصادي مفزع في إمكانه تجويع روما خلال بعض أسابيع. وقد تولى أخوه ماسزل Mascezel قيادة القوات التي أرسلت لمحاربته وقضى عليه في ربيع 398 ولكن ماسزل أعدم بدوره بعد ذلك بقليل مع ديوس Dius آخر أبناء نوبل Nubel.

توضح هذه القصة المأساوية إلى أي درجة من القوة، وإلى أي رفعة في المناصب وصلت أسرة أفريقية حديثة التروم ولكنها مسيحية وكان أغلب أعضائها يحملون أسماء بربرية (نوبل، جلدو، ساماك، ماسزل). بل شهدت نهاية القرن الخامس تحت حكم الوندال ماستيس Masties "، وهو دوق " DUX سابق، يعلن نفسه إمبراطوراً للأوراس مدعياً إخلاصه لروما وطبيعته المسيحية.

الأمثلة السابقة معروفة أكثر من غيرها، ولكنها لا تمثل حالات معزولة. ففي نفس الوقت، ظهرت عبر الأرياف الأفريقية قلاع des Fondus ou Castellum خاصة، وقصور محصنة ودارات ومنازل قوية، وكلها شواهد على انفجار السلطة وتشتتها.

أدت السلطات الإقليمية للزعماء البربر في القرون التالية، تحت حكم الوندال ثم البيزنطيين، إلى تكوين ممالك حقيقية مستقلة لم تكن أسسها قوية لتقاوم الغزو العربي طويلاً. ولا تنعدم الشواهد الأدبية والمعمارية وحتى النقوش، ويمكن تصور ماذا كان يمكن أن تصير هذه الممالك، التي جمعت بشكل غير كامل بين بقايا ثقافة لاتينية ومسيحية بسيطة وتقاليد بربرية راسخة. وكان ماسونا Masuna، أحد هؤلاء الأمراء، في غرب الجزائر يقول بأنه ملك الموريين و " الرومان ". أو ليست مطالبة مماثلة لتلك التي كان يمكن أن يطالب بها في نفس الوقت كلوفيس Clovis في شمال بلاد الغال[1]؟

---

(1) الاسم القديم لفرنسا. المترجم

البربر في العصور الوسطى

* السلف :

يبدو أن الشعوب والإمارات البربرية المختلفة في القدم كونت عرقيات ثابتة نسبياً بقيت أسماؤها، وحتى مواقعها أحياناً، طوال القرون، ورأينا في العهد الروماني، على ضوء المفهوم الإقليمي للسلطة، توجهاً بالغ الوضوح عند الإفريقيين لتكوين أقاليم خاصة بهم آلت للعشائر Gentes أولاً، ثم للأمراء لاحقاً.

يعطي المؤرخون العرب من القرون الوسطى صورة مختلفة تماماً للبربر. صحيح أن هؤلاء الكتاب، وخاصة ابن خلدون المصدر الرئيسي، لم يكتبوا إلا بعد قرون عديدة من الغزو العربي، وإذا ما استخدموا نصوصاً أقدم مكتوبة أحياناً من بحاثة بربر متبحرين في اللغة العربية، فإن لديهم مفاهيم مختلفة تماماً عن مفاهيم الكتاب في العصور القديمة. كان للكتاب في القدم نظرة شاملة وإقليمية: فكل شعب يقطن منطقة يمكن أن يكون آتياً جزئياً أو كلياً من بلاد أخرى. يكفي لاستيعاب هذه الآلية العودة إلى الأسطورة التي نقلها سالوست Salluste حول أصول النوميديين والموريين، أو إلى نص بروكوبيوس Procope حول هذه الأصول بعد ذلك بستة قرون.

برز المؤرخون العرب كنسابين في المقام الأول. وما يُكّون موضوع بحثهم ومتعة كتابتهم هو تحديد النسب والصعود تدريجياً إلى أبعد مدى في الزمن حتى الجد الذي أعطى الاسم. إن هذا مفهوم أبوي ثابت عند المشرقيين، وكان الفينيقيون قد أدخلوه من قبل عند البربر. وتعطي بعد الشواهد النذرية في قرطاج، وكذلك من مدن أفريقية ذات ثقافة بونيقية حتى إلى فولوبيلس البعيدة Volubilis، سلاسل نسب طويلة جداً؛ هكذا تعطي شاهدة القاضي SWYTNKN في فولوبيلس التي سبقت الإشارة إليها أجداده حتى ستة

أجيال. لقد تغلغلت هذه العادة الفينيقية بتوسع عند الليبيين، ولكنها خفت في العهد الروماني حيث اقتُصر، عادة، على ذكر الأب.

بالنسبة لمؤرخي العصور الوسطى، لم تكن هناك شعوب وإنما أسر أبوية كبيرة. وكانت القبائل والفروع والأفخاذ تعرف قرابتها ـ أو تقول بهذه القرابة ـ عن طريق الاعتراف بجد مشترك لها أو تأكيده. وبكل وضوح لا يستند هذا المفهوم النَّسَبي إلى أي أساس إقليمي، فقد تدَّعى مجموعات انحدارها من سلف واحد تحمل أسمه وتكون مواطنها متباعدة بآلاف الكيلومترات عن بعضها البعض. الصنهاجيون، أحفاد أحد أبناء برانس، يمكن أن يكونوا في منطقة القبائل الكبرى، أو الهوجار أو بجوار السنغال (الذي يدين لهم باسمه)، وهكذا يمكن أن تكون لهم أنماط حياة شديدة الاختلاف.

يظهر الانتشار والتشتت بوضوح أكبر في " أسرة " أخرى؛ زناتة، أحفاد ضري وهو نفسه حفيد مادغيس كما قال هـ. تراس H. Terrasse، " كانت زناتة تمتد في كل الاتجاهات الأقل مقاومة، وتتراجع أو ترتحل في حالة الفشل": ويوجد أحفادهم في كل مناطق المغرب شمال الصحراء.

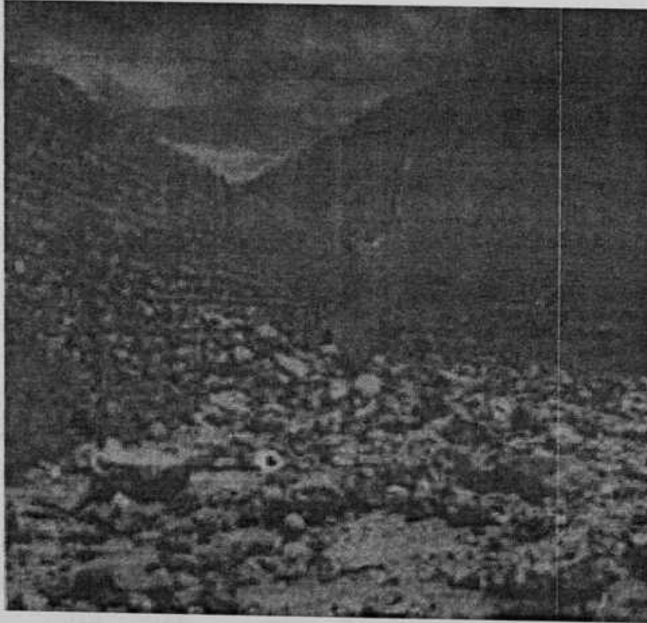
من هذه الأنساب العديدة المُحافَظ عليها بصبر في الذاكرة الجماعية والتي تُثري عندما تتطلب التحالفات السياسية أو ضم أفخاذ جديدة ذلك، يبرز إحساس مؤلم بالتفرق والغموض معاكس للتوزيعات الجغرافية في العصر الكلاسيكي. ليست هذه التوزيعات أكثر صحة ولكنها تستند إلى استمرارية إقليمية تخرج كلياً عن إدراك النسابين العرب.

صحيح أننا إذا ما وضعنا أنفسنا في عهد ابن خلدون، مرجعنا الرئيسي، أي في القرن الرابع عشر، سنجد أن هناك ثلاث أحداث ذات أهمية كبيرة هزت المعطيات الجغرافية السياسية والعرقية لأفريقيا القديمة. أول هذه الأحداث وأكثرها غموضاً يتمثل في ظهور قبائل كبيرة من البدو الجمَّالين على السفح الجنوبي الشرقي لأفريقيا الرومانية ابتداء من القرن الرابع. والثاني هو الفتح

العسكري العربي في القرن السابع، ويتمثل الثالث في وصول عدة قبائل عربية بدوية في القرن الحادي عشر، وهو ما سماه المؤرخون بالغزو الهلالي.

* قبل الإعصار، صحراء هادئة :

لم تبدأ قبائل الجمَّالين الكبيرة في ممارسة ضغط حقيقي مقلق على طرابلس الغرب إلا في القرن الرابع. نظمت روما في القرنين الثاني والثالث شبكة من الطرق مدعومة بكثير من النقاط المحصنة سميت لغرض التبسيط بـ Limes. لم يكن هذا مجرد خط للتحديد ولكنه كان يمثل أحياناً منطقة عسكرية يصل توغلها في الداخل حوالي مائة كيلومتر وكـان يسمح بتوطين مزارعين



كلوسترا في بئر أم على. أحد عناصر خط التحصينات الرومانية في الجنوب التونسي

على أراضي التنقل القديمة، وتطوير تجارة قوافل عبر الصحراء وكذلك مراقبة تحركات شبه البدو. إن في حوزتنا الكثير من الشواهد على احتلال الصحراء وعملية التعمير هذه. وإن روعة مدينة مثل لبدة الكبرى Lepcis Magna وثراءها نتيجة مباشرة لهذا الاحتلال والتعمير. وقد تكون الأكثر إثارة، وثائق بونجيم وهى نقطة عسكرية في الصحراء الطرابلسية نقب فيها ر. ريبوفا R. Rebuffat طوال سنوات عديدة. وهذه الوثائق عبارة عن شقف من الفخار القديم مسجل عليها في بضع كلمات كل الأحداث: إرسال بعثة من جندي مرتزق عند الجرمنت، أو مرور بعض الجرمنت يقودون أربعة جحوش (Garamantes ducentes asinos IV...). فمنذ القرن الثاني كان الجرمنت يستوردون منتجات رومانية مثل الجرار، والمزهريات الزجاجية، والحلي حتى إلى قصورهم البعيدة في فزان وكان معماريون رومان يبنون الأضرحة للأسر الأميرية في جرمة.

* لفاتة ولواتة : الرحلة الجَمَلية :

يعطي آخر عهد الإمبراطورية الرومانية لهذه الأقاليم صورة من عدم الاستقرار. يفيدنا اميان مرسلان Ammien Marcellin ان الاستورياني[1] قبيلة حاصرت سنة 363 لبدة الكبرى[2] أويا (طرابلس)[3]، وربما صبراتة المدينة الثالثة من إقليم طرابلس، وقد اضطر كونت أويا (طرابلس) الغرب

---

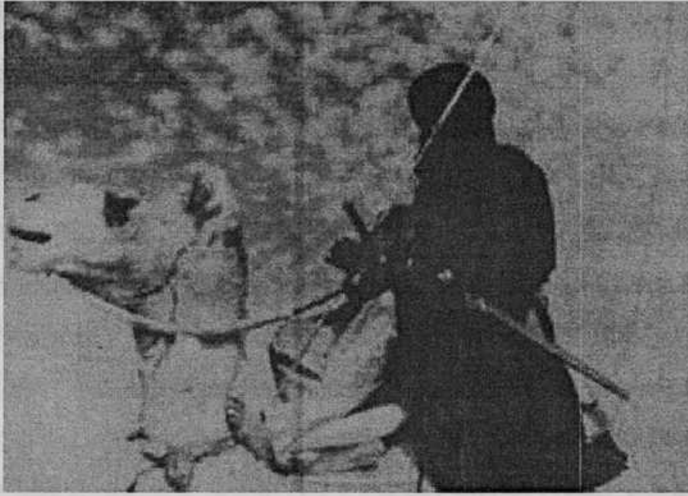
(1) تدعى كذلك اوستور Austur، وأوستوريى Austurii أو سوريانى Ausuriani. ويسئ اللاتين والإغريق دائماً نطق الاسماء البربرية. أورد المؤلف هذه الملاحظة في الصلب وقد رأيت لغرض التسهيل وضعها حاشية. المترجم

(2) لبدة العظمى. المترجم

(3) الاسم القديم لطرابلس كما هو معروف. المترجم

لمحاربتها مجدداً سنتي 408 و 423، وفي نفس الوقت ظهرت هذه القبيلة في برقة إذا ما صدقنا سينسيوس Synesius الذي لم يترك مجالاً للشك حول طباعها: كان هؤلاء بدواً جمالين قادرين على التنقل لمسافات طويلة على طرق الصحراء. بعد ذلك بقرن، تحت الحكم الوندالي وأثناء الغزو البيزنطي توغل نفس هؤلاء الاوستوريون Austuriens في بيزاسين Byzacene (وسط تونس وجنوبها)، وتحالفوا مع المورين ـ جبليين من الظهر التونسي دون شك ـ الذين كونوا مملكة تحت حكم شخص ما يسمى أنتالاس Antalas. من بين هؤلاء البدو الذين توغلوا بعيداً في الأرياف الأفريقية، هناك قبيلة شدت الانتباه لمدة طويلة. تعرف هذه القبيلة بتسميات مختلفة: إلاَقواس Ilaguas، لقواتان Laguatan، لفاته Levathae وهم جميعهم نفس الذين يسميهم المؤلفون العرب بلواتة. وقد أبرزهم بروكوبيوس Procope وكوريبوس Corippus متوغلين في بيزاسين سنة 544 محاصرين لمدينة الاعـراش Lares (Lorbeus) في منتصف الطريق بين قرطاج وتيفست Theveste (تبسة). وقد وجد البكري وابن خلدون نفس هؤلاء اللواتيين في جنوب الأوراس حتى جوار تيارت. وجرى ما جرى كما لو أن هذه القبائل البدوية الكبيرة تقدمت ببطء خلال قرون من برقة إلى وسط المغرب الكبير. ويعتبر هذا حلقة في حركة بدأت منذ ما قبل التاريخ وتقود دوماً إلى المغرب الكبير أقواماً قادمين من الشرق.

تحكي الأشعار الملحمية لجوهانيد دى كوريبوس Johannide de Corippus، آخر الكتاب اللاتين في أفريقيا، المعارك التي أضطر لخوضها جان تروقليتا، قائد القوات البيزنطية ضد هؤلاء الخصوم المرعبين، حلفاء مور الداخل. وقد بقى هؤلاء البربر البدو وثنيين، وكانوا يعبدون إلهاً ممثلاً بثور يسمى قرزل Gurzil، وإلهاً محارباً، سنيفير Sinifere. وكانت جمالهم التي تخيف خيول الفرسان البيزنطيين منظمة في شكل دائرة وهكذا تحمي النساء والأطفال الذي يتبعون البدو في ترحالهم.



مسلح برمحه (*eller*) وسيفه (*Takouba*)

بواقية في شكل صليب، لا يختلف الطارقي عن البدو الجمالين الذين توغلوا في المغرب الكبير بداية القرن الخامس إلا قليلاً جداً

٭ الجمل في الصحراء : استجلاب أو تكثير :

نوقش ظهور الجمل ـ أو بتعبير أدق الجمل وحيد السنام ـ المفاجئ في تاريخ البربر كثيراً ومنذ زمن طويل. كان هذا الحيوان نادراً جداً في الزمن القفصي[1] ولكنه لم يكن منعدماً تماماً، ولم يُمثل قط في النقوش والرسوم النيوليتية القديمة. ولم يذكره بلين الأكبر Pline L'ancien من بين حيوانات أفريقيا، كما أنه لم يذكر الحمار الركوبة المفضلة في بلدان المغرب الكبير. وكان الجمل، في القرن الأول قبل الميلاد، منتشراً لدرجة أن قيصر استولى على خمسين جملاً من الملك النوميدي يوبا الأول Juba I. وبعد ذلك بأربعة قرون علمنا عَرَضاً أن جثمان المتمرد فيرموس Firmus أُحضر إلى ثيودوس

(1) نسبه إلى الاسم القديم لقفصة Capsa. المترجم

Theodose مربوطاً على جمل. مع ذلك، لا تمكن هذه الوثائق الأدبية مدعومة بتماثيل صغيرة نادرة من الطَّفل أو صور على فسيفساء بتأكيد أن الجمل كان منتشراً في أفريقيا خلال القرون الأولى من الإمبراطورية. وعلى طريق إ.ف. جوتيية E.F.Gautier لم يتردد العديد من المؤرخين في تبني التصور القاضي بأن الجمل أدخل من قبل الوحدات السورية في الجيش الروماني في القرن الثالث، وتمكن البربر الذين أصبحوا جمَّالين بالتقليد من احتلال الصحراء بفضل هذه الركوبة المتكيفة مع الصحراء.

لا يستند هذا الافتراض إلى أي حجة صحيحة. فمن المعروف أن المتوسطيين، وهم مربو خيول، كانوا يسيطرون على الصحراء قبل هذا الادعاء المزعوم لاحتلال البربر الجمالين لها بعدة قرون. إن من الأصوب ملاحظة تطور تربية الجمل في طرابلس الغرب ابتداء من القرنين الرابع والخامس ومتابعة تقدم هذه القبائل نحو الغرب وربما نحو الجنوب.

* البتر والبرانس، صنهاجة وزناتة :

قضى هؤلاء الجمالون البدو، في السهول الجنوبية، على حياة الاستقرار والزراعة التي جعلتها خطوط التحصينات الرومانية Limes ممكنة. كان لظهور البدو الحقيقيين في عالم أفريقي دفعت فيه الإدارة الملكية ثم الرومانية خلال قرون، البربري إلى تحديد أفقه في صفوف ما يزرعه من بصل وخطوط ما عنده من أشجار الزيتون، نتائج هائلة على البلاد والسكان. منذ اختفاء تحصينات التخوم Limes فقدت السيطرة على شبه البدو الذين كانوا من قبل مُراقبين عن قرب ومُسيطر عليهم أثناء ارتيادهم مواطن الكلأ بين السهول الصحراوية في سفوح الجبال وهضاب زراعة الحبوب. وقد توغل هؤلاء أكثر فأكثر في الأراضي الغنية والمزروعة تحت ضغط البدو الجمالين أو مختلطين بهؤلاء القادمين الجدد. وقد صوحب توغل البدو ابتداء من القرن السادس والفتح العربي في القرن

السابع بتغيرات مناخية مقرة حالياً من قبل أغلب المختصين؛ وتتمثل هذه التغيرات في جفاف ظهر في الشرق الأوسط كما في اليونان وتونس وهو ما يفسر، في نفس الوقت اضمحلال المجتمعات الفلاحية المستقرة على الأطراف الجنوبية من المنطقة المزروعة. وتمثلت نتيجة أخرى في إدخال مجموعات بربرية جديدة قادمة من الشرق في وسط البربر الأوائل، ولا يتميز هؤلاء القادمون فقط بنمط معيشتهم وركوبتهم وحتى حيواناتهم، ولكن أكثر بخواص لسانهم. وبالفعل، تحقق اللغويون من مجموعة خاصة، زناتة، ينتمي إليها القادمون الجدد. ولم يكن هؤلاء الزناتيون منحدرين من النوميديين والموريين، وإنما حلوا محل الجيتوليين واحتووهم في التجمعات القبلية الجديدة، واختاروا لهم سلسلة نسب جديدة.

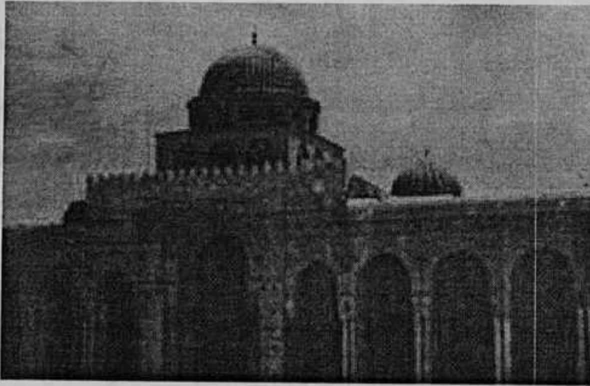


جمّال، تمثال صغير من الطين المحروق في متحف سوسة (تونس)، وهو واحد من الشواهد النادرة التي تبرز الجمل في أفريقيا القديمة.

صنهاجة هي المجموعة الأكثر أهمية من بين القادمين الجدد، وقد كونت في مناطق مختلفة من المغرب الكبير والصحراء ممالك وإمبراطوريات عديدة. لقد مثلت المواجهة التلقائية بين زناتة وصنهاجة تبسيطاً إلى حد بعيد. وإذا كانت النزاعات بينهما متكررة، فإن من الخطأ الاعتقاد بأن كل البربر البدو زناتيون وكل الصنهاجيين مستقرين. حالياً لم يعد هناك عملياً وجود لبدو ينتمون للمجموعة اللغوية زناتة، فقد كانوا أول المتعربين من بين البربر. بالمقابل تنتمي اللغات البربرية البدوية الباقية (الطوارق) إلى مجموعة صنهاجة.

* الفتح العربي : الحملات الأولى :

كان الفتح العربي ثاني أكبر حدث تاريخي هز البنيان الاجتماعي للعالم الإفريقي. وبعكس الرأي الشائع في أوروبا في الكتب المدرسية، لم يكن هذا الفتح محاولة للاستعمار، بمعنى مشروع استيطاني. لقد تمثل الفتح العربي في سلسلة من العمليات العسكرية كان يختلط فيها الطمع في الكسب مع الروح التبشيرية. وبعكس صورة أخرى، لم يكن هذا الفتح كذلك مجرد جولة بطولة على ظهور الخيل تكتسح أمامها كل مقاومة ببساطة متناهية.



الجامع الكبير في القيروان.

أول تأسيس للمسلمين في أفريقية

توفي النبي محمد ﷺ[1] سنة 632 م، وبعد ذلك بعشر سنوات كانت جيوش الخلافة تحتل مصر وبرقة. وتوغلت هذه الجيوش في طرابلس الغرب سنة 643 م. وقد وجهت غارة من الخيالة تحت قيادة أبن سعد[2] حاكم مصر وأخ الخليفة عثمان من الرضاعة على أفريقية (تحريف عربي للاسم القديم أفريقا) التي كانت مسرح مواجهات بين البيزنطيين، والبربر المتمردين وفيما بين البيزنطيين أنفسهم. وأظهرت هذه العملية ثراء البلاد ومواطن ضعفها. كما أشعلت رغبات متأججة. يصف المؤرخ النويري بأي سهولة تم تجميع جيش عربي صغير مكون من وحدات قدمتها أغلب القبائل العربية. غادرت هذه القوات المدينة في شهر التمور (أكتوبر) سنة 647 م ولمْ يكن يتجاوز عددها خمسة ألاف رجل، ولكن في مصر أضاف إليها ابن سعد الذي تولى قيادتها جيشاً من عين المكان رفع العدد إلى عشرين ألفاً من المقاتلين المسلمين. وقع الصدام الحاسم ضد الروم (البيزنطيين) تحت قيادة البطريق جريجوار[3] Gregoire بقرب سبيطلة في تونس. وقد قتل جريجوار، ولكن العرب انسحبوا راضين بعد نهبهم البلاد المنبسطة وتحصلوا على جزية هائلة من مدن بيزاسين (سنة 648 م). لم يكن لهذه العملية غرض آخر.

* عقبة، الفارس المغامر في سبيل الله :

لم يبدأ الغزو الحقيقي إلا في عهد الخليفة معاوية الذي أسند قيادة جيش جديد لمعاوية بن خديج سنة 666 م، وبعد ذلك بثلاث سنوات أسس عقبة بن نافع القيروان، أول مدينة إسلامية في المغرب الكبير. وحسب الروايات المنقولة عن المؤلفين العرب، وفيها اختلافات عديدة، قام عقبة، خلال ولايته الثانية، بكثير من الغارات نحو الغرب وأستولى على مدن مهمة مثل لامبيز Lambése

---

(1) إضافة من المترجم. المترجم

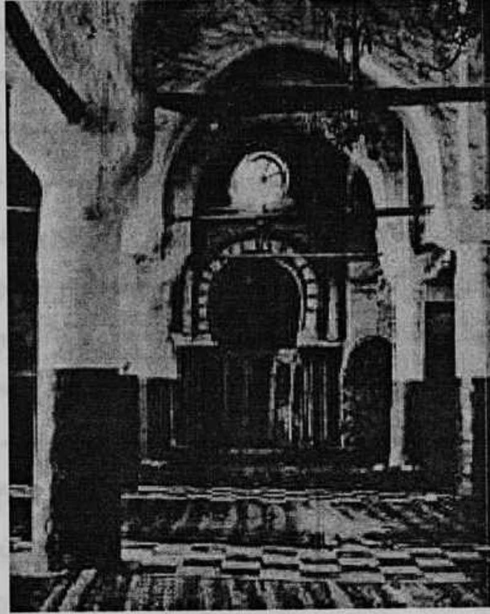
(2) يقصد عبد الله بن سعد بن ابي السرح. المترجم

(3) جرجير في المصادر العربية القديمة. المترجم

التي كانت مقر الفليق الثالث وعاصمة نوميديا الرومانية. توجه بعد ذلك نحو تاهرت بالقرب من تيارت Tiaret الحديثة ثم وصل طنجة حيث وصف له شخص يسمى يوليان Julianus Yulian بربر السوس (جنوب المغرب) بطريقة خالية من الود. قال: " إنهم قوم لا دين لهم يأكلون الجثث ويشربون دماء حيواناتهم، ويحيون كالحيوانات لأنهم لا يؤمنون بالله، بل لا يعرفونه ". وقد أوقع فيهم عقبة مذبحة هائلة وأسر نساءهم اللاتي كن ذات جمال فريد. ثم توغل عقبة بحصانه في المحيط الأطلسي مشهداً الله على أنه لم يعد هناك أعداء للدين ولا كفرة لكي يقاتلوا.

لا تقيم هذه الرواية الأسطورية في جزئها الأكبر مصحوبة بأخريات تقول بأن عقبة ذهب حتى أعماق فزان قبل معاركه في المغرب الأقصى، وزناً للمقاومة التي جابهت هذه الحملات. وقد أدت هذه المقاومة في النهاية إلى كارثة خلخلت الحكم العربي في أفريقية طوال خمس سنوات. فقد بدأ الزعيم البربري كسيلة، الذي كان قد تحول إلى الإسلام، الثورة.وقد سُحقت قوات عقبة في طريق العودة جنوب الأوراس، وقتل هو نفسه في تهودة[1] قرب المدينة التي تحمل اسمه وفيها قبره، سيدي عقبة. زحف كسيلة على القيروان وأستولي عليها، وانسحب ما بقى من الجيش الإسلامي حتى برقة. وقد تتابعت الحملات والغارات بشكل شبه سنوي. وتوفي كسيلة سنة 686 م ولم يستول على قرطاج إلا سنة 693 م، وأسست مدينة تونس سنة 698 م. وقد قادت المقاومةَ خلال بضع سنين أمرأة من الجراوة، إحدى قبائل البتر سادة الأوراس. كانت هذه المرأة تسمى (داهية)، ويعرف الآن أنها كانت مسيحية وقد عرفت بلقبها الكاهنة الذي أعطاه لها العرب. ويمكن اعتبار وفاتها، حوالي سنة 700 م، نهاية مقاومة البربر المسلحة ضد العرب. بالفعل، عندما عبر طارق المضيق الذي أعطاه اسمه (جبل طارق) لاحتلال أسبانيا، كان جيشه يتكون أساساً من وحدات بربرية، من موريين.

(1) قرب مدينة بسكره بالجزائر. المترجم



مسجد سيدي عقبة[1] من الداخل (الجزائر)

* التحول إلى الإسلام واختفاء الممالك البربرية المسيحية :

كان تحول أغلب البربر إلى الإسلام النتيجة الرئيسية للفتح العربي، وهو تحول أقل سرعة مما يقال. ولم تتبق إلا جزر صغيرة من المسيحيين في المدن، حتى حديثة التكوين منها مثل القيروان وتاهرت. وكانت بعض القبائل التي تهودت في ظروف غير معروفة جيداً تكون أساس السكان اليهود المحليين لأفريقيا الشمالية. لقد تحول البربر بأعداد كبيرة إلى الإسلام، بالرغم من الردات التي يتهمهم بها المؤلفون العرب. ويعود إلى تاريخ هذا التحول حرص أغلب الأسر الكبيرة على الانتماء لسلسلة نسب مشرقية. ولما كان هؤلاء يعرفون أنهم مختلفون عن عرب الحجاز فقد بحث النسابون البربر عن أصول حميرية

(1) هذا غير مسجد عقبه في القيروان. المترجم

(جنوب الجزيرة العربية)، أو كما سبق لنا رؤيته عن أصول كنعانية، وهو ما يعتقده ابن خلدون بقوة. ولم يكن وجود تقليد مماثل منذ العهدين الروماني والبيزنطي مؤسس على ذكرى بعيده لأصول بونيقية إلا ليشجع رجال الدين على هذه المحاولة الأولى لنسيان الهوية.

جعلت نتيجة أخرى أوضح للفتح العربي في القرن السابع، من المستحيل تكوين هذه الممالك المورية المعتمدة على قوة القبائل وفي نفس الوقت على ما بقي من الثقافة اللاتينية الممتزجة بالمسيحية التي كانت مزدهرة في كل أفريقيا الرومانية القديمة. بَقِيَ من هذه الممالك البربرية ـ المسيحية المنتهية آثار مهيبة أحياناً مثل الجدار (فرندا، غرب الجزائر) والتي أغلبها لاحق زمنياً للقرن الخامس، والجور بالقرب من مكناس (المغرب) والتي أمكن تأريخها بمنتصف القرن السابع (640 م ± 90) عن طريق الكربون 14. وبين هذين الموقعين الجنائزيين الشاهدين على وجود إمارات قوية، قدمت مدن التافا Altava (حجار، روم، لامورسيير سابقاً) وبو ماريا Pomaria (تلمسان) شواهد قبور مسيحية، والكتابة المشهوره للملك ماسونا Masuna. وأكثر إلى الغرب في مدينة فولوبيلس Volubilis أكتشفت سلسلة بديعة من النصوص المسيحية المنقوشة، وقد أعيدت زمنياً إلى العصر الروماني الأسقفى الممتد بين 595 م، و 655 م.

القرن الخوارجى

صاحب تحول البربر إلى الإسلام ازدهار اختلافات مذهبية يمكن مقارنتها بما شهدته المسيحية الإفريقية من قبل. وقد نجم أهم هذه الحركات عن توارث الخلافة، خاصة عزل على زوج ابنة الرسول لصالح معاوية والأمويين. وقد ضاق بعض المؤمنين الملتزمين بروح الإسلام الخالص ذرعاً بهذه النزاعات وأعمال القتل التي رافقت ما جرى وانفصلوا عن مجموع المسلمين (من هنا جاء الاسم الخوارج: الخروج)، ونادوا بعقيدة ديمقراطية لاختيار الخليفة. شهد مذهب

الخوارج، الذي ولد في المشرق، نجاحاً هائلاً عند البربر. ولم ير أغلب مؤرخي العهد الاستعماري في هذا النجاح إلا مظهراً لمقاومة البربر للحكم العربي، وقد سبق إعطاء نفس المعنى للحركة الدوناتية(1) خلال الحكم الروماني لإفريقية. واعتقد ـ شخصياً ـ أن الطابع المتقشف والديمقراطي نسبياً لمذهب الخوارج كان يتوافق بشكل خاص مع العقلية البربرية (انظر أدناه ـ الفصل الرابع). وقد بلغ نجاح هذه الحركة درجة جعلت المغرب الكبير مشتعلاً طوال جزء كبير من القرن الثامن، وامتدت إحدى الانتفاضات الخوارجية التي قام بها سقاء من المغرب الأقصى حتى أفريقية(2). كما عرَّضت انتفاضة بربرية أخرى من الفرقة الصفرية في جنوب أفريقية(2) الحكم العربي للخطر، وخلال هذه الانتفاضة تم الاستيلاء على القيروان سنة 757 م. بعد ذلك بسنتين انتصر في نفس المناطق مذهب خوارجي آخر؛ الأباضية، الذي مازال باقياً حتى اليوم في مزاب وجربة وجبل نفوسة. في الأخير استطاعت حملة جديدة قادمة من مصر إعادة السلفية السنية إلى تونس الحالية التي بقيت حتى بداية القرن العاشر تحت حكم الأمراء الأغالبة ممثلين للخلفاء العباسيين وكان سادة بقية المغرب الكبير آخرين: إمارة خوارجية وهي مملكة تاهرت الرستمية في وسط الجزائر وكان على رأسها إمام من أصل فارسي، وأخرى في تافلالت تتحكم في تجارة القوافل لوادى الساورة والسودان البعيد (مالي حالياً) وكانت عاصمتها سجلماسة. وتكونت في شمال المغرب مملكة أخرى على أساس ديني لصالح إدريس وهو أحد الأشراف (منحدر من النبي ﷺ(3)) وحفيد متأخر لعلى وفاطمة وقد استقر في فولوبيلس Volubilis، وأسس ابنه، إدريس الثاني، مدينة فاس سنة 809 م. واستمرت هذه العائلة حتى نهاية القرن العاشر.

---

(1) حركة قام بها أسقف قرطاج في القرن الرابع الميلادي، والتسمية مشتقة من اسمه دوناتوس. المترجم

(2) المقصود ما كان العرب يسمونه أفريقية وهي المنطقة المحصورة غالباً بين قسطنطينه في الجزائر ووادي لبده في ليبيا. المترجم

(3) إضافة من المترجم. المترجم

* ملحمة كتامة والخلافة الفاطمية :

في هذه الأثناء، كانت تدور في وسط المغرب أولاً ثم في أفريقية لاحقاً مغامرة مدهشة. فبينما كانت زناتة، وهم من البربر البتر، يتوسعون تدريجياً في السهول العليا، كانت صنهاجة وهم من الفرع الآخر من البربر يحتفظون بالأقاليم الجبلية في وسط الجزائر وشرقها. وقد استقبلت كتامة إحدى هذه القبائل التي كانــت مستقرة في منطقة القبائل الصغرى منذ العهد الروماني، داعية شيعياً. والشيعة هم أنصار على، صهر النبي، الذي أُبعد من السلطـة وقُتل[1]. وأعلن هذا الداعية، أبو عبد الله، ظهور الإمام المهدى الذي لا يمكن أن يكون إلا منحدراً من على وفاطمة. وخلال بضع سنوات استطاعت الميليشيا الكتامية المنظمة تنظيماً جيداً تحت قيادة أبي عبد الله، الذي برز كاستراتيجي متميز، الاستيلاء بالتتابع على سطيف وباجة وقسطنطينة. في شهر مارس سنـة 909 م استولى الشيعة على القيروان وأعلنوا الفاطمي عبيد الله الذي كان ما يزال سجيناً في الطرف الآخر للمغرب الكبير، في سجلماسة البعيدة إماماً. وقد حررته حملة من كتامة تحت قيادة أبي عبد الله الذي لا يتعب وجاءت به منتصراً إلى القيروان (الكانون (ديسمبر) سنة 909 م) وبعـد أن أسس المهدي عاصمة جديدة، المهدية، على الساحل الشرقي لتونس، أرسل مخلصيه من كتامة في حملة على صقلية، وفي السنة التالية على مصر. بعد ذلك بأربع سنوات كانت هذه الميليشيا الصنهاجية تحارب من جديد في أقصى المغرب حيث حطمت المملكة الإدريسية بمساعدة قبائل مكناسة.

---

(1) قتل سيدنا علي على يد أحد الخوارج بعد معركة صفين وواقعة التحكيم. واسـتعمال "كلمة " عزل " هنا غير دقيق. المترجم



بقايا قصر المنار. قلعة بنى حماد

عاصمة المملكة الصنهاجية لبني حماد

نجحت الأسرة الفاطمية المنحدرة من عبيد الله خلال فترة في السيطرة على الجزء الأكبر من أفريقية الشمالية، ولكن انتفاضات مريعة كانت تهز البلاد. كان أخطر هذه الثورات تلك التي قادها مخلد بن كيداد الملقب بأبي يزيد، صاحب الحمار. ولكن الأسرة الفاطمية نجت مرة أخرى بتدخل من صنهاجة وسط المغرب الكبير تحت قيادة زيرى. هكذا بعد أن احتل الفاطميون مصر، بمساعدة صنهاجة كما هو الحال دائماً، وأسسوا عاصمتهم في القاهرة سنة (973 م)، تركوا حكومة المغرب الكبير لمساعدهم بلكين بن زيرى. ومن هذا القرار، الذي كان يبدو حكيماً والقاضي بترك إدارة البلاد لأسرة بربرية، تولد أسوأ ما عرف المغرب الكبير من نكبات.

* عقاب الزيريين والوباء البدوي :

خلال ثلاثة أجيال، أرخى الزيريون روابط تبعيتهم للخليفة الفاطمي. ففي سنة 1045 م ألغي المعز المذهبَ الشيعي وأعلن الولاء للخليفة العباسي في

بغداد، وبالفعل كانت غالبية المغاربة قد بقيت على السلفية السنية. من أجل معاقبة هذا الانفصال أعطى الخليفة الفاطمي المغرب الكبير للقبائل العربية كثيرة الشغب التي كانت تنتجع في الصعيد شرق النيل في مصر العليا. ترتبط هذه القبائل؛ جشم، واثبج، وزغبة والرياح وربيعة وعدى بجد مشترك هو هلال، ومن هنا جاء اسم الغزوة الهلالية لهذه الهجرة المشرقية نحو شمال أفريقيا. وقد دخل بنو هلال متبوعين بعد قليل ببني سليم، في أفريقية سنة 1051 م.

إن من الخطأ تصور وصول هذه القبائل كجيش زاحف يحتل الأراضي بعناية ويحارب بدون هوادة الزيريين ثم بنى عمومتهم الحماديين الذين أقاموا مملكة منفصلة في الجزائر. كما أن من الخطأ كذلك الاعتقاد بوجود مجابهة شاملة ذات طبيعة عرقية أو وطنية بين العرب الغزاة والبربر. لقد احتلت القبائل، التي دخلت المغرب الكبير، بلداً مفتوحاً، وقامت بإعادة تجميع قواتها للاستيلاء على المدن التي كانت تنهبها تلقائياً ثم تتوزع من جديد ناشرة النهب والحزن أبعد فأبعد.

لم يتردد الأمراء البربر من الزيريين والحماديين، ولاحقاً من الموحدين، في استعمال القوة العسكرية المتوفرة دائماً والتي يمثلها هؤلاء البدو، وهكذا توغلت هذه القبائل تدريجياً في الأرياف المغاربية.

بالرغم من نهبهم القيروان والمهدية وتونس والمدن الرئيسية في أفريقية، وبالرغم من أن ابن خلدون يصفهم بجيش من الجراد يحطم كل شيء في طريقه، كان إدخال بني هلال وبني سليم ثم بعدهم بوقت قصير بني معقل لروح الفوضى في المغرب الكبير، أعظم خطراً مما قاموا به من أعمال سلب ونهب.

سنرى في الفصل اللاحق كيف أن وصول العرب البدو حَّول جذرياً وجه بربريا وعرَّبها. لكننا لا نستطيع أن نحمل بني هلال الذين لم يتجاوز عددهم مائة ألف مسؤولية الفوضى والمآسي التي عمت كل الأرياف من أفريقية إلى المغرب الأقصى ونُبرئ البربر وخاصة الزناتيين. بالفعل، قوَّى حضور العرب جانب السكان

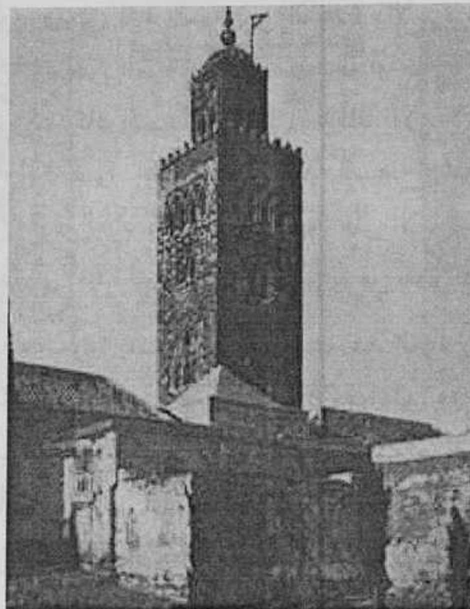
البدو، وبالرغم من أن عددهم كان ضئيلاً عند وصولهم في القرن الحادي عشر إلا أن هذا الوصول كان حاسماً على الصعيد الثقافي والاجتماعي والاقتصادي.

* مغامرة المرابطين، البربر الصحراويون في أسبانيا:

تناقض جديد، وتاريخ المغرب الكبير غنى بالتناقضات بشكل خاص، يتمثل في تتابع تكوين الإمبراطوريات البربرية الكبيرة في نفس الوقت الذي انتشر فيه مع المنتجعات البدوية عامل خطير من الفوضى والتفسخ. فبينما كانت تتهاوى الممالك الصنهاجية والزيرية في أفريقية، والحمادية في وسط المغرب الكبير تحت تضافر ضربات القبائل الهلالية والانتشار البطئ لسموم البداوة بسبب التحام المخاطر الزناتية والعربية، كان المغرب الأقصى مسرحاً لمغامرة عسكرية جديدة على أسس دينية. وكانت النتيجة السريعة تكوين إمبراطورية المرابطين التي أمتدت من السنغال إلى أسبانيا ومن الأطلسي إلى خط طول مدينة الجزائر. ويتمثل التناقض في تأسيس هذه الإمبراطورية من قبيلة بربرية بدوية من الصحراء الغربية هي لمتونة ذات الجذور الصنهاجية. فقد قادت الرغبة في إحياء إسلام صارم بعض وجهاء لمتونة لدعوة ابن ياسين وهو مصلح من سجلماسة، جمع ابن ياسين أتباعه في رباط (من هنا جاءت التسمية: المرابطون). وقد أحتل رجال لمتونة الشجعان والمدربون جيداً من قبل يوسف بن تاشفين مؤسس مدينة مراكش، المغرب، والجزء الأكبر من الجزائر وأخضعوا أسبانيا الإسلامية.

تناقض آخر، لقد أنشأ المرابطون الإمبراطورية باسم الإصلاح الديني، فقاموا أولاً بتحطيم أصحاب البدع: البرغواطة ثم اخضعوا الملوك المسلمين الصغار في أسبانيا الذين كانوا يعيشون في ترف واختلاط مع المسيحيين لا تستطيع صرامة المرابطين قبوله. ولكن بسبب هذه السيطرة على أسبانيا ادخل المرابطون في المغرب الأقصى الذي كان متقشفاً، جذور الثقافة الأندلسية. وقد عرف المغرب بفضل هؤلاء الأجلاف الصحراويين أكثر الحضارات الحضرية تميزاً في الإسلام.

في أقل من ثلاثة أجيال، عصف بأبناء هؤلاء المحاربين الأشداء الملثمين (كما هو الحال لأغلب الصحراويين، كان اللمتونيون ملثمين) الذين ليَّنهم الترف رياح إصلاح أخرى ذات طبيعة عسكرية وقبلية.



الكتبية، مئذنة

المسجد الموحدي في مراكش

إمبراطورية الموحدين

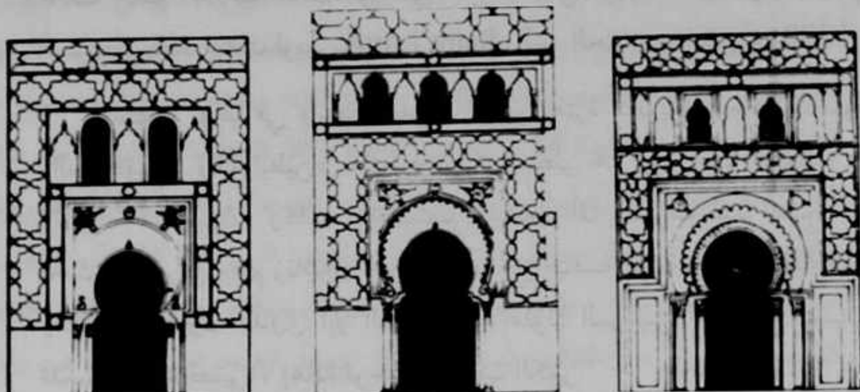
هذه المرة، كانت جذور الحركة الإصلاحية في قبيلة صنهاجية أخرى، جبلية، وهي مصمودة الأطلس الكبير، وكانت الطريقة مطابقة للطريقة التي جعلت من كتامة ثم من لمتونة بناة إمبراطورية. كان المؤسس، كما في الحالتين السابقتين رحالة، ابن تومرت من قبيلة هرغة، وبالرغم من أن أسرته بربرية إلا أنها تدعى انتسابها لعلي، زوج بنت النبي ﷺ. وبالرغم من أنه مصمودي إلا أنه

اختار لخلافته بربرياً آخر من صنهاجة ندرومة (غرب الجزائر) المنتمين إلى قبيلة كتامة وهو عبد المؤمن أحد المخلصين له. وتستند دعوة ابن تومرت الذي أعلن نفسه المهدي المنتظر، علـى أساس وحدانية الله المطلقة (الموحد: الذي يسلم بوحدانية الله). ويعني لفظ الموحدين العقيدة والأسرة الحاكمة المنحدرة من عبـد المؤمن. ويرفض الموحدون أي مصالحة أو مهادنة للكفار، كما يرفضون أي ثـراء أو ترف. كان الموحدون أكثر الحركات الإصلاحية تعصباً في الإسلام المغاربي، وقد قضوا على الكفار بحد السيف وشتتوا آخر المجموعات المسيحية في طول البلاد وعرضها، وقضوا على الإمارات اليهودية القليلة التي كانت تمثل ذكرى بعيدة لتوسع اليهودية القديم في بعض قبائل البربر.

قضت مصمودة بمساعدة كمية، بيت عبد المؤمن، على آخر المرابطين واستولت سنة 1147 م على فاس وتلمسان ومراكش. وفي أقل من عشر سنوات صار المغرب الكبير - على الأقل اسمياً - تحت سيطرة الموحدين، واحتل الموحدون أفريقية، التي لم يحتلها المرابطون، وخضعت لسيطرتهم. وهكذا للمرة الأولى منذ عهد الرومان تجمعت أفريقيا الشمالية بكاملها تحت سلطة واحدة، وللمرة الأولى في تاريخها كانت هذه السلطة نابعة من أرضها.

سيكون من الخطأ الجسيم تصور الموحدين مهتمين بانتصار أي شكل من أشكال القومية البربرية، ذلك لم يكن حاضراً في أذهانهم البتة. لاشك أن عبد المؤمن ورؤساء مصمودة نظموا الإمبراطورية مكتفين بإحلال عناصر القانون القبلي محل الإدارات في البلدان المحتلة، وأحاط الخلفاء الجدد أنفسهم بوزراء أندلسيين. وبالرغم من أن عبد المؤمن سحق في سطيف الأثبج وزغبة والرياح، وكلها قبائل هلالية، لكنه أخذ من هؤلاء المهزومين جنوداً مساندين، وسار خلفاؤه على نهجه فاتحين المغرب الأقصى أمام هؤلاء البدو الأجلاف. كانت حركة الموحدين المتزمتة الفظة الرزينة في كل مظاهرها تتسق، دون أدنى شك، مع المـزاج البربري، ولكن الإمبراطورية الموحدية، الممتدة أيضاً إلى

أسبانيا انفتحت بتوسع على الثقافة الأسبانية - المورية واضعة الأساس لأوج ازدهارها في المغرب تحت حكم المرينيين، الخلفاء الزناتيون للأسرة الموحدية.



رسم تقريبي لثلاث محاريب موحدية.

الأول في الكتبية، مراكش. ومسجد تينملل في

الأطلس الأعلى. كتبية ثانية.

* نهاية الحكومات البربرية في المغرب الكبير :

تختف الأسرة التي أسسها عبد المؤمن إلا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ولكن تدهورها بدأ مبكراً جداً. يمكن وضع بداية هذا التدهور زمنياً في الهزيمة الخطيرة في سهل تولوزا[1] لاس نافاس دى تولوز Las Navas de Tolosa التي حصرت السيطرة الإسلامية في أسبانيا على الأندلس (1212 م).

(1) وهي المعركة المعروفة بوقعة العقاب (15 صفر 609 هـ / 1212 م). المترجم

تمزقت الإمبراطورية الموحدية في المغرب الكبير خلال جيلين. أصبحت أفريقية التي كان سكانها منذ ذلك الوقت معربين بالكامل تقريباً، مملكة مستقلة تحت حكم أسلاف حاكم موحدي، أبو حفص. وضد أحد هؤلاء الملوك، المستنصر، قاد سانت لويس Saint Louis، آخر الحملات الصليبية (1270 م).

انتهت نهائياً في وسط المغرب الكبير الفترة الطويلة للحكم الصنهاجي (الحماديين، والمرابطين، والموحدين) وسيطر هنا بنو عبد الوديد، وهم زناتيون مستعربون، وكانت عاصمتهم تلمسان. أما المغرب فقد أصبح مملكة تحت بني مرين وهم زناتيون آخرون كانوا في منافسة دائمة مع بني عبد الوديد. وقد حاول دون جدوى أبو الحسن أحد ملوك المرينيين الذي كان سيداً في تلمسان لمدة قصيرة، إعادة توحيد المغرب الكبير.

يُذكّر هذا التقسيم الثلاثي بما كان سائداً في الأزمنة قبيل التاريخية والعهد الروماني ويعكس إلى حد ما خطوط الحدود الحالية المنبثقة من الحكم التركي والاحتلال الفرنسي. لا يجب أن يُخطّئنا هذا الثبات؛ فالمفاهيم المشرقية والقروسطية للولاء الشخصي، وتطور البداوة ورفض القبائل الجبلية التي بقيت ناطقة بالبربرية لكل هيمنة من خارج مجموعاتهم، لا تسمح بالتحديد الدقيق للحدود الإقليمية الصحيحة لهذه الممالك المتحركة. وغالباً ما شهد الحكام اللاحقون للعهد الموحدي، بالرغم من أن من بينهم رجال دولة عظام، انحصار سلطانهم في ضواحي عواصمهم. وبالإضافة إلى التآكل الداخلي لهذه الممالك جاء خطر خارجي آخر. فبعد إعصار الإسلام بدأت الدول المسيحية في أوروبا في مهاجمة المغرب الكبير. كانت البداية من النورمنديين في صقلية منذ العهد الفاطمي. لم تكن للحملة الصليبية الثامنة ضد تونس في القرن الثالث عشر أي نتائج. وقد جاءت الضغوط الأكثر من الأعمال البرتغالية ثم الأسبانية. لم تكن نهاية القرن الخامس عشر، والقرن السادس عشر إلا سلسلة طويلة من الغزوات البحرية، والغارات، وحتى التحالفات الهشة التي أدت إلى تأسيس سلسلة من

المحطات البرتغالية المحمية جيداً على الساحل الأطلسي وإلى احتلال الأسبان لبريزديوس Presidios على الشاطئ المتوسطي. وكما هو متوقع ظهر طامع ثالث ليستغل ضعف الممالك المغاربية في مواجهة هذا الصراع الخارجي ضد الكفار: بسط الأتراك سيطرتهم على الجزائر، وتونس وامتدادها الطرابلسي. لا يهم موضوعنا هؤلاء القادمين الجدد، الذين أتوا بإعداد محدودة، ولا يجمعهم مع العرب ـ البربر إلا عقيدة الإسلام (كانوا أحنافاً وكان المغاربة مالكيين). منذ ذلك الحين لم يعد البربر يلعبون دورهم التاريخي. انتهت الممالك والإمبراطوريات وانتهت الأسر الحاكمة حتى الهشة منها، وحصر البربر في الشمال، مزارعين مستقرين أو رعاة بدواً، طموحهم السياسي في المحافظة على استقلالهم القبلي المهدد باستمرار، وبالعكس لم يتوقفوا في وسط الصحراء وجنوبها عن زيادة سيطرتهم على الأعراق السوداء.



فسيفساء تمثل أسرى موريين. تغطي أرضية كنيسة كبيرة في تبسة موريتانيا (الجزائر)

الفصل الثالث

السيطرة الأجنبية وعمليات التثاقف

السيطرة الأجنبية وعمليات التثاقف

لا يمثل التاريـخ المغاربي للمؤلفين إلا تاريخ الحكم الأجنبي غالباً، فما هو في اعتبارهم، إلا تتابع لحكام: فينيقيين، ورومان، ووندال، وبيزنطيين، وعرب، وترك، وفرنسيين. وعندما يذكر البربر في مرحلة انتقال السيطرة فلشرح نزاعات السادة الجدد الأجانب القابضين على السلطة مع المتمردين الأجلاف. لقد تم اليوم تجاوز هذه النظرة الاستعمارية للتاريخ، وهكذا فإنني منذ ربع قرن، أندد بهذا الخطل، وهو مفهوم، نظراً لأن الأجانب وحدهم ـ لسوء الحظ ـ هم الذين تركوا وثائق مكتوبة، وهي مواد التاريخ.

كان من السهل على المدرسة التاريخية المغاربية الناشئة التنديد ـ أحياناً بروح جدلية حادة ـ بهذا التاريخ الملوث بالحركة الاستعمارية، ولكننا نراها تغرق في خطل مماثل عندما تنسى ـ هي كذلك ـ بدافع الوحدة الوطنية أو الثقافية المعطيات الأساسية لسكان شمـال أفريقيا، ولا تأخذ إلا بالإضافة العظيمة للإسلام الممزوج بالعروبة.

باختصار إن البربر منسيون من التاريخ في كل العصور.

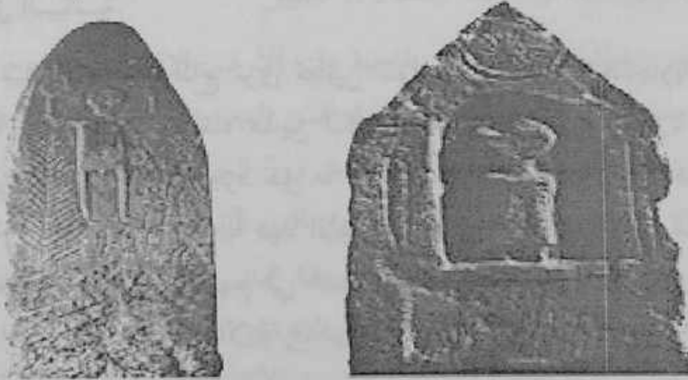
لكن، أليسوا، هم كذلك، مسؤولين عن هذا الوضع؟ باستعراضنا لمختلف العهود المحفوظة تقليدياً في تاريخ بلدانهم سنحاول تحليل رد فعل البربر في مواجهة الثقافات الخارجية التي قدمت لهم أو فرضت عليهم.



البربر والحضارة البونيقية،

نجاح ثقافي مجهول.

إننا نضع البربر في دور سالب كلياً عندما نتصورهم من بداية التاريخ مجرد مستقبلين من المشرق لحضارة مكتملة التكوين يقبلونها بحماس كبير أو محدود. هكذا يُتصور أن حفنة من البحارة المشرقيين مبدعين حقيقيين، جاءوا لمجموعة بدائية متوحشة لا تتمتع بأي ثقافة، بكل العناصر لحضارة نضجت منذ أمد طويل على الشاطئ الفينيقي. عند وصول الفينيقيين الأوائل لم يكن الليبيون مجرد صعاليك بؤساء، أي مجرد نوع من السكان المحليين الغارقين في بدائية ما قبل التاريخ. فمنذ قرون قبل وصول الفينيقيين أدخلت المبادلات مع شبه الجزر الأوروبية والجزر كما مع مناطق شرق أفريقيا، عناصر أولية لحضارة متوسطية أستمر أساسها الثقافي المادي في سلاسل الجبال الساحلية من الريف حتى قبس بنى مكادة Mogods. مهما قال بوليب Polybe والمؤرخون الذين نقلوا عنه، لم ينتظر النوميديون حكم مسينيسا ليزرعوا سهولهم الخصبة. وتجمع المقابر الميجاليثية الضخمة آلاف القبور لفلاحين مستقرين وضعوا فيها أوانيهم الفخارية التي بقيت تقنياتها، وأشكالها، وطرق تزيينها مشابهة، بشكل مدهش، لما عند المنحدرين منهم الحاليين.



مسلات بونيقية في مكثر(تونس) وفي قالمة (الجزائر)

* الدولة القرطاجية والممالك المحلية:

توضح بدايات قرطاج أنه لم يكن على المدينة مواجهة عداوة مكشوفة، وإنما كان عليها على الأقل مواجهة مطالب من سلطة منظمة لا من مجموعات بدوية صغيرة، كان يكفي لتفريقها مجرد استعراض للقوة. في الواقع كانت هناك رسوم تدفع بانتظام إيجاراً للأرض المغطاة بجلد الثور الأسطوري (تفسير مزاجي لاسم برسا Byrsa). أكثر من ذلك، عندما ضحت اليسا ـ ديدون Didon ـ Elissa بنفسها على المحرقة كان ذلك هرباً من مطالب حيرباص Hiarbas ملك الماكسيتانيين Maxitani. ويقول استات Eusthate عن هذه الشخصية أنها كانت ملك المازيسيين Mazice. ونعرف أن هذا الاسم الذي حمله أقوام كثيرون من أفريقيا القديمة هو الكتابة بالبربرية لامازي ـ ايمازين Imaziyen ـ Amaziy الذي يطلقه هؤلاء القوم على أنفسهم. لقد اعتقد لمدة من الزمن أن الماكسيتيين الذين ذكرهم جوستان Justin كانوا يحملون نفس الاسم محرفاً بنطق أخرق، ولكن ج. ديسياني J. Desagnes اقترح مؤخراً تفسيراً آخراً يبدو لي بعيد الأثر وبالغ النتائج وهو أن الماكسيتانيين هم سكان إقليم قريب من قرطاج بقى أسمه في باقوس موكس Bagus Muxi، وهو نفسه وريث دائرة إقليمية قرطاجية. هكذا تتطابق الحكاية الأسطورية مع الحقائق السياسية.

منذ بدايات قرطاج نرى كيانين متواجهين: المدينة التجارية المشرقية، وسيادة ليبية ما. ومن لقاء هذين الكيانين، المشرقي والأفريقي، ولد الواقع البونيقي. لم يكن الأمر مجرد نقل ما كان في صور وصيدا إلى الأرض الأفريقية. وإذا بقى الأثر البونيقي حياً عند الأفريقيين القدماء، فذلك لأنه لم يكن غريباً عنهم وإنما نشأ في وسطهم في المدن حيث لم يتمكن الأعْلاَمي السامي في غالبيته من إخفاء الإضافة الإتنية الأفريقية.

علينا أن نتخلص من المفاهيم المتجذرة المرتبطة عندنا بالدولة، والحد،

والإقليم، والمملكة. لم تكن هذه الكيانات، التي أثرتها الآن، أشخاصاً قانونيين محددين بدقة. ولا شك أن من السهل مقابلة قرطاج وإمبراطوريتها كما نعرفها في القرن الرابع بالممالك النوميدية والمورية، ولكن عندما نفحص عن قرب المعطيات الجغرافية يمكننا تصور تداخل لقوتين غير قابل للانفصام تقريباً. وقد يشكك قول سكيلاكس المنحول Scylax - Pseudo في القرن الرابع أن كل المحطات أو المدن الليبية، بعد ان عدَّدَها، من سرت الكبرى حتى أعمدة هرقل تتبع للقرطاجيين، في قوة الممالك النوميدية والمورية إن لم يكن في وجودها أصلاً، لو لم يكن بناء نصب من حجم مدراسن Medracen يقيم الدليل على وجودها وقوتها.

لو أن عداوة حقيقية ودائمة استمرت بين القرطاجيين والأفريقيين كما توحي بذلك قائمة الحروب وحركات التمرد التي استخلصها س.جسل S. Gsell من المؤلفين القدماء، لما أمكن تفسير كيف أن بلدات بونيقية صغيرة (حتى ولو كانت هذه البلدات محاطة بأسوار) تمكنت من البقاء في سلسلة طويلة وهشة على طول الساحل النوميدي والموري. إننا نعتقد أن الأمر لا يتعلق بسيطرة مؤكدة ومحددة وإنما بنسيج فضفاض من العلاقات بين ثلاث أقطاب: المحطة القرطاجية (حيث أخضعت المدينـة الفينيقية القديمة لقرطاج)، والحاضرة البونيقية، وممالك السكان الأصليين.

تظهر هشاشة السيطرة القرطاجية على الأرض الإفريقية بوضوح أكثر فـي معـاهدة سنة 201 م وما ترتب عليها. فمن المعروف أن سكيبيون Scipion اعترف لقرطاج بملكية الأقاليم الواقعة شرق " الخنادق الفينيقية "، ولكن كان من المجاز لمسينيسا أن يطالب بالأراضي التي كانت تابعة لأسلافه داخل هذه الحدود. وقد استعمل الملك المسيلي هذا البند الذي أتضح أنه كان السبب الحقيقي للحرب البونيقية الثالثة. وقد أوضح ش. سوماني Ch. Saumagne بجلاء أن مسينيسا أستعمل الحجج القانونية الأكثر فعالية لإثبات أن قرطاج لم

تحز هذه الأقاليم إلا بالعنف، وليس لها أي حق ملكيـة " Proprius ager " وأن الملكية قائمة على أساس الظلم. يمكننا أن نقول بلغة اليوم أن مسينيسا ندد بالاستعمار.

لكن، يجب ألا ننقاد بسراب المقارنات التاريخية: فهذا النوميدي كان كذلك بونيقياً، ولم يكن يختلف جسمانياً ولا ثقافياً عن خصومه القرطاجيين. فقد كانت تجرى في عروقه دماء قرطاجية بقدر ما كان يجري في عروق حنابعل من دماء أفريقية. ويمكن تفسير ما نعتقد أنهما عالمان متواجهان بافتراض حالة وجود حزب نوميدي في قرطاج فـي بداية القرن الثاني. ولا يجب أن يغيب عن أذهاننا الارتباطات الكثيرة بالزواج بين الرؤساء الأفريقيين والأرستقراطية القرطاجية. فعلى مدى جيلين حفظ لنا التاريخ ذكرى حالات تزاوج أو وعود بالزواج عديدة: فقد وعد هاميلكار Hamilcar بإحدى بناته لنفاراس Navaras خلال حرب المرتزقة، وكانت زوجة اوزالسيس Oezalces عم مسينيسا بنت أخ حنابعل، ونعرف المصير التراجيدي لسوفونسب Sophonisbe، وماسينيسا Massinissa الذي نشأ حسب ابيان Appien في قرطاج، أعطى أحدى بناته لقرطاجي خَلَّف منها ولداً سمى ادهربال Adherbal. لم يكن من قبيل الصدفة أن الأمراء والرؤساء البربر اعتبروا طوال قرون قرطاج عاصمة لهم، وأن الأسر الملكية تسعى لبنات الأرستقراطية البونيقية اللاتى أدخلن مع عطورهن ومجوهراتهن آلهة صور وسياسة قرطاج. ما الذي يهم إذا كانت هذه السياسة قد فشلت في الأخير: فلم تصبح أفريقية قط بونيقية بالقدر الذي أصبحت عليـه بعـد دمـار 146 ق.م. وقد ترك لنا التاريخ، وهو يهتم بالرموز، أبناء مسينيسا وهم يستلمون من أيدي سكيبيون اميليان Scipion Emilien المخطوطات التي أنقذت من الحريق عربوناً للإرث الروحي لقرطاج.

لم يكن التنافس بين المسيليين وقرطاج أكثر شراسة وعنفاً مما كان بين المسيليين المساسيليين أو ما كان بين المدن ذات الأصول الفينيقية.

المدن، بؤر الثقافة البونيقية

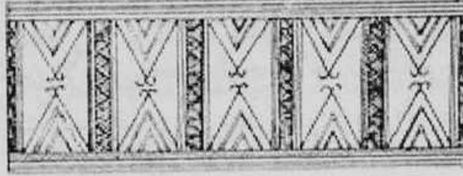
كم نتمنى لو كان في إمكاننا وضع قائمة صحيحة للتفاعلات الفينيقية والليبية في هذا الوسط البونيقى أو الليبي الفينيقي. وسيتمكن متخصص في قرطاج في يوم ما من حصر ما يميز الثقافة البونيقية مقارناً بفنيقي المشرق والهلينية. إن من الأسهل فحص الوجه الآخر لهذه اللوحة المزدوجة المتمثل في تغلغل التأثيرات المشرقية في الوسط الليبي، وهو ما حاوله من قبل منذ نصف قـرن ر. باست R. Basset.

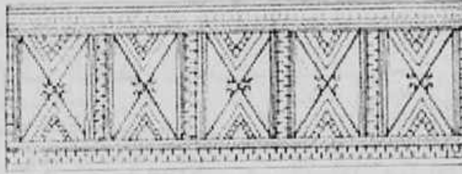
إن أول ما يشد الانتباه هو وجود مدن بونيقية خارج إقليم قرطاج. ولن نعود على الوضع الغامض للمدن الساحلية التي تحمل كلها تقريباً أسماء فينيقية وبعضها أسماء فينيقية ليبية مثل رسوكورو Russucuru، وأخرى تحمل أسماء بربرية خالصة مثل سيجا Siga. ويثور التساؤل عما إذا لم تكن كل هذه المدن إلا من تأسيس بونيقي أو ايبيري بيونيقي، واذا لم يكن علينا أن نأخذ في الاعتبار أنها نشأت تلقائياً، أي من تأسيس أفريقي. أن تستلم هذه البلدات الساحلية منذ بدايات تأسيسها منتجات متوسطية قرطاجية وأيونية وأثينية أمر طبيعي وشائع ولا يمكن الأخذ به حجة علميه صحيحة لصالح أصل هذه المدن، ولكن أن تحتوى مقابر سكانها بالإضافة، أثاثاً محلياً أصيلاً مشابهاً لما في القبور الريفية، وأن تبرز هذه المقابر ممارسات جنائزية غير شائعة عند الفينيقيين إلا في حدود ضيقة، فهذه مؤشرات لا يمكن إهمالها عن نوعية سكان هذه المدن. فبالرغم من أن سيرته Cirta عاصمة تحمل اسماً قد يكون من أصل فينيقي وأن ثقافتها كانت بونيقية بالكامل فإنها لم تكن في يوم من الأيام تحت السيطرة القرطاجية كما لم يؤسسها الفينيقيون. كما نذكر وضع عاصمة نوميدية أخرى؛ مدينة سيجا المذكورة أيضاً كملك للقرطاجيين. كما تشد انتباهنا مدينة ثالثة هي فولوبيلس[1] Volubilis التي تحتل موقعاً قارياً أكثر عند قدم سلسلة جبل زرهون فـي المغرب.

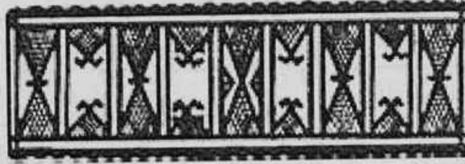
---

(1) بلدة في المغرب بالقرب من فأس تسمى حالياً وليلى. المترجم

وقد وجدت هذه المدينة من المملكة المورية قبل يوبا الثاني بقرون عديدة. وتؤكد الشواهد النذرية المكتشفة في هذا المكان كما في مدن أفريقية أخرى كثيرة (سيرتة، ثوبورسيكو، وبـور، ومكثر، ودقة..) على تناوب الأسماء الفينيقية والبربرية بانتظام في نفس الأسر.







نقوش على قشور بيضة نعام من العهد البونيقي في فيلاريكوس، وزخرف مرفوع على طبق حديث في منطقة الأصنام (الجزائر)

بالإضافة إلى هذه المدن النوميدية والمورية التي اتُخذت عواصم، يجب ذكر أخرى كانت واقعة في الدواخل بالرغم من أسمائها الفينيقية مثل ماكوماد Macomades، وتيبازة Tipasa في نوميديا، وكلاما[1] Calama، وزوكابار Zucchabar فيما سمى لاحقاً بموريتانيا القيصرية. مما لاشك أن كل مدن الممالك النوميدية والمورية ساحلية كانت أو قارية كانت بؤراً أصيلة للثقافة البونيقية سواء حملت أسماء فينيقية أو بربرية.

(1) قالمة، بلدة في الجزائر. المترجم



مسلة نيو بونيقية في مكثر

* تعايش ناجح ومستقر :

ليست هذه المدن بؤراً للثقافة البونيقية فقط بإنتاج الخزفيات الموصوفة بالبونيقية التي نجدها في سيرتة كما نجدها في كل بلدات الساحل ومحطاته وحتى فـي فولوبيلس Volubilis البعيدة، ولكن بشكل خاص بمعابدها ولغتها المكتوبة وربما بلغتهـا المتكلمة أيضاً. كانت اللغة الرسمية للممالك النوميدية والمورية حتى بعد تهديم قرطاج هي اللغة البونيقية (يقول بعض المؤلفين: خاصة بعد تهديم قرطاج). فباللغة البونيقية كانت تُحرر الإهـداءات الدينية، والنصوص الإدارية النادرة التي حُفظت، وكلمات التأبين الملكية، والكتابات على النقد، ولم يكن ذلك مقتصراً على النوميديين في الشرق وإنما في كل أفريقيا الشمالية.

كانت دقة Dougga المدينة الوحيدة التي حاولت في فترة ما تحت مسينيسا وميكسيبا أن تستعمل اللغة الليبية في كتاباتها الرسمية، وهو أمر فريد في حدود معارفنا.

بقيت اللغة البونيقية زمناً طويلاً بعد قرطاج والممالك المحلية، فقد كان الناس يتحدثون بها في عهد مارك ـ أوريل Marc - Aurele في مدينة لبدة ولكنها

كانت تكتب بحروف إغريقيـــة (كتابة على أحد أعمدة قوس النصر). وفي نفس المنطقة، تستعمل الحروف اللاتينية في كتابات كثيرة باللغة البونيقية. وبعد تهديم قرطاج بخمسة قرون، يقول القديس أوغسطين أن الفلاحين المجاورين لهيبون Hippone كانوا يتحدثون البونيقية. ونعرف النقـاش الـذي أثـاره ش. كورتوا Ch. Courtois حول هذا الموضوع. ولكن بعد ذلك بقرن، كما رأينا، كان بعض الموريين يقولون بانحدارهم من الكنعانيين، حسب بروكوبيوس Procope، وكانت هذه ذكرى بعيدة للثقافة التي كانوا يريدون الارتباط بها.

إذا كانت الثقافة في المدن بونيقية فإن الإدارة البلدية لم تكن دائماً منقولة من النموذج الفينيقي. لاشك أن نظام القاضي القرطاجي كان شائعاً في المدن الإفريقية، وقد حُصرت منه حوالي عشرون حالة دون الأخذ في الاعتبار المدن التي يذكر سك نقودها قاضيين يحملان نفس الاسم قد يكونان من قضاة قرطاج. لكن تشابه الأسماء لا يتطلب بالضرورة تطابـق الوظائف: هكذا ذكر ثلاثة قضاة في مكثر بينما لم يكن لقرطاج أكثر من اثنين أبداً. وأخيراً لم تكن بعض الوظائف البلدية في دقة Dougga فينيقية إلا قليلاً في مفهومها وتسميتها وبقيت الألفاظ الليبية لها دون أن تترجم في النصوص البونقية.

لم تمثل هذه المدن الأفريقية ذات الثقافة البونيقية بقعاً أجنبية محصورة فـي الممالك؛ بالعكس، بفضلها برز وجود هذه الممالك التي كانت هذه المدن عواصمها، كما كانت تمثل أماكنها المحصنة وثراءها. وتبرهن سياسة الاستقرار لأمثال مسينيسا وميكيبسا وبوخوس أو يوبا الأول أن الملوك إذا كانوا يستمدون قوتهم من القبيلة التي ينتمون إليها والتي مكنت لسيادتهم إلا أنهم وضعوا مقار سلطتهم في المدن.

لم يكن الدين نفسه استثناء من هذا التداخل وهذا الاندماج للعالمين الإفريقي والمشرقي. كان التفكير في المقام الأول عند النوميديين في توسيع وتعميم عبادة بعل حمون Baal Hammon الذي أصبح ساتورن Saturne

الأفريقي في العهد الروماني، ثم في عبادة تانيت Tanit ـ أو بالأحرى تينيت Tinit ـ التي يحمل اسمها نغمة بربرية. وحتى في الديانة الشعبية ـ حتى الريفية ـ هناك الكثير من الآلهة أو الجنيات المحلية التي سميت لاحقاً دى موري Dii Mauri،لم تكن تحمل دائماً أسماء ليبية كما نتوقع. (انظر لاحقاً الفصل الرابع).

غرقت أفريقيا الرومانية خلال قرون في جو ديني عميق، سامي وبونيقي، مختلف عن المعتقدات القديمة المحرفة أو الإضافات الهيلينية. وتقدم الشواهد العديدة المنذورة لساتورن انعكاساً لهذا الواقع سواء بمحتواها الإيقوني أو بتعابير الإهداء للإله الإفريقي العظيم.

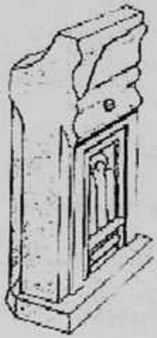
يظهر تفاعل متبادل بين الممارسات المشرقية والأفريقية في الديانة الجنائزية. وقد عرفت الدلمنات الكثيرة في البلدان النوميدية الشرقية (شرق الجزائر ووسط تونس) تطوراً معروفاً جيداً، قَرَّبها من الكهوف ذات الطابع النيوبونيقى: كوات جانبية أو وسادة محفورة في الجدران كما في القبور البونيقية، ومزاليق للبوابة معدة في جانبي الفتحة. وفي الحوانيت ـ وهي مدافن تحت الأرض محفورة في جوانب المنحدرات الصخرية ـ التي تبناها الأفريقيون دون أي تأثير قرطاجي، يوجد في القبـور الأحدث مقاعد وأسرة جنائزية محفورة في الصخر. إننا لا يجب أن نفسر تحولات القبر البونيقي من غرفة إلى بئر مطمور بعمق في مدفن نصف مفتوح، بتحولات داخلية فقط، وإنما بالحرص على أن يكون هناك مدخل سهل للغرفة الجنائزية وهو حرص تأكد دائماً في الآثار قبيل التاريخية للبربر القدماء. ويتعارض هذا الاختيار الجوهري مع الاهتمامات الأقدم للقرطاجيين، ولكنه بكل تأكيد مرتبط بمعتقدات دينية، وهو يبرز في الممرات الكثيرة، والأروقة الرمزية أحياناً، والكوات والهياكل المصاحبة للقبر.

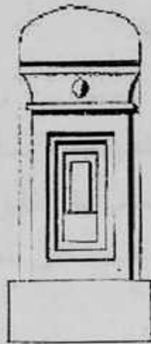
لم يكن حرق الموتي، الذي مورس هنا وهناك في قرطاج خاصة منذ القرن الخامس، معروفاً لدى نوميديي الشرق، وقد أُدخل في المدن الساحلية

وتبنته الأسر الأميرية. ويغطي قبر خروب، وهو جثوة كبيرة بالقرب من مدراسن ـ وربما مدراسن نفسه ـ مدافن للحرق.

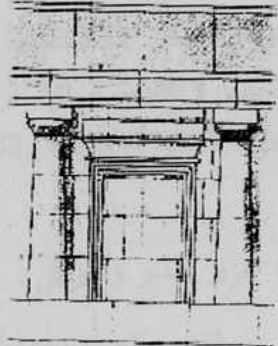
لم يبق إلا القليل من أثر الفن المعماري التذكاري البونيقي، بالرغم من أن أعمال التنقيب في كركوان، وفي الحي الذي كشف عنه مؤخراً في بيرصة، تمكننا من تصور كيف كانت المدينة الإفريقية قبل العهد الروماني. إن من التناقضات التاريخية وقوع أغلب الآثار الرئيسية خارج إقليم قرطاج في هذه المملكة النوميدية التي كانت عاملاً في اختفاء قرطاج وحافظاً أميناً للثقافة البونيقية. يمكن في هذا المقام ذكر الأضرحة المربعة في دقة ومكثر وخروب التي استعملت نماذجاً لمدة طويلة، ولكن مخططها العام هيليني بقدر ما هو فينيقي. وتستحق الذكر، كذلك الأضرحة البديعة في صبراته وبني رينان التي هي منشآت هيلينية على قاعدة أصلية ذات شكل مثلثي مقوس الأضلاع.

سبق وأن شد انتباهنا مدراسن، وهو ضريح ضخم، يرتفع في قلب نوميديا، لاشك في أنه ملكي. ويتكون هذا الضريح الدائري، الذي يبلغ قطره 59 متراً، من رواق أسطواني تعلوه درجات وهو ما يعطيه شكلاً شبه مخروطي، ويبلغ ارتفاعه الكلي 19 متراً. إن الزخارف البارزة وخرجة الأبواب الوهمية وباب المدفن والافريز ذا الحلق المصري وسقف الممر المكون من جذوع الأرز والتيجان الدورية كلها عناصر إغريقية ـ شرقية توجد في آثار قرطاجية أخرى، ولكن بشكله العام وهو شكل بازينة ذات قاعدة أسطوانية وبدرجات تمثل القبر البربري القديم الأكثر شيوعاً بنظام مدخل للسرداب إنطلاقاً من أعلى البناء. إن المدراسن عبارة عن ضريح بربري. إنه مثل الأسرة النوميدية التي شيدته في نهاية القرن الرابع أو بداية القرن الثالث قبل الميلاد نتاج رائع لالتقاء التأثيرات الأغريقية ـ المشرقية التي أدخلتها قرطاج والتقاليد البربرية قبيل التاريخية. ومن ثم فهو يستحق أن يوصف بالبونيقي.









باب وهمي للمدراسن،

وشواهد نذرية من قرطاج وهي التي أوحت به.

رومنة أفريقيا،

مدى الفشل

تبدو لنا الحضارة البونيقية تكاملاً وثيقاً ناجحاً بين معطيات ثقافية قبل تاريخية يحق لنا تسميتها بالليبية أو البربرية القديمة، ومساهمات مشرقية من الحضارة الفينيقية. لقد تركت هذه المساهمة المشرقية القليل من الآثار المادية على الأرض الأفريقية ولكنها، بالمقابل، أثرت بعمق على العقلية البربرية.

* غزو حذر وطويل :

لقد حكمت روما أفريقية بفاعلية وإحكام أكثر مما فعله القرطاجيون. لم يكن هذا الحكم وليد الصدفة. لقد نُظم، وأُعد له طويلاً وقِيد بعناد روماني حقيقي. فبعد هزيمة قرطاج سنة 201 قبل الميلاد وحتى قبل تهديم المدينة سنة 146 قبل الميلاد وتحويل أقليمها إلى ولاية رومانية، كان مجلس الشيوخ قد جعل عملياً من الدولة النوميدية دولة " محمية " معهوداً بها إلى ماسينيسا لا مسلمة له. وكان لمسينيسا، الذي كان ملكاً عظيماً وسياسياً ماهراً، رؤية واضحة لوضعه الحقيقي كملك تابع، وهو ما كان يسمى في ذلك العهد " صديق وحليف للشعب الروماني ". ويظهر هذا الوضع بوضوح عند ما قرر ماسينيسا سنة 148 ق.م استدعاء سكيبيون امليان Scipion Emilien للتشاور معه في تقرير أمر خلافته وذلك قبيل وفاته بعد نصف قرن من الحكم المجيد. ولما أدرك ماسينيسا أن الروماني سيصل متأخراً قرر أن يترك له اتخاذ الإجراءات التي يقدر أنها الأحسن. كما كتب س. جسل S. Gsell : " لقد أنهى حياته بنوع من الاعتراف بإن مقادير نوميديا تعتمد على الرومان ".

لأنه لم يفهم هذه السيطرة غير المعلنة أو لأنه حاول التنكر لها فقد يوغرطة حياته واستقطع من مملكته جزؤها الغربي لصالح ملك الموريين بوخوس Bocchus الذي أصبح بدوره ـ وربما بسبب هذا الاستقطاع ـ تابعاً لروما (104 قبل ميلاد المسيح).

قُسم ما بَقِيَ من مملكة المسيليين النوميدية بدوره بعد وفاة جودا Gauda. وانتهت الدولتان الصغيرتان اللتان ولدتا من هذا التقسيم خلال الحروب الأهلية بين القيصريين والبومبيين. لما انتصر قيصر على يوبا الأول ألحق مملكته بولاية أفريقية الجديدة (Africa Nova)، وأصبح الجزء الآخر إمارة محلية يحكمها مغامر إيطالي، سيتيوس Sittius، الذي لم يتأخر في الاندماج في الولاية الجديدة مع المحافظة على تنظيم خاص (الكنفدرالية السرتية). عرفت المملكة المورية مصيراً موازياً. فقد قُسمت أثناء الحروب الأهلية إلى دولتين ثم توحدت من جديد تحت حكم بوخوس الأصغر، حليف أغسطس. وعند وفاة بوخوس ورث منه أغسطس. وبعد محاولة قصيرة لإدارة مباشرة عهد الإمبراطور بالبلاد ليوبا الثاني ابن خصم قيصر وزوج كيلوباترا سيلين بنت كليوباترا العظيمة ومارك ـ انطوان. هكذا كُلف المنحدرون من أعداء روما بفتح موريتانيا أمام التجارة الإيطالية وتوسيعها. وفي نفس الوقت، أدخل أغسطس لهذا الإقليم الواسع بذوراً قوية للتَّلتن ـ بل حتى للرومنة ـ، فقد أنشأ مستعمرات عددها تسعاً كانت قواعد عسكرية واستيطان ديموغرافي. كانت كل مستعمرة، في الحقيقة، جزءاً من روما، يتمتع ساكنوها بحقوق المواطنة كاملة. وهكذا عندما تكونت من مملكة موريتانيا، بعد إعدام بطليموس Ptolemée ابن يوبا الثاني ولايتان رومانيتان جديدتان (سنة 42 م) كانت هذه معدة من قبل جزئياً للحياة البلدية التي كانت اهتمام عمل روما الأساسي. وقد انقضت بين تأسيس ولاية أفريقيا وإنشاء الموريتانيتين 188 سنة.

* المدن والترقي الإجتماعي:

كان للمدن في ولايات الإمبراطورية نظم أساسية مختلفة متدرجة بدقة. كانت المستوطنات الرومانية في القمة، وفي درجة أقل كانت المستلحقات الرومانية التي كان سكانها أيضاً مواطنون رومان ولكنهم لا يتمتعون بالإعفاءات الضريبية التي تتمتع بها المستوطنات. كان للمستلحقة اللاتينية نفس مؤسسات المستلحقة الرومانية ولكن لم يكن لسكانها لقب المواطنين الرومان. وكان يكتسب هذا اللقب تلقائياً المواطنون الذين يكلفون بمهام بلدية. وهكذا وفقاً لأهمية المستلحقة يصبح الأعضاء البلديون مواطنين رومان، وفي المستلحقات الأخرى قليلة السكان أو الأقل ثراء كان منصب عميد البلدية ومساعده فقط يمكنان من الوصول إلى المواطنة الرومانية.

كانت هناك مراكز حضرية أخرى خارج الأنواع الثلاثة وهي: المدن الحرة التي كانت في أفريقا تحتفظ بإدارة من النوع البونيقي، ومدن شبه محتلة civitates oppida وهي بلدات من السكان الأصليين يمكن لمواطنين لاتين أو رومان الإقامة فيها وكان يمكن لهذه البلدات أن تكون نواة تنظيم بلدي.

إن الشغل الشاغل لهذه المدن المختلفة واضح تماماً، فعندما تتحول من الفئة البلدية التي هي عليها تحقق المدينة مكسباً حقيقياً. تنخفض أعباؤها الضريبية ويكتسب سكانها المواطنة الرومانية أو يستطيعون اكتسابها.

كانت شهرة أي مدينة ـ أو مجدها عند الحديث بشهامة ـ تترجم كذلك في ثراء مبانيها، وجمال معابدها، واتساع ميدانها، وعدد تماثيلها وحتى طول وطرافة أسلوب تشييدها لقناطر نقل المياه فيها. كان النصيب الأكبر من تمويل هذه الأعمال يؤمن من الثروة الشخصية للمرشحين للمناصب البلدية المختلفة. ولم يكن يغيب ذكر هذه المكرمات في عبارات الإهداء على النصب. وبسرعة كبيرة أصبح هذا السخاء إلزامياً؛ حتى أن المؤرخين استطاعوا تحديد المبالغ

(Summa Honoraria) التي يتطلبها كل انتخاب. وهذا ما يفسر ضخامة بقايا المدن الرومانية لدرجة أنها تبدو أحياناً غير متناسبة مأخوذاً في الاعتبار الأهمية الحقيقية للمدينة وعدد سكانها. إن أثر روما في إفريقيا مادي في غالبيته. إنه فريد لا مثيل له.

كان هناك تدرج اجتماعي مماثل في ظروف سكان أفريقية. فمن بين الرجال الأحرار، كان يمكن للمغترب[1] عن طريق الانتخاب أو بمنة فردية من الإمبراطور أن يكتسب وضع اللاتيني. ويمكن للمواطن ذى الوضع اللاتيني أن يصبح مواطناً رومانيا بنفس الطريقة. وفي الأعلى، يمكن للمواطن أن يصل إلى درجة الفارس " eques romanus " بشرط أن تصل ثروته إلى مستوى معين محدد، وهو نفس المبلغ في كل الإمبراطورية، ويمكنه أن يدخل في الإدارة الإمبريالية ويحتل أعلى المناصب المدنية أو العسكرية، وأن يصبح والياً لولاية أو حتى علامة شرف، يعين والى بريتوريا Prefet du Pretoria القوة الثانية في الإمبراطورية. ويمكن أن تعطى درجة فارس مكافأة بتكرم من الإمبراطور. وأخيراً، في قمة السلم الاجتماعي كان نظام الشيوخ يستقبل ملاك الثروات الأكبر، كما يستقبل من الفرسان من يتميز تميزاً خاصاً في خدمة الإمبراطور.

هكذا، بالاستعمال الماهر للتدرج بين المدن وبين الطبقات الاجتماعية مارست روما عملية الدمج التدريجي للنخبة البلدية الإفريقية. يقول إ. البرتينى E.ALbirtine: " تحدد روما حركة صعود نحو الحياة الرومانية في مجموع السكان. " وتولد هذه الحركة دعوة تنتشر من واحد إلى آخر في كل طبقات المجتمع الذي يقتصر حق الاقتراع فيه على دافعي الضرائب، وهو مجتمع طبقي، ولكنه ليس جامداً.

---

(1) ترجمة للكلمة الفرنسية peregrin وهى من اللاتينية peregrinus وتعنى الانسان الحر الذي لا يتمتع بالمواطنة أو الحقوق اللاتينية. المترجم.

الجيش، أداة الاندماج

كان الجيش، وبشكل مواز، عاملاً فعالاً للاندماج. وكما في الولايات الأخرى، كانت القوات المساعدة في أفريقية مفتوحة للسكان المحليين بينما كان الفيلق Legion مقتصراً على المواطنين الرومانيين (لم يكن هناك إلا فيلق واحد هو الفيلق الثالث الأوغستي الذي كان مقره في لامبيز Lambése في نوميديا). كان الجندي المساعد سواء من مشاة فرق الخيالة أو من فرسان الأجنحة يمنح " حق المدينة " أي الحق في أن يصبح مواطناً رومانياً بعد 25 سنة من الخدمة.

كانت هذه الفرق من الخيالة، والأجنحة تحمل أسماء من أصول عرقية: هكذا في موريتانيا القيصرية كانت هناك جناح الثراسيين Thraces وفرقة الخيالة الثانية من السرديين Sardes وفرقة الخيالة من البروكيين Breuques وغيرها. بسرعة لم يعد لهذه التسميات العرقية إلا مدلول تقليدي لأن كل القوات المستقرة في أفريقيا كانت في العادة تشهد تجنيداً محلياً، وأصبح هـذا نهائياً منـذ سنة 150.

لم يكن كل جنود القوات المساعدة من أصل حضري دائماً بل كانوا في الغالب من بين النوميديين والموريين في الأرياف حيث كان الضباط المُجَنِّدون يبحثون عن أشخاص أقوياء البنية. وقد كانت الجيوش المكونة على عين المكان تحمل أسماء أفريقية: فرقة خيالة المزالمة، الفرسان الموريون.

كان لهؤلاء المجندين، خلال الربع قرن الذي تستغرقه خدمتهم، متسع من الوقت لتعلم لاتينية بسيطة، إلى جانب النظام العسكري، وكان هذا اللسان يختلف لا محالة بشكل كبير مع لسان شيشيرون Ciceron ومبادئ الثقافة الرومانية. وعندما كان الجندي القديم يعود إلى دُواره أو مشتاه بما وفره من مال

ولقب المواطن الروماني كان يمثل صورة النجاح. وكما سبق ورأيناه، كان يمكن تكليف هؤلاء المحاربين القدماء برئاسة قبيلة (Praefectus gentis).



جميلة (كويكول القديمة)

الجزائر. طاولة قياس في سوق كوسينيوس

من المقدر، أن العدد الكلي للقوات كان يصل إلى 15 ألف رجل في الموريتانيتين في الظروف العادية، وفي نوميديا كان عدد القوات المساعدة يساوي عدد الفيلق أي 5 إلى 6 آلاف رجل. وهكذا كان في إمكان عشرين ألف أن يصبحوا مواطنين رومانيين، ولكن كم من بينهم من كان يصل إلى نهاية 25 سنة من الخدمة؟ وكم من الزمن كان يبقى على قيد الحياة الجندي القديم الذي اكتسب حق المواطنة؟ باختصار، ما الانعكاس الحقيقي لهذه الرومنة الفردية والنادرة على مجموع السكان الإفريقيين؟.

مهما يكن الأمر، كان هذا الانعكاس مهماً وكان الإفريقيون أنفسهم، تحت العلم الروماني، هم الذين يحفظون الأمن في أفريقيا في الظروف العادية.

* حالة من " السياسة المحلية " :
طاولة بنازة

كان يمكن منح المواطنة الرومانية كذلك لرؤساء القبائل (gentes) المُخضعة أو المنضمة، وكان يطلق على هؤلاء الرؤساء أمراء (princeps) وأحياناً يوصفون بالملوك، ومن ثم كان يجب تمييزهم عن الولاة الذين هم موظفون معينون من السلطة الإمبراطورية. كان منح المواطنة الرومانية يظهر نوعاً من المكافأة، وكان يسمح لحكام الولايات الذين يطلبونها من الإمبراطور، بتخفيض الضغط الذي يمكن أن تمارسه القبائل القوية على الحدود أو داخل الولاية ذاتها. وتُمكِّن " طاولة بنازة " الشهيرة، وهي عبارة عن لوحة من البرونز كانت مثبتة بالقرب من حمامات هذه المدينة الواقعة في موريتانيا الطنجية، من تحليل دقيق لهذه السياسة خلال بعض السنوات من القرن الثاني. وقد نشر مؤخراً هذا النص الفريد في الإمبراطورية ودرس من قبل و. سستون W.Seston و م. ازنات M. Euzennat، واحتفظ لنا هذا النص بثلاث وثائق رسمية. الأولي من هذه الوثائق عبارة عن رسالة من الأباطرة ماركوس أوريكيوس Marc Aurele ولوكيوس فيروس Lucius Vérus إلى كويديوس ماكسيموس Coiiedius Maximus حاكم موريتانيا الطنجية تمنح المواطنة الرومانية لزقرنيسى " Un Zegrensis اسمه جوليانوس Julianus ولزوجته زيدوتينا Zidotina وأطفالهم، ويرجع تاريخ هذا القرار إلى سنة 168 ـ 169. ويؤكد الإمبراطوران في هذه الرسالة على الطابع الاستثنائي لهذا القرار المبرر بالإخلاص الكامل لجليانوس الذي يتمنيان أن يكون مثلاً لأبناء عشيرته. والوثيقة الثانية المعاد نسخها على طاولة بنازة عبارة عن رسالة جديدة من الإمبراطورين ماركوس أوريكيوسMarc Aurele وكومودوس Commode إلى الوالي فاليوس ماكسيمانيوس Vallius Maximianus مانحة المواطنة الرومانية لفاجورا Faggura زوجة أورليوس جوليانوس Aurelius Julianus

أمير الزقرنسيين Zegrenses وأطفالهم. والوثيقة الثالثة نص رسمي " Le Commentarius " من مجلس الإمبراطور وموقعة من اثنى عشر عضواً من المجلس وهي مؤرخة في 6 يوليه سنة 177.



نفق من الدور الأول للمسرح الدائري بالجم

تيسدروس (تونس)

إن نص " طاولة بنازة " مهم لأكثر من اعتبار، ولن نأخذ منها إلا ما يتعلق بالسياسة المحلية. فمن بين أفرع قبيلة الزقرنسيين القوية التي كانت تقطن على ما يبدو سفوح الريف، ميز الوالي فرع جوليانوس الذي حوّل طلبه إلى الإمبراطور. وقد تزوج ابن جوليانوس الذي أصبح بعد ذلك بسنوات أميراً للزقرنسيين من محلية تسمى فاجورا Fagurra. ومن أجل أن يصبح أبناؤه مواطنين رومانيين كذلك، كان لابد من الحصول على قرار إمبراطوري جديد. ولما كانت حالة الزقرنسيين نموذجية فقد علقت الوثائق لاطلاع الكافة.

بفضل هذا النص يتضح لنا وجه من أوجه سياسة الدمج التي يقودها بفاعلية فريدة حكام الولاية، ولم يكن هؤلاء إلا مجرد موظفين في الإدارة الإمبريالية التي كانت أراشيفها مدارة بدقة الإدارة الحديثة.

مدى الرَّوْمَنه

يمكن أن تصدم سياسة الدمج، أو الرومنة بتعبير أدق، مفاهيمنا الديمقراطية الحالية، ولكن لو وضعنا أنفسنا في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد لبدت لنا سياسة في منتهى الحكمة، والفاعلية، والتقدميه الحقيقة. مهما يكن ما يقال عنها (لكن، أولاً يقولون هذا كذلك عن مجتمعنا؟) فإن المجتمع الروماني في ذلك العهد لم يكن جامداً. لم يكن جامداً في روما، حيث كان الكتاب السوداويون المغروررون، بنبالتهم الجديدة جداً أحياناً، يشتكون من الصعود الاجتماعي للطلقاء وثراء حديثي النعمة. لم يكن المجتمع الروماني جامداً في الولايات كذلك. ولكن، كيف يمكن قياس الرومنة الحقيقية للبربر؟ للإجابة عن هذا السؤال الأساس يجب توفر وثائق أكثر دقة بكثير مما في حوزتنا.

لا تنقصنا الوثائق المادية بكل تأكيد؛ فالمصادر التاريخية والقانونية المكتوبة مهمة. يضاف إليها حصيلة غزيرة من النصوص الكتابية والنقوش التي تصل إلى خمسين ألفاً في الولايات الإفريقية، وهو رقم مرتفع جداً. وتعد بقايا المدن؛ عواصم أو مجرد بلدات، بالمئات، وتعطي صورة مدهشة لما كان عليه السلطان الروماني. وأخيراً مكنت المستوطنات المحصنة، وهي مناطق إسكان عسكري، من تغلغل الرومنة إلى الصحراء في طرابلس الغرب ونوميديا حتى سهوب الهضاب العليا في موريتانيا القيصرية. وقد كان يسكن هذه المنطقة، حتى تحت الإمبراطورية المتأخرة، جنود مزارعون كانوا يحيون هذه الأراضي الجرداء ويعانون كما رأيناه سابقاً من قبائل الجمالين: كانت الأراضي الزراعية

خلف المستوطنات المحصنة مقسمة ومازالت آثار هذا التقسيم تحدد المشهد الطبيعي في تونس وفي بعض قطاعات نوميديا.

إن هذا الكم من الأحجار المقصُوبة والمدن الرائعة والنقوش، والأسوار من الأحجار الجافة على سفوح التلال، وهذه الخنادق والحصون في المستوطنات، وعلامات الحدود العسكرية والأعمال الفنية لشبكة هائلة من الطرق مثيرة للإعجاب أيما إثارة. وقد تركت القرون الخمسة من الحكم الروماني آثاراً باقية على الأرض الأفريقية أكثر بكثير من الأربعة عشر قرناً التي تلتها.

إننا نفهم الإعجاب ـ الساذج بعض الشيء ـ الذي أثارته الآثار القديمة عند أوائل المؤرخين من الحقبة الاستعمارية. كان مثقفونا من القرن التاسع عشر، ذوو الثقافة الكلاسيكية، يجدون في وسط شجيرات العناب أو النخيل القصير نقوشاً كتابية توضح استصلاح هذه الأراضي نفسها التي تحاول فؤوس المعمرين الجدد إحياءها بتكلفة باهظة من الجهد والبؤس والتي أصبحت اليوم نسياً منسياً. كانوا يعثرون بتأثر على الأماكن التي ذكرها قيصر Cesar، وسالوست Salluste وتيت ليف Tite Live، أو القديس أوغسطين. كيف لا تكون روما هى المرجعية لهذه اللتننة الجديدة التي كانت في طور الاستقرار في أفريقيا؟ كيف لا يمكن كيل الثناء لروما التي مكنت الأفارقة من تحقيق هذا البذخ الذي تعكسه الآثار ومن الوصول إلى قمة الثقافة؟ أو لم يُر منذ القرن الثاني هذا الأفريقي فرنتون Fronton المولود في سيرتة يصبح معلم أحكم الأباطرة، ماركوس أوريكيوس Marc Aurele! كما أن " الأحدث " من بين الكتاب اللاتين، أبوليوس Apulée، وكان روائياً وفيلسوفاً وخطيباً في نفس الوقت ولد في مادور Madure، وكان يقول أنه نصف نوميدي ونصف جيتولي. كان هذا اللاتيني أبعد ما يكون عن إنكار أصوله الأفريقية بل كان يستمد منها ـ وبتفاخر ـ مجداً حقيقياً.

لاشك أن أفريقيا كانت من أجمل ولايات الامبراطورية. وفي نهاية القرن

الثاني أعطت أفريقيا لروما أسرة حاكمة بصعود اللبدي[1] سبتموس سيفروس، وبعد ذلك بأربعين سنة نودى من فوق هذه الأرض في تيسدروس (الجم) بالكهل غورديان Gordien الذي ضم إليه مباشرة ابنه. كانت تيسدروس أغنى مدينة في بيزاسين Byzacene. ويعود الفضل في الثراء الطارئ للمدينة إلى التنمية الزراعية وخاصة الزيتون الذي كان ملائماً للتربـــة والمناخ.



تمجاد (الجزائر) قوس تراجان

منظر من داخل المدينة

لا يمكن نسيان استصلاح الأراضي الأفريقية. إنه لا يتوافق فقط مع النمو الزراعي الطبيعي عندما تكون الأرض محمية، ولكنه انعكاس لإرادة سياسية مؤكدة على مختلف المستويات في الإدارة الإمبراطورية. لقد كان التأثير على الحياة الزراعية قوياً لدرجة أن بعض الألفاظ اللاتينية المحرفة قليلاً باقية حتى اليوم في أغلب اللهجات البربرية للتعبير عن المحراث والنير والنباتات المزروعة

(1) نسبة لمدينة لبدة. المترجم

والأشجار. وقد احتفظت الشهور في التقويم اليوليسى بأسمائها اللاتينية عند كل المزارعين في الشمال الأفريقي وحتى في الصحراء لأن التأثير اللاتيني امتد إلى ما وراء الحدود الرسمية للإمبراطورية.

يُفسر هذا الامتداد بعوامل أخرى غير عوامل الرومنة بالمعنى القانوني للاندماج: فقد توافقت قرون الحكم الروماني أيضاً مع تمسيح الأفارقة. وسهل انتشار المسيحية في أفريقيا، كما في الولايات الأخرى، الجذب الروحاني الذي جاءت به من المشرق حركة الأفكار في داخل إمبراطورية متحدة. كما أن الظروف الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الروماني سهلت كذلك نجاح دين منقذ يدعو إلى المساواة بين البشر وحقوق الفقراء. يضاف إلى هذه الظروف التي كانت واسعة الانتشار في كل الإمبراطورية، الأهمية الخاصة للتأثير المشرقي بالنسبة لأفريقيا وهو تأثير حافظت عليه لقرون طويلة الهيمنة الفينيقية والعلاقات المستمرة مع المشرق السامي. في الواقع، كانت الولايات الأفريقية من بين كل ولايات الغرب، هي الأكثر مشرقية بتفكيرها وبأصول ثقافتها: لقد كانت هذه الولايات وخاصة افريقا، معدة بشكل خاص لاستقبال الدين الجديد. لقد كانت المسيحية الأفريقية الأكثر ثراء بالشهداء والكتاب مثل ترتليان Tertullien، وأرنوب Arnobe، وسبريان Cyprien. وكان أوغسطين أعظمهم جميعاً والذي أصبح أحد بناة الفكر الغربي لقرون عديدة. كان أوغسطين من أسرة من تاقاست Thagaste (سوق اهراس) وأصبح بطريقاً لهيبون Hippone وأحد أباء الكنيسة، ووصل القديس أوغسطين إلى مقام دولي يتجاوز حدود ولايته وحدود الإمبراطورية وزمانه. وليس من غير المثير أن يكون أعظم مفكري الغرب اللاتيني، ومؤلف كتابى " مدينة الله "، "واعترافات "، بربريًّا مسيحيًّا. وقد يبدو أوغسطين النموذج الكامل لهذه الرومنة التي اتبعت بصبر طوال أربعة قرون. ومن مآسي القدر أن أوغسطين الذي توفى أثناء حصار الوندال لهيبون، شهد انهيار العالم الروماني ـ الأفريقي الذي نشّأه.

يقول المؤرخون الذين يرفضون الإعجاب الاستعماري، إن روما فشلت في محاولتها للدمج، فالأفارقة رفضوا روما ولاتينيتها وأن النجاحات التي حفظها التاريخ ما هي إلا حالات فردية ولم تلامس الرومنة إلا نخبة ثرية بينما بقى السكان البربر في مجموعهم خارج اللاتينية.

يقول لنا هؤلاء المؤرخون إن الإفريقيين رفضوا الحكم الروماني وقاوموه بقوة كما تشهد بذلك القائمة الطويلة من القلاقل والغارات وحركات التمرد التي كانت تهدد السلام الروماني بيوم غير متوقع.

لقد واجهت روما، بالفعل، من تاكفاريناس Tacfarinas (سنة 17م إلى 24م) إلى جيلـدون Gildon (سنة 396م) حركات تمرد رهيبة أثرت بشكل خاص علـى الموريتانيتين. بالنسبة للمؤرخين الموغلين في التشاؤم فيما يتعلق برومنة الإفريقيين، مثل س. كورتوا C. Courtois، لم تتمكن روما من التغلغل في المناطق الجبلية التي بقيت لهذا السبب، مصدراً للهمجية والتوحش. وتساق كبرهان المستوطنات المحصنة الداخلية التي كانت تقسم الولايات في الإمبراطورية المتأخرة، مثل الأخـدود الـذي كان يحيـط بمرتفعـات بوطالب في موريتانيا السطيفية. عندما تضعف السيطرة في هذه المناطق الجبلية تتدفق مجموعات من المحاربين الأشداء تخترق خطوط الدفاع الداخلية وتنهب، وتحطم المزارع والبلدات. وكانت الأوضاع تزداد سوءاً عندما تحاول هذه الحركات المحلية التوحد؛ يبدأ عندها تكوين اتحادات بيـن القبائل كما في حالات الباكات Baquates والبافار Bavares في موريتانيا الطنجيـة. ويبرز أحياناً من وسط هذه الوحشية فجأة رجل يتأكد أنه قائد عظيم. وعالم البربـر غنى بمثل هؤلاء المحاربين المتميزين مثل ماثوس Mathos أو (Matho) الذي قاد التمرد الليبي خلال حرب المرتزقة ضد قرطاج، وتاكفاريناس Tacfarinas الذي أرهق في بداية القرن الأول، طوال سبع سنوات الفيالق الإفريقية، وفاركسن Faraxen الذي كانت له أيام مجيدة في موريتانيا القيصرية

خلال التمرد الكبير وسط القرن الثالث، وأبو يزيد، صاحب الحمار، الذي كاد يقضي على الأسرة الفاطمية في أفريقية في القرن العاشر، وعبد الكريم[1] سنة 1920م أو حتى حمروش في أيامنا.

باستعراض هذه القائمة الطويلة من المعارك، تخبو بغرابة صورة أفريقية الثرية، مخزن غلال روما، التي قادت البربر تدريجياً إلى ما يبدو لنا درجة عالية من الحضارة. وقد لطخ رماد هذه الحرائق ورذاذ الدماء بريق الرخام وتلألأ الفسيفساء. أولاً تمثل بعض من هذه الفسيفساء بوضوح أسرى أفريقيين مقيدين بشدة كما في تيبازة Tipasa في موريتانيا أو مُسلَّمين لوحوش المدرجات كما في زليطن في طرابلس الغرب[2].

* وجها أفريقية الرومانية :

يتناقض وجها لوحة أفريقية الرومانية بعنف لدرجة لا يمكن معها أن تكون صحيحة. أعرف أنه أصبح من المقبول اليوم القول بأن التاريخ لا يعرف الحياد وأن الأفكار المسبقة تؤثر في حكم المؤرخ عن وعي أو بدون وعي. ولكن، ليس للتاريخ أن يحكم، عليه أن يحلل ويفسر الوقائع سواء تعلق الأمر بالاستمرارية الاقتصادية والاجتماعية أو الأحداث. فإذا لم يكن التاريخ "حوادثياً" فقط، فالوقائع أحداث تاريخية لها أحياناً نتائج بعيدة الأثر على المجتمعات والعقليات، لنتذكر قرار الأمير الفاطمي في القاهرة بإعطاء المغرب لبني هلال. لا يمكن محو الوقائع ببساطة ولصالح رؤية اقتصادية لوحدها.

---

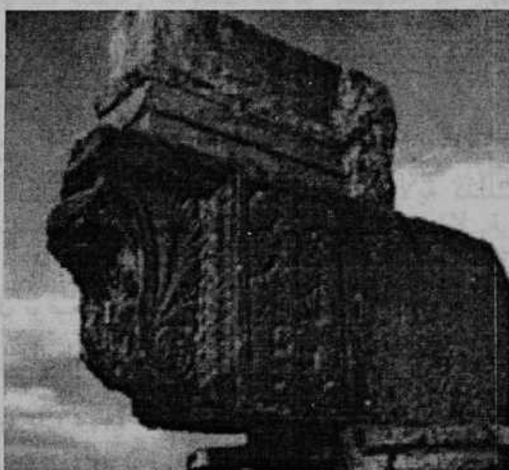
(1) يقصد عبد الكريم الخطابي، بطل الريف. المترجم.

(2) يقصد الفسيفساء التي تمثل المصارعين والمعروفة باسم دار بوك عميرة التي اكتشفت في مدينة زليطن والمعروضة حالياً بمتاحف السرايا الحمراء بطرابلس. المترجم



محكوم عليه مسلم إلى " الأفريكاناى " " نمور ".

فسيفساء في زليطن ليبيا.



طنف مزين من مدرج تمجاد. الجزائر

الوقائع هى الآتية: لم تكن هناك أفريقيا رومانية واحدة، وإنما ولايات ذات نظم وسكان ومصالح مختلفة. وإذا ما فحصنا خريطة الاستقرار الروماني في أفريقية في حينها حيث وصل أبعد تطور له فـي القرن الثالث، يتضح أن هناك تناقضاً بيناً بين الشرق والغرب. فقد كانت تونس وشرق الجزائر الحاليتان، ونوميديا التي تمثل امتدادهما العسكري، حضرية إلى مدى بعيد. وإلى جانب المدن والمحطات ذات المركز الإمبراطوري التي انتقلت إلينا أسماؤها بواسطة علامات الحدود العسكرية والمسارات، يجب إضافة مئات البلدات التي بقيت أسماؤها مجهولة لنا ولكنها تقدم الدليل على كثافة سكانية استثنائية. وكان يمتد على الحدود الجنوبية لهذه الولايات شريط عسكري عريض يأخذ من السهوب، وحتى من الصحراء في طرابلس الغرب. وقد رأينا أن هذه الأراضي الجرداء، أو المناطق الخالية التي وصفها سالوست Salluste في القرن الأول قبل الميلاد، قد تم استصلاحها وسُكنت بفضل إدارة سياسية مستمرة ومستقرة.

كانت في الموريتانيتين شبكة طرق ومناطق استقرار أقل تطوراً بكثير. فقد كانت المدن أقل سكاناً وأقل فخامة ولكنها كانت محاطة بأسوار وهو اهتمام بالحماية غير معروف في أفريقا ونوميديا. ولم يصل الشريط العسكري، الذي قيل بتطابقه مع وادي شلف في القيصرية لمدة طويلة، إلى حدود منطقة التلال إلا في القرن الثالث. وفي الطنجية كان امتداد الولاية كذلك أقل، ولم يكن الاتصال بين الموريتانيتين مؤمنا بشكل دائم بطريق مراقبة. بالرغم من ذلك، كانت الولايتان توضعان تحت قيادة عسكرية واحدة في حالة الخطر. باختصار، كانت الموريتانيتان أقـل رومنة بكثير من نوميديا وأفريقا. وكان انعـدام الأمـن فيهما أكثر شيوعاً وفيهما قامت حركات التمرد الكبيرة التي امتدت أحياناً إلى أطراف نوميديا.

لتحليل وضع أفريقية تحت الحكم الروماني بجدية وموقف البربر منه، من الأهمية بمكان التمييز بدقة بين المجموعتين من الولايات. كما أن واقعاً آخر لا يمكن التشكيك فيه يتمثل في ضعف القوات المسلحة في بلد مترامي الأطراف، فعندما نجمع أعداد جنود الفيلق الوحيد (Legio Tertia Augusta) وأعداد جنود فرق الخيالة وأعداد جنود أجنحة الخيالة الموزعين من طرابلس الغرب إلى الأطلسي فيصل المجموع بالكاد إلى حوالي 27000 رجل. فلو وجدت خلال القرون مقاومة شرسة ومستمرة من الأفارقة ضد المستوطنين النادرين المستقرين في المدن والسهول الأكثر خصباً لتم القضاء على هذه القوات قضاء مبرماً. ولم تكن هذه القوات قليلة العدد فقط ولكن من المستحيل اعتبارها ـ من وجهة نظر حديثة ـ جيشاً استعماريًّا أو جيش احتلال. فالغالبية من هذه القوات مجندة محلياً من بين الأفريقيين المترومين قليلاً أو كثيراً. مع ذلك، لم تكن الحكومة الإمبراطورية تتردد، في حالات الخطر الكبير، في إرسال قوات مأخوذة من الولايات الأخرى إلى موريتانيا.

إن على المؤرخين المهتمين بتأكيد المقاومة الأفريقية مقارنة أعداد الجنود في الولايات الأفريقية مع أعدادهم في بعض الولايات الأوربية: الألمانتين، ورسيا Rhetie[1]، وبانونيا Pannonie، ومسيا La Mesie وداكيا[2] La Dacie. وعلى طول نهري الراين والدانوب كانت مجمعة أكبر الأعداد من فيالق الإمبراطورية. لاشك أن الحدود هنا كانت تعاني ضغطاً مستمراً من أقوام جرمانيين أقوياء وكثيري العدد، بينما لم تتوقف أراضي الإمبراطورية في افريقيا عن التوسع بفضل السيطرة المتصاعدة على القبائل البدوية وشبه البدوية.

(1) منطقة من جبال الألب الوسطي. المترجم.

(2) البلد الذي كان يمتد في القدم على طول الشاطئ الأيسر لأسفل نهر الدانوب، ويتوافق مع جزء من رومانيا الحالية والمجر. المترجم.



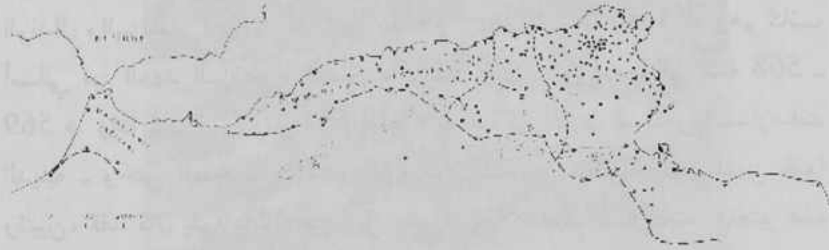
سبيطلة (تونس)

قوس انطونينوس

ومعابد كابيتولية

هناك وجه ثالث من الصعب تحليله، ولكن لا يمكن تجاهله، يتمثل في الوزن النسبي للسكان الحضر، وعليه مترومِّين، والسكان الذين كانوا خارج الرومنة. هذه النسبة مختلفة كثيراً ـ كما رأينا ـ بين أفريقية وموريتانيا، ولكن الجبال لم تكن دائماً مناطق اللجوء التي حاولت تناقضات الاستعمار الحديث الإيحاء بها. إن الفراغات التي لا تزال تظهر في الأطالس الأركيولوجية لا تتوافق دائماً مع غياب أطلال المباني القديمة ولكنها تتوافق في الغالب مع عدم كفاية أعمال التنقيب، وهذا صحيح بشكل خاص في الأوراس. وبالعكس، حتى في المناطق الأكثر تروماً بقى أقوام " gentes " محتفظين بتنظيمهم الخاص وكانت بلدة هؤلاء الرئيسية تحمل أسـم القبيـلة Civitas Nattabutum),

Civitas Nybgeniorum،...). كانت أراضي هذه القبائل محددة بعناية، ولكننا لا يمكن أن نعتبر هذه الأقاليم أنواعاً من المحميات أو "الباتولاند" "Batouland" لأنها كانت تتروم بمعدل أقل بكثير من معدل التروم في أراضي الاستعمار القديم. وكانت مدنهم تشهد نفس التقدم الذي تعرفه المدن الأخرى. وقدمت توبرسيكو نوميداروم " Thubursica Numidarum " مثلاً جيداً، فقد كانت بداية مجرد ضاحية بسيطة على أرض قوم نوميديين تمكنوا من الحصول على تكوين محلة " Civitas " أصبحت مستلحقة " Municipe " تحت حكم الإمبراطور تراجان Trajan، وبالتالي حصلت على حقوق المواطنة الرومانية، وعضواً في المجلس البلدي. وبعد ذلك بجيل واحد، فقدت مدينة توبرسيكو وإقليم القبيلة هويتهما، ولم تعد إلا مستلحقة مثل أخريات محاطة بأراض بلدية. ويمكن ملاحظة هذا التطور النموذجي كذلك على طرف الصحراء عند النبجني " Nybgenii " الذين غيرت محلتهم، التي أصبحت مستلحقة، حتى اسمها توريس تاميلانى " Turris Tamellani "



أفريقيا الرومانية.

المدن الرئيسية والطرق وخطوط التحصينات

في القرن الثالث.

❊ **بقاء المسيحية بعد روما :**

هل كان التمسح في أفريقيا كبيراً وعميقاً كما تدفع إلى الاعتقاد الشخصيات العظيمة مثل أوغسطين " Augustin " وقبله سبريان " Cyprien " وترتليان " Tertullien "؟ أوَ لم يكن الانشقاق الدوناتي ـ الذي غالباً ما يقدم مظهراً للمقاومة الأفريقية ـ بسبب أهميته ذاتها، دليلاً على عمق وتوسع التحول إلى الديانة الجديدة؟ ولكن أو لم تكن المسيحية محصورة في المدن وحدها واعتُبرت أخيراً شكلاً جديداً من أشكال الدمج؟.

لابد من الوقوف ضد هذه النظرة التضييقية. إن القوائم الطويلة من الأساقفة والمجمعات الدينية الأفريقية والكنائس الكبيرة في بلدات بسيطة نجهل أحياناً حتى أسماءها وشهداء قبور الفلاحين البسطاء وحتى الرؤساء البربر في مناطق تبدو قليلة التروم مثل سلسلة بابور " Babors " حيث كان ملك الإكوتامنيين " Ekutameni " (الذين أصبحوا الكتاميين في القرون الوسطى) يقول عن نفسه في القرن الخامس أنه " عبد الله " " Servus Die "، كلها براهين على تمسح يبدو في بعض المواقع تجاوزه لحدود السلطة الإمبراطورية. لقد تجاوز التمسُّح الحدود الزمنية للحكم الروماني وتواصل طوال عهود الوندال والبيزنطيين. ويذكر جان دى بيكلار " Jean de Biclar "، وهو كاتب أسباني من العهد البيزنطي، تمسح الجرمنت في الصحراء حوالي سنة 568 ـ 569 م. وإذا كان كوريبوس Corippus يصف في القرن السادس الممارسات الدينية ـ وحتى السحرية ـ للبدو الجمالين الليفاتيين Levathae الذين بقيوا وثنيين، فقد كان يقوم بذلك من قبيل حب استطلاع عالم السلالات: وتعتبر هذه الممارسات بالنسبة له غريبة عن محيطه.

بالرغم من التحول شبه الكامل للبربر إلى الإسلام إلا أن المسيحية بقيت حتى القرن الحادي عشر كما تشهد على ذلك سلاسل كثيرة من شواهد القبور في طرابلس الغرب (النجيلة) وفي تونس (القيروان)، وكذلك في مراسلة للبابا جريجوار السابع Grégoire VII الذي يكشف لنا سنة 1053 م وجود أسقف

في قومي (تونس)، والنصوص النادرة لكتاب عرب: يذكر البكري جماعة مسيحية في تلمسان في القرن الحادي عشر، بينما يعتقد ت لويكي T. Lewicki أنه تعرف على وجود استقرار مسيحي مهم في وسط البربر الأباضيين في ورقلة بين القرنين العاشر والثالث عشر. وبالتوازي مع استمرار المسيحية نلاحظ أن الأفريقيين استمروا يتحدثون اللاتينية لقرون، ولمدة طويلة بعد الفتح العربي، وهي لاتينية أفريقية (اللسان اللاتيني الأفريقي ـ كما يقول الإدريسي)، والذي من الممكن أنه أصبح لغة رومانية.

وحده تضافر التعصب الموحدي والفوضى البدوية قضى على هذه الذخائر الثقافية والدينية لأفريقيا الرومانية. في نفس القرن تهاوي الازدهار الزراعي الذي كان نتيجة جهد صبور مثابر من الليبيين ـ الفينيقيين في عهد القرطاجيين، والنوميديين من الأسرة المسيلية، والرومان ـ الأفريقين، وكلها تستعيد حقيقة واستمرارية البربر القدماء.



معصرة زيتون من العهد المتأخر

مقامة في أحد شوارع سوفيتولة

(سبيطلة): في المقدمة، إلى اليسار طاحونة الزيتون، وفي الخلف مسطحتان للضغط، وقائمان لتثبيت عمود الضغط




نقشان جنائزيان من القيروان

يعودان إلى 1019 م. و 1064 م

لم تصبح بربريا بلدا لاتينياً مثل أسبانيا، بالرغم من أنها قريبة جداً منهـا، والتي عرفت، هي كذلك، سلب البرابرة الجرمان وإعادة الغزو البيزنطي، وعدة قرون من الحكم العربي الإسلامي. لكن اللاتينية الأيبيرية كانت تستند إلى أوروبا إقطاعية ومسيحية بينما لم تكن في خلفيات بربريا إلا السهوب التي جاء عن طريقها أولاً البدو الجمَّالون الذيـن ظلوا وثنيين، ثم الهلاليون والعقلية البدوية.

** ** **

عابرون دون عقب ثقافي،

الوندال والبيزنطيون

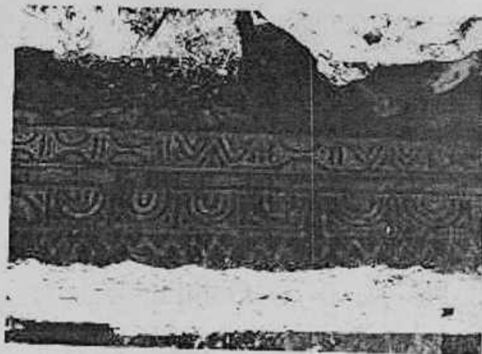
لا تشدنا إلا عرضاً ردود أفعال البربر على حكم الوندال والبيزنطيين الذي استمر أكثر من قرنين قليلاً. لم يترك هؤلاء العابرون، الذين اقتلعتهم رياح التاريخ بسرعة، في أفريقيا شيئاً يذكر. لاشك أن التمسيح أستمر بالرغم من النزاعات الثيولوجية التي لم تتوقف عن إضعاف سلطة الملوك والولاة والأساقفة.

اختفى الوندال، الذين كان عددهم 80000 عند نزولهم حسب فيكتور دى فيتا Victor de Vita ـ أو 160000 إذا كان العدد المعطي لا يمثل إلا الرجال والأطفال الذكور بعد هزيمة جليمر Gélimer وموته. ولم يحتل البيزنطيون إلا جزءاً من الولايات الرومانية القديمة بالرغم من جهودهم العسكرية المتميزة. وبقى من مرورهم في أفريقيا، خصوصاً، قلاع مهيبة مبنية بالحجر المقصوب المأخوذ من مباني المدن المجاورة. وقد خربت هذه المدن أحياناً وهدمت ـ ولكن في الغالب أقل مما يقال ـ وذلك بسبب القلاقل التي لم يتوقف توسعها واشتدادها منذ سقوط الحكم الروماني.

بالرغم مما سبق لا يخلو العهدان الوندالي والبيزنطي من الأهمية بالنسبة لموضوعنا. بالعكس، شهد هذان العهدان تجديداً في التقاليد البربرية بسبب انحدار اللتننة. وقد تقوت هذه البربرية الكامنة بالبدو الجمَّالين من الزناتيين، بينما تكونت عند الموريين ممالك مختلفة كانت نخبتها من رومان المدن. ولقد رأينا أن لهذه الممالك قواعد هشة لدرجة لم تتمكن معها من مقاومة ضربات الجيوش العربية.

اعتقد س. كورتوا C. Courtois أنـه تحقق من حوالي ثماني ممالك في القرن السادس، بعضها يبدو لي موضع شك إلى حد كبير. وأعتقد شخصياً

بوجود مملكة تتطابق مع موريتانيا القيصرية القديمة ونعرف ملكها ماسونا Masuna الذي كان يحكم سنة 508 والذي خلفه ماستجا Mastigas ثم جرمول Garmul.



عارضة مزخرفة لكنيسة صغيرة جوكوندوس (القرن السادس) في سبيطلة.
يلاحظ تشويه أشكال الزخرفة الكلاسيكية.



عمود من كنيسة كبيرة مسيحية من منطقة تبسة (شرق الجزائر).

الزخرفة المحفورة مستوحاة من النحت البربري على الخشب.



شاهد قبر سويف

هرمنقود زوجة وندال انجومار

في هيبون (عنابة، الجزائر)

يظهر هذا التجديد البربري في فنون الزخرفة حيث طغت بشكل نهائي التخطيطية الهندسية. وفي عملية سريعة، يبدو أن هبوب رياح الصحراء المجففة سرَّعتها، فقدت الأشكال الزهرية كل مرونة وأخذت أشكالاً ذات زوايا استمرت حتى أيامنا الحاضرة في الريف المغاربي. وأصبحت رسوم الإنسان والحيوان أشباحاً هندسية متصلبة. وهبت هذه الريح المجففة ذاتها على كل مظاهر الحفر والرسم والعمارة، وعلى فن ينسى بسهولة لأنه شعبي وريفي بشكل خاص، القواعد المعقدة للأساليب الكلاسيكية. ونتج عن هذا انبعاثات غريبة، فالنتوءات في هذا العهد أقرب إلى الحفارة والمنحوتات النادرة السابقة للعهد الروماني من قربها لأعمال الحضر خلال القرون السابقة.

مع مراعاة الفارق، أو ليست هذه هي نفس الظاهرة التي مهدت في بلاد الغال لولادة هذا الفن الروماني الذي طفت إلى السطح فيه التقاليد السلتية القديمة التي طمرتها لبعض الأزمان أصول الفن الرسمي الروماني؟

الإسلام وتعريب البربر

كيف أصبحت أفريقيا الشمالية المسكونة بالبربر المتروِّمين جزئياً والمتمسحين جزئياً في بعض قرون مجموعة من البلدان المسلمة بالكامل والمعربة إلى مدى بعيد لدرجة أن غالبية السكان يقولون عن أنفسهم، أو يعتقدون، أنهم من أصول عربية؟

بدل أن نبحث عن أسباب الفشل النسبي للرَّوْمنة، يبدو لي أن توضيح آلية التعريب أكثر إيجابية.

* الأسلمة ليست الاستعراب:

من المهم، بداية، التمييز بين الإسلام والعروبة. لاشك، أن المفهومين، أحدهما ديني والآخر أثني اجتماعي، قريبان جداً أحدهما من الآخر لأن الإسلام ولد عند العرب، ونشر في البداية بواسطتهم مع مراعاة أن هناك أقواماً عرباً أو مستعربين بقيوا على مسيحيتهم (سوريا، لبنان، فلسطين، العراق، مصر)، وملايين من المسلمين غير العرب ومن غير المستعربين (السود الأفارقة، البربر، الترك، الكرد، الألبان، الإيرانيون، الأفغان، الباكستانيون، الإندونيسيون، ...). كان في إمكان جميع البربر أن يكونوا مسلمين مع احتفاظهم بلسانهم وتنظيمهم الاجتماعي وثقافتهم كما في حالة الفرس والترك. نظرياً، كان هذا أسهل لهم لأنهم كانوا أكثر عدداً من بعض الأقوام الذين حافظوا على هويتهم في إطار أمة الإسلام ولأنهم كانوا أبعد من مركز انطلاق الإسلام.

كيف يمكن تفسير أن أفريقية ونوميديا، وحتى الموريتانيتين، التي تمسحت بنفس معدل تمسح ولايات الإمبراطورية الأخرى، والتي كانت لها كنائس صارمة، تحولت بالكامل إلى الإسلام بينما ـ بالتوازي ـ بقى أقوام مسيحيون على أبواب شبه الجزيرة العربية: القبط في بلاد النيل، والموارنة في لبنان، والنسطوريون واليعاقبة في سوريا والعراق.

نهاية عالم

دخل الإسلام إلى الشرق الأدنى وأفريقيا بالفتح العربي، هذه مسلمة. وقد رأينا كيف أن وقائع هذا الفتح غير معروفة جيداً، وتزدحم بالحكايات الأسطورية الهادفة لتلميع إنجازات المحاربين الذين كانوا على رأس سلالات قوية. إن بعض ما أورده ابن عبد الحكم والنويري يمثل مقدمات حماسية لملاحم شعرية.

سهَّل ضعف البيزنطيين الفتح الإسلامي. وقد كان البطريق جريجوار الذي هُزم وقتل في معركة سوفيتولة (سبيطلة) متمرداً ضد إمبراطور القسطنطينة. كانت أفريقيا منذ قرنين فريسة للفوضى، وقد تجمعت كل بذور الفوضى والخراب الاقتصادي على هذا البلد البائس. فمنذ غزو الوندال بقى الجزء الأكبر من الولايات القديمة خارج إدارة الدول الوريثة لروما. ولم تكن مملكة الوندال في أفريقيا تغطي إلا تونس الحالية وجزءاً صغيراً من شرق الجزائر محدوداً جنوباً بالأوراس وشرقاً بخط طول سيرتة. وقد أوضح س. كورتوا C. Courtois بالاستناد إلى روايات بروكوبيوس Procope وكوريبوس Corippus أن البدو الجمالين توغلوا في بيزاسين منذ نهاية حكم تراساموند Thrasamond سنة



الجدار أ

الجبل الأخضر، منطقة فرنده (الجزائر)

520 م تقريباً. منذ هـذا التاريخ كان على الوندال والبيزنطيين مقارعة غزوات البدو الجمالين القادمة من الجنوب الشرقي. وطوال هذا الصراع المتجدد بدون توقف كانوا يجدون أحياناً حلفاء من بين رؤساء أو ملوك الأقوام الجبليين المستقرين أو شبه الرحل، ولكنهم في الغالب أيضاً كان عليهم مواجهة تحالف من المجموعتين مختلطتين تحت اسم الموريين.

عن بقية أفريقيا، التي كان يسميها س.كورتوا أفريقيا المنسية لا نعرف عن هذه الفترة التي امتدت لقرنين من الزمان إلا أسماء الرؤساء، والنصب الجنائرية النادرة مثل الجدار بالقرب من سعيدة أو الجور بالقرب من مكناس، ونقوش ماستيس " Masties " الشهيرة في اريس " Arris " (الأوراس) وماسونا " Masuna " في ألتافا " Altava " منطقة وهران ". يمكن من خلال النتف التي نقلها لنا المؤرخون ومحتوى هذه النقوش أن نخمن أن انعدام الأمن لم يكن أقل في هذه المناطق "المحررة".

مثَّل تفكك خطوط الدفاع والمراقبة أمام البدو مصدراً آخر للفوضى والانحـدار الاقتصادي. وكان اختفاء مناطق الزراعة الجنوبية ـ وكان هذا الاختفاء متأخراً أكثر مما كنا نعتقد ـ أول نيل من حياة الاستقرار في داخل البلاد.

لم تكن ـ كذلك ـ النزاعات الثيولوجية عند مسيحيي أفريقيا أقل حدة مما عند مسيحيي المشرق. فالكنيسة التي كانت في موقف صعب في مواجهة الدوناتية ضعفت في مملكة الوندال بسبب عمليات الاضطهاد لأن الأريوسية[1] أصبحت دين الدولة الرسمي. وانتصرت السلفية من جديد منذ حكم هلدرى Hilderie (525 م). وطوال هذه الفترة لم يختف ـ على ما يبدو ـ العديد من الأساقفة فقط ولكن ـ وبشكل خاص ـ صَاحَب الانفصال عن الدولة الرومانية بروز ذاتية الولايات وانكماشها.

---

(1) مذهب أريوس الذي ينكر الوهيه المسيح. المترجم.

كانت إعادة الغزو البيزنطي أكثر مأساوية في هذا المجال. فقد أعادت إلى أفريقيا نزاعات جديدة حول طبيعة المسيح: وفتحت الطبيعة الواحدة للمسيح، ونزاع المجالس الدينية الثلاث تحت حكم جستنيان " Justinien " الفترة البيزنطية في أفريقية، وأنهتها محاولة التصالح التي اقترحها هيراكليوس " Heraclius "، وأدين التوحيد بدوره كشكل جديد من أشكال الكفر. وبينما بدأ الفتح العربي تولد نزاع جديد من مبادرة الإمبراطور كوستنتان الثاني، نزاع تيب Type، مزق أفريقيا المسيحية (648).

في نفس الوقت زادت التعقيدات الاجتماعية وحتى الإتنية في البلاد. فبالإضافة إلى الرومان ـ الإفريقيين (الأفريق عند المؤلفين العرب) الذين كانوا يسكنون المدن والأرياف الموغلة في البعد جنوباً في بعض الأحيان، مثل المجتمع الفلاحي الذي كشفت عنه الصفائح الألبرتينية Tablettes Albertini على مسافة مائة كيلومتر جنوب تبسة، والموريين غير المترومين المنحدرين من أقوام بربر قدماء، جاء البدو الزناتيون وبقايا الوندال وجيش الغزو والإداريون البيزنطيون (الروم عند المؤلفين العرب). وقد زاد الانقسام في بلد تلاشي فيه حتى مفهوم الدولة نفسه.

باختصار، لم يجد الفاتحون العرب ـ وهم قليلو العدد ولكنهم بواسل ـ دولة في مواجهتهم ولكن معارضين متتابعين: البطريق البيزنطي ثم الرؤساء البربر، وإدارات بعد ممالك، وقبائل تلت تجمعات. أما عن السكان الرومان ـ الأفريقيين المنغلقين خلف أسوار مدنهم، فبالرغم من كثرة عددهم لم تكن لديهم الوسيلة ولا الرغبة في مقاومة طويلة لهؤلاء السادة الجدد المبعوثين من الله. ولم تكن الجزية التي فرضها العرب أثقل من مطالب جباة الضرائب البيزنطيين، وكان تحصيلها، في البداية على الأقل، يبدو مساهمة استثنائية لمواجهة مآسي الحرب أكثر منه فرضاً دائماً. ولم تكن عمليات السلب وأخذ الغنائم من قبل فرسان الله أكثر ولا أقل احتمالاً من ممارسات الموريين منذ قرنين.



الجدار ج

** ** **

دروب الهداية

كنا نقول بوجوب التمييز بين الأسلمة والتعريب. فالأول يحدث بمعدل أسرع بكثير من الثاني. فقد أصبحت بربريا مسلمة في أقل من قرنين بينما لم تتعرب بالكامل حتى الآن، بعد مرور ثلاثة عشر قرناً على أول فتح عربي.

كانت الأسلمة والتعريب المبكر الأول ذات طابع حضري في البداية. فقد تأصلت ديانة الفاتحين في المدن القديمة التي كان يزورها المحاربون المبشرون ثم العلماء وهم رحالة متمرسون في المناقشات الثيولوجية. وساهم إنشاء المدن الجديدة، وهي مراكز دينية حقيقية، مثل القيروان، أول تأسيس إسلامي (670م)، وفاس التي أسسها أدريس الثاني سنة (809 م) في تجذير الإسلام بقوة عند طرفي البلاد.

تم تحول البربر في الأرياف، صهناجة وزناتة، إلى الإسلام بطريقة أكثر غموضاً. كانوا ـ دون شك ـ مهيئين للتوحيد المطلق للإسلام بسبب التطورات الأخيرة التي شهدها الدين المسيحي وبسبب بعض التبشير اليهودي بين قبائل الجنوب الرحل وربما بسبب ذكرى القدرة الهائلة للإله الأفريقي العظيم الذي يسميه اللاتين ساتورن SATURNE خليفة بعل حمون البونيقى الذي كان تفوقه على الأرباب الآخرين يهيء للتوحيد.

على أي حال، نشر تحول رؤساء القبائل الكبيرة المهمة الإسلام بين الناس. وقد أدت الانتصارات الكبيرة باسم الإسلام إلى تحول الفيالق البربرية التي شاركت فيها تحت قيادة هؤلاء الرؤساء، تلقائياً إلى الإسلام.

من أجل كسب قلوب السكان في المدن، وخاصة في الأرياف، لجأ الدعاة المسلمون لإعطاء المثل. كان يجب أن يُوضح لهؤلاء المغاربة، الذين كان تدينهم دائماً عميقاً، ماذا كانت تعني الجماعة الحقيقية للمدافعين عن

الدين. هكذا كان الرباط، وهو دير ـ قلعة يسكنها جنود متعبدون على استعداد دائم للدفاع عن أرض الإسلام ضد المشركين والكفار ويثقفون أنفسهم من منابع السلفية الأكثر تشدداً. ويعرف هؤلاء المرابطون، عند الحاجة، كيف يتحولون إلى مصلحين متحمسين وفعالين. وكان المرابطون من لمتونة الذين أسسوا رباطاً بالقرب من السنغال (أو في جزيرة في النهر) وراء تأسيس إمبراطورية المرابطين التي أخذت اسمها من أسمهم (المرابطون)، وقد حُرِّف[1] الاسم تحت تأثير أسباني فرضه التاريخ.

عندما اضطر الإسلام لتبني سياسة دفاعية حمي الرباط العسكري الساحل من غارات البيزنطيين ثم الفرنجة ونورمانديي صقلية: وبعض هذه الأربطة كانت حصونا حقيقية كما في سوسة والمنستير.

فقد الرباط طابعه العسكري في المناطق غير المهددة ليصبح مقراً لرجال الدين الموقرين جداً. وفي عهود أقرب تكونت أخويات ـ سيكون من المبالغة مقارنتها بالتنظيمات الدينية المسيحية ـ بالاستناد إلى مراكز دراسات دينية؛ الزوايا التي هي امتداد الأربطة القديمة. وترتبط هذه الحركة، التي غالباً ما امتزجت بصوفية شعبية، بالمرابطية وهي كذلك اشتقاق آخر من الرباط. ساهمت المرابطية كثيراً في تحقيق الأسلمة الكاملة للأرياف مقابل بعض التنازلات الثانوية لممارسات سابقة للإسلام ولكنها لا تنال من إيمان المؤمن.

مثّل الدعاة الخوارج القادمون من المشرق أكبر المخاطر للسلفية السنية في القرون الأولى للإسلام، فقد فصلوا جزءاً من البربر عن السلفية الإسلامية في نفس الوقت الذي كانوا فيه ينشرون الإسلام خاصة في قبائل زناتة. وإذا كان مذهب الخوارج قد أدمى المغرب الكبير مرات عديدة فإن الفضل يعود إليه فى المحافظة خلال كل العهود بما فيها العهد الحالي، على قوة دينية أقلية ولكنها مثالية في صفاء إيمانها وتقشف طبائعها.

---

(1) يقصد المؤلف تحريف الاسم في اللغات الأوربية. المترجم

مبشرون آخرون ورحالة عظام تمثلوا في الدعاة المسؤولين عن نشر المذهب الشيعي. نعرف النجاح المدهش الذي حققه أحدهم، أبو عبد الله، عند قبائل كتامة التي كانت وراء تأسيس الدولة الفاطمية. في تلك العصور يبدو أننا في أوروبا كما في أفريقيا كان محكوماً علينا بحياة أقرب إلى الاعتقال بسبب انعدام الأمن، وكان رجال الدين يسافرون كثيراً وبعيداً جداً ويدرسون على أيدي العلماء المشهورين واضعين أنفسهم عمداً في خدمتهم إلى اليوم الذي يدركون فيه أنهم بلغوا من المعرفة الشأو الذي يبغون ويصبحون بدورهم سلطة في مجالهم وينشئون أحياناً مذهباً جديداً. هذا ما حدث، من بين آخرين، لابن تومرت مؤسس حركة الموحدين. وقد لعب ابن ياسين سابقاً هذا الدور في تأسيس المرابطين.

بالرغم مما سبق، بقيت أجزاء من بربريا لم يدخلها الإسلام إلا متأخراً: لم يكن هذا في المجموعات المتلاحمة من الجبليين المستقرين، الذين ـ بالعكس ـ لعبوا مبكراً دوراً مهماً في الإسلام المغاربي مثل قبائل كتامة ومصمودة، ولكن عند الرحل الكبار في الهوقار البعيد والصحراء الجنوبية. وإذا ما صدقنا رواية الطوارق فيبدو أن تحولهم إلى الإسلام كان مبكراً بفعل الصحابة ولكن هذه الأسلمة ـ إن لم تكن مجرد أسطورة ـ كانت دون نتائج. وترتبط هذه الحكايات بحضور عقبة في فزان حتى قبل تأسيس القيروان. وقد بقيت عبادة الأوثان عند الإسباتن Isabaten حتى الفتح الطوارقي. كما أعاد دعاة الإسلام إلى الهوقار ولكن دون نجاح يذكر. في الواقع، لا يبدو أن الأسلمة الحقيقية كانت سابقة للقرن الخامس عشر.

إن هناك بلداً ناطقاً بالبربرية لم يتحول أبداً إلى الإسلام وهو جزر الكناري التي بَقِيَ سكانها الأصليون، القونشيون، وثنيين حتى الغزو الأسباني النورماندي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

* آلية التعريب :

سلك التعريب طرقاً أخرى بالرغم من أن النطق بالعربية لبعض الجمل الأساسية ضروري للتحول إلى الإسلام، وهو ما مهد للتعريب. وأن القرآن وهو وحي مباشر من الله لرسوله، لا يجب أن يمس بأي تحريف، ومن ثم لا يمكن ترجمته، وعليه فإن اللسان العربي والكتابة العربية مقدستان. وقد ساهم هذا الإلزام وهذه الهالة في تعريب اللسان. وكانت هذه العملية خلال الفترة الأولى (القرنين الحادي عشر والثاني عشر) حضرية أساساً. وقد حافظت العديد من المدن المغاربية، خاصة الساحلية، على لسان عربي سليم يمثل انعكاساً لعملية التعريب الأولى هذه، معززة بتدفق الأندلسيين المطرودين من أسبانيا في القرن الخامس عشر والذين كانوا غالباً من البربر المتعربين بالكامل. مع ذلك، طغى على العـربية الحضرية الكلاسيكية في كل مكان، شكل آخر فظ أكثر شعبية ومخلوط بمفردات بربرية. وتمثل هذه العربية اللهجية المتنوعة الصورة اللغوية لتعريب المغرب. وقد نشأت من اللغة البدوية التي أدخلتها القبائل الهلالية في القرن الحادي عشر، وبالفعل فهذه القبائل هى التي عربت في الحقيقة جزءاً كبيراً من البربر.

إنها لقصة غريبة، والحق يقال مدهشة إلى حد بعيد، أن يتحول إلى الإسلام ملايين من السكان البربر بواسطة بعض عشرات آلاف من البدو. لا تمكن المبالغة في الأهمية العددية للهلاليين مهما كان عدد من يدعون الانحدار منهم، فلم يكن عددهم، عندما ظهروا في أفريقيا والمغرب، يتجاوز بعض عشرات الآلاف. ولم توصل الموجات اللاحقة من بنى سليم ثم بنى معقل الذين استقروا في جنوب المغرب عدد الأشخاص من دم عربي الذين توغلوا في أفريقيا الشمالية إلى مائة ألف في القرن الحادي عشر. وقد كان عدد الوندال عندما عبروا مضيق جبل طارق وهبطوا على شواطئ أفريقيا سنة 429 م، 80000 أو ضعف هذا العدد إذا كانت أرقام فيكتور دي فيتا Victor de Vita

لم تأخذ في الاعتبار إلا الرجال والذكور مـن الأطفال. وهو ما يعني أن الأهمية العددية للغزوَين متساوية تقريباً. لكن، ماذا بَقِيَ من حكم الوندال لأفريقيا لقرنين؟ لا شيء. فقد محي الغزو البيزنطي بالكامل حضورَ الوندال الذين لا أثر لأى منحدرين منهم أو من يدعون هذا الانحدار. لنفحص الآن نتائج وصول العرب الهلاليين في القرن الحادي عشر: لقد تعرب جزء كبير من بربريا، وتعتبر دول المغرب الكبير أنفسها دولاً عربية.

ليس هذا، بالتأكيد، نتيجة القوة التناسلية لبنى هلال أو ما يدعى من إبادة للبربر في السهول، هما ما يمكن أن يفسر هذا التحول البطيء.

فقد وجهت القبائل البدوية، بداية، ضربة جديدة للحياة الحضرية بما ارتكبته من أعمال النهب، وبما مثلته من مخاطر للأرياف المفتوحة. هكذا عززت عملية تذويب البدو من البربر الجدد الذين دخلوا إلى افريقا ونوميديا منذ القرن الخامس. فقد استوعب القادمون الجدد بسهولة البدو الزناتيين الذين مثلوا مقدمة للهلاليين. هكذا كانت وحدات البدو العرب التي تتكلم اللغة المقدسة تكتسب بها هيبة عظيمة، وبدل أن يذوبوا ثقافياً في الكتلة البربرية اجتذبوها نحوهم وتبنوها.

لقد سهل تماثل أساليب العيش هذا الاندماج. كان من المغري للبدو البربر أن يقولوا عن أنفسهم أنهم هم كذلك من العرب، ويكتسبوا الاحترام ويأخذوا وضع الفاتحين، بل حتى وضع الأشراف أي المنحدرين من النبي (ﷺ)[1]. سهل من الاندماج أيضاً حيلةٌ قانونية تقضي بأنه عندما تصبح مجموعة (أو فرع) تابعة لأسرة عربية فإن لهذه المجموعة الحق في حمل اسم هذه الأسرة كما لو كان الأمر يتعلق بتبَن جماعي. وقد سهل من هذه العملية وجود ممارسات مماثلة عند البربر.

---

(1) إضافة من المترجم. المترجم

الضّانيات وهى تتبع رجلاً في وضع الصلاة، ومن ثم فهو يدير لها ظهره. ويقود هذا إلى التفكير في أن الصلاة موجهة إلى كيان آخر وأن الكبش المغطي رأسه بغطاء مهيب، وأحياناً يحمل عقداً مجدولاً، مجرد قربان مقدم إلى الرب. هذا كل ما بقى عبر آلاف السنين خاصة في الطقوس السامية.

يظهر الكبش، بالتنافس مع الثور وهو ضحية مفضلة أخرى، على عدد كبير من الشواهد التذكارية لساتورن، وتُعلمنا نصوص تقاوس (الجزائر) الشهيرة أنه فى القرن الثالث من زماننا استمر الافريقيون مخلصين طويلاً للتضحيات الصارمة للبواكير، وقد قبلوا بتردد، وبشكل قانوني تقريباً ومع أخذهم الاحتياطات الطقوسية، أن يستبدلوا الطفل المولود الأول المطلوب من الإله بالحمل نفساً بنفس ودماً بدم وحياة بحياة. وليس هنا من أثر لعبادة الحيوانات في هذا الإستبدال.

جاء الذكر الوحيد لعبادة الكبش في أفريقيا الشمالية عند البكري ويتعلق بقبيلة جبلية في جنوب المغرب. وقد جاء هذا الذكر مختصراً جداً ولا تعرف حقيقة هذه العبادة، التي تبدو استثنائية ومعيبة لدرجة أن هؤلاء الكفرة يخفون هويتهم عندما يذهبون عند قبائل أخرى.

يؤخذ الثور كذلك على أنه حيوان مقدس وكان، كذلك، الضحية المهابة التي تقدم قرباناً لساتورن كما لجوبيتر.

أورد كوريبوس Corripus (V,12-26) في القرن السادس من زماننا مُعتقداً خاصاً عند اللقواتيين (أسلاف لواتة)،وهم قوم من سيرث "Syrthes" وكانوا يطلقون على عدوهم ثوراً يمثل إلههم جورزيل " Gurzil " المولود من مزاوجة بين الرب آمون وبقرة. وكان عند اللقواتيين أصنام من الخشب والمعدن تمثل جورزيل. إن هذا هو النص الوحيد المتعلق بعبادة الثور، مع مراعاة وجوب النظر إلى الحيوان على أنه مجرد صورة للإله، وليس في هذه الممارسة ما يذكرنا بالتوقير الذي كان يحمله المصريون للثور أبيس على سبيل المثال.

في البداية كسب التعريب القبائل البربرية البدوية وخاصة زناتة. وكان هذا التعريب كاملاً لدرجة أنه لم يعد هناك اليوم وجود للهجات الزناتيه البدوية، واللهجات التي مازالت حية إلى حد ما مستعملة من قبل الزناتيين المستقرين، أما في الجبال (وارسنيس) وإما في واحات الصحراء الشمالية (مزاب).

يضاف إلى تماثل أساليب الحياة، وهو عنصر قوى من عناصر التعريب، الصراع السياسي بين الحكام البربر الذين لم يترددوا في استعمال القدرة على الحركة للقادمين الجدد وقوتهم العسكرية ضد أخوتهم في الدم. بهذا الضغط المزدوج من نزوح الرعاة، والأعمال العسكرية المصحوبة بأعمال النهب والحرق، أو فقط بأعمال السرقة، توسع هذا المـد البدوي، الذي تطابق منذ ذلك الوقت في الجزء الأكبر من المغرب الكبير مع العروبة البدوية دون توقف واستولي تدريجياً على الدول وقضى على الحياة المستقرة في السهول. وقد تقصلت المناطق الناطقة بالبربرية إلى جزر جبلية. تضاف إلى هذه الأسباب ذات الطابع الإثنى ـ الاجتماعي، تحولات مناخية ساعدت منذ القرن السابع نمط الحياة الرعوية البدوية على حساب المزارعين المستقرين.

إن الصورة السابقة قاطعة لدرجة لا يمكن معها أن تكون صحيحة في التفاصيل. ولا يمكن تطبيق مثل هذه الثنائية على الحقيقة الإنسانية للمغرب الكبير. فالبدو ليسوا كلهم متعربين ومازالت باقية مناطق واسعة يتنقل فيها البدو الناطقون بالبربرية. ومازال كل وسط الصحراء وجنوبها في الدول المغاربية الثلاث[1] في قبضة هؤلاء.ففي جنوب المغرب تحافظ قبائل آيت عطا المهمة المركزة حول جبل صرحو على بداوة بربرية بين المجموعات العربية في تافلالت التي منها جاءت الأسرة الشريفية، والبدو في الصحراء الغربية الذين يقولون إنهم منحدرون من القبائل العربية بنى معقل، مسيطر عليهم اليوم من الرقيبات. يجب كذلك أن يؤخذ في الاعتبار شبه البدو من المجموعة المهمة برَّابر في الأطلس الأوسط: زيان، وبنى مجلد، وآيت سيغروشين.

---

(1) يقصد تونس والجزائر والمغرب. المترجم

بالعكس، لا يجب تصور أن كل العرب من البدو، فقبل الفترة الفرنسية، التي سهلت للزراعة وحياة الاستقرار بتحقيق الأمن على الأقل، بوقت طويل كانت مجموعات عربية تعيش حياة الاستقرار منذ قرون حول المدن وفي الأرياف الأكثر بعداً. ولأنها تمثل النموذج الأمثل وتقدم نقيضاً للصورة المقدمة عادة سأذكر سكان منطقة القبائل الصغرى وسكان مجموعة السلاسل الجبلية والجبال الساحلية الوسطى في شرق الجزائر وشمال تونس. فكل هؤلاء الجبليين وسكان التلال معربون منذ تاريخ طويل، ومع ذلك فبسبب عيشهم في الغابة من زراعة أقرب إلى البستنة وزراعة الأشجار فقد مارسوا دائماً حياة استقرار مدعومة بتربية الأبقار. يمكن سَوْق الكثير من الحالات المشابهة في الريف[1] الشرقي والوارسنيس الغربي.

هذا لا يمنع اليوم من أن كل المناطق الناطقة بالبربرية باستثناء الصحراء هي مناطق جبلية كما لو مثلت هذه المناطق معاقل وملاجئ للسكان الذين تركوا تدريجياً المناطق المستوية للبدو وشبه البدو مربي الحيوانات الصغيرة عرباً أو مستعربين. كان هذا هو السبب وراء ما تمثله أفريقيا الشمالية في القرن التاسع عشر من انعكاسات غريبة في السكان: جبال وتلال ذات تربة فقيرة يقطنها مزارعون وكثافتها السكانية أكبر بكثير من الكثافة السكانية في السهول والوديان الكبيرة ذات التربة الخصبة والتي تتنقل فيها مجموعات صغيرة من مربي الحيوانات.



بدو ظلوا يتكلمون البربرية: الطوارق.
هنا، طوارق كل اجار المقيمون في مراعي تامسنا (النيجر)

(1) الريف ـ هنا ـ تعني إحدى مناطق المغرب. المترجم

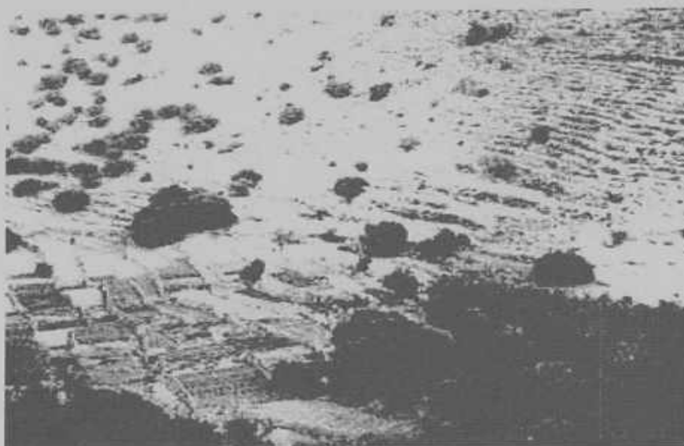
إن تكيف بعض المجموعات الجبلية على الحياة في الجبل محدود جداً لدرجة يبدو معها وجوب البحث عن أصولهم في مناطق أخرى. وتقود بعض التفاصيل المتعلقة بالثياب لديهم وخاصة جهلهم بعض الممارسات الزراعية، مثل زراعة المدرجات في منطقة التلال في الأطلس، إلى التفكير في أن الجبال لم تكن فقط المعاقل التي قاومت التعريب ولكنها كانت ملاجئ حقيقية تجمع فيها المزارعون الهاربون من السهول التي تُركت لنهب البدو الرعاة.

إذا كانت زراعة المدرجات غير معروفة عند مزارعي الجبال في منطقة التلال (بينما هي منتشرة على نطاق واسع في البلدان الأخرى والجزر المتوسطية)، فإنها - بالعكس - معروفه تماماً وممارسة، منذ القدم بكل تأكيد، عند بربر الأطلس الصحراوي والسلاسل الجبلية المجاورة. وتوجد أجمل المدرجات عند الشلوح في الأطلس (المغرب)، كما أن الزراعة ممارسة عادة على مدرجات مصانة بعناية في جبال القصور والأوراس (الجزائر) وكذلك عند مطماطة (تونس).

مهما تكن أصول البربر الذين يقطنون الجبال في منطقة التلال فإن أعدادهم كبيرة ويعيشون على تربة فقيرة ومحدودة لدرجة تضطرهم للهجرة. إن هذه الظاهرة البالغة الأهمية، ليست حديثة في منطقة القبائل. فالقبائليون، مثل السافوياردين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، عملوا باعة متجولين أو تخصصوا في بعض الحرف في المدن مثل تجارة الزيت والبقول، ....

أدت الزيادة الديموغرافية الناتجة عن الاستعمار لوصول الجبليين الناطقين بالبربرية إلى السهول المزروعة والمدن. وكان يمكن أن تقود هذه الحركة إلى إعادة غزو لغوي وثقافي على حساب اللغة العربية، ولكن لم يحدث شيء من هذا. حدث العكس، فالبربري، سواء كان قبائلياً أو ريفياً أو شلحياً أو شاوياً، الذي يصل إلى المناطق العربية يهجر لسانه، وغالباً عاداته، ويعود إليها بسهولة عند عودته إلى منطقته.

بما أن الجبال البربرية لساناً استمرت المصدر الديموغرافي الكبير في الجزائر والمغرب، فإننا نرى ظاهرة تبدو تناقضاً في الظاهر، وتتمثل في أن الدم العربي النادر أصلاً في هذين البلدين يتقلص أكثر مع زيادة تعريبهما الثقافي واللساني.



زراعة على المدرجات

في الأطلس المغربي

** ** **

الفصل الرابع

البربر والدين

البربر والدين



تُمكِّن قرون الحكم الروماني من استيعاب أحسن للعناصر الرئيسية لديانة البربر السابقة لانتشار المسيحية. وتقدم ديانة الإفريقيين القدماء أوجهاً متنوعة إلى حد كبير ومتناقضة أحياناً مأخوذاً في الاعتبار أنها ـ كما هو الحال في المجتمع الذي انبثقت منه ـ عبارة عن تجمع وتراكم لمعتقدات وممارسات تنتمي إلى عروق ومستويات ثقافية مختلفة.

من الآلهة المورية القديمة إلى الجن حديثاً

لن تُفحص في هذا الفصل إلا المعتقدات الشعبية المستجيبة للقلق والآمال عند الأفريقيين خارج أي تأثير كلاسيكي. ليس من السهل الكشف عن المعتقدات البربرية المخفاة تحت غطاء الوحدانية الظاهرية للديانة الرسمية الرومانية.إننا لا نعرف الكثير عن هذه المعتقدات، إذ إنها بسبب طابعها الشعبي لم تحظ بنفس وسائل التعبير التي كانت للدين الرسمي الحضري. فأرباب الفقراء جنيات قليلة الحظ، ومن ثم فهى كائنات محدودة القوة ذات اشعاع ضعيف ومحصورة في ناحية أو قبيلة. عليه، كيف لذكراها أن تبقى على مر القرون بينما لم يكن اتباعها قادرين على التعبير بالكتابة؟ لكل هذه الأسباب المختلفة كان التوثيق الكتابي فقيراً فقراً مدقعاً ويمكن أن يُحَرَّف أو يفرغ جزئياً في جانبه الديني بسبب تعبيره بلغة ليست هي لغة اتباعه.

يتكون مصدر أخر من مصادرنا من بعض المقتطفات المأخوذة من الأدب القديم، من المؤلفين الأفريقيين المسيحيين بشكل خاص، الذين كانوا في وضع أحسن لينقلوا إلينا هذه المعتقدات، ومن المؤسف أننا لا نستطيع أن نطلب من أسقف أو أحد آباء الكنيسة أن يقوم بعمل المؤرخ أو عالم الأجناس. لا تظهر الإشارات إلى المعتقدات الوثنية الأفريقية الصرفة إلا في إطار موعظة أو إدانة للممارسات الملوثة بالوثنية المحلية أو تشهير بأرباب غير حقيقيين يمكن أن يكونوا شياطين كما يمكن أن يكونوا أصناماً من الخشب أو الحجر لا تنفع ولا تضر (Tertullien , Ad nationes I , 36;II,8). مجموع هذه الملاحظات الكتابية والأدبية غير كاف. يبقى كذلك، أن لا تستغل بإفراط لاستخلاص حجة أساسية عن المقاومة الأفريقية للحكم الروماني.

* جبال وكهوف وصخور مقدسة :

في المفاهيم السحرية والدينية للأفريقيين القدماء يمكن التعرف، في خليط غير متجانس من ظواهر طبيعية مقدسة وجنيات غير مسماة وكيانات اكتسبت صفة الربوبية الفردية، على فكرة أساسية مكونة من الحذر والخوف والتقديس مؤدية إلى عبادة شبه منظمة. كان الأفريقيون ـ مثل كل أقوام بدائيين ـ مدركين لوجود قوة منتشرة في الطبيعة بإمكانها أن تظهر في كل لحظة في حادثة طوبوغرافية كما في ظاهرة غير عادية. ويمكن أن يصيب المقدس حيواناً أو يضربه دون أن يصبح هذا الحيوان بالضرورة رباً جديداً. كما يمكن كذلك أن يظهر الرب للإنسان دون وسيط: وهو ما يمثله بدرجات متفاوتة الحلم والرؤيا والوحي.

إن تجليات المقدس المحسوسة أكثر من غيرها، وأكثرها انتشاراً في العالم والتي حوفظ على ذكراها أحسن من غيرها، هي ما سنسميه بالحادثة الطوبوغرافية؛ الجبل في المقام الأول وربما الصخرة البسيطة أيضاً. هل هو شكل الجبل الذي يجذب الألوهية أو ارتفاعه الذي يقرب الإنسان من السماء

مقر ربوبية قوية جداً، هما ما يبررا التقديس الذي يحيط الجبل. يمكن أن تكون هاتان الفكرتان المتناقضتان ظاهرياً لأن إحداهما تحت ارضية والأخرى سماوية، قد ساهمتا معاً في إضفاء القداسة على الجبل.

لن نورد من هذه المقامات العليا إلا المعابد البونيقية أو من تقليد بونيقي مثل معبد ساتورن بلكرانسيس Saturne Balcaranesis على جبل بوقرنين الذي ينتصب خياله المميز في عمق خليج قرطاج. يمكن الاعتقاد بأن هذه المعابد لبعل أو ساتورن المقامة في أماكن مرتفعة ذات طابع سامي، ولكن ما شهدته هذه الأماكن حيث تعاقب أحياناً معبد قديم مفتوح " temenos " ومعبد بونيقي أو روماني وكنيسة مسيحية قديمة ومرابط، يوضح عمق وقدم هذا التقديس. ويبرهن على الطابع المحلي لتوقير هذه المقامات العليا العديد من النصب الأثرية الأخرى، بعضها أكثر قدماً، مثل النقوش الصخرية ذات الطابع الديني المجمعة على بعض جبال الأطلس الكبير المغربي أكوراى والرحات (Yagour,Rhat). إن هذه الأشكال المعروفة جيداً اليوم، يعود بعضها إلى النيوليتي[1] " Neolithique " ولكن أغلبها يرجع إلى العصر البرونزي وبداية عصر الحديد. وأضفت الزيارات المتكررة لنفس الأماكن، التي أخذت طابعاً إسلامياً تقريباً، عليها مسحة عميقة من الورع.

عن الأطلس كذلك، قال بلين الأكبر Pline L`ancien (V,1,7) أنها تلمع بألف نار ليلاً وتعلو فيها أصوات آلهة الرعاة Egipans والساتيرين Satyres الذين يلعبون بالمزامير والدفوف. كيف يمكن استغراب الرهبة الدينية التي تستولى على هؤلاء الذين يقتربون منها؟ يدعى ماكسيم الصوري " Mxime de Tyr (VIII,7) أن الأطلس معبد وإله في نفس الوقت. ويأخذ القديس أوغسطين على اتباعه عادتهم في تسلق الجبال ليكونوا أقرب إلى الله (Sermones, XLV,7).

---

(1) متعلق بالعصر الحجري الأخير، وهي الفترة المحصورة تقريباً بين الألف الخامس ومنتصف الألف الثالث قبل الميلاد. المترجم.

حافظ القونشيون في جزر الكناري، والذين لم يتمسحوا ولم يسلموا، على المعتقدات الأساسية للأفريقيين القدماء مع تطويرهم ديانة محلية، وكانوا يسمون الرب ـ حسب الأسباني جالندو Galindo ـ اتجوشافنتمان Atguaychafntaman " حامل السماوات " ـ اسم لم ينقل إلينا بدقة بكل تأكيد ـ وهو الاسم الذي كان يحمله كذلك بيك دي تينيريف " Pic de Tenerife ". كانت توجد في الجزيرة الكبرى من جزر الكناري في موقعين منفصلين صخرتان مقدستان، تسيمار Tsimar و فيمنيا Vimenya وكان يُحج إليهما. وأثناء زيارة المكان المقدس كان يصب الحليب والزبدة على الصخور مع غناء حزين ثم يُذهب إلى شاطئ البحر ويضرب الماء بعصايات قصيرة مع الصراخ صراخاً حاداً. وأثناء تأدية هذا الحج كانت تتضافر الممارسات من أجل الحصول على المطر (إراقة الخمر، الصراخ، ضرب البحر...) مع عبادة الصخور.

مازال الجبل حتى اليوم موضوع معتقدات غامضة. وبعض القمم يتردد عليها الجن لدرجة أن ارتيادها ممنوع عملياً على الناس، وهذا الاعتقاد قوي بشكل خاص عند الطوارق في الهوقار (قارة الجنون، كما في الأيير (جبل جريبون). كيف لا نجد في هذه المحرمات صدى لما قال به بلين Pline حول الأطلس؟ إن عبادة الجبل أو العبادة على الجبل (لأن الجبل قد يكون مجرد مقر للرب) يجب أن تُقارب مع التقديس المستقر للكهوف الذي مارسه البربر في كل العهود. ويسمح انغراز الكهف في بطن الأرض بالاتصال مع الأرباب الذين يعيشون في أعماق الأرض، وقد يكون كذلك مع الرب الأعلى، لأن معاصري القديس أوغسطين كانوا يعتقدون أنهم يقتربون من الرب عندما يتعمقون تحت الأرض (Sermones, XLV,7).

إننا لا نعرف من أسماء الأرباب الذين كان يعبدهم قدماء الأفريقيين في الكهوف إلا اسماً واحداً؛ الرب باكاكس Baccax في جبل طاية قريباً من المدينة الرومانية تبليس "Thibilis " (عنونة). ويوجد في سفح الجبل غار

الجمة (كهف الكنيسة) حيث كان يذهب واليا المقاطعة للحج في فصل الربيع كل سنة. وكانا ـ دون شك ـ يقدمان قرباناً وينقشان إهداء للإله باكاكس أوغسطيس Baccax Augustus. وكانت عبادة مماثلة تمارس في منطقة قسطنطينة من قبل والى كاستلوم فونيسيوم " Castellum Phuensium " في جبل شطابة. ومازالت هذه الممارسات القديمة المتعلقة بالحوادث الطبيعية كثيرة وحية في الأرياف الشمال أفريقية. ونادرة هي ثقوب الصخر أو دهاليز الكهوف التي لم تحول إلى مزارات بسيطة توضع فيها القرابين، والنذر من الفخار، والمصابيح، والصرر وحتى الحلوى والدجاج لأن الثقب مطروق من بعض الجن التي من المستحسن تأمين رعايتها أو على الأقل تحييدها.

*** ماء السماء وماء الأرض :**

في بلاد تعيش مناخاً شبه جاف باستثناء حافة ضيقة من المناخ المتوسطي، تمثل مشكلة المياه مصدر قلق دائم للجماعات الزراعية والرعوية. وقد كان الرَّبان نبيتون Neptune ونيمفيس Nemphys حاميا الينابيع في العهد الروماني، موقرين كثيراً: وكانت مقار حوريات الماء المشيدة في العهد الروماني بالغة الضخامة. وأكثر هذه المقار شهرة المعبد الكبير للمياه في زغوان ومنه تنطلق القناة الرئيسية التي تغذي عاصمة الولاية. كما كان للمياه الشافية نصيبها من مظاهر التقديس، وأشهر هذه المظاهر هي المتعلقة بمياه سبتميانا Aqua Septimiana في تمجاد. وتصف كلمة إهداء مؤرخة في سنة 213 م بناء أروقه فريداريوم " Viridarium " مزين بالرسوم، ومقدمة هيكل وواقٍ مكون من حاجز من البرونز حول النبع. كما كانت بعض الآبار موضوع تقديس كذلك، هكذا كان الوضع في كاستلوم ديميدى " Castellum Dimmidi " وحتى اليوم في بير بروطة في القيروان.

خارج نطاق هذه العبادات الرسمية، لابد أن السكان الأفريقيين أكثروا من الممارسات السحرية للحصول على المطر، كما يفعل البربر اليوم. إن الأكثر شهرة والأوسع انتشاراً من هذه الممارسات هو الطواف " بعروس[1] المطر " وهي مجرد مغرفة من الخشب ملبسة بخرق رثة. هي إشارة ساذجة ترمز إلى أن هذه العروس تقدم نفسها للتلقيح من المطر (أنزر الذي هو اسم مذكر). وفي إطار نفس التفكير يقام باستحمامات مفيدة عند مدار الصيف، وهذه شعيرة الأوسو " Aoussou[2]" المعروفة جيداً في ليبيا وتونس وهي منتشرة كذلك في المغرب. وقد استنكر القديس أوغسطين هذه الممارسات وأدانها، وكان يأخذ على معاصيره استحمامهم عراة في يوم منقلب الصيف حيث يثيرون شهوات المتفرجين. إن الهدف النهائي لهذه الأعمال بالرش والاستحمامات التي تحرك الكتل المائية وحتى هذه الضربات التي يقوم بها القونشيون للبحر، هو إحداث سقوط المطر. وكان تعرى سابحات هيبون دعوة لتلقيح الأرض الجافة.

إن هذه الممارسات، في الواقع، مرتبطة عن طريق محاكاة سحرية، بالتعبير رمزياً عن الجنس: المطر وخصوبة الأرض وتلقيح القطعان ارتباطات يعتقد الناس في استثارتها بأعمالهم الجنسية. وقد قبلت ديانات أكثر تطوراً بهذا التتابع سواء في شكله الفج أو عن طريق تغطيته برداء شفاف من الأسطورة. وقد اعتقد ج. كاركوبينو J. Carcopino أن منزلة عبادة السيريرس Cereres عند النوميديين تفسر على وجه الدقة بالمحافظة عند هؤلاء على أساس قديم لنزعة طبيعية في حضارة متوسطية قديمة تضرب فيها هذه العبادة بجذروها عميقاً. وقد كانت عبادة تيلوس وكوري Tellus et Coré (Cereres) الأكثر قرباً من اهتمامات المزارع الأفريقي السحرية، وذلك بسبب تصوفها الجنسي وتواصلها مع القوى التي تلقح الطبيعة. وعلى الشسموفورس Thesmophories الذي لم

(1) استعمل المؤلف لفظ خطية. المترجم

(2) اوسو تعني بالامازيغية الشرب. المترجم

يكن له في اليونان إلا طابع رمزي، كان البربر يفضلون احتفالات ليالي الخطيئة الأكثر عملية والتي يصف نيكولا دى داما Nicolas de Damas كيف تتم، وهى مطابقة تماماً لما يمارس حتى أيامنا هذه في بعض الأرياف في الظهرة كما في جنوب المغرب. وفي القرن السادس عشر تحقق ليون الأفريقي من وجود هذه الممارسات في منطقة صفرو في المغرب.



تارنزا " عروس المطر " عروس مكونة
من مغارف خشبية مغطاة بثوب ويطاف بها من أجل
هطول المطر. تبلبالا (الصحراء الجزائرية)

* النـجـوم :

الماء، مثل الحياة، يأتي من السماء، وفي السماء مستقر الأرباب الرئيسيين للأفريقيين القدماء. إن الشواهد على هذا قديمة ومدعاة للاحترام الشديد. يقول هيرودوت (37) أن كل الليبيين كانوا يقدمون القرابين للشمس والقمر باستثناء هؤلاء الذين كانوا يسكنون على ضفاف بحيرة تريتونيس Tritonis، ويؤكد بلين الأكبر Pline L, Ancien (II,103) وديودور

ما قاله هيرودوت. وهو ما يكرره ابن خلدون مع التأكيد Diodore (III,57) على أنه كان بين البربر عند الفتح العربي من يعبدون الشمس والقمر (I,p.157). ولكن يبدو لنا أن النص الأساس هو ما أورده شيشيرون Ciceron (De Republica, IV,4) . عندما استقبل مسينيسا، سكيبيون ايميليان Scipion Emilien فأنه لم يذكر بعل حمون، ولا تانيت ولا ملكار بالرغم من أنه كان متأثراً إلى حد كبير بالثقافة البونيقية. قال: " أحمدك ايتها الشمس الغالبة، وأنتم الأرباب الآخرون في السماء لكل ما مُنحت قبل أن أترك الحياة الدنيا من رؤية كورنيلوس سكيبيون تحت سقفي في مملكتي... ". بكل وضوح، لا يمكننا تأكيد صحة هذا النص،ولكن حتى لو قد أدخل عليه بعض التجميل بقلم شيشيرون Ciceron فإن المضمون يبقى محتملاً ولا يخلو المجموع من العظمة.

بالرغم مما سبق، فإن آثار عبادة النجوم نادرة باستثناء رسوم الشمس والقمر التي ظهرت في حاشية ساتورن على شواهد عديدة من العهد الروماني.

دون نسيان الصلة بين الشمس والأسد، ورسمها شائع ولها طابع نجمي مسلم به، من المهم التذكير برسوم الدائرة الشمسية أو النجمية التي تزين بعض الحوانيت، والكهوف الجنائزية، وشواهد الدلمنات.

إن الإهداء إلى الرب جيرو Jeru هو الكتابة الوحيدة التي تذكر ربوبية القمر في شكله البربري دون حاشية نجمية، وهو مذكر (Eior, Iour).

إن الفقر في الشواهد ـ أو بالأحرى عدم دقتها ـ بالنسبة للأرباب في أعماق الأرض والمائيين والسماويين تحبط أي محاولة لتحديد المعتقدات الأساسية للبربر القدماء. لا يعني هذا النقص في الشواهد نقصاً في المعتقدات بالضـرورة، وليس لنا أن نؤكد ـ كما يُكتب غالباً ـ أنه لم يكن للبربر إلا ديانة بدائية جداً. أنهم بهذا سيكونون الوحيدين من بين كل أقوام اللسان الحامي ـ السامي الذين حكم عليهم بمثل هذا العجز الميتافيزيقي.

لقد كان التقديس ـ وسيبقى ـ شائعاً بتوسع في الطبيعة؛ حتى اليوم، وبالرغم من هيمنة الإسلام مازال هناك اعتقاد بوجود أعداد من الجنيات تسكن الصخور والكهوف والأشجار والينابيع. بالرغم من أن الإسلام لا ينكر وجود الجن إلا أنه لم يتمكن من القضاء على الكثير من الممارسات المشوبة بالسحر القاسر والتقديس لهذه الجنيات. إن هذه الممارسات موغلة في القدم ولم يكن من المستغرب أن يجد علماء الآثار في مقابر ما قبيل التاريخ نذراً من الفخاريات الصغيرة جداً والمتطابقة تماماً مع ما يقدم حالياً لهذه الجنيات في مزاراتها البائسة.

الحيوانات والتقديس

هل كانت عبادة الحيوانات موجودة عند الأفريقيين في العهد القديم؟ عادة ما يجيب المؤلفون عن هذا السؤال بالإيجاب بالرغم من أن الوثائق المكتوبة أو المرسومة ليست كثيرة ولا مقنعة. مع بعض التغاضي عن التتابع الزمني، وبالتأسيس على استمرارية المعتقدات، يستند هؤلاء المؤلفون بطيب خاطر إلى النقوش الصخرية وخاصة إلى الرسوم الكثيرة للكباش المغطاة رؤوسها بطواقي مزينة بريشات أو بأغصان. وقد غذت هذه الرسوم المنتشرة في كل الأطلس الصحراوي كتابات غزيرة. فقد رؤئ فيها لبعض الوقت صورة الإله المصرى أمون ـ رع، وأعتبر غطاء الرأس معادلاً لدائرة الشمس المصرية. واليوم يحتم التقدم الذي تحقق في التتابع الزمني لما قبل التاريخ الشمال الأفريقي، الرفض الكلي لهذه التفسيرات. إن هذه النقوش تنتمي إلى مرحلة قديمة من العصر الحجري الأخير (النيوليتي)، وهو سابق بزمن طويل للرسوم المصرية المنبثقة عن اندماج الإله آمون طيبة مع الإله الشمس.

إن تحليل المناظر التي تظهر فيها الكباش بغطاء الرأس شبه الكروي لا يمكّن من تأكيد أن هذه الحيوانات كانت أرباباً. ففي أغلب الحالات تظهر هذه

إذا ما سلمنا بمـا أورده ديودور Diodore (XX,58) فإن القرود تمتعت في منطقة، يقترح النص توقيعها على تخوم الجزائر وتونس بعد سلسلة الجبال الساحلية، بمزايا لدرجة تمكن من أن ترى في هذه المنطقة آثار طوطمية حقيقية. كانت القرود تحتل المساكن ومخازن المؤن دون أن يتعرض لها أحد لأن السكان يعتبرونها أرباباً، وقتلها انتهاك للمحرمات يستحق العذاب الأخير.

كانت الثعابين، وهي محل خوف وتقديس في نفس الوقت، موضوع بعض العبادات. ونعرف العديد من الأهداءات إلى دراكو؛ إحداها في تغنيكا " Tighnica " والأخرى في نوملولى Numluli ويمكن تقريبها إلى الأسطورة القائلة بأنه كان على فيالق ريجولوس " Regulus " مُحاربةٌ حية هائلة الضخامـة فـي وادي بجـردة نفسـه (مجردة) (Pline VIII,37). وكانت عبادة دراكو " Draco " تغطي نوميديا وموريتانيا؛ وكانت الحية في اكوا فلافياني Aqua Flavianae مرتبطة بحوريات " Nymphes "، وفي تيبازة Tipasa في موريتانيا تفيدنا آلام القديس سالسا عن وجود صنم من البرونز يمثل حية برأس مذهب.

يوجد في المعبد النيوبونيقي في تينيسوت " Thinissut " القريبة من بئر بوركبة، تمثال من الطين المحروق يمثل ربة ليونتسفالية "Leontocephale". ويظهر نفس الرسم على نقود ميتيلوس سكيبيون "Metellus Scipion " مصحوباً بالتوضيح GTA والذي يُقرأ عـادة Terrae Africae Genius. وأكثر علامات التقديس تظهر للأسد. وقد سمحت لبدته الوهاجة التي تتيح تشكيلاً مشعا، مقارنته في وقت مبكـر بالإله الشمس، وللأسد معاني أخرى، فهو يلعب دوراً مهماً في الزخارف المنحوتة للعديد من النصب الجنائزية. كما يجب، كذلك، أن يؤخذ في الاعتبار الربط الشائع للأسد مع ساتورن على الشواهد المكرسة للرب الأفريقي العظيم. وكان الربط بينهما وثيقاً لدرجة أن ملك الحيوانات يأخذ أحيـاناً مكان إله بين الديوسكورس أو بين الشمس والقمـر. ويثبـت أرنـوب" Arnobe " Adversus Nationes IV, 10 الارتباط الوثيق بين الأسد وفروجيفر " Frugifer " أي ساتورن.

يمكننا تصور أن الأسد والشمس التي تظهر هي كذلك في زخرفة القبور، صورتان لنفس الآلهة ذاتها وأن حضورهما في القبر يهدئ الميت ويمجده، وهو هكذا تحت حماية الاله العظيم سيد الزمن والحياة والموت.



مسلة مكرسة لساتورن في سيلاغ (بنى فودة). الإله جالس على الأسد، والحيوان يمسك الحية رمز الموت والخصوبة

يجب أن يؤخذ موضوع عبادة الحيوانات عند قدماء الأفارقة ـ في العصور السحيقه على الأقل ـ بحذر. أن كان للحيوانات، لأسباب مختلفة، روابط قوية مع المقدس وأن تكون قد تمتعت بمزايا خاصة (القرود، والثعابين وبعض الطيور)، وأن أخرى استخدمت عادة قرابين مفضلة، وأخيراً أن تكون استفادت

من العلاقة الوثيقة التي تكونت مع الأرباب (الكباش)، وأن حيوانات أخرى مثل الثور للإله جورزيل أو الأسد للإله الشمس أو ساتورن قد استعملت صوراً حية لتجسيد الأرباب، لا يكفي كلما سبق للقول بوجود عبادة الحيوانات. لقد وجدت في أفريقيا الشمالية حيوانات مقدسة أو على الأقل موقرة ولكن لم توجد آلهة من الحيوانات، وإلا ما كان القديس أوغسطين (Sermones, 1 CXCVIII,) يكتفي بتأكيد أن المصريين وحدهم كانوا يعبدون الحيوانات لو وجدت عبادة الحيوانات عند الأفريقيين فـي عهده.

لم يكن الوضع في العصر الحجري الأخير كما كان قبله، على الأقل في المناطق الصحراوية التي كشفت، بالإضافة إلى النقوش والرسوم الصخرية التي ليس من الواضح دائماً دلالتها الدينية، عن الكثير من المنحوتات الحيوانية في الصخر الصلب: كباش، وثيران ووعول والتي لا يمكن أن تكون إلا أصناماً. ولكن علينا أن نكرر أن هذه الدلائل سابقة للعهد الروماني بزمن طويل جداً لدرجة لا تُمكّن من استعمالها، بل من المحتمل أن شكلاً من أشكال عبادة الحيوانات أو توقيراً كبيراً لبعض الحيوانات وجد عند الصحراويين الرحل، أسلاف الطوارق. ومازال هؤلاء يحملون أسماء حيوانات: امياس (الفهد)، إيلـو (الفيل)، وابيجى (الضبع). كما أن لبعض فروع الكل ريلا[1] أسلاف من الحيوانات أو من الأشخاص الحاملين لأسماء حيوانات (الغزال، الأرنب، ...).

الإنسان، سند التقديس

يمكن، في الواقع، أن يكون الإنسان نفسه سنداً للتقديس بل حتى تجسيداً للآلهة. ويبدو لى أن أحسن مثال أورده لنا هيرودوت. في جوار بحيرة تريتونيس " Tritonis " (منطقة جربة والجريد) كان المشليون " Machlyes " والاوسيسيون " Auses " يقيمون احتفالاً على شرف أثينا " Athenes " (ربما

(1) قبيلة من الطوارق. المترجم

تانيت أو الأكثر احتمالاً إلاهة ليبية مماثلة لهذه الإلهة). أولاً كانت البنات من المجموعتين تمثلان معركة بالعصي والأحجار؛ واللاتي يُقتلن بالصدفة من الضربات التي أصابتهن يعتبرن عذاري غير حقيقيات. ثم تتوقف المعركة ويختار كل فريق أجمل بنت يطاف بها في عربة في البلاد وعليها شعارات إغريقية؛ كانت هذه البنت تمثل الإلهة (IV,180).

بقيت مثل هذه المعارك بين الفتيات، وهي شكل من أشكال الطقوس تقريباً، حتى حوالي 1950 م في الواحات الفزانية (عيد الملح في غات).

ببساطة يمكن للإنسان، بفعله، أن يساهم في الحركات الكبيرة للطبيعة. وقد عزز تطور الزراعة الاعتقاد بأن لأعمال الإنسان انعكاسات على مستوى الكون. هكذا تفسر كل أعمال الحذر التي يراعيها المزارعون في اليوم الذي ينفتح فيه أول خط محراث تحت دفع الثيران.

هكذا تُفهم الممارسات الغريبة التي تسمح للبشر، تحت غطاء من الإباحة الكاملة، بالمشاركة أثناء " ليالى الخطيئة " في الخصوبة والغزارة الشاملة.

* جمهرة الأرباب الصغار المحليين :

على درجة عالية من الاستيعاب على الأقل، إن لم يكن من الورع، يتجسد كل الرباني المنتشر في الطبيعة؛ ويُعطي اسم لبعض الكيانات التي كانت موضوع اهداءات أو تنويهات حفظت حتى وصلتنا. ويحتل البعض من هؤلاء الأرباب مواقع بارزة، مثل ساتورن الذي يبين حضوره في الولايات الأفريقية أنه كان السيد الحقيقي لهذه الأراضي ولهؤلاء القوم. كثيرون من الأرباب الثانويين حافظوا على أسمائهم الأفريقية رافضين أي اندماج أو تماثل مع إله من مجمع الأرباب الإغريقي اللاتيني. وبعضهم مُجَّمعون على كتابات كما في فاجا (باجة) أو ماجيفا (قصر البوم) حيث يشكلون مجمعات ربانية حقيقية، قد تكون ذات أهمية إقليمية. ويبدو لنا أغلبها كأرباب موضعيين يُميزون بصعوبة عن الجنيات المحلية بالاسم الذي يُعطي لهم.

نعرف أسماء حوالي خمسين من هؤلاء الآلهة، وصلتنا أغلب هذه الأسماء عن طريق الكتابات المنقوشة: بعضها لأرباب وربات من منزلة رفيعة وأوردها مؤلفون مسيحيون. أغلب هؤلاء الأرباب يحملون أسماء أفريقية يمكن فهم معناها أحياناً بفضل اللغة البربرية.

يحمل أرباب آخرون أسماء مواقعية مثل ماسيدكس " Masidicce " إله ماجيفا والذي يحمل اسمَه موقعٌ في أفريقا، لاما (قالمة)، وموقع في موريتانيا القيصرية (الكتابة الوحيدة المعروفه قرئت فاسيدكس Vasidicce). واوزيوس"Auzius" الإله المعبود في" Auzia ".





إلهة ليوتسفاليه في ثينيسوت بثربوركبة (تونس). تمثال من الطين المحروق بالحجم البشري

مسلة ليبية معاد استعمالها في العهد الروماني. تحمل الواجهة رسوماً لضريح وقرابين. منطقة عنابة (الجزائر)

وسُجِّن " Suggen " رب آخر لماجيفا وتحمل اسمه القمة الأعلى في المنطقة المسماة اليوم دوكان والتي كانت تكتب في القرن التاسع عشر " Souggan ". إن بعض أسماء الأرباب الإفريقية لا يمكن تفسيرها إلا باللغة البونيقية: ابَّادير " Abbadir " " الأب القـوى " بونشـور " Bonchor " " خادم ملكار " وبعل أدِّير " Baal Addir" " السيد القوي "، "ماتيلام ـ Matilam ": " عبد الربة "، وهى أمثلة جديدة للتفسيرات الضيقـة للثقافات البونيقيـة والليبية. يمكن تمييز أنواع عديدة من هؤلاء الآلهة: يظهر في المقام الأول الأرباب المجمعون كل سبعة أو خمسة أو ثلاثة وهم يمثلون مجمعات دينية محلية. هكذا هم أرباب باجة وهنشير رمضان والإهداءات لهم متقاربة. وهذه الإهداءات موجهة لأرباب، اثنان منهمـا يبـدوان لنـا مشتركيـن وهمـا فرسيسِّيما " Varsis = Varsissima " وماكورتـم " Macurtum ". ويبدو، كذلك أن أحد أرباب ما جيفا المسمي ثيليلوا " Thililua " معروف في شكله الذكوري في مادور ويسمى ليلو " Lilleu " (دى ليلو = ماء المطر). ويمكّن النقش في هنشير رمضان من التفكير في أن أغلب هؤلاء الأرباب يسمون أحياناً مجتمعين الآلهة المورية " Dii Maure ".

تسمح فئة أخرى، وهي كثيرة بشكل خاص، ولا تستبعد السابقة، بمقاربة مختلفة. تشمل هذه الفئة أرباباً وربات يحملون أسماء يحملها الفانون كذلك، سواء لأن هؤلاء الأرباب كانوا بشراً أُلهوا أو لأن رجالاً ونساء كانوا يحملون أسماء آلهة. تدخل عشرات الأسماء في هذه الفئة مثل باكاكس Baccax، وبونشور Bonchor، وإيمسال Iemsal، ويوبا Iuba و ماكورقم Macurgum، ومكرتم Macurtum، ومسقاف (a) Masgav، وماتيلام Matilam، ومنَّى Monna، وسُجِّن " Suggen ".

أحياناً، تكون الأسماء الربوبية صفات أضيفت إلى الاسم المعتاد لإله من مجمع الأرباب اللاتيني مثل مارتي كانبفاري Marti Canapphari (شرعي)،

هيركولي إرسيتى Herculi lrsiti (شرعى)، وبلوتو فاريكالا Pluto Varicala. في أحيان أخرى تكون الآلهة الأفريقية مرتبطة بواحد أو عدة مقدسات رومانية مع احتفاظها بشخصياتها؛ هكذا يوبا مرتبط بجوبيتر، وموتمانيوس بمركورى، وسيساس Sesace ـ وما هو إلا جنية ـ معادل لمركورى وبانتي. وأخيراً هناك أرباب، لاشك بأنهم أكثر أهمية ومشهورون ذكروا من قبل المؤلفين المسيحيين كآلهة خاصين بالموريين مثل تيسيانيس Tisianes، وبوكور الموري Buccure Mauri، وفارسوتينا المورية Varsutina Maurorum، وهناك إهداءات موجهة لديانا المورية Diana Maurorum، وإلى الإلهة مورا Dea Maura وإلى نومن المورية Numen Maurorum وإلى نومن الموريتانية Numen Mauretaniae.

ليس أغلب الأرباب الذين عرفناهم عن طريق الكتابات إلا مجرد أسماء بالنسبة لنا، تقتصر في بعض الأحيان على الحروف الأولى من الاسم (ج د أ س في جبل شطابة بالقرب من قسطنطينة). ولا يسيطر هولاء الأرباب إلا على إقليم محدود جداً في مساحته، ولا يُميزون إلا بصعوبة عن الجنيات المحلية. ويجب، في الواقع، استكمال القائمة الطويلة من الآلهة المحلية بقائمة جنيات المواضع التي غالباً ما يغطي طابعها المحلي باللقب الرسمي الذي أعطى لها في العبادة البلدية. سنذكر جينيوس سبتابارت Genius subtabarti (العلمة)، وجنيوس أوسوم Genius Ausum (سعدوني)، وجنيوس أوبوروتنسيوم Genius Auburutensium (قطّار العيش)، وجنيوس تيسكتى Genius Thesecti (هنشير بوسكيكين)، وغيرها. وهناك أخرى هم سادة غير معروفين للقمم مثل جنيوس مونتيس Genius Montis (شمتون)، وجنيوس مونتيس روفناي Genius Montis Rufinae (خنشلة) وجنيوس سمُّوس ثاسوني Genius Summus Thasuni (افلو)، وأخرى جنيات للأنهار.

الإهداءات المقدمة للآلهة المورية

كانت هذه الجمهرة من الأرباب الصغار والجنيات تتمتع عند البربر القدماء بتوقير ورع، ومن المؤكد أنه أكبر بكثير من الإقليم الذي تمارس عليه هذه الجنيات والأرباب سلطتها وهذا ما يوحي به عدد متناهي الصغر من الكتابات المنقوشة. إن العدد الأكبر من أتباع هؤلاء الأرباب لا يهتمون بترك شواهد مكتوبة عن اخلاصهم. مع ذلك كان الرومان والأفريقيون المترومون الراغبون في الحصول على بركتهم، أو على الأقل ضمان حيادهم إذا تعذرت بركتهم، يتبعون طريقة فعالة ومفرطة في البساطة في نفس الوقت، تقضي بذكرهم جميعاً مستبعدين ـ هكذا ـ مخاطر نسيان هذا أو ذاك من هؤلاء الآلهة الغيورين وغير المعروفين جيداً. كانوا يسمونهم الآلهة المورية Dii Mauri.

إننا نعرف ثمانية عشر إهداء موجهة إلى الآلهة المورية Dii Mauri، ومن المناسب إضافة كتابتين أخريين موجهتين إلى كيانات أفريقية مثل المحيرين والمشكوك فيهما الآلهة الجيتولية Dii Gaetulorum ونومين موروروم Numen Maurorum.

توضح النقوش عدم إمكانية مماثلة الآلهة المورية بأرباب الأولمب الأساسيين. بالمقابل، توضح كتابة هنشير رمضان أسماء ثلاثة منهم: فودينا Fudina ومكرتم Macurtum، وفارسيس Varsis، اثنان منهما مذكوران ومرسومان في باجة تحت أسماء ماكورتام Macurtam وفارسيسِّيما Varsissima. وعلى النقش المنخفض البروز الأخير أمكن مقارنة إلهين فارسين؛ ماكورتام Macurtam وايونام lunam مع ديوسكور Dioscures أو كاستور Castores، وبالفعل هناك إهداء في موستي Musti يعود إلى السنوات الأولى من القرن الثالث موجه لموريس كاستوبيس Mauris Castoribus.

تؤكد هذه التقاطعات أن الآلهة المورية المذكورين جماعة هم أرباب أفارقة عديدون تعطينا بعض الكتابات المنقوشة تسمياتهم المحلية. عليه، فإن من المهم مقارنة السلسلتين من الإهداءات التي وصلتنا: سلسلة الآلهة المحليين المذكورين اسما وفرادى مع سلسلة الآلهة المورية.

لا تأتي الصفات المعطاة للأرباب المحليين بعناصر لمعرفة أحسن بأشخاصهم، فهي تظهر مجرد توقير عادي: يقال أوغسطوس Augustus، وسانكتوس Sanctus، وباتريوس Patrius وهو ما يؤكد طابعهم المحلي. وهناك إله واحد ابتهل إليه عسكري ووصفه بأنفكتوس Invictus.

يتم التضرع غالباً للآلهة المورية بهذا الوصف ولكنهم كذلك اوغستي Augusti، وباتري Patrii، وسانكتى Sancti، وامورتالس Immortales، وتضاف قائمة من النعوت التي تؤكد على طابعهم الراعي والرحيم: سالوتاريس Salutares, Conservatores، وبروسبيري Prosperi، وهوسبيتيس Hospites ولكنهم يسمون كذلك البربري Barbari، وهو ما يبرز أن صاحب الإهداء إليهم يشعر بأنهم غرباء عن محيطه الثقافي.

لا تدل الاختلافات في النعوت الموسوم بها الأرباب المحليون والأرباب الموريون على اختلاف في الطبيعة بين مجموعتي الأرباب، ولكن على اختلاف عقليات منشئ الإهداءات. فلم يكن للأرباب المحليين المذكورين واحداً واحداً الآلهة المورية المذكورين جماعة في نفس الاستحضار، نفس الزبائن. وعند حصر المعلومات حول نوعية أصحاب الإهداءات يتضح أن عبادة الآلهة المحليين كانت أكثر شعبية من عبادة الآلهة المورية. ويُبرز فحص بسيط أن عبادة الأرباب المحليين يزاولها بشكل خاص المدنيون (74 %)، بينما يمثل العسكريون والموظفون الامبراطوريون والولاة (73 %) ممن يتوسلون إلى الآلهة المورية. هكذا، بعكس البعض الذين كانوا يرون في عبادة الآلهة المورية

مظهراً للوطنية المورية، أرى أن هذه العبادة ذات طابع رسمي وعسكري أساساً ومرتبطة أشد الارتباط بالصراعات ضد الجنت العصاة.

من المهم ملاحظة أن هؤلاء الأرباب بالرغم من اسمهم كانوا يذكرون في ولايات أخرى غير موريتانيا. ومحاربهم كثيرة بشكل خاص في لامبيز، مقر الفيلق، فمن بين واحد وعشرين محراباً تم حصرها، تقع ستة في هذه المدينة. كما نجد منهم في مدينة أخرى في نوميديا (مسكولا) وفي خمسة أماكن من الولايات: تيفست Theveste، ومادور Madaure، وفاجا Vaga، وهنشير رمضان، وموستى. وفي موريتانيا القيصرية تمثل الإهداءات في ألتافا الأبعد إلى الغرب. وحتى الآن لم يعثر على أي كتابات منقوشة مكرسة للآلهة المورية في الطنجية Tingitane الأكثر " مورية " من ولايات أفريقيا لأن أصل الموريين منها.

تاسيساً على ما سبق، يتضح أن لا علاقة لكلمة موري بتقسيم الولايات في أفريقيا الرومانية. وقد رأينا في أفريقيا الرومانية أنهم كانوا يفضلون استعمال كلمة موري في الإشارة إلى المحليين، وفي حدود معينة إلى الذين لم يندمجوا وحتى غير القابلين للاندماج. لهذا نفهم كيف ان الآلهة المورية كانت توصف في بعض الأحيان بالبربرية Barbari.

لقد بقيت قبائل مورية خارج الهيمنة الرومانية أي بشكل ما غرباء عن داخل أفريقيا الرومانية، ووجدت كذلك آلهة وجنيات أفريقية، وأرباب ذوو طبيعة هاربة لم يجدوا لهم مكاناً في المجمع اللاتيني. هؤلاء وأولئك موريون.

يمكن أن تمثل هذه المجموعة المقدسة بإضافة القوى الثانوية، قوة لا يمكن إهمالها وأراد الرومان، خاصة هؤلاء الذين كان عليهم حكم هذه القبائل أو محاربتها، استمالتها، ومن ثم أعطوها الاسم آلهة الموريين لأن هؤلاء الأرباب مثل الموريين لم يكونوا مترومين. إن عبادة الآلهة المورية عبادة عسكرية أساساً.



نصب لساتورن.

الكباش والثيران هي عادة القرابين المقدمة للإله الأفريقي العظيم.

عليه، تكون الآلهة المورية Dii Mauri، وهؤلاء الذين قلنا بأنهم أرباب محليون نعرف أسماؤهم، نفس الأرباب، لكن يفضل العسكريون والموظفون الامبراطوريون ذكر الأولين جماعة، بينما الأخيرون موقرون محلياً من قبل المواطنين العاديين أو الأعضاء البلديين. الأرباب هم نفسهم، والذين يتغيرون هم أصحاب الإهداءات.

* الإله آمون ومكانته في مجمع الأرباب الأفريقي :

هل وضع الأفريقيون فوق هذه الدهماء من صغار الأرباب والجنيات إلهاً أعلى لم يكن الأرباب الثانويون إلا مساعديه في النهاية؟ يجد هذا السؤال في العهد الروماني جواباً لا غموض فيه: كان ساتورن يسيطر على أفريقية بكل ثقة مثلما يسيطر الإمبراطور على العالم الروماني. وإذا كان ساتورن قد خَلَفَ، بكل تأكيد، بعل حمون البونيقي، فيمكن التساؤل عما إذا لم يكن للتقدير العالي الذي يتمتع به ساتورن في أفريقية مصدر آخر، وعما إذا لم يكن هذا الإله قد تمثل في رب عَلِيٍّ آخر محلي بحت غير مميز عن بعل حمون، وأنه أعد

الأرواح مسبقاً لفكرة قريبة من التوحيد. يجيب المؤلفون على هذا التساؤل بالإيجاب بل يذهبون إلى تحديد هذا الرب، إنه آمون الذي أصبح مشهوراً في العالم الإغريقي منذ القرن السادس وسيط وحيه في واحة سيوة.

إن السؤال معقد بشكل خاص لأن هذا الإله كان على علاقات بالتتابع مع أمون ـ رع المصري، وبعل حمون البونيقي وزيوسZeus الإغريقي وجوبيتر الروماني. في بداية القرن[1]، اعتُقد أن مصر أم الحضارات فرقت أربابها عبر أفريقيا. فاعتبرت الكباش بغطاء الرأس شبه الكروي في نقوش الأطلس الصخرية إله طيبة، ووجد ر. باسي R. Basset الاسم أمان عند القونشيين يعنى السيد ويطلق على الشمس. وآمون الإله ـ الكبش أصبح إلها شمسياً باندماجه مع رع، وهكذا شيئاً فشيئاً بسط سطوته على مجمعات الأرباب غير المنظمة للمتوحشين في الغرب الأفريقي. ومن ثم فإن آمون سيوة ـ رب وسيط ـ لا يمكن أن يكون إلا تبدلاً لإله طيبة العظيم، بينما كان الأفريقيون في الغرب، الذين بقوا في حالة أكثر بدائية، يعبدون شكله الحيواني.

كان الافتراض مفرطاً في البساطة. لقد رأينا أن الكبش بغطاء الرأس شبه الكروي ليس حيوان آمون ـ رع، بل كان سابقا له بزمن طويل لأن نقوش الأطلس تنتمي إلى العصر النيوليتي القديم.

منذ زمن طويل تتواجه وجهتا نظر حول أصول آمون سيوة. تطابقه الأولى مع آمون طيبة الذي تملَّك الواحة قبل القرن السادس بمدة طويلة، وهو عهد في حوزتنا حوله شواهد إغريقية. الرأي الثاني أكثر تعقيداً، وقد قدمه أ. بيتس O. Bates الذي يري أن الإله المصري اندمج في إله محلي يأتي بالوحي، وكان هذا الإله مرتبطاً بعبادة الأموات.

مهما تكن الأصول الحقيقية لآمون سيوة، يجب التسليم بأن لمعبده شهرة عالمية تجاوزت بكثير الإطار الجغرافي الليبي. انتشر اسمه، وشهرته، ورسمه

---

(1) يقصد المؤلف القرن العشرين. المترجم

بواسطة إغريق برقة في العالم المتوسط وأُنسن بالكامل تحت التأثير الهيليني. سمى آمون بعد ذلك بقليل، زيوس ـ آمون، ورسم بملامح شخص ملتح بسيط، ولم يحتفظ من الكبش الطيبي إلا بالقرون المختفية تقريباً في الجمة المجعدة. وجد هذا الرسم بالقرون نجاحاً كبيراً في العالم الهلينستى[1] خاصة بعد زيارة الاسكندر لواحة آمون وإعلان أصوله الإلهية.

اعتقد بعض المؤلفين أن الحظوة التي كان يتمتع بها آمون عند الليبيين تفسر رفعة بعل حمون في الإقليم البونيقي والذي كان يتطابق كلياً مع إله سيوة. ويرى م. لوقلى M. Le Glay أيضاً ان بعل حمون " بونيقي ـ بربري " استعار من الإله الليبي ـ المصري قرون الكبش وجزءاً من شخصيته وأصبح إلهاً شمسياً.

بينما وجد أمون بشكله الأغريقي ثم اللاتيني في برقة وطرابلس نجاحاً دائماً ترجمته النقوش الكثيرة والأثر الدائم في أسماء المواقع ووجود الإله "عبد آمون " في جولا "بو نجيم" فإن الولايات إلى الغرب من سرت الصغرى فقيرة إلى حد كبير في الشواهد على عبادته. ولا يمكن أن نذكر إلا إهداءين، أحدهما في قرطاج لجوبيتر حمون، والآخر في أوزيا Auzia يصف الإله بـ كورنيفر Cornifer وبـ تونان Tonans. كما أنه لا ينعكس في أسماء الأعلام الإفريقية، فلا نعرف إلا خمسة امونوس أو امونيانوس Ammonus أو Ammonianus، وهذا قليل لإله يراد وضعه في قمة مجمع الأرباب الإفريقي السابق للعهد الروماني.

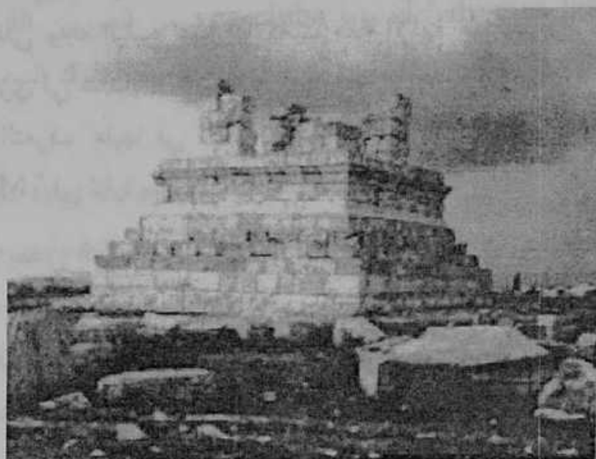
أخيراً، يبدو أن إله سيوه لم يلعب إلا دوراً محدوداً جداً في ديانة الإفريقيين الذين كانوا يقطنون غرب سرت الصغرى.

تحوم نفس الشكوك حول وجود إله عظيم أنثوى ليبي صرف يمكن تمييزه عن الإلهة تانيت Tanit البونيقية. لاشك أن تانيت، التى خَلَفتها كيلستيس

---

(1) متعلق بتاريخ الإغريق بعد الاسكندر الأكبر. المترجم

Caelestis البونيقية، والتي لم تميز دائماً تقريباً عن جونون " Junon "، كانت الإلهة الرئيسية الأنثى في مجمع الأرباب البونيقي ولكن هذا لم يكن إلا في قرطاج، وفي عهد متأخر نسبياً اكتسبت هذه الإلهة أولوية حقيقية وقد يكون ذلك بعد اعتبارها كإلهة ـ أم على غرار هيرا Hera جنوب إيطاليا.



ضريح الخروب.

في الوقت الحاضر

في العهد الروماني كانت كيلستيس واجهة لساتورن مثلما كانت تانيت "وجهاً" لبعـل حمون. وقد كانت عبادة كيلستيس منتشرة بشكل كبير في أفريقيا الرومانية إلا أنها كانت أكثر انتشاراً في البروقنصلية ونوميديا منها في موريتانيا. ومثلما هو الحال بالنسبة لساتورن بقيت عبادة كيلستيس ذات طابع سامي، وليس هناك من دليل يسمح بالاعتقاد بأصل محلـي لهذه الإلهة. إن الاسم ذاته تانيت "Tanit" ذو المظهر البربري بسبب الطابع الأنثوي المتمثل في حـرف التـاء في بدايـة الاسـم ونهايتـه، قـد يكـون لـه معنى سامِّـي بحـت يعنـي" الجديدة"، "الخطيبة " حسب ج. دوسان G. Dossin، ومن هنا صفة العذريـة لكيلستيس

التـي أكدهـا ترتليـان "Tertullien" (Apologetique 23: Virgo Caelestis) أو بالنقوش (Dea Magna Virgo Caelestis) في البلاى، عين مموشنت.

هناك إلهة أكثر غموضاً، إلهة المور Dea Maura التي كانت عبادتها رسمية جداً في البلاي " Albulae " وكان لـها فيها معبدها. وليس من المعروف على وجه اليقين عما إذا كانت هذه الإلهة هو نفس الربة التي في النقش الشعري في سلداية " Saldae " جن مورا ـ Gens Maura " أو ما إذا كان يجب التعرف عليها في الإلهة أوغسطا المورية " Diana Augusta Mourorum " في ثنارا موزا Thanaramusa (برواغية).

يميل بعض المؤلفين إلى الخلط ببساطة بين إلهة المور Dea Maura وكيلستيس، قد يكون هذا ممكنا ولكن يجب ملاحظة أن الوصف " مورا " لم يعط أبداً ـ في حدود معارفنا ـ لكيلستيس، حتى في البُلاى التي توقر دى ماجنا فيرجو كيلستيس Dea Magna Virgo Caelestis، مع أن فيها معبداً للإلهة المورية.

هناك مقاربات أخرى ممكنة: نفكر في فارسوتينا " Varsutina " المحيرة والتي يقول عنها ترتليان Tertullien (ad Nationes,II,8) أنها إلهة مميزة للموريين مثل كيلستيس عند ألافرى، و اتاجارتيس " Atagartis " عند السوريين.

الملوك المؤلهون. الشواهد

من المسلم به عادة أن البربر القدماء وضعوا ملوكهم في درجة الأرباب، والشواهد على ذلك كثيرة. يأتي أكثر هذه الشواهد من المؤلفين المسيحيين. يكتب مينوسيوس فيلكسMinusius Felix (Octavius , 21 , 9) هل تتصور أنهم بعد موتهم يصبحون آلهة.... هكذا أصبح يوبا إلهاً بإرادة الموريين

". ويقول ترتوليان إن " لكل ولاية، وكل مدينة إلهها، فلسوريا عشتارت Astarté، ولأفريقية كيلستيس ولموريتانيا ملوكها " (Apologeticus 24). ويبالغ القديس سيبريان " Saint Cyprien " بالتأكيد على أن الموريين يعبدون ملوكهم علناً ولا يخفون ذلك. ويكرر لكتانس Lactance في كتابه "divines Institutions " أن يوبا Juba معبود من الموريين الذين خلدوا ملوكهم (1,15,6). بالعكس لا تُبين أي وثيقة أدبية أن الملوك النوميديين من مسينيسا إلى يوبا الأول قد أُلهوا أو عُبدوا.

هل تعطي الوثائق المكتوبة تفاصيل أكثر دقة؟ يمكننا إعادة تجميع هذه الوثائق في سلسلتين: النقوش البونيقية المعاصرة للملوك المسيليين والكتابات اللاتينية المتأخرة عنها بزمن طويل.



مجسد لضريح الخروب من ف. راكوب.

من المحتمل أنه قبر الملك ميكيبسا

الأكثر شهرة مـن الوثائـق الأولى، إهداء معبد في دقة Dougga لمسينيسا سنة 10 من عهد حكم ابنه ميسبسا Micipsa: وقـد وصُف الملك المتوفـي بلقب أمير فقط (HMMLKT).

تقـدم الكتابة النيوبونيقية في شرشل المكرسة ميسبسا تفـصيلات أكثر دقة: يتعلق الأمر بكتابة جنائزية مكرسة لـ " معبد جنائزي لحي الأحياء ميسبسا ملك المسيليين ". قدم المُهدِي الذي يقول عن نفسه " منسق الرب " تمثالاً جنائزياً ومعدات عبادة. عليه، يقدم هذا النقش الدليل على وجود عبادة جنائزية للملوك النوميديين ولكنه لا يقدم قطعاً الدليل على أن هؤلاء الملوك أُلهوا في حياتهم.

الكتابات اللاتينية موجهة بشكل خاص لبطليموس Ptolemée آخر ملوك موريتانيا، ولكن كذلك لأحد أبناء مسينيسا، جولوسا " Gulussa " ملك نوميديا في جاديوفالا: قصر صباحى (Gadiaufala: Ksar Sbahi)، وللملك هيمبسال " Hiempsal " في توبرسيكو نوميدو روم: خميسة) (Thubursicu Numidarum:Khamissa). وتفسر عبادة الملك هيمبسال في هذه المدينة خاصة بالرغبة في التذكير بالأصول النوميدية لهذه المدينة التي تقدس كذلك " genius gentis Numidiae ". وتفسر هذه العبادة الاستعادية بدورها الإهداء المقدم لجولوسا في مدينة جاديوفالا Gadiaufala المجاورة. إنها الوطنية المحلية لوحدها كانت تحرض نوميديي هاتين المدينتين على تكريم الأمراء الذين لم يتركوا إلا ذكرى متواضعة.

أما عن يوبا الثاني الذي يقول الكتاب المسيحيون أنه كان إلهاً معبوداً من الموريين، فيضع نقش واحد اكتشف في منطقة برج بوعريريج سوقاً سنوية تحت حمـاية بعض الأرباب: جوبيتر، ويوبا، وجنية المكـان آلهة انجيروزوجليزم Dii Ingirozoglezim. وليس من الضروري أن يكون يوبا هنا هو الملك المؤله، إنني أميل أكثر للرأي القائل بأنه إله أفريقي حمل أسمه يوبا الأول وابنه.

* الأسماء الثيوفورية[1] عند البربر :

لا يمكن التأكيد على الطبيعة الثيوفورية لكثير من الأسماء الليبية، ويبدو في الغالب الأعم أن الملوك، وكذلك رعاياهم من المواطنين العاديين، كانوا يحملون بكل بساطة اسم إله، دون أن يكون هذا الاسم مصحوباً بنعت أو ختم. ولم يكن البربر يدعون إلا اسم الإله مجرداً حتى عندما يتعلق الأمر بإله فينيقي، وهكذا في كتابتين ثنائيتي اللغة في دقة أصبح الاسم البونيقي ابدشمون Abdeschmun (عبد اشمون) في اللغة الليبية س م ن Smn (اشمون)، ولا تتميز الأسماء الثيوفورية البربرية عن أسماء الأرباب ذاتهم. كما أن الكتابة النذرية في هنشير بليدا ليست مكرسة لابن غامض من أبناء مسينيسا اسمه معروف لنا بفضل أحد سطور تيت ـ ليف Live ـ Tite ولكن لإله يحمل اسمه هذا الأمير. نفس الشيء بالنسبة لإله يدعى ايمسال Iemsal (= هيمبسال) مقدس في تكلات في منطقة القبائل خارج حدود مملكة هيمبسال الثاني.



المدارسن، ضريح ملكي في نوميديا. قطر القاعدة 59 متراً.

(1) الثيوفورى الذي يحتوي اسم اله. المترجم

هناك برهان قاطع على استعمال هذه الأسماء الثيوفورية من غير تمييز عن أسماء الأرباب توضحه المقابلة بين جملة لأميان مارسلان Ammien Marcellin والنقش في ماجيفا بالقرب من تبسة والذي يذكر سبعة من الآلهة أحدهم سجّين ترك اسمه، كما رأينا، لقمة بارزة في المنطقة. ويذكر أميان مارسلان من بين الأمراء المازيسيين Mazices حلفاء فيرموس، أميراً اسمه سجّين Suggen (XXIV , 5 , 21). وكان أحد الرؤساء الموريين من منطقة كاستلوم تنجيتانوم Castellun Tingitanum (اورليانزفيل سابقاً) يحمل في القرن الرابع اسم إله بربري معبود قبل قرن من ذلك الوقت في ماجيفا، على بعد حوالي خمسمائة كيلو متر أبعد إلى الشرق.

لم تكن الأسماء الثيوفورية أسماء أشخاص فقط. فنفس رواية أميان مارسلان تعرفنا على قوم حاملين للاسم جوباليني Jubaleni (XXXIX , 5 ,44) كانوا يقطنون منطقة البيبان الجبلية بالقرب من برج بوعريريج، وبالفعل، في نواحي هذه الأخيرة وجد النقش الذي يذكر الإله يوبا. من المقبول تصور أن الملك يوبا كان يحمل اسماً ثيوفورياً، مثل مسجافا Masgava، وهيمبسال وسيفاكس. لكن يوبا ترك ذكرى راسخة ليس بين المنحدرين من رعاياه بقدر ما بين المثقفين، وأكاد أتصور أن الكتاب المسيحيين الأفريقيين الذين كانوا يعرفون عن وجود إله محلي، يوبا، ويعرفون أن الملوك القدماء كانوا موضوع عبادة جنائزية، قد خلطوا بين هذا الإله والملك الذي كانوا يستطيعون قراءة أعماله. إنني، في الواقع، أجد صعوبة في الاعتقاد بأن البربر حفظوا بإخلاص ذكرى ملك لثلاثة أو أربعة قرون بعد وفاته وعبدوه، وقد كان عاهلاً ذا طبيعة مسالمة ومجده أبعد ما يكون عن صورة ملك من سادة الحرب.

أما عن العبادة الجنائزية المقامة للملوك المحليين فلاشك في وجودها عند النوميديين المسيليين (ضريح ومعبد مسينيسا في دقة، ضريح الخروب، ومدراسن، ونقش ميسبسا) كما عند المساسيليين والملوك الموريين (جثوة بورنان، وقبر المسيحية).

* تضحيات وشواهد مقدسة :

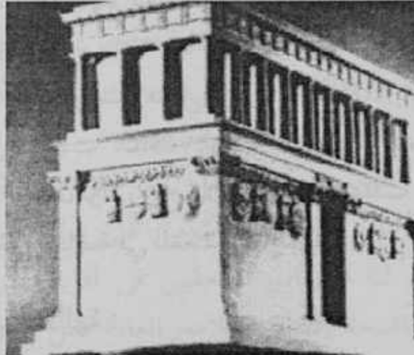
تعرفنا النقوش، أكثر من النصوص الدفاعية المسيحية، عن الحياة الدينية لقدماء الأفريقيين بشكل جزئي محدود جداً.

لا يمكننا، بكل تأكيد، الوصول من خلال الصيغ المقولبة للإهداءات، لفهم جوهر الحياة الدينية التي هي عمق الدين والطبيعة الحقة للعلاقات بين إله والمؤمن به ولكن ضآلة الوثائق يجب ألا تثبط الهمة للبحث والتفكير.



قبر المسيحية، ضريح ملكي في موريتانيا.

قطر القاعدة 62 متر.



معبد سيميثو (شمتو. تونس)

معبد نوميدي من المحتمل أنه معاصر ليوبا الأول.

إعادة تكوين من ف. راكوب

ليس هؤلاء الأرباب الذين يُستمر في التوجه إليهم بحماس وَرِع، ويقدم لهم القربان والمحراب والمعبد، مجرد جنيات بسيطة بالرغم من ضعف إشعاعهم. بعضهم، مثل باكاكس " Baccax " يُعبدون رسمياً من قبل الولاة والمسؤولين في البلديات خلال حج سنوي حقيقي. وفي سيغوس[1] " Sigus " أقيمت تماثيل في الميدان للإله باليدِّير " Balliddir ".

إننا لا نعرف جيداً القرابين التي تقدم لهؤلاء الآلهة، ولكنها لم تكن تختلف كثيراً عن القرابين المقدمة على شرف الأرباب البونيقيين والرومانيين، فيما نعتقد. وقد كان الكبش الذي يظهر غالباً على المسلات المقامة لساتورن الحيوان القربان الأكثر شيوعاً، ولا يخلو من الدلالة أنه كان الحيوان المرسوم في منظر القربان الوحيد المبين على إهداء لآلهة أفريقيين: النقش الصغير في باجة. وترسم أيضاً في القرابين المقدمة للآلهة، بقريات، وحمام وأطعمة معدة، وحلويات، وأكاليل من الزهور وسعف النخل.

لا تستجيب الآلهة فقط للأدعية الموجهة إليها والتي تؤكدها القرابين بامتنان، ولكن يحدث أن تظهر لأتباعها فجأة سواء في المنام أو بحدث غير متوقع. هكذا يجب أن يفهم ذكر " ex viso " في بلاد يشيع فيها السراب، وحيث الجنيات والأرواح دائماً صاخبة. إن تجليات ربانية أدت إلى بناء معبد ماجيفا " Magifa "، ورسم هرقل ارسيتي " Hercule Irsiti "، والإهداء للآلهة المورية في ثيفيست " Theveste ". مثل هذه التجليات القاسرة تقريباً، بقيت وقفاً على الجنون والأرواح الأخرى، واحتفظت في الأرياف المغاربية بمكان لا يزال مهماً، خاصة في المعتقدات النسائية.

* المعابد وتمثيل الآلهة :

كان البربر القدماء يقيمون بطيب خاطر هياكل لأربابهم، ويبنون لهم معابد أحياناً. بعضها عبارة عن صروح حقيقية مثل المعبد النوميدي الكبير في

---

(1) سيغوس تقع على بعد 40 كلم جنوب شرق قسطنطينة بالجزائر. المترجم

شمتو وهو ذو طابع بونيقي هيليني، وكذلك مثل معبد الديامورا في البلاى "Albulae" المعاد بناؤه سنة 299 م، أو المعبد الذي أقامه فيلق جولا " بو نجيم " لمارس كانافّاري Mars canapphari سنة 225 م. وبعضها لم يكن إلا معابد متواضعة، مثل المعبد الذي بناه أ.بوليتيوكس " O.Politiucus " لأرباب ماجيفا. ولم تكن إقامة هذا النصب وصناعة خمسة تماثيل للآلهة تكلف إلا ثمانية آلاف سيسترس[1]. ولـم يكـن بالنصـب الكبيـر كـذلك، معبـد بلوتـون فاريكالا "Pluton Varricala" المقام في طبرقة بواسطة كهنوتي بسيط ليست له وظيفة بلدية. قد يكون الأكثر أهمية معبد الأرباب الموريين الذي أعاد بناءه أحد الجُباة " exactor " من منطقة ماسكولا " Mascula " على حسابه.

في ساتافيس Satafis كان المعبد الذي زخرفه سالوستيوس ساترنينوس Sallustius Saturninus، مكرساً للأرباب الموريين وفي نفس الوقت للجنية الراعية للبلدية Municipe. وفي نفس المدينة كرس س.إفليوس نوفيلوس .C Ivlius Novellus معبداً لنومن موروروم Numen Maurorum والتزم بتبييضه. وهذه ممارسة مازالت جارية في بلاد البربر حيث يمكن أن تطلى بالجير الأماكن المقدسة، والصخور وجذوع الزيتون المجوفة.

إن رسوم هؤلاء الأرباب الصغار المحليين أو الإقليميين نادرة جداً، نعرف أنه كان لباليّدير Baliddire في سيغوس Sigus تماثيل عديدة من البرونز كلف أحدها بقاعدته، أربعة آلاف سيسترس. وقد رُسمت أرباب ماجيفا الخمسة في المعبد الصغير الـذي كُرس لهم. وفي فاجا (باجة) كان الأرباب السبعة من مجمع الأرباب الإقليمي مرسومين على سفح بروز وهو العمل الفني الرئيسي الذي حفظ لنا للأرباب المحليين في أفريقيا الرومانية. وإذا كانت سمات الوجه غير واضحة إلا أن الملامح العامة لكل واحد من الآلهة يمكن تمييزها: ماكورتم Macurtum يحمل مصباحاً. وهو مثل نظيره ايونام lunam، رب فروسي، وهناك حصان أمام كل واحد منهما. وقد رأينا كيف أنه قد لا

(1) عملة رومانية قديمة: المترجم

يمكن تمييزهما من كاستور موري في موستي Musti. وماكورقم Macurgum جالس يمسك في يده اليمنى كتاباً بينما تلتف حية حول عصاه في اليد اليسرى. عن طريق الصدفة أو عمداً، إلى جانب هذا الطبيب المقدس، تظهر فيهينام Vihinamمغطاة بغطاء من القشور أو الريش ممسكة في يديها ملقاطاً وعند رجليها طفل، كربة مشرفة على الولادات. ويبدو بونشور Bonchor وهـو شخصيـة مركزية، السيد لهذا المجمع، يمسك في يده صولجاناً أو هراوة. ويحمل فارسيسما Varsissima نفس غطاء فيهينام Vihinam ولكنه لا يتميز بأي سمة بينما ماتيلام Matilam واقف يشرف على تقديم الكبش القربان، ويمسك في يده اليسرى مبخرة ويقدم اليمنى فوق المحراب.



نحت ضئيل البروز وإهداء لآلهة فاجا السبعة

(باجة، تونس)

لقد رُسم هؤلاء الأرباب في وسط الطبيعة وليس في معبد، ومجرد ستار مقام خلفهم يفصلهم عن بستان تُرى فيه أشجـار النخل محملة بالعراجين، وأشجار أخرى انحنت فروعها من ثقل الثمار. وتحدد رماح وضعت مقابل الستار، السجلات التي يجد فيها كل إله مكانه. وبالرغم من بعض الخَرق البين في

التنفيذ، خاصة فيما يتعلق بعدم التناسب في الطول بين ماكولتم Macultum وايونام lunam وركوباتهم الصغيرة بشكل مضحك في هذا النحت الضئيل البروز، إلا أن هذا النحت لا يخلو من قيمة. فقد نفذ التركيب بعناية، وبالرغم من عرض جَبَهى إلا أن المواضيع السبعة عولجت بمهارة كافية للتخلص من الرتابة والصلابة في الأوضاع. وقد نفذ الستار بمرونة كبيرة تبرزها التموجات التي كان الفنان موفقاً في اقتراحها بإظهار تشوهات رسوم النسج.

لاشك أن الأمر يتعلق بعمل فني أخذ الكثير من الأساليب الهيلينية، ومن ثم فالنتيجة تبتعد بشكل محسوس عن الصورة البدائية التي يتصورها أفريقيو فاجة (باجة) لأربابهم.

ليست رسومات الربة الأفريقية Dea Africa نادرة، ولكن هذه الربة عُرفت في نهاية العهد الهيليني، ولا يبدو أن لها أي رابط حقيقي مع السكان الليبيين بالرغم من أن يوبا الأول ويوبا الثاني رسماها على نقودهما.

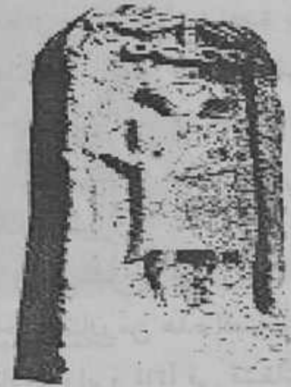
هناك إله آخر غير معروف الاسم لسوء الحظ، ممثل على شاهدة بنازة Banasa في موريتانيا الطنجية. ولا يمكن خلط هذا الإله المزود بقرون مستقيمة مع آمون، وتبدو مقاربته مع الإله الثور جورزيل مجازفة حقيقية. إن هذا هو التمثيل الوحيد لرب أفريقي، على ما يبدو، في هذه الولاية التي لم يكتشف فيها أى إهداء مكرس لهؤلاء الأرباب أو للآلهة المورية.

نحت الأفريقيون في العهد الروماني أربابهم على سفوح الصخور، اتباعاً لتقليد قديم يعود للأزمان ما قبل التاريخية. وقد صاحب اثنان من هذه المنحوتات إهداء: هرقل ارسيتى Hercule Irsiti في عين رقادة، وإيرو Iru في قشقاش.

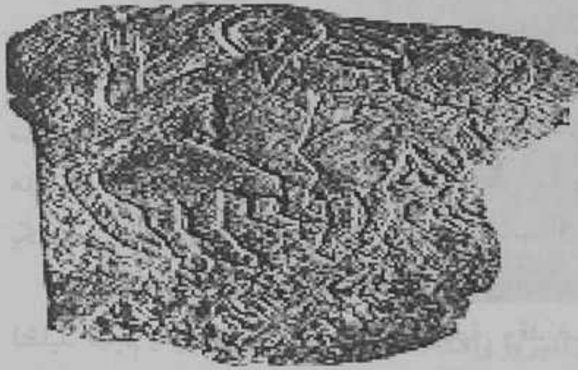
لا نعرف على وجه التحديد إلى أي عصر تعود منحوتات أخرى أقل تهذيباً ولكنها بأسلوب أفريقي واضح، لرب فارس تُعرف له ستة نماذج في منطقة القبائل الكبرى، وأجملها مسلة أبيزار: شخص ملتح عار على ما يبدو يركب حصاناً بدون عدة يحمل في رقبته نوطاً غريباً ذا فصين. الشخص مرسوم بالواجهة ولحيته المدببة ممتدة حتى الصدر، والوجه مبسط يخلو من فم. وترفع اليد اليسرى

ثلاث حراب ودرعاً دائرياً شبيهاً بما يزين المسلات الليبية في منطقة برج القصر والمسلات البونيقية فى فولوبيليس Volubilis[1]، وممسك في اليد اليسرى بشيء كروى الشكل قد يكون شعار الحكم. وتحتل كتابة بحروف ليبية الفراغ إلى اليسار. وقد وُضع شخص متناهي الصغر، يُمال إلى اعتباره جنية من درجة أدنى أو خادم، مقابل جانب الفارس بين ذراعه اليمنى وكفل المركوب. وقد رسمت حبارة أو نعامة من حجم صغير تحت رأس الحصان الذي يتقدمه كلب. لكل الرسوم على هذه المسلة بروز خفيف مستو وفق تقنية الحفر المقدرة تقديراً كبيراً عند الفنانين البربر.

بالرغم أن من الصعب جداً تحديد عمر المسلات القبائلية، مثل أغلب المنحوتات الليبية، إلا أننا نعتقد أنها سابقة للعهد الروماني. بالفعل يظهر السلاح مختلفاً عن السلاح في أزمان الإمبراطورية ويتوافق مع سلاح الموريين والنوميديين في القرون الأخيرة قبل بداية عصرنا[2].



نصب معماري في عين خنقة (الجزائر)
أن الارتفاع الأصلي لهذا الصخر المونوليتى.4 أمتار



نصب ابيزار
(منطقة القبائل. الجزائر)

---

(1) بلدة في المغرب غرب فاس تسمى حالياً وليلى. المترجم

(2) المقصود قبل بداية التاريخ. المترجم

تمثل مسلات كبيرة في منطقة سيلة جنوب قسطنطينة شخصيات يبدو أنها آلهة. على مسلة برج القصر، يعلو رأس الشخص العاري، من الجانب الأيمن، درع يشبه درع ابيزار، ولكن هنا يمكن خلطه مع رسم شمسي، ويتقدمه حيوانان بقريان من حجم صغير جداً ويبدو أنه يحميهما بيده اليسرى بينما اليمنى مرفوعة وتبدو ممسكة بشيء كروي. ويحتل نقش ليبي الجزء الأيسر من المسلة. وتحمل مسلتان أخريان من نفس الموقع نفس الرسوم منفذة ببروز مسطح ولكن نص الكتابات يختلف.

في نفس المنطقة، وهي غنية بشكل خاص بالآثار النوميدية، وعلى الضفة اليمنى لوادي خنقة في الموقع المسمى بوشين يرقد نصب نحت من الحجر الجيري الصدفي طوله أكثر من أربعة أمتار. على الواجهة الرئيسية نُحت شخص أطول من الطول الطبيعي (2,14 متر)، يلبس ثوباً يصل حتى الرُكب، ويمسك بيده اليمنى حربة صيد أقصر منه، وتبدو اليسرى الموضوعة على الصدر ممسكة بسيف، مثلما يظهر هذا بوضوح أكثر على مسلة أخرى كبيرة مكسورة اكتشفت على حوالي خمسمائة متر من الأولى. وتحتل كتابة ليبية خطين رأسين على جانبي الشخص. ويحتل شكل غريب، من المحتمل أنه يمثل زينة لمدخل، مستندة إلى جذوع أشجار غير مقصبة منظور إليها مواجهة وممثلة بدوائر متماسة، الجزء الأعلى من المسلة. ويدفع هذا التفصيل المعماري الاستثنائي في الفن النوميدي، وكذلك الطول الكبير للشخص، إلى الاعتقاد بأن الرسم لإله أو على الأقل لأمير معتبر بطلاً.

يمكن الإشارة إلى الإله جورزيل في العهد البيزنطي الذي كان معبوداً من اللواتيين في طرابلس الغرب كما يقول كوريبوس. وكان يُرمز إلى هذا الإله، المولود من آمون ومن بقرة، بثور، وكان اللواتيون يرمزون إليه بصور من الخشب والمعدن.

إننا لا ندعى أننا حصرنا كل الرسوم والتماثيل المقدسة المحلية من العهد

الروماني، أو أننا أبرزنا كل النصوص المتعلقة بالممارسات الدينية للأفريقيين، ولكننا لا يمكن إلا أن نقر بضعف ما لدينا من وثائق وبالعدد المحدود جداً من النصب. في الواقع، لابد أن أغلب الأرباب الأفريقيين كانوا في غنى عن التماثيل والمعابد ورجال الدين، كما هو الحال عند الجن حالياً.

* الدين الجنائزي. زخرفة الحوانيت:

عرف البربر القدماء ديانة جنائزية حقيقية، كما يعرفنا بذلك العدد الكبير من النصب المجهزة بترتيبات خاصة معدة لعبادة الأموات، وزخارف بعض القبور، والأثاث الموضوع في المقابر.

إن الأكثر قدماً هي هذه النواويس[1] الصغيرة المكعبة المحفورة في سفوح المنحدرات أو الصخور المعزولة والتي أُعطيت الاسم العربي حانوت (الجمع حوانيت، انظر أعلاه الفصل الثاني). وتتشابه الرسوم التي تزين جدران هذه النواويس - المركزة في شمال تونس - تشابهاً كبيراً مع رسوم بعض القبور البونيقية ذات الآبار لدرجة يصعب معها التمييز بينها. وتمثل هذه الرسوم بالمغر أشكالاً هندسية بسيطة في أغلب الأحيان، وحيوانات ذات طابع احترازي. وتؤكد علامة لتانيت محفورة فوق مدخل حانوت في جبل زيت، وفي نفس المقبرة وحشان منحوتان على جانبي مدخل ناووس، المناخ البوني للوسط الثقافي والديني. ولكن ليس كل ما في تزيين الحوانيت مرتبط مباشرة بالفينيقيين أو من أصل فينيقي فقط.

في قبرين من جبل زيت نحتت ثيران على الجدران. ولهذا التزيين قيمة دينية كما يدل على ذلك ترتيب قرون أحدها التي تكون كوة للتعبد موضوعة فى الجدار الداخلي كما في النواويس الأخرى.

يشارك الرسم الجداري الشهير لكاف البليدة في نفس المناخ المتوسطي

---

(1) المفرد ناووس ويعني مدفناً تحت الأرض. المترجم

غير الفينيقي. فالشخصية الرئيسية ترفع فأساً مجنحة وتحتمي بواسطة درع دائري بزخرفة في شكل حرف V، من نوع سابق للقرن السادس منتشر من جزيرة كريت حتى جنوب أسبانيا.

إن المعنى الجنائزي والديني لهذا التزيين واضح بما يكفي. فمن الجلي أن رسم السفينة والسلم الذي يُمكّن الروح من الدخول إليها هو رمز للسفر إلى الآخرة. والأشخاص الثمانية المسلحون الموجودون سلفاً في السفينة هم الجنيات الحامية التي تصحب الروح وتحميها خلال سفرها. ويمكن اعتبار الشخص الملتحي المسلح بفاس مجنحة كرب أعلى قد يكون بعل حمون الذي أصبح لاحقاً الإله ساتورن الأفريقي. وأمامه يطير أو يسقط شخص محير. يمكن أن تُرى فيه جنية شريرة مطرودة أو مضروبة من قبل الرب صاحب السيف المجنح، هكذا قد تُفسر الحركة المُهددة والمعدة الحربية.

الحوانيت نوع من المقابر أُدخلت إلى أفريقيا الشمالية قبل عصر الحديد، واستمر استعمالها أثناء العهد البونيقي ثم الروماني، بل إن بعض الأشكال الأكثر تعقيداً عادت، وبتقدير، عند اليهود والمسيحيين في أفريقية في العصور الأخيرة للإمبراطورية.

* البازينات والجثوات بغرف للصلاة :

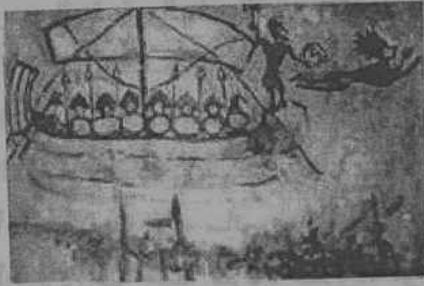
هناك نصب أكثر التصاقاً بالبربر القدماء مثل البازينات التي غالباً ما تلحق بها مبان مخصصة للعبادة الجنائزية. أكثر هذه المباني بساطة الهياكل الدائرية التي تتراوح ارتفاعاتها بين 0,8 متر و 1 متر المرتبة أمام ألبازينة، إلى الشرق منها، وبأعداد متغيرة.

ويُعطي نفس التوجية لتدعيم في صحن البازينة يُكّون كوة للتعبد. ويحدد في بعض الأحيان مقدمان في شكل ساريتين ممدوتين ومتباعدتين، أو بالعكس،

مقدمة بناء ذات أربع زوايا متوازية الأضلاع، مساحة لا اتصال لها مع القبر واقعة في مركز النصب. وقد اكتشفت في بعض الأحيان بقايا قرابين في هذه المساحة. وهذه النصب بسواري أو مقدمات بناء، كثيرة جداً في المناطق الصحراوية.



نحت قليل البروز في منقوب (تونس)



جدارية في ناووس (حانوت) كاف البليدا (تونس)



مسلة مرسومة.

جرف طرية في إقليم بيشار. غرب الجزائر

وقد تكون المقدمات ملتصقة بمبان مربعة (الحوز، في تافلالت)، ويكفي حينها أن تخضع لخفض بزاوية مستقيمة نحو داخل المساحة لتحويل هذه إلى حجرة حقيقية. وإذا ما غُطِّيت هذه الحجرة فانها تندمج كلياً في النصب وتصبح مصلى يمكن اعتباره تعميقاً أو توسيعاً لكوة الصلاة.

تغطى الجثوات بغرف للصلاة شمال موريتانيا، والساقية الحمراء وتافلالت، وجنوب إقليم وهران (منطقة بيشار)، وأكثر إلى الشرق البيامون[1] الأوراسي، وهناك نصب مماثلة في منطقة جلفة تؤمن الاتصال مع المجموعة الغربية.

كشفت هذه الجثوات عن آثار عبادة جنائزية تبدو أكثر أهمية. إن غرف الصلاة، في موريتانيا وفي الصحراء الغربية، عبارة عن حجرات بسيطة مربعة. هذا هو الحال كذلك، في جرف طربة (بالقرب من بيشار). ولهذه المعابد مخططات أكثر تعقيداً في غالب الأحيان: ففي منطقة نغرين يمكن أن تأخذ شكل مصلى بأعمدة أو قاعة مستطيلة مطولة بكوة. وفي تافلالت، في الحوز كما في بوية حجرات الصلاة مقسمة إلى دروب عديدة يمكن لإنسان أن يتمدد فيها أو يجلس. ولا يخلو الأثاث الذي عثر عليه في هذه المصليات من دلالة: ففي المريطى (موريتانيا) هناك حوالي مائة لويحة من الحجر الجيري مزينة بأشكال هندسية ورسوم حيوانات مطلية بالمغر أو مخططة بالفحم. وفي جرف طربة توجد لوحات كبيرة مرسومة على نحو بارع مسندة إلى الحوائط المزينة بدورها بالمغر وبعضها محفورة.

المناظر متنوعة: صفوف من أشخاص لابسين ببذخ منظور إليهم مواجهة، ومُهُر مُهاجَمة من نمر، وظبي، وخيول مُجابِهة، ومناظر حلب. إن الخيول هي الأكثر عدداً ومرسومة ببراعة. ويؤكد التخطيط الخاص جداً للذيل الذي يشبه جناح عصفور وحدة الأسلوب وربما يكشف أن يداً واحدة هي المسؤولة عن

(1) سهل في سفح جبل. التسمية على منطقة في إيطاليا. المترجم

هذه الرسوم. وكانت الظباء والخيول (باستبعاد أي رسوم للجمل) متكررة أيضاً على لويحات المريطى، على أنه في حجرات الصلاة في فج الكوشة ووادي جرش (منطقة نغرين) كانت الجدران مطلية بالمغر وعليها نقوش يقتصر الرسم فيها تقريباً على خيول مركوبة أو غير مركوبة. أخيراً، تؤكد الكتابات بالحروف الليبية في جرف طربة كما في فج الكوشة العمر الحديث نسبياً لهذه المدافن. وتبرز بقايا رماد وآثار مواقد، وأحياناً عظام حيوانات، ووجود حوض (بوية) مخصص للقرابين أو لإراقة الخمر، أهمية هذه الحجرات في الطقوس الجنائرية. إن معطيات كثيرة تسمح بالاعتقاد بأن هذه الترتيبات المعمارية كانت ذات صلة مباشرة مع ممارسة الحضانة التي وصفها هيرودوت عند النسامونيس والتي مازالت عند الطوارق حتى اليوم. بل يمكن تفسير وجود اللويحات والبلاطات المزينة بأنها من النذر التي كان يضعها المترددون على هذه المصليات.



مسلة مرسومة.

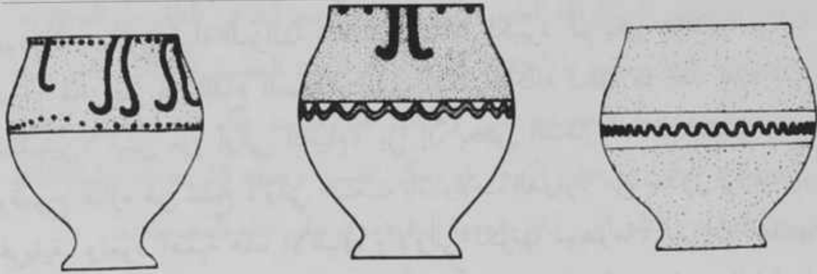
جرف طربة

* الفخاريات الجنائزية المرسومة في قسطل وتيديس :

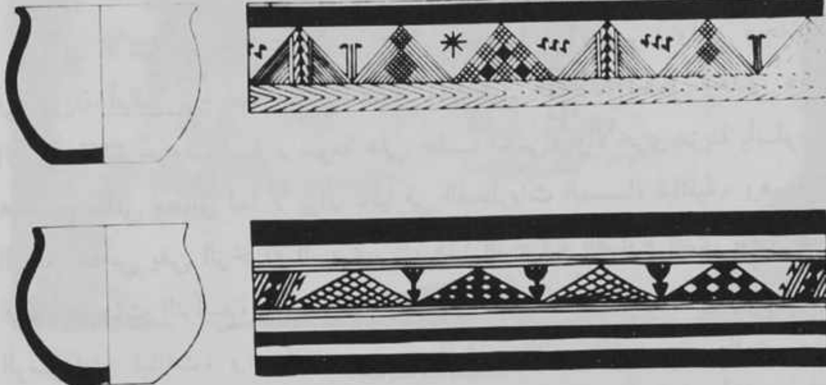
أن الجثوات البسيطة والبازينات بدون ترتيبات، أكثر بكثير من النصب ذات المصليات، وهي تمثل مع هذه الأخيرة، المقابر الأكثر تمييزاً لقدماء البربر. وقد ساهمت مقبرتان كبيرتان، كلاهما من وسط القرن الثالث قبل المسيح، في تحسين معرفتنا بهؤلاء البربر الأوائل الذين كانوا قد بدأوا يكتسبون بدايات حضارة مستقرة. ففي جبل دير شمال تبسة كانت قسطل مدينة محصنة تعود لأحد أفرع قبيلة المزالمة Musulames الكبيرة. لم يكن هؤلاء المزالمة بدواً، فخزفهم ذو القاع المسطح الذي تشبه أشكاله تماماً ما عند الفلاحين الحديثين، ليس من أواني الخيام، بل إن بعض الفخاريات المجسمة وهي بوضوح عبارة عن نسخ لأواني صنعت بالدولاب الدوار، من جذور بونيقية أو إغريقية. وتعود أهمية هذه الأطباق والأواني لكونها مرسومة، بل إن لبعضها تزييناً متعدد الألوان أحمر وأسود بسيطاً جداً تغلب عليه المنحنيات والخطوط المنقطة والدوائر والاكليليات. والعناصر الوحيدة المرسومة هي النخيل، وظلال عصافير على طبق واحد.

إن الأكثر إثارة للاهتمام هي الأواني المطلية في تيديس، والتي وجدت في بازينة أمكن ترجيعها إلى 250 ± 110 قبل الميلاد. تحمل إحدى هذه الأواني ثلاثة حروف ليبية مرسومة على جانب محنى، والأخرى مزينة بأسلوب هندسي مثلثي مطابق لما لا يزال باقياً في الفخاريات المسماة قبائلية، وهو في الواقع خاص بفن الزخرفة البربري. إن هذا الزخرف الصارم الذي تحتل فيه المثلثات ذات الترابيع، أو متنوعة التزيين مكاناً طاغياً، ليس خالياً تماماً من الرسومات: نباتات، وعصافير، ورسوم للبشر والنجم الشمسي. وبالرغم من النمنمة الشديدة إلا أن لزخرف أواني تيديس معنى واضحاً. فعلى أغلب هذه الأواني كانت هناك رغبة بينة لرسم الطبيعة بمكوناتها المختلفة. هكذا في الفراغات المرتبة بين المثلثات نرى مرات عديدة الشمس، وعصافير تحتل السماء،

ونخيلات ونباتـات منمنمة خارجة من الأرض. وللمثلثات معنى خاص، على الأقل على هذه الأواني، إنها ترمز إلى الجبال أي إلى الأرض. وتقوم قاعدة هذه المثلثات على دعامات أو معينات ممدة يمكننا التعرف فيها إلى عنصر آخر؛ الماء الجاري. هكذا، بحد أدنى من الإمكانات، أشارت فخاريات تيديس إلى عناصر الطبيعة الأربعة في تكوين صارم: الماء، والتراب، والنار، والهواء وما يحتل



أواني مرسومة من جثوات قسطل. منطقة تبسة الجزائر



أواني مرسومة في إحدى بازينات

تيديس. منطقة قسطنطينة، الجزائر

هذه العناصر من عالم حيواني وعالم نباتي. ليس لهذا الرسم قيمة فنية فقط، بل كان لهذه الأواني مهمة جنائزية ولا يمكن فصل زخرفها عن هذه المهمة. هل كان يقصد أن يرى المرحوم في قبره صورة العالم؟

إن كثرة تمثيل العصافير، رموز التنقل السهل والحرية، تتيح افتراضات أخرى: ألا يتعلق الأمر برسم روح الميت؟ من جهة أخرى، يبدو الميت على أحد الأواني ممسكاً بسعفات بينما تحمل فخاريات أخرى، مزينة بحروف ليبية، اسم الشخص الذي كُرست له في القبر.

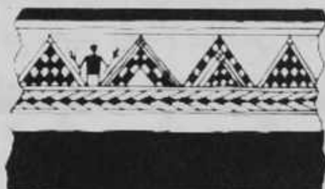
كانت الأواني الكبيرة الأكثر زخرفة تحتوى كل واحدة منها على فخارية نذرية صغيرة وعظام صغيرة وعُقل أصابع من اليد والرجل وفقرات من العنق، وفي بعض الأحيان قطع من قاع الجمجمة، وأسنان، وفي حالة واحدة فك سفلي كامل. ويفسر وجود هذه العظام بظروف نقل بقايا العظام الناحلة في القبر الأخير الذي هو كهف البازينة. وكان نوميديو تيديس يضعون الجماجم على فوهات الأواني بعد أن يجمعوا فيها العظام المتناهية الصغر والبقايا، بينما كانت العظام الطويلة تجمع في قاع الكهف. ويدفع تنضيد العظام والأواني والجماجم إلى الاعتقاد بأن النقل كان جماعياً خلال احتفالات قد يكون معبراً عنها بالرسم المبسط للراقصات على أحد الأواني.

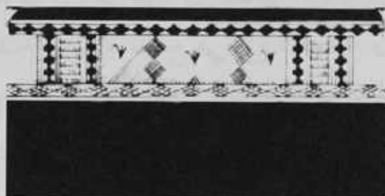
تبرز هذه الأمثلة القليلة المأخوذة من زخارف بعض الحوانيت، ومن النذر في الجثوات ذات المصليات، ومن الأواني المرسومة لإحدى البازينات، تعقيد الديانة الجنائزية لقدماء الأفريقيين. لقد عرف قدماء البربر باستمرار وفي كل مكان عبادة جنائزية اضطرتهم لتشييد النصب، وهى الآثار الوحيدة التي تركوها لنا، سواء عند الليبيين الفينيقيين في شمال تونس أثناء العهد البونيقي أو عند نوميدبى تيديس المعاصرين لمسينيسا أو عند الجيتوليين في السهوب تحت الإمبراطورية الرومانية. إن التوقير الذي كانت تجمع به في القبور الثانوية أقل قطعة مما كان جثة المتوفى، هذا الغائب الحاضر دائماً، كان يُحضِّر الأفريقيين منذ زمن طويل لعبادة الرفات، التي عرفت في العهد المسيحي، كذلك، تطوراً كبيراً.

لكن، كل المعطيات تدفع إلى الاعتقاد بأنه كان وراء حفظ البقايا القابلة للتحلل والاهتمام بتقديم الزاد المادي والسحري الضروري لبقائها، إيمان البربر بجزء روحي، وهو الروح أو نفث الحياة، راكباً سفينة رمزية أو منطلقاً كالعصفور في السماء، أو ممتطياً فرساً في السهل ومنضماً إلى الآلهة في عالم آخر.

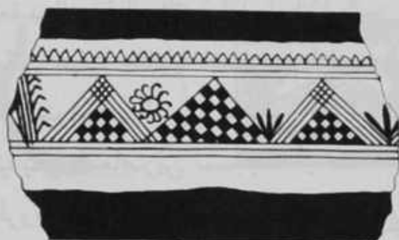
تناقضات المسيحية الأفريقية

مع ظهور المسيحية، تمكنت بعض التوجهات الروحية البربرية من أن تترسخ بقوة اكبر مما كانت تسمح به معتقدات الأسلاف، التي لم تكن قد تخلصت بعد كلياً من أعمال السحر الأصلية. فقد سهلت عقيدة التوحيد الكامنة التي كانت قد اخترقت من قبل القدرة الكلية للإله ساتورن الأفريقي، انتشار الدين الجديد دون شك.









رسومات أواني من أسلوب تيديس

تقديس الشهداء

كانت تُستشعر الحاجة إلى وسيط بين الإله القادر ومخلوقاته الضعيفة، خاصة وأن طبيعة المسيح لم تكن قد حُددت بعد بشكل دقيق في القرون الأولى للكنيسة. ملأ الأفريقيون، مثل كل الأقوام القدماء تقريباً، عالمهم بحشد من الجنيات أو الأرباب الثانويين الذين لم تنجح السلفية التوحيدية في القضاء عليهم بسرعة. إن العادات العقلية تقاوم مثل هذه التغيرات الجذرية. وبدل إنكار وجودها تُحول إلى شياطين وكائنات شريرة. ولمقارعة هذه الجنيات وتأمين العلاقة الضرورية مع الله، في انتظار الروح القدس، نما تقديس القديسين واتسع، أو بتعبير أدق تقديس الشهداء حيث لم يكن يمُيز بينهم في البداية.

كانت الكنيسة الأفريقية غنية بشهدائها. إن أقدم الشهداء الذين نعرفهم هم الشهداء السيليتانيين الذين أُعدموا سنة 180 م تحت حكم كومود Commode، وكانوا أصلاً من مدينة صغيرة من البروقنصلية تسمى سيلي أو سيليوم ونجهل موقعها. كانوا اثنى عشر، خمسة منهم من النساء، اقتيدوا إلى قرطاج وقطعت رؤوسهم. ويبدو أن هناك شهداء آخرين من نفس الفترة أصلهم من مادور عرفنا القديس أوغسطين بأسمائهم الأفريقية والبونيقية. ويفسر حماس البربر وتصلبهم المعروف جيداً عندما يتعلق الأمر بمسائل أساسية، وبالتبعية صرامة الحكام الرومان المهتمين بالمحافظة على النظام في الولايات الصعبة، العدد المرتفع لشهداء كنيسة أفريقية. فألام بيربيتو Perpetue وفيليسيتى Felicite وكذلك رفاقهم الذين قضوا سنة 203 م تحت اضطهاد سبتموس سيفروس هى من أقدم الروايات وأجملها في السنكسار[1] اللاتيني. إن نص هذه الرواية لألام المسيح في شكله البدائي الذي يبدو متأثراً بالمونتانية[2]

(1) كتاب بأسماء الشهداء والقديسين المسيحيين. المترجم

(2) مذهب في المسيحية من القرن الثاني أسسه مونتانوس. المترجم

له من الطلاوة والبساطة ما يجعل من المستحيل إنكار أصالته. جزء من هذه الرواية عبارة عن سيرة ذاتية. فقد كانت بيربيتو Perpetue امرأة شابة من ثبوربو مينوس Thuburbo Minus ترضع طفلها عندما اعتقلت. وهي تحكي رؤاها للجنة والتي تبدو لنا شروحاً لمناظر مرسومة في سراديب للأموات. ويُرى في هذا النص التعبير بسذاجة ولكن بثبات عن هذا " العطش للشهادة " الذي قد تكون أفريقيا أكثر من أي ولاية أخرى، كشفت عن عمقه وعنفه في هذه الأرواح المتشددة. وقد سُلّم ساتوروس " Saturus "، وخادم تسمى فيليسيتى " Felicité " واثنين من المريدين إلى الوحوش، في نفس الوقت الذي سلّمت فيه بيربيتو Perpétue، وفي المسرح الدائري في قرطاج، أتى مصارع على بيربيتو وكان عمرها 22 سنة.

كان الشهداء الأفريقيون من كل طبقات المجتمع. بيربيتو وسيبريان Cyprien أسقف قرطاج، ينتميان للطبقة الأرستقراطية، وكان تيباسيوس دى تيجافا Typasius de Tigava جندياً قديماً، وكان مرسيلوس Marcellus المحكوم عليه بالإعدام في طنجة تحت حكم تيترارشي Tetrarchie من قواد المائة، وماكسيميليانوس Maximillianus مجند من ثيفست Theveste ولكن فيليسيتى كانت من الرقيق، وكان شهداء مادور مغتربين يحملون أسماء بونيقية أو بربرية بينما كانت مارسيان Marcienne من القيصرية وسالسة Salsa من تبسة تنتميان للبرجوازية البلدية. في الواقع لم تقتصر المسيحية الأفريقية منذ البداية على اثنية غالبة ذات ثقافة إغريقية ـ لاتينية ولا على طبقة اجتماعية معينة.

كان تقديس الشهداء شعبياً جداً ومنتشراً جداً في أفريقيا. وكانت ممارسة إيداع رفات القدِّيسين الموقرين شائعة، حتى في الكنائس البسيطة في الأرياف الأكثر بعداً. وفي بعض الأحيان تحتوي فخارية بسيطة غطاؤها مثبت بالجبس على رفات قديس، غير معروف، واسمه محفور بواسطة مسمار.

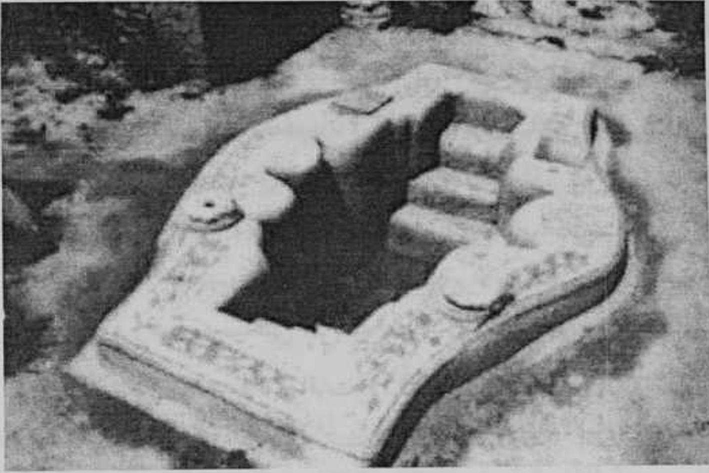
لهذه الأواني الرفاتية مقدمات في الفخاريات الجنائزية في بازينات العهد النوميدي: في تيديس ـ كما سبق أن رأينا ـ كانت رفات حقيقية قد وضعت بورع في أواني شُكلت ورُسمت خصيصاً لهذا الغرض. هكذا يرتبط تقديس الشهداء بعبادة الأسلاف.

كانت هناك ممارسة أخرى، لم تختف كلياً في أفريقية المسلمة حتى اليوم، هى الولائم الجنائزية. حتى اليوم ليس من النادر رؤية نساء يأكلن قليلاً من الطعام، خاصة البيض وهو طعام ملئ بالأمل والوعد بالانبعاث، على شخص عزيز أو موقر. وكانت هذه العادة متجذرة في أفريقية المسيحية لدرجة أنها أدت إلى نوع من المعمار الجنائزي الخاص، أكثر شيوعاً هنا منه في غيره من الأماكن؛ وهو القبر ثلاثي الأسرة. على ثلاث جوانب حول تابوت حجرى كانت تبني كتلة يُولّد سطحها ما يشبه ميل مقاعد المائدة، وكان غطاء التابوت يمثل الطاولة. أحياناً، كما في تبسة، هناك كتابة تدعو لهذه المشاركة بين الميت والأحياء.



قبور من مقبرة القديسة سالسة في تبسة

الجزائر



حوض التعميد في كنيسة فيتاليس

سبيطلة، تونس

عَبَر النزاع بسرعة من الصعيد الثيولوجى إلى الصعيد السياسي إلى الصعيد الاجتماعي. وكان تدخل الإمبراطور قسطنطين ثم خلفاؤه لصالح الكاثوليك أول تجليات القيصرية ـ البابوية التي أخضعت الكنيسة للإرادات الإمبراطورية والضرورات السياسية. لم يكن في استطاعة الدوناتيين التماميين ـ كما يمكن أن نقول اليوم ـ قبول مثل هذا التدخل الدنيوى، ولكن تشددهم العقائدي لم يتراجع أمام مخاطر أخرى. بالفعل لم تكن الدوناتية حركة دينيه فقط.

قد يميل المؤرخون المعاصرون إلى المبالغة في طابع الدوناتية الإجتماعي والسياسي ويرونها مظهراً " لمقاومة " البربر للسيطرة الرومانية، ولكن من الجلى البيِّن أنها لعبت دوراً في تفكك المجتمع الروماني ـ الأفريقي.

بشعبيتها الأكبر من شعبية الكنيسة الرسمية، وقربها الأكثر إلى الطبقات الأكثر احتقاراً، وتجذرها الأقوى في الولايات الأقل تروماً، تبدو الدوناتية المولودة في أفريقية أكثر أفريقية من كنيسة قرطاج المدعومة من روما. أخذت

الدوناتية من الأفريقي والبربري التشدد والإيمان المتعصب والإخلاص المطلق لرجل أو لحزب، ولكنها أخذت عنه كذلك روح الانفصال التي أشاعت الإنشقاقات داخل الانشقاق. لم يكن الوضع الاجتماعي والاقتصادي في الإمبراطورية المتأخرة ليؤثر، بطريقة أو أخرى، على تطور الدوناتية. بالفعل، منذ وسط القرن الرابع تحالفت هذه رسمياً مع حركة مطالب اجتماعية وتمرد معروفة تحت اسم " السيركونسيليون " Circoncellions. لقد ثار التساؤل كثيراً عن هؤلاء " الطوافين حول مخازن الحبوب ": كان اللفظ يعني قانونياً، في البداية على الأقل، فئة اجتماعية، هى فئة العمال الزارعيين الذين كانوا يُستأجرون اثناء موسم الحصاد أو قطاف العنب. وقد كان هذا النشاط في القرنين الثاني والثالث مجزياً لدرجة أن بعضهم يتمكن من امتلاك أراضٍ ويصبحون في كهولتهم ملاكا محترمين، مثل هذا الحصّاد من مكثر الذي ترك لنا في كتابة طويلة مشهورة حكاية حياة شاقة من العمل تُوجت بالنجاح. ولكن، مقابل كل عامـل يصل إلى الملكية وحتى إلى التكريم، مثل صاحبنا المكثرى، كم من رفاقه يهلكون من الإرهاق دون أن يعرفوا أدني نجاح اجتماعي؟.

من هؤلاء الطوّافين حول مخازن الحبوب كان يجند المدافعُون عن القضيـة الدوناتيـة الأكثر تعصباً. خـلط هؤلاء الرافضـون (الناشطـون) المطالبـة الاجتماعية بالجـدل الديـني. كان " السيركونسيليون " يتصرفون كمقومين للأخطاء بمرح ونشاط وسط صيحات " Deo Laudes ". باسم الإنجيل نهبوا إقطاعيات السادة ودعوا الرقيق للثورة، وألقوا بأرباب العمل في سراديب السجون وأحياناً في الآبار. لا يمكن التقليل من المعنى العميق لهذا الإرتباط بين الحماس الدينى والمطالبة الاجتماعية لأول مرة في أفريقية، والتي أدت إلى صراع منظم ضد النظام الروماني.



بازيليكا في حيدرة تونس.

لم يكن هناك أقل من خمس منها في هذه المدينة.



الراعي الصالح

لوحة من الرخام

من سراديب الأموات سوسة. تونس

أدت الحركة الاجتماعية والدينية بشكل طبيعي إلى العمل السياسي: وقد استند رؤساء بربر مثل فيرموس " Firmus " وجيلدون " Gildon " على الدوناتية والدوارين حول مخازن الحبوب لمحاولة بسط سيطرتهم على أفريقية.

كانت الكنيسة الدوناتية تقدس الشهداء، شهداءها، أكثر حتى من الكنيسة الرسمية. وكان هؤلاء كثيرين، هؤلاء القديسون الذين كانوا يسرعون إلى الانتحار الجماعي. وقد أُعلن العصاة الذين قتلوا تحت سيوف الجنود، الذين كان يستدعيهم أحياناً الأساقفة الدوناتيون أنفسهم الضائقين ذرعاً بتجاوزات الدوارين حول مخازن الحبوب، شهداء من قبل الشعب والمناصرين. وبرغم المنع الذي أصدره مجمع دوناتي، دُفن هؤلاء العصاة كقديسين في الكنائس. وكثيرة هي الكتابات ذات النغمة الدوناتية التي تمجد هؤلاء القديسين المجهولين في البلدات.

*** قادة الفكر:**

خلال المقاومة للاضطهاد والصراع ضد الزندقة والإنقسامات، أكدت الكنيسة الأفريقية شخصيتها وساهمت بفاعلية أكثر من أي كنيسة غربية أخرى في ترسيخ العقيدة الكاثوليكية وتثبيتها. تمكنت أفريقيا من لعب هذا الدور بفضل كوكبة المعلمين النابعين من أرضها الذين أظهروا من الصرامة المسيحية الأفريقية بقدر ما أظهروا من عمق الرّومنة. وشهدوا كذلك، بفصاحة، ضد الحكم المسبق العنصري الذي ينكر على البربر كل قدرة في المجال التصوري أو الفلسفي.

إن الأدب المسيحي الأفريقي ثرى: من بين كتابه لطفاء ذوى أسلوب أنيق مثل مينوسيوس فيليكس Minucius Felix (من النصف الأول من القرن الثالث) الذي يرمى حواره التبريري (Octavius) لإقناع الكفار المثقفين باستعمال قواعد البلاغة الكلاسيكية والفلسفة. من معدن آخر أرنوب Arnobe (260 م ـ 327 م) من سيكا (الكاف) الخطيب المشهور المتحول إلى المسيحية

متأخراً، والـذي هاجـم بقـوة المعتقدات الوثنيـة (Adversus nationes حوالي سنة 300 م)، ولكنه كان ثيولوجياً متواضعاً. ويبدو أن هذا المتحول الجديد لم يكن يعرف جيداً العقيدة التي يدافع عنها. وقد كان معاصره وتلميذه لكتانس Lactance (240 م ـ 325 م) كاتباً أغزر إنتاجاً تحول إلى المسيحية سنة 300 م، دحض هو كذلك الشرك بإظهار مواطن الضلال وما يثير السخرية فيه: وهو مشهور بمؤلفاته العقائدية حول العناية الإلهية، وعقاب المذنبين " De ira Die "، "وموت الطغاة" والكتب السبعة لمؤسساته المقدسة (حوالي320م) التي استحق بسببها لقب شيشيرون المسيحي.

لكن ثلاثة عمالقة يسيطرون على الفكر المسيحي لأفريقية الرومانية: ترتوليان، سبيريان وأوغسطين. ساهم هؤلاء الأفريقيون الثلاثة بشخصياتهم المختلفة في تأسيس العقيدة، ويعتبرون ـ وبحق ـ أقدم آباء الكنيسة، وقد يكون ترتوليان هو أحسن من مثّل ـ أحياناً إلى حد المغالاة ـ المزاج الإفريقي في حدته، وتعصبه وانعدام النظام فيه. فهو ابن أحد قواد المائة من كتيبة البروقنصلية، وقد وُلد ك. سبتيموس فلوروس ترتورليانوس في قرطاج بين سنة 155 م و 160 م. تثقف بالإغريقية واللاتينية وأعُد لمهام الخطابة والمحاماة. تحول إلى المسيحية، لا نعرف في أي ظروف، ولكنه كان تحولاً مطلقاً. ألقي بنفسه بحماس في الدفاع عن المسيحية، وكان هذا الدفاع ـ إذا جاز التعبير ـ هجومياً جداً لأن المرافعة لصالح المسيحيين المفتري عليهم تحولت بسرعة إلى مرافعة اتهام. كان هجّاء بدرجة يندر الوصول إليها، يستعمل السخرية ولكنه يلطم في نفس الوقت بحجج مؤسسة على منطق صارم. هاجم اليهود الذين كانوا يحرضون الحكام والشعب على اضطهاد المسيحيين، وهزئ بالفلسفة التي تجانب الحكمة، وسخر من الخطباء الذين يخلطون بين البلاغة والحقيقة. ولم يكن المسيحيون أنفسهم في منأى عن ضربات هذا الذي أمكن أن يقال عنه إن " روحه تتلذذ بالمطلق، ومزاجه يتلذذ بالصراع ".

من الخطأ أن لا نرى في ترتوليان إلا مدافعاً عن العقيدة النصرانية، لقد كان ثيولوجياً وراعياً بارزاً. وعندما أصبح قسيساً كرس نفسه للرعوية وأظهر تشدداً في النظام والأخلاق، وأمر البنات المراهقات بالتحجب وأدان بشدة تزين النساء ومنعهن من ارتياد الألعاب العامة. وذهب إلى الحد الأقصى في منطق إنقاذي مقتنعاً بأن نهاية العالم قريبة، ولم يكن يتصور إلا مسيحية نقية وقاسية. ولما كان الإنسان لا يستطيع خدمة سيدين في نفس الوقت، فقد أوصى هذا المسيحي برفض الخدمة العسكرية، وحرض الجنود على الهرب من الجيوش الرومانية، كما أوصى الجميع برفض العالم القديم الوثنى وكل تفاهم معه.

كان مزاج ترتوليان يقوده دوماً إلى التطرف، وانتهى به الأمر، هو الذي صارع ضد الزنادقة المارسيونيين والبراكسيين إلى أن ينجذب إلى الزندقة المونتانية. لو عاش بعد ذلك بقرنين لأصبح دوناتيا ولو عاش في القرون الوسطى لأصبح خوارجياً.

سيبريان، هو الوجه الأقل تشدداً، وهو كذلك قرطاجي. كان ينتمي إلى الأرستقراطية وتلقي تعليم خطيب وأصبح محامياً. تحت تأثير القسيس كاسيليانوس Caecilianus تحول إلى المسيحية سنة 245 م، ووزع الجزء الأكبر من أملاكه. كان مُقدراً جداً من رجال الدين وسكان قرطاج. وضد رغبته وضع سنة 248 م في الكرسى الأسقفي وبرز بسرعة كإداري ممتاز. ومن كتاباته نستنتج أن المسيحيين والقساوسة في أفريقية في منتصف القرن الثالث لم يكونوا كلهم قديسين ولا مثالاً للفضيلة. فقد قادت ثلاثون سنة من السلام للكنيسة إلى إرخاء النظام والأخلاق، وكان سبيريان يشتكي من هذا الارتخاء بمرارة. هكذا عندما عادت أعمال الاضطهاد من جديد تحت ديسيوس(250) Decius كان المرشحون للشهادة بأعداد أقل بكثير من المرتدين؛ فالبعض لم يكن ينتظر حتى أن يستدعى ليضحى به جهاراً للأرباب الكابيتوليين[1] وبعبادة الإمبراطور. لم

(1) متعلق بآلهة الكابيتول الثلاث جوبيتر وجونو ومنيرفا. المترجم

يسع سيبريان إلى الشهادة واختفي في مخبأ قريب دون شك من مدينته واستمر برسائله في إدارة أسقفيته. كانت هناك مشاكل كثيرة. كان عليه بعد ذلك بقليل أن يواجه المسألة الشائكة للبسيين " Lapsi "، هؤلاء الذين وهنوا خلال الاضطهاد ولكنهم كانوا يطلبون الغفران. كان من الصعب على سيبريان أن يُغلّب موقفاً خيرياً. لم يتبعه المتشددون، وهكذا جاء انشقاق المجددين– وهو انشقاق أفريقي بحت ـ الذين لم يكونوا يؤسسون إلا على المسائل الإجرائية ونزاعات الأشخاص. وبسبب موضوع هذا الانشقاق دخل سبيريان في صراع مفتوح مع البابا إتيان الأول، لأنه لم يكن لكنيسة روما وكنيسة أفريقية حينها نفس الموقف حول صلاحية التعميد الذي قام به الزنادقة. في هذا كذلك، أظهر الأفريقيون أنهم أكثر تشدداً.

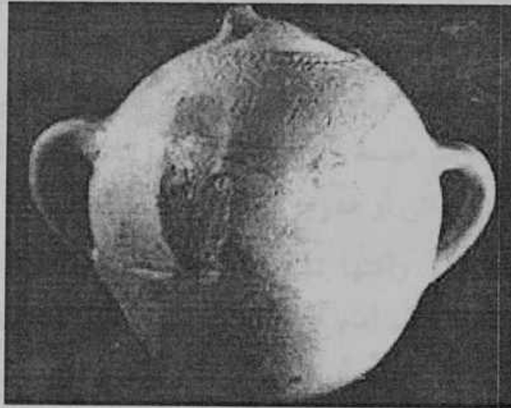
إن أعمال القديس سيبريان ضخمة، فقد تناول كل أنواع الدفاعات عن الدين والرعوية في مؤلفاته الكثيرة المكتوبة مثل رسائله البديعة بلغة غنية وأنيقة تجعل من هذا الأب كاتباً كبيراً.

تحول استشهاد سيبريان في 14 الفاتح " سبتمبر" 258 م تحت حكم فاليريان " Valerien " إلى نصر حقيقي، وقد صاحبه جمهور المؤمنين يقودهم نواب الكهنة حتى مكان إعدامه، وأعيد جثمانه في احتفال إلى قرطاج. واستمرت مهابته هائلة طوال القرون التي تلت وكُرست له ثلاث كنائس كبيرة في قرطاج.

إن أوغسطين، أسقف هيبون هو أعظمهم جميعاً، دون أدنى شك. فبواسطة "اعترافاته" نعرف مراحل شبابه العاصف وضلالاته عند المانشيين والنيوبلاتونيسيين قبل تحوله البطيء إلى المسيحية بالاتصال مع امبراوز "Ambroise" والقرار الأخير لحديقة ميلانو. كان للقديس أوغسطين، بعد ما أصبح أسقفا تأثير هائل على الكنيسة الأفريقية والكنيسة العالمية: وهو ـ حقيقة ـ الثيولوجي الحقيقي الأفريقي الوحيد، وكم كان عظيماً ومؤثراً! وقد قاده صراعه ضد الدوناتيين

لإعلان ثبات التطهر، مخالفاً التقليد الأفريقي. وبمناسبة الصراع ضد البلاجيين حدد بدقة أكثر، أهمية نعمة الله وفضله والذي بدونه لا يستطيع الإنسان شيئاً. وفي نضاله ضد الأريوسيين ثبت اعتقاده في الثالوث. وإذا كانت أعماله الثيولوجية ضخمة فإن أعماله الرعوية والدفاعية عن الدين ليست أقل ضخامة. وقد تناول في كتاباته وفـي خطبـه (وقد حفظت الرواية منها عدة مئات!)، وفي رسائله وفي مناجياته " Soliloques " كل مشاكل الحياة الدينية والحياة النشطة. ولأن هذا الأسقف كان رجلاً نشطاً كانت سلطته مقدمة للقوة الأسقفية في العصور الوسطى. بالرغم من أن الحياة النشطة والإدارية استغرقته في زمن تراكمت فيه المخاطر، بقى القديس أوغسطين مفكراً عظيماً في أعماق نفسه. لذكرى الأيام السعيدة التي قضاها مع أصدقائه وأمه مونيك في كاسيسياكوم "Cassiciacum" أخذ من الوقت لكتابة قاعدة وهكذا أسس أول ملكانية أفريقية.

من آباء الكنيسة، ومن قادة الفكر المسيحي الغربي، بقى القديس أوغسطين المؤلف الخالد لـ" مدينـة الله " " Cité de Dieu " التـي كانت حلم المسيحية في العصور الوسطى " واعترافات " مؤثرة بلغ دفؤها الإنساني قيمة كونية.



آنية رفاتية

من فخاريات منطقة قسطنطينة

بربريا المسلمة
وحدانية الله وتشرذم الرجال

تحول البربر بإعداد غفيرة إلى الإسلام، بالرغم من الرِّدات العديدة التي يتهمهم بها المؤلفون العرب. وقد رأينا في أي ظروف تاريخية تم تحول الإفريقيين السريع إلى الدين الجديد، وبقى علينا أن نفهم الآن كيف تبنى البربر الإسلام.

* فقه واضح :

عانت المسيحية الأفريقية بقسوة من الانشاقات العديدة التي كانت تنشأ دورياً بسبب مسائل نظامية أكثر منها لصعوبات عقائدية. وكانت المانوية البدعة الوحيدة التي لاقت بعض النجاح في أفريقيا، وكانت بعيدة عن السلفية، حتى أنها أخذت مظهر الديانة الجديدة. وبالعكس لا يبدو أن التفاصيل الدقيقة لدراسات المسيح التي أدت إلى الكثير من البدع في المشرق قد أثارت الكثير من الاهتمام عند البربر. بالنسبة للأغلبية كانت الشهادة بأن الله واحد وقوى رحيم هي أساس الإيمان، وأن الباقي مسائل تهم رجال الدين. بالفعل، يقدم الإسلام نفسه في بساطته الثيولوجية كنهاية للمسار الروحي الطويل للبشرية نحو التوحيد المطلق. وأتم محمد الوحي غير منكر للأنبياء أو المسيح، وأتى بالرسالة العليا دون نقاش أو غموض: الله هو الله.

حقيقة واضحة، ولكنها تشد الأرواح الأقل انفتاحاً على التعليقات الميتافيزيقية، وتغلق الباب أمام أي تأويلات. وإعلان الإسلام، الشهادة، يتم بوضوح دون تعقيدات " أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ".

كانت بساطة العقيدة الإسلامية تناسب البربر كثيراً. ميزة أخرى للإسلام مرتبطة ببساطتة الثيولوجية هي عدم وجود رجال دين حقيقيين، والذين لا نرى

الدور الذي يمكن يلعبوه لأنه ليس هناك سر[1] يعطي وأن التعليمات أعطيت وبشكل نهائـي في القرآن الموحى به، وليس المؤلف. أما عن النظام الذي ثبتته السنية السلفية منذ القرن الأول للإسلام فيحدد عدداً معيناً من الالتزامات وهى الصلاة خمس مرات في اليوم مسبوقة بوضوء، وصوم شهر رمضان، والزكاة والحج إلى مكة. الطريق مرسومة، ومن يخضع لله ويتبع تعاليمه التي أُنزلت على محمد، يكسب الجنة.



أحد أروقة جانبية في المسجد الكبير بالجزائر العاصمة

(من عهد المرابطين)

(1) بالمعنى المقصود في الديانة المسيحية. المترجم.

بعكس الغموض في سر التثليث المسيحي ثلاثة أشخاص في إله واحد، والغموض المحيط بالمسيح الذي هو إله وإنسان مشارك في جوهر الأب، ومُوَلَّد وليس مخلوقاً، استولت البساطة الثيولوجية للإسلام على الروح البربرية. لسوء الحظ، يجد الرجال دائماً الأسباب للتنازع؛ حتى في وحدانية الإسلام ذاتها نجحوا في التنازع والتمزق.

* بدعة البرغواطة[1] البربرية :

لا ينسجم الإسلام مع نشوء البدع بسبب بساطة العقيدة نفسها.

إن بدعة وحيدة ولدت في أفريقية، في وسط بربري ومازالت غير معروفة جيداً، وهى بدعة برغواطة المغرب الأطلسي.

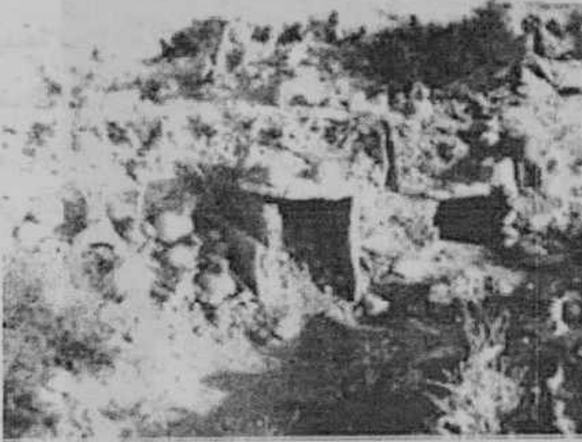
هذه البدعة نابعة مباشرة من حركة الخوارج، التي مزقت الإسلام المغاربي في القرن الثامن. كان البرغواطة قد شاركوا في حملات ميسرة السقاء العسكرية ضد ولاة الأمويين في المغرب الأقصى، واتبعوا بعد ذلك بقليل شخصاً يسمى صالح كان قائداً عسكرياً ونبياً[2] في نفس الوقت. قرر صالح أن يؤسس ديناً جديداً كان سيكون إسلام البربر، ولكن لا يعُرف إذا كانت التعليمات الأساسية من عمله أو من عمل حفيده يونس وهو ما يبدو أكثر احتمالاً. بالرغم من أن هذه التعاليم غير معروفة جيداً إلا أنها كانت تنحرف عن الإسلام السني كثيراً. نعرف بواسطة البكري عن البرغواطة أنهم وضعوا اسم باكوش بدل اسم الجلالة في الصلاة. من هذه الواقعة، يبدو أن هذا الاسم هو الاسم الذي كان البربر يطلقونه على الله وقد يعني " العاطي ". وهناك محرمات غير صحيحة مستوحاة، بكل تأكيد، من المعتقدات البربرية القديمة، غيرت في

(1) قبيلة بربرية. المترجم

(2) هكذا كتبها المؤلف، والصحيح أنه ادعى النبوة. المترجم

الطقوس. كانت هذه الهرطقه تستند إلى منكر كبير؛ فقد كتب صالح قرآناً جديداً بلغته الأصلية.

بالرغم من أننا نجهل كل شيء عن هذه البدعة تقريباً، إلا أنها لم تدم أقل من ثلاث قرون. وقد مارس البرغواطة ضغطاً شديداً على ولاة طنجة الأمويين وعلى تابعيهم أدارسة فاس، بل قاوموا لبعض الوقت اندفاع المرابطين وقتلوا في المعركة الداعية والمؤسس لحركة المرابطين عبد الله بن ياسين (1059 م). وقد تطلب الوضع صرامة أبي بكر لإخضاعهم بحد السيف وإعادتهم إلى الطريق المستقيم.



قبور قديمة في مقبرة بنى يزقن. مزاب

*** حركة الخوارج، انشاق آخر مثالي :**

باستثناء البدعة التي بقيت محصورة في الطرف الأقصى للمغرب، عرف البربر نفس الانشقاقات المذهبية التي عرفها الأقوام الآخرون الذين دخلوا الإسلام، ولكنهم ـ على ما يبدو ـ انغمسوا فيها بطيب خاطر واستمتاع.

لم يعرف مذهب الخوارج في أي مكان آخر من أرض الإسلام مثل هذا العنفوان الذي عرفه في أرض البربر. لقد كان يتسق إلى حد الإفراط مع الطباع البربرية لدرجة لم يكن يتصور معها أن لا ينضم إليه جمهور المؤمنين، وكانت أصوله تنغرس عميقاً في التنظيم نفسه للأمة الإسلامية أو ـ بتعبير أدق ـ انعدام النظام فيها. فالإسلام يعاني من غياب القواعد المحددة لاختيار الخلفاء، خلفاء الرسول.

اختير الخلفاء الثلاثة الأُول؛ أبو بكر وعمر وعثمان بالاتفاق العلني، ولكن تبع اختيار على بن أبى طالب بعد مقتل عثمان سنة 656 م حركات تمرد ورفض. وبالرغم من أنه ابن عم الرسول وصهره ـ كان متزوجاً من فاطمة بنت الرسول ـ إلا أن عليا رأى في النهاية أن معاوية، والى سوريا، قد فُضِّل عليه. تولدت عن عزل[1] على أزمات كبيرة مزقت الإسلام لقرون. وقد بقيت نتائجها حتى اليوم إذ إن كل المذاهب غير السنية (الشيعيين، والاسماعليين، والأباضيين[2]...) تجد أصولها في مقتل على الذي تبعه بعد ذلك ببعض سنوات[3] مقتل ابنه الحسين.

حاول مؤلفون كثيرون إيجاد أوجه تشابه بين الخوارجية والدوناتية. من الحق القول باحتواء مذهب الخوارج على نفس المعطيات الأساسية التي كانت وراء نجاح الدوناتية عند الأفريقيين القدماء. ففي إحدى هاتين الحركتين كما في الأخرى تظهر ميول إلى الفردية، والانفصالية، والتنظيم الديمقراطي للسلطة. يضاف أن الخوارج رفضوا سلطة الخلفاء الأمويين وتبنوا قضية استقلال المغاربة عن السادة الجدد القادمين من المشرق، وهى قضية لم تكن بعد خاسرة. لكن

---

(1) اشارة إلى واقعة التحكيم. المترجم

(2) ترجع الآباضية لحركة الخوارج التي ظهرت قبل اغتيال على كرم الله وجهه. المترجم

(3) بأكثر من عقدين. المترجم

الدين الإسلامي كان متجذراً في النفوس لدرجة أن لا بواعث أخرى غير سياسية كانت تحدد سلوك الخوارج. ومنذ البداية عبر هؤلاء عن احتقارهم للثراء داعين للتقشف والزهد والصرامة العقائدية، وكلها مبادئ لا يمكن إلا أن تستولي على قلوب السكان البربر.

كانت الخوارجية عند البربر، مثلما كانت الدوناتية عندهم، مذهباً[1] شعبياً، أكثر في الأرياف منه في المدن، ومذهباً ثورياً أحياناً. وكان قادة الخوارج في الغالب مغامرين من جذور متواضعة: في القرن الثامن كان ميسرة سقاء في غرب المغرب الأقصى، بعد ذلك بقرنين كان أبو يزيد، صاحب الحمار والـذي كاد يحطم الإمبراطورية الفاطمية، ابن تاجر من الجريد.

يؤكد الخوارج على أن أي مسلم يمكن أن يُختار خليفة من قبل المسلمين، إذا كان أهلاً، حتى ولو كان عبداً أسود. ولا يؤخذ في الاعتبار الإيمان وحده، ولكن الأعمال كذلك. تبني البربر هذه العقيدة الثورية بحماس، خاصة من قبل زناتة وسط المغرب الكبير.

أسس الأباضيون، وكانوا الفرع الأقوى في الخوارج، مملكة تاهرت في وسط المغرب الكبير. وكان الإمام لهذه المملكة نبيلاً من أصل فارسي، ابن رستم، وهو ما لم يمنعه من أن يحيا حياة متقشفة بل حياة نسك. وقد جذب تأسيس هذه المملكة الخوارج المتفرقين في العالم الإسلامي.

كم كانت دهشة مبعوثي الجماعة العراقية عندما وصلوا إلى تاهرت ووجدوا ابن رستم مشغولاً بترميم الشقوق التي في سقف بيته بالملاط بنفسه. وقد قدم لهم الخبز والزبدة الذائبة في حجرة كانت وسادة ينام عليها، هي كل ما فيها من أثاث.

---

(1) استعمل المؤلف كلمة " ديناً " والصحيح " مذهباً ". المترجم



غرداية، عاصمة المزاب. المنارة المطلة على المدينة الأباضية

المقدسة والسوق في خارج المدينة يرمزان تماماً إلى وظائف هذه المدينة

تأسست المملكة الرستمية على الطهارة، وعلى شيء من الديمقراطية التي كانت ظاهرية أكثر منها حقيقية، لكن هذه الطهارة لم تكن مصحوبة، عند الأباضية على الأقل، بأي تعصب في مواجهة غير المسلمين وقد بقي جزء لا بأس به من سكان تاهرت من المسيحيين الذين أظهروا دائماً الإخلاص للأباضيين. وقد تبع هؤلاء المسيحيون الأباضيين في منفاهم في الصحراء.

مكنت الصرامة العقائدية مصحوبة بحجم مهم من الكتابات الدينية وعمق الأيمان، الأباضيين من البقاء في وسط المغرب الكبير بعد تدمير مملكتهم من قبل الفاطميين. وقد لجأوا إلى الصحراء في سدراتة ومزاب. كما بقيت جماعات أخرى منهم في المناطق شبه الصحراوية في ورقلة في الجزائر، وجربة في تونس، وجبل نفوسة في طرابلس الغرب.

لكن مذهب الخوارج نفسه عرف ـ مثل الدوناتية ولأنه في شكله البربري من نفس الطبيعة ـ انقسامات وتمزقات دامية. فالأباضيون كانوا مُعَارضين من الصفرية الأكثر تشدداً وثورية منهم. وحارب أباضيو جبل نفوسة قبيلة ورفجومة

الصفرية من الجنوب التونسي التي كانت قد استولت على القيروان وأرتكبت فيها تجاوزات لا يمكن وصفها ومجازر شنيعة. وأسست مكناسة، وهى من زناتة وكانت صفرية، في سنة 757 مملكة سجلماسة على طرف الصحراء، وكانت هذه المملكة تتحكم في الواحات وطرق القوافل إلى السودان. وفي هذه المملكة الثيوقراطية التجارية كان من الممكن شرعاً عزل الإمام من قبل الناس ويبدو أنهم استعملوا هذا الحق كثيراً.

النكارية فرقة أخرى من فرق الخوارج وجدت بعض النجاح في الأوراس. وكانت النكارية عقيدة متطرفة مالت إلى العقلانية بينما كان المعتزلة ينزعون عن أميرهم أي سلطة حقيقية.

أثرت حركة الخوارج تأثيراً عميقاً في الإسلام المغاربي وساهمت في إعطائه هذا التقشف الذي يناسب البربر تماما، والذي يتناقض بحدة مع البذخ الذي شهده الإسلام سواء في المشرق أو في أسبانيا المجاورة.

* أبو عبد الله وولاء كتامة :

على طول العصور الوسطى تبنى البربر بسهولة، وأحياناً بحماس، كل حركة إصلاحية خاصمت السلطة القائمة. وكان هذا الحماس أعمق لا سيما إذا دعا الداعية إلى الولاء الشخصي. ولا تفسر الأعمال البطولية لكتامة من منطقة القبائل الصغرى التي رأيناها تحتل المغرب الكبير ومصر لتؤسس لأحد المنحدرين من علي الإمبراطورية الفاطمية، إلا بهذا الاستعداد المسبق للولاء المطلق الذي تغرق فيه الشخصية.

بالنسبة للشيعة، ليس بين خلفاء محمد من هو خليفة شرعي، وأن عليا وحده والمنحدرين منه، أبناء فاطمة، هم الرؤساء الورثة للأمة الإسلامية.

اضطُهد الشيعة، وبمبررات، من قبل الأمويين والعباسيين فتشتتوا وأصبحـوا حزباً سرياً. وقد نشر دعاتهم، وهم مبشرون حقيقيون، عقيدة مواسية

تبشر بقدوم المهدى، الإمام الغائب وآخر المنحدرين من على، وسيكون منقذاً حقيقياً للعالم ويؤمن النصر النهائي للمؤمنين.

كانت قواعد الشيعة في المشرق، ومع ذلك فقد حقق المغرب الكبير انتصارها. ويعود الفضل في هذا الانتصار للشخصية القوية للداعية أبي عبد الله.

بدأت القصة في مكة سنة 893 م أو سنة 894 م حيث تعرف وجهاء من قبيلة صنهاجة من كتامة إلى يمنى مثقف جداً وبليغ، كان يبدو بالغ الاهتمام ببلدهم. وقد نجح هذا الرجل، أبو عبد الله، خلال عدة أيام في إقناع الكتاميين بسمو العقيدة الشيعية وجعلهم يوافقون على اصطحابه معهم. جعل هذا الداعية، الذي كان نفسياً ماهراً ومنظماً ممتازاً، من قرية إكجان البابورية بسرعة قلعة شيعية منيعة. وتجمع الكتاميون المفتونون في جيش متحمس كان مخلصاً لأبي عبد الله قلباً وقالبا. ولما سيطر أبو عبد الله على الجزء الأكبر من المغرب وأفريقيا سلم الإمبراطورية للمهدى عبيد الله.

مع هذا كان الولاء الشخصي لكتامة أقوى من إيمانها الشيعي: ويُرى ذلك بوضوح عندما برز المهدي حاكماً مستبداً، على غير توقع أبي عبد الله، وازدري نصائح مساعده ورفض كل محاولة للخضوع للرقابة. يبدو أن أبا عبد الله، بتحريض من شقيقه أبـي العباس، تآمر ضد المهدي عبيد الله الذي أعدمه سنة 911 م. وبسرعة تمرد الكتاميون وأعلنوا مهدياً غير حقيقي، لكنهم هزموا فعادوا من جديد إلى الولاء وأصبحوا أعمدة الأسرة الفاطمية. وحاربت كتامة للأسرة الفاطمية في المغرب وفي أسبانيا وصقلية وفتحت مصر.

* ابن ياسين، اللسان الواعظ في الصحراء:

حركة أخرى أكثر دلالة، هي حركة المرابطين: فباسم إسلام نقي انبعث في التشدد والتقشف، احتلت لمتونة، وهم بدو صنهاجيون من الصحراء، جزءاً كبيراً من المغرب وأسبانيا. لم يكن عبد الله بن ياسين مؤسس حركة

المرابطين ذا ثقافة واسعة مثل الداعية أبى عبد الله، ولكن عبد الله بن ياسين كان مثل أبى عبد الله قيادياً نشطاً. ومثله كان غريباً عن المجموعة التي قادها على طريق الحكم.

كانت تعيش في عمق الصحراء الغربية في القرن الحادي عشر مجموعتان بدويتان من صنهاجة؛ لمتونة، وجدالة التي نجد فيها منحدرين من الجيتوليين وربما اسـم الجيتوليين القدماء. نجح رئيسهم والوجهاء والمرافقون له إلى مكة، في أن يأتوا معهم بمثقف من جنوب المغرب عند عودتهم. ويبدو أن متاع هذا المثقف من المعارف كان محدوداً، ولكنه في عيون لمتونه الأجلاف كان يتمتع بمهابتين: أنه غريب وأنه متعلم. بدأ ابن ياسين بتجميع بعض المخلصين؛ اثنين من رؤساء لمتونة وسبعة من جدالة في رباط في جزيرة من السنغال أو في الساحل الموريتاني. كان يحض على الاحتقار الكلي للثراء، ويدعو إلى نظام صارم يعاقب كل خطأ بضربات سوط عرفنا البكري عن عددها في كل حالة. جذب التنظيم الجماعي للرباط بسرعة النفوس البسيطة المتعطشة للقداسة، وتبعت أعمال الغزو العسكرية. حلم آخـر طاهر... تحول إلى إمبراطورية.

* ابن تومرت، مصلح ورجل دولة :

يبدو لنا أن الإصلاح الموحدي الذي دعا إليه ابن تومرت كان أكثر مثالية. وشخصية ابن تومرت، الذي يدَّعى أنه المهدي، هى المعروفة أكثر من بين هؤلاء المؤسسين للإمبراطورية. وبالرغم من جعل أصول هذا البربري غامضة ليدعى أنه شريف، أي أحد المنحدرين من الرسول، فإننا نعرف انتماءه لقبيلة من السوس، هي قبيلة هرغة. وبفضل البيدق[1]، أحد تلاميذه الأوائل وكاتب مذكراته البسيط، تابعنا مجرى حياته منذ اليوم الذى ترك فيه قريته لزيارة المراكز

---

(1) محمد بن أبى بكر الصنهاجي الملقب بالبيدق صاحب كتاب أخبار المهدي وكان معاصراً لابن تومرت. المترجم

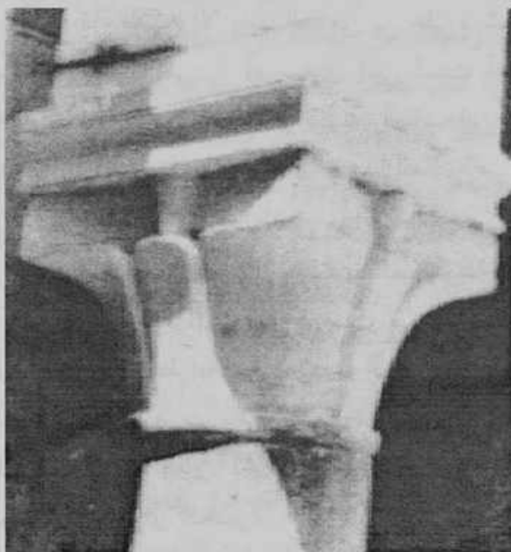
الثقافية الإسلامية الكبيرة، وكان قد أشتهر من قبل بحميته الدينية وتبحره في العلم وقد يكون ذهب إلى قرطبة ودمشق، وذهب بكل تأكيد إلى بغداد والإسكندرية وتونس. كان يحض من قبل على إصلاح العادات بحماس وعنف يعرضان أحياناً حريته، وحتى حياته، للخطر. قدر أن من الحذر مغادرة بجاية للاستقرار في بلدة مجاورة، ملالة، حيث كانت البداية الحقيقية لمهمته. وفيها أعد عقيدته وجمع أوائل تلاميذه. كان أقربهم إلى قلبه عبد المؤمن أبن أحد الفخارين من ندرومة (غرب الجزائر)، وقد اعتبره ابن تومرت رجل العناية الإلهيه الذي يجب أن يخلفه.. وقد ترك لنا البيدق رواية مؤثرة لاختيار الخليفة المقبل. في إحدى الليالي أخذ المصلح يد عبد المؤمن وأعلن: " لن تنتصر الرسالة التي يعتمد عليها بقاء الدين إلا بعبد المؤمن بن علي، شعلة الموحدين". قال عبد المؤمن ببساطة وهو يبكي: " آه سيدي إنني لست أهلاً لهذا الدور، إنني لست إلا رجلاً يبحث عن من قد يمحو ذنوبه. أجاب ابن تومرت: " إن ما يغفر ذنوبك سيكون الدور الذي تلعبه في إصلاح هذا العالم ".

كانت محادثة مع حاجين من الأطلس مرا ببجاية هي المناسبة لتحرك الموحدين الأوائل نحو المغرب الأقصى. وصلت المجموعة الصغيرة المكونة من حوالي عشرة أشخاص إلى مراكش، وحرصت في طريقها على نشر كلام طيب كما تسببت في بعض الاضطرابات في المدن المعبورة: تلمسان، ووجدة، وتازه، وفاس حيث برز ابن تومرت بتدميره متاجر تجار الموسيقى الذين كان يكن لهم مقتاً مؤكداً، على ما يبدو. أعاد في مراكش سيرته محطماً بضربات العصى آلات الموسيقى وجِرار الخمر، مُطارداً تحت الصياح أخت الأمير المرابطى التي كانت تتنزه غير محجبة في شوارع العاصمة.

أعلن ابن تومرت نفسه المهدي المنتظر، وعند عودته إلى قبائل مصمودة، أخوتـه عرقياً، نظم تجمع الموحدين بعناية ودراية بالرجال وهو ما يجعل من هذا الفقيه رجل دولة عظيماً. لقد أنشأ دولة جبلية حقيقية، منظمة تنظيماً محكما مزودة بجيش متحمس مهمته نشر العقيدة الموحدية حتى أفريقية وأسبانيا.

إننا نجد في هذا الإصلاح نفس الميل الفطري للتشدد الأخلاقي والبساطة العقائدية التي تميز كل المذاهب والبدع التي نشأت في بربريا خلال القرون.

كان صوت ابن تومرت يُدوِّي بالإدانة المطلقة للثراء في هذا العالم وما فيه من طيش وعبث، وكأنه صدى لصوت ليس أقل حدة، صوت ترتوليان. يبدو أن سير البربر البطيء نحو الله الواحد قد انتهى هنا بإعلان الوحدانية المطلقة لله الذي يذهب ابن تومرت إلى حد إنكار الصفات له (القوي، الرحيم، الغالب) التي يعطيها له المسلمون لأنها قد توحي بقبول القدرة الربانية للانقسام. وهكذا فالنتيجة الحتمية للقوة الإلهية المطلقة مفهومة على هذا النحو هي قدر كل المخلوقات: كل يجب أن ينتظر بخضوع كامل ما هو مقدر له منذ الأزل.



تونس

تاج عمود حفصي

لا يمكن أن يكون هذا النوع من الإسلام إلا متعصباً، إنه لا يتحمل التساهل الأخلاقي ولا النسبية في العقيدة ولا وجود الكفار.

كانت هذه المعطيات تتسق إلى حد الإفراط مع التصلب الجذري للبربر: هكذا، تحت عبد المؤمن، نظَّف المد الموحدي المغرب الكبير من كل الشوائب. ويبدو أن آخر المجموعات المسيحية أختفت في هذه الفترة.

من المدهش أن الإسلام المغاربي بقى متأثراً بعمق بالتشدد الموحدي بالرغم من تغلب المالكية، ويجب أن يُبحث عن التفسير في نفوس المؤمنين به لا في ذكرى هذا الإصلاح.

الدين الشعبي

لقد وصل آباء الكنيسة الأفريقية والمصلحون المسلمون من القرون الوسطى إلى قمم التفكير الديني، ولكن الدين الشعبي، خاصة في الأرياف، تعايش دائماً مع مفاهيم منحرفة عن معتقدات الدين القويم، ومتجذرة عميقاً في النفوس لدرجة أنها لا يمكن أن تختفي تماماً.

بينما كانت الدرجة العليا للتدين والتأمل الثيولوجي تقود إلى وحدانية صارمة أكثر فأكثر يمكن أن تعتبر العقيدة الموحدية نتيجتها، استمر التدين الشعبي يسكن الطبقات الدنيا.

يقر الإسلام بوجود الجن، التي تعرف تحت أشكال مختلفة، حياة موازية لحياة البشر. إنها ـ والحق يقال ـ تكوِّن عالماً من بعد آخر، عالماً يشبه عالمنا ولكنه من طبيعة أخرى. إن لهم رؤساء وملوكاً ويتزوجون ويلدون أطفالا، وعلى ما يبدو يشاركوننا عواطفنا. منهم لا مبالون، وبعضهم متسامحون أو عشاق، وآخرون أشرار أو على الأقل نزقون يضربون أو يصيبون بمرض غامض سيئ الحظ الذي يزعجهم في نومهم أو عملهم.

ينحدر عدد من هذه الجن من جنيات القدماء كما يوضح ذلك اسمها، ومثلها يلقى على الأقل آيات من الاحترام من طرف البشر، إذا لم يكن موضوع عبادة حقيقية. هكذا في الأرياف مقامة معابد بسيطة (حانوت، مزار) فيها تضع النساء فخاريات نذرية هي نفسها امتدادات للخزفيات الصغيرة قبيل التاريخية،

ومباخر أو شمعات بسيطة يُحرص دائماً على عدم إشعالها بالرغم من أن النار والنور يلعبان دوراً مهماً في هذا التقديس الذي لا يجرؤ على قول اسمه. على الشاطئ في الساحل التونسي، يُبتهل إلى " رجل البحر " عن طريق وضع شموع في تجويف في الصخر، أو بمجرد حفر ثقب في الرمل. في غالب الأحيان يُصبح حجر في صخرة أو كوة طبيعية أو تجويف في جذع شجرة محاريب ريفية، موضحة أحياناً بطلاء جدرانها بالجير، وهي ممارسة معروفة في العصور القديمة. أو أيضاً ببساطة أكثر كان يكتفي بربط صرر إلى أغصان الدغل حيث تتردد الجنيات على الأفرع المنخفضة لإحدى الأشجار.

لن أتوقف كثيراً عند هذا الشكل البدائي من أشكال التدين لأنه يكاد يكون عاماً ولا يمكن اعتباره خاصاً بالبربر إلا في صرامته الموغلة في القدم. لقد بقي في أفريقيا الشمالية بثبات أطول مما بقى في البلدان المتوسطية الأخرى بالرغم من أن المثقفين يتصنعون الجهل بوجوده أو يعتقدون أن الأمر لا يتعلق إلا بشكل أنثوي ومحتقر من أشكال الخرافات القديمة.

توقير القديسين امتداد مُحوَّر لعبادة الأسلاف بقي عبر المسيحية والإسلام. وإليه يعود انتشار القباب البيضاء ـ التي سماها الأوربيون مرابطين خالطين المحتُوَى والمُحتوِى ـ إذا جاز التعبير ـ والتي لا يمكن فصلها عن المشاهد المغاربية. وهي عبارة عن بناءات بسيطة لا تخلو من الأناقة تعلو فيها قبة بناء مربعاً يحتوي على قبر المرابط. عادة، يمكن العثور على الآثار التاريخية لهذا القديس في الروايات الشفهية وأحياناً في النصوص المكتوبة. ويُلحق بهذه القباب قاعات للصلاة عندما يتعلق الأمر بمؤسس طريقة أو شخصية موقرة بشكل خاص.

هناك مرابطون آخرون خرافيون؛ بعضهم له قبران أو عدة قبور (سيدي عبد الرحمن بو قبرين). بعضهم قديسون معالجون، وآخرون أكثر تخصصاً مثل للاتافورالت (شنوة)، وهم ضامنو العفة وإخلاص النساء، من هنا كثرة الأقفال والقرابين الموضوعة على قبورهم من قبل المهاجرين.

هناك مرابطون آخرون، وهم كثيرون فعّالون ضد العقم النسائي.

لكن، هناك مزارات ريفية أخرى لا يُجرؤ على تأكيد أنها تحتوي حقاً على قبر. وهى تجاور أطلالاً معتبرة غامضة، أو أن هذه المزارات مشيدة على جثوات قبيل تاريخية واعتبرت إسلامية، كما سبق اعتبار بعض النصب الحجرية في بريطانيا[1] مسيحية. وفي بعض الحالات يطلق الناس على هذا الشخص الحقيقي أو المفترض اسم سيدي المخفي انطلاقاً من الحرص على عدم إغضابه.

أخيراً، هناك رجال موضوع توقير عميق أثناء حياتهم. ويتعلق الأمر بأشخاص ورعين، يعيشون حياة مثالية. وقد أدان العلماء هذا التوقير الذي ينطوي أحياناً على آثار عبادة الأشخاص وهو ليس حكراً على الإسلام المغاربي. كما أن آخرين حظوا بهذا التوقير عن طريق الوراثة سواء للادعاء بأنهم أشراف منحدرون من النبي، أو لأنهم منحدرون من مرابط مشهور يتقاسمون معه البركة. وقد اسيئ استعمال مفهوم البركة بواسطة كتابات المستشرفين واللغة العسكرية لدرجة أنها أصبحت تعني فقط حظاً متواصلاً. وهي، كما يوضح اسمها، نعمة لدنية حقيقية تحيط شخصاً، وأحياناً المنحدرين منه، بهالة خاصة. وهكذا يمكن أن يكون هذا الرجل الموسوم المتميز عن الناس العاديين، صانع معجزات أو مدعيها أو مستشاراً أو حامياً، لأن المحبة التي يحظي بها تنشئ التزامات خطيرة؛ ففي زمن الاضطرابات يكون مُحكّماً طبيعياً، والويل لهؤلاء الذين يرفضون حكمه. ويمكن أن تكون بركته مرتبطة به بعد وفاته ومن ثم بقبره الذي يصبح ملجأ أو مزاراً، أحياناً مهماً. وتتشابه هذه الموسن[2] تشابهاً كبيـراً مع الغفران في بريطانيا[3] وتلعب نفس الدور المنظم للتلاحم الاجتماعي في المنطقة.

---

(1) مقاطعة فرنسية، وليست المملكة المتحدة. المترجم.

(2) كلمة تعني " حج " في جبال أطلس المغربية. المترجم.

(3) مقاطعة فرنسية وليست المملكة المتحدة. المترجم.



مزار في مقبرة ريفية

سيدي محمود منطقة سطيف (الجزائر)



شجرة مقدسة " مزار"

أسفل شجرة فستق في تيزى. منطقة مسكرة الجزائر



قافلة صغيرة في عرق ادمر

هكذا، اتسمت أرض البربر على طول القرون بتدين عميق. ويتجسد المقدس المنتشر في الطبيعة أحياناً في صخرة، وأحياناً أخرى في شجرة أو يُودع في شخص من رجال الله. ولكن هذه التجليات ما هي إلا انعكاسات ضعيفة للقدرة الكلية لله الواحد، والجن، وهي امتداد للجنيات والأرباب الصغار القدماء خاضعة له مثل البشر: الله هو الله.

❊❊ ❊❊ ❊❊



الفصل الخامس

الدوام البربري

الدوام البربري



لم يكن استعراب غالبية البربر القدماء ظاهرة تثاقف كلي؛ فقد حافظ سكان أفريقيا في عاداتهم ولسانهم وفنونهم، خاصة في الأوساط الريفية، على سمات سابقة للإسلام والعروبة.

إن هناك استمرارية بربرية تسبح فيها أفريقيا الشمالية بكاملها. ولا يمكن تقديم هذه الاستمرارية البارزة تقريباً، كتفرع ثنائي يتيح فصلاً اصطناعياً "للعرب عن " البربر ". حتى في الأقاليم التي قد تُسهِّل فيها العزلة الجغرافية محافظة عميقة جداً حدثت تداخلات خلال القرون خاصة في قرننا[1]، ولم تكن دائما لصالح العادات المشرقية بشكل تلقائي.

لكن هذا الاستمرار البربري، المؤكد غالباً، ليس واضحاً دائماً، وليس قاصراً على المجموعات الناطقة باللغة البربرية. إنه أقل نقاوة وفي نفس الوقت أكثر اتساعاً مما يقول به أغلب المؤلفين. باختصار، إنه ما يصنع أصالة المغرب الكبير في العالم العربي وفي العالم الأفريقي في نفس الوقت.

إن الاستمرارية لا تعني المحافظة المطلقة. بل إن قوامها المحافظة على تقاليد فنية دائمة بقدر ما هي بسيطة، وبعض أنماط التفكير، وتصرفات اجتماعية أو فنية مترسخة في أعماق المغاربة تنبعث دورياً كلما بدا أن الثقافات الوافدة ألغتها منذ زمن طويل. إن المجموعات البربرية ليست منغلقة على كل تجديد، بالعكس إنها تعرف أحياناً كيف تستوعب التجديدات بسرعة مدهشة،

(1) يقصد المؤلف القرن العشرين. المترجم.

وكذلك كيف تحافظ عليها لدرجة أن كثيراً من المنتجات والتقنيات التي يمكن تاريخياً متابعة توطنها في شمال أفريقيـا أصبحت اليوم " بربرية " صرفة.

يكتسب البربري بسهولة ولكنه يهجر بصعوبة، وهكذا أصبح المغرب الكبير، خاصة في مناطقه الجبلية، مَحْفظاً مدهشاً للعادات والتقنيات.

في الزمن الذي كانت توجد فيه ثقافة كلاسيكية، كان الرحالة أو عالم الأجناس ينقاد لا محالة أمام الحقائق المغاربية الراسخة لاستحضار الثقافات المتوسطية القديمة: القرية القبائلية بجامعها كانت تقارن بأثينا..... بدون رخام البنتيليك! إن مقارنة التصرفات اليومية ومواد فلاح جرجرة[1] ومعداته مع تصرفات فلاح اليونان ومعداته الموغلة في القدم أكثر دقة من المقارنات في زمن الثقافة الكلاسيكية. لقد كان لهما نفس المنتجات الزراعيـة، ونفس المعدات، ونفس الذوق للديكور الهندسي، ونفس التقديس تجاه جنيات الأرض والماء، ونفس الحذر من الرُّقي، ونفس الحكايات الرائعة التي يُخدع فيها الغول دائماً من قبل الإنسان " الاجتماعي " الذي يعوض ذكاؤه ـ وحتى حيلته ـ الضعفَ الجسدي.

لا يمكن استعراض المكونات المختلفة لهذه الاستمرارية البربرية. لقد قاومت بعض الخصائص القديمة لآلاف السنين ولم يعد يشار إليها بسبب وضوحها الشديد. سأذكر في المقام الأول الكتابة الليبية.

الليبية والتيفناغ

رأينا أن اللسان البربري مع اللسان الأثيوبي الذي ينتمي مثله إلى المجموعة الحامية ـ السامية، هو اللسان الأفريقي الوحيد الذي يمتلك كتابة مستقلة. لقد بقيت الكتابة الليبية حتى أيامنا هذه عند الطوارق، ويسمون تيفناغ هذه الحروف نفسها التي مرت بتغييرات محتومة.

---

(1) بلدة في الجزائر. المترجم

هذه طريقة كتابة لسان بقى حيا بعد استعمال اللغة البونيقية، واللاتينية، والعربية، وهذا منذ حوالي ألفين وخمسمائة عام.

مع مراعاة الفارق، يبعث بقاء التيفناغ على الدهشة بنفس القدر الذي كان سيدعو فيه إلى الاستغراب بقاء الحروف الأترورية في بعض القرى البعيدة في ابينينيا[1] أو الحروف الرونية في أحد الأودية الاسكندنافية.

أكثر من ذلك، لم تستخدم قط هذه الكتابة البدائية ذات الحروف الصامتة لنقل أي آداب. عندما يعبر البربري على غير شواهد القبور أو على غير النقوش للحب، فأنه يأتي ذلك بالبونيقية في عهود الملوك النوميديين والموريين، أو باللاتينية في زمن أبوليوس"Apulee"أو القديس أوغسطين، أو بالعربية أو الفرنسية.

إن استمرار الكتابة الليبية بشكلها الصحراوي الحالي أمر مؤثر، خاصة وأنها موغلة في القدم وتعود جذورها إلى ما قبيل التاريخ.

* أصول الكتابة الليبية :

لقد تعقد موضوع عمر النقوش الليبية بسبب عدم وجود أبجدية ليبية واحدة في القدم، وإنما أبجديات ليبية عديدة: الشرقية وكانت مقتصرة على تونس وولاية عنابة الحالية في الجزائر، والغربية وكانت تغطي مساحة شاسعة حتى المحيط الأطلسي وكان لها في المغرب بعض العلامات غير المعروفة في المناطق الأخرى، وأبجدية صحراوية قديمة (تيفناغ القدماء) كانت تختلف قليلاً عن الأبجدية الغربية، وأخيراً أبجديات التيفناغ " الحديثة " التي تنتمي دون شك إلى نفس المجموعة التي يجب أن تربط بها كذلك كتابات جزر الكناري. باستثناء التيفناغ الحالي، وحدها حروف الأبجدية الشرقية لها قيمة حقيقية بفضل كتابات دقة[2] الثنائية الليبية ـ البونيقية.

---

(1) سلسلة جبال على امتداد شبه الجزيرة الإيطالية، يبلغ طولها حوالي 1500 كم.المترجم

(2) بلدة تونسية. المترجم

تحتوي الأبجدية الغربية على علامات إضافية غير معروفة في الأبجدية الشرقية، وليس للأبجديات الصحراوية دائماً نفس قيمة العلامات المعادلة لها في الأبجدية الشرقية.

إن البلاد المفضلة للنقوش الليبية هي شمال شرق تونس والجزء المجاور لها من الجزائر. وهما منطقتان مسيليتان ومهد المملكة النوميدية حيث بقيت اللغة والكتابة الليبية حيتين لمدة طويلة، كما سبق رؤيته. وفي دقة، وجدت الكتابة الليبية الوحيدة المحدد تاريخها بشكل قاطع، وهي عبارة عن إهداء على قبر مقام لذكرى مسينيسا في السنة العاشرة لحكم ابنه ميسبسا (سنة 138 قبل الميلاد).

لا يعنى الواقع المتمثل في أن الكتابات الشرقية هي الأكثر وأن من بينها الكتابة الوحيدة التي حُدِّد عمرها، أن الأبجدية الشرقية سابقة بالضرورة للابجدية الغربية، وحتى للجنوبية.

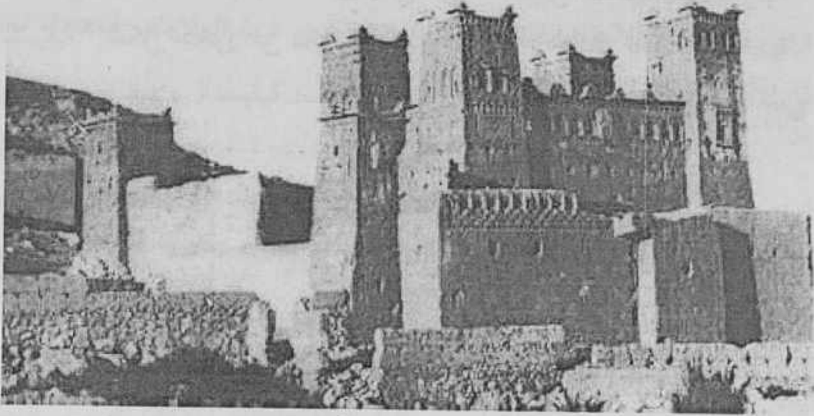
لو كانت الأبجدية الليبية مشتقة مباشرة من الأبجدية الفينيقية كما كانت مستعملة في أُوتيكا (عتيقة) Utique أو قرطاج، أو أن الأبجدية الشرقية اخترعت من قبل مسينيسا، كما اقترح، دون حذر، ملتزر Meltzer، لقادنا ذلك إلى اعتبار أن هذه الأبجدية المكونة من 23 حرفاً هى النموذج الذي استوحيت منه المجموعات الليبية الأخرى، ولكن لا يمكن القبول بأي من هذه الافتراضات.

في الواقع، ليس من الممكن تحديد أصول الكتابة الليبية. ويبدو أن هذه الأبجدية مشتقة من نماذج بدائية غير معروفة حتى الآن، وهى التي أعطت الأبجديات الفينيقية والسامية الجنوبية. لم يكن انتشار الكتابة في أفريقيا عن طريق البحر بالضرورة: ففي النوبة اكتشف مؤخراً نقش تبدو حروفه أقرب إلى الأبجدية الغربية منها إلى حروف الأبجدية النوميدية الشرقية.

في المحصلة النهائية، لا يبدو لي من المستحيل أن الأبجدية الشرقية " المسيلية " شكل متحور من الكتابة الأصلية نتيجة الإحتكاك بالكتابة البونيقية، بينما خارج البلاد المسيلية استمر استعمال الأشكال القديمة وتطورها حتى التيفناغ الحالي.

قدم الليبية والتيفناغ :

إن من الأكثر صعوبة تأريخ إدخال هذه الكتابة أو اختراعها، وقد أظهرت أعمال حديثة (Camps,1975) أنها أقدم مما كان يعتقد. وفي دقة نفسها، هناك بعض الكتابات سابقة بأجيال عديدة للأهداء المؤرخ بسنة 138 ق.م. وفي تيديس Tiddis، توجد آنية تحتوي على عظام حدد تاريخها بواسطة الكربون 14 بسنة 250 ق.م، وكانت هذه الآنية تحمل على جوانبها كتابة ليبية مرسومة، ويمكن تمييز علامة في الكتابة الليبية على آنية أخرى من مقبرة رشقون يعود تاريخها إلى القرن السادس قبل الميلاد، وهناك نقش جداري في ياغور (الأطلس الكبير ـ المغرب) قد يكون أقدم. أما عن التيفناغ، فمن الصعب تحديد أقدميته بسبب ضعف التسلسل الزمني الصحراوي. وبفضل أعمال التنقيب في بونجيم في طرابلس الغرب عرف أن للجرمنت أبجدية خاصة في القرن الثاني من زماننا وربما قبله. وفي مقبرة جرمة (فزان) تحمل فخاريات مستوردة تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد، حروفاً ليبية محفورة بمنقاش. وشيد في قلب الهوجار نصب تين هنان الجنائزي بقطع حجرية تحمل كتابات بالتيفناغ " الحديث "، وهى متقطعة بسبب تقصيب الحجارة، وسابقة للقرن الخامس الميلادي، زمن بناء هذا القبر. إن التيفناغات القديمة أقدم بكثير مما كان يفترض. وتبدو معاصرة للكتابات الليبية في الشمال.



تغرمت (قصبة، بالعربي) في المدينة.
منطقة أورزازات (جنوب المغرب)

فن يتحدى القرون

يقدم الفن أمثلة مهيبة عديدة لهذه الاستمرارية البربرية التي حاول إبرازها العديد من المؤلفين.

في الواقع، ما سمى بـ " الفن البربري " في شمال أفريقيا وفي الصحراء ما هو في الغالب، إلا شكل بدائي من أشكال الزخرفة النابعة من تقنيات بسيطة تتجلى عادة في أشكال هندسية عرفتها أغلب الثقافات المتوسطية في مرحلة أو أخرى من مراحل تطورها، وفي بداية عصر الحديد بدقة أكثر. وقد بقي " الفن البربري "، بالكثير من ملامحه، فناً من عصر الحديد.

* قلاع من الطين ومخازن حبوب جماعية :

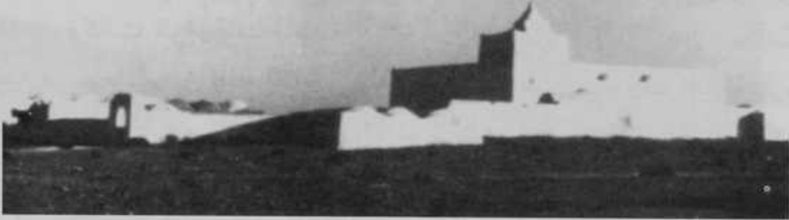
قد يقودنا ما سبق إلى تأكيد أن " البربرية " لا تتجلى إلا في فنون الديكور والفنون الصغيرة. والاستثناءات الوحيدة هي بعض الإنجازات المعمارية

المحصورة مكانياً مثل التغرمات " القلاع " الكبيرة المشيدة من الطين والحجر في الجنوب المغربي. ولأقدم هذه القلاع هيئات مهابة، ولها أبراج كبيرة مربعة بشرافات. وكانت الواجهات بسيطة ومزخرفة بسلاسل عقيدات بارزة وبأشكال هندسية مرسومة ببروز قطع الأجر الطينية. وتتشابه هذه الزخارف البالغة الروعة أحياناً، مع الزخارف التي تزين الأثاث الخشبي في منطقة القبائل الكبرى والصغري، ومع زخارف المنسوجات من كل نوع؛ البسط، والأغطية، والأكياس الكبيـرة (تليس) في كل بلدان الشمال الإفريقي سواء كانت من عمل الحضر أو الرحل الناطقين بالبربرية أو العربية. كثير من هذه القلاع الهشة اليوم خرب وأخرى حولت إلى فنادق ممتازة، كانت تستخدم مقار إقامة ذات مهابة. مع ذلك فقد كانت تنتمي إلى مجتمع ريفي صرف. ولا يمكن العثور في أي مكان آخر في شمال أفريقيا على مثل هذه المباني الجميلة الشامخة وهى تحف حقيقية من عمارة نبيلة شيدت بأبسط المواد.



غلة. مخزن حبوب محصن

في بنيان. الأوراس (الجزائر)



زاوية في جربة.

تونس

بينما يغلب الأحمر الأجري في المناظر المعمارية في بلاد الأطلس الصحراوي فإن اللون الأبيض عند أباضيي مزاب وجربة يبرز على سماء زرقاء صافية غالباً. وهنا تبدو الأشكال أقل جسارة وفظاظة وأطيب للنظر. لقد تلاشت حتى زوايا المباني، وحتى درجات السلالم، مع مرور القرون تحت طبقات عديدة من الجير الذي يغطي سنة بعد أخرى ككفن القباب والمساكن والخزانات وحتى المطريات المصانة بعناية في جربة وجرجيس.



أغادير

مخزن حبوب محصن في فريفري. منطقة تيزنيت

(جنوب المغرب)

بالرغم من هذه التناقضات الظاهرية أكثر منها حقيقية، نجد في هذه المناطق الجرداء من قبل التي تحد من الجنوب الأراضي الخصبة في المغرب، نفس عادات بناء مخازن الحبوب الجماعية المحصنة غالباً. توجد في داخل هذه المباني الواسعة ذات الأشكال والأسماء المختلفة: أجادير في جنوب المغرب، وغلى في الأوراس، وغرفة في الجنوب التونسي العديد من الحجيرات التي يمكن للأسر أن تضع فيها احتياطياتها. تنتظم الحجيرات في اجاديرات الأطلس الصحراوي عادة في ثلاثة صفوف، ولكل أسرة حجيرة في كل صف. حجيرات الطابق الأوسط أقل تأثراً بعوامل المناخ من حجيرات الطابق الأعلى، واقل تعرضاً للقوارض من حجيرات الطابق الأسفل، ومن ثم فهي مطلوبة أكثر لو لم يمنع هذا التقسيم الحكيم أي استئثار. ونجد في هذا الإجراء تطبيقاً لمبدأ قديم للمساواة ساد في كل " الجمهوريات " القروية لبلاد البربر.

* صناعة الفخار المقولب : تقنيات وأشكال موغلة في القدم :

نختار في بلدان الشمال هذه شكلاً آخر من أشكال الفن، أبسط بكثير من العمارة، ولكنه يُبرز، دون أدنى شك، الطابع المميز للاستمرارية المدهشة للتقنيات في العالم البربري. إنه صناعة الخزف المقولب.

يحتفظ هذا الخزف، الموصوف غالباً باسم محدد: الخزف القبائلي، بسمات قديمة جداً في صناعته كما في شكله وزخرفته.

لا ينتج هذا الخزف إلا في الريف، وهو مشكل بمساعدة لفائف قصيرة موضوعة بعضها فوق بعض على قاع مسطح. هذا النوع من صناعة الخزف معروف جداً، ووجد في كل البلدان المتوسطية قبل إدخال دولاب الخزف، وتطوير خزف حضري ذي طابع صناعي. وبينما قضى دولاب الخزف تدريجياً على تقنية الخزف المقولب حول كامل البحر المتوسط، بقي المغرب الكبير وحده محتفظاً بهذه التقنية الموغلة في القدم، حية حتى أيامنا.

يصنع هذا الفخار بواسطة النساء ويحرق بالنار في الهواء الطلق أو في حفرة قليلـة العمق، وهو قليل التكلفة ويتوافق مع الاحتياجات العائلية. وهكذا فإنه ليس موضوع متاجرة باستثناء بعض الأشكال الخاصة مثل الأطباق المصنوعة من الطين بالميكا(1) في آيت خليلـي (منطقة القبائل)، والذي كان الرجال يبيعونه عند القبائل المجاورة.

تتوافق مع قدم التقنيات التي هي نفس التقنيات التي أعطت فخاريات النصب قبيل التاريخية (انظر الفصل الثاني)، أشكال تذكر بشدة بأشكال فخاريات البلدان المتوسطية في عصر البرونز وعصر الحديد، خاصة فخاريات صقلية وشبه الجزيرة الإيطالية. لاشك أن تشابه الأشكال قد لا يكون نتيجة طبيعية لاستعمال نفس التقنيـة. مع ذلك، هناك تفصيلات، تبدو تافهة، بلغت درجة من الدقة البالغة بحيث لا يمكن إهمالها. مثل هذه الآنيـة بمرشح رأسي مفتوح على عنق أنبوبي، المعروفة في المقابر قبيل التاريخيـة فـي قسطل (منطقة تبسة)، وفي ماقروا (منطقة مكثر) وذات الأشكال النادرة، ولها نظائرها المطابقة لها تماماً في قبور نهاية عصر البرونز في صقلية وبازليكات(2). ولخزف الأوراس مقابض بواقيات غير معروفة في بقية المغرب، وهي مشابهة تماماً للفخار من نوع البولادا (عصر البرونز في إيطاليا).

تتشابه الفخاريات الحالية، مثل الأواني القديمة، إلى حد كبير جداً مع منتجات صقلية قبل التاريخية. فمن جانب وآخر، نجد الأواني ذات العنق الأنبوبي بدون طوق في الفوهة، والأواني ـ الرضاعات وهى متشابهة في الأشكال والأبعاد لدرجة يمكن استعمال إحداها بدل الأخرى. وتمثل المقابض الصابة وهي مناقير طويلة قائمة موازية لرقبة الإناء وموصولة به بجسر، سمات مميزة للفخاريات المقولبة المغاربية خاصة المجموعات القبائلية. مع ذلك، فالأمر يتعلق بشكل متوسطي قديم جداً معروف منذ العصر الحجري الأخير

---

(1) حجر طبيعي لامع يتكون من صفائح بعضها فوق بعض. المترجم.

(2) منطقة من جنوب إيطاليا. المترجم

(النيوليتي) وقد انتشر من أسبانيا إلى أسيا الصغرى. وأحدثها، في فضاء نماذجنا القبائلية، هي المنتمية إلى ثقافة العصر البرونزي في تابسوس " Thapsos " في صقلية. يمكن أن يقال نفس الشيء عن الجرار ذات الرقبة الأسطوانية العريضة القائمة على بطن شبه كروية ولكن بقاعدة مستوية، ويكرر هذا الشكل الموجود بكثرة في منطقة القبائل الصغرى، أواني من العصر الشالكوليتى الصقلي، وهو معروف كذلك في خزف عصر الحديد في إيطاليا (فيلانوفيان Villanovien)



فخاريات كاستيليكيو

(العصر الشالكوليتي. صقلية)

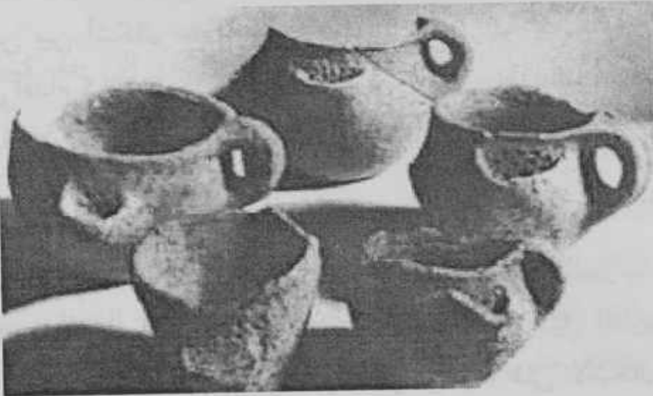
كشفت مقبرة كاسيبيلي " Cassibili " (سيراكوزا) المميزة بحوانيتها ذات الطوابق، من بين أشكال عادية موجودة في كل أفريقيا الشمالية، عن أقداح مرفوعة على أقدام كبيرة تشبه " المثرد " المغاربي. وتتوج هذا التشابه تغطية الأواني بطبقة صمغية وهو ما يُمارس بشكل شائع في الفخاريات القبائلية المطلية.

※ قدم النمنمة الهندسية :

يدعم الملاحظات السابقة حول قدم الأشكال وحول التقارب بين الخزف البربري المقولب والفخاريات القديمة قبل التاريخية أو قبيل التاريخية لمنطقة وسط البحر المتوسط، فحص الزخرفة. وتقتصر الزخرفة على الأشكال الهندسية، المستقيمة غالباً، ولكنها شديدة التنوع. إذ يوجد عدد لا يحصى من الأساليب الإقليمية التي تنقسم إلى نوعيات محلية وحتى أسرية. ووحدها متابعة طويلة

لهذه المنتجات التقليدية تمكن من التعرف على الأساليب الأساسية بالرغم من التشابه الظاهر. مع ذلك، يمكن بسهولة معرفة التمييز بين إناء من مسيدرة (تراراس - منطقة وهران) وآخر من زرهون (المغرب) أو شنوة (الجزائر). وتختلف زخرفة إبريق من الأوراس عن زخرفة الأباريق في منطقة القبائل، وفي منطقة القبائل نفسها يمكن التمييز بين منتجات القرى المختلفة عن طريق فحص زخارفها.

توجد فخاريات ذات زخارف بنية مرسومة مباشرة على العجينة المسواة. وهذا هو الحال على بعض الأواني قبيل التاريخية وعلى فخاريات الجنوب التونسي ونمامشة. تُغطي هذه الأواني في غالب الأحيان بدهان قبل طلائها. قد يكون هذا الدهان أبيض كما هي العادة المتبعة بشكل مطلق في منطقة القبائل الصغرى، وشرق الجزائر، وشمال تونس وغربها، ويبقى شائعاً في غيرها. وترسم على هذا الدهان الأبيض الأشكال باللون البنى أو اللون الأسود. ويستعمل في منطقة القبائل الكبرى دهان أحمر يصقل دائماً بعناية فائقة وتخطط عليه الأشكال بالأسود، وبالأبيض استثناء. وفي هذه المنطقة يستعمل كذلك لأواني الزاد الكبيرة والجرار ذات العروتين اللونان مع تفضيل اللون الأحمر للرقاب، وترسم الأشكال باللون الأسود ويمكّن فائض الدهان من تسوية سطح الإناء وتثرية الزخرفة التي تصبح متعددة الألوان.



إناء بمرشح عمودي من مقبرة قسطل:

وكانت توجد فخاريات مشابهة من عصر البرونز في صقيلة وايطاليا الجنوبية



إناء بمنقار، انسيابي ومزود بمقابض بواقية مثل منتجات خزف عصر البرونز الإيطالي (أسلوب بالودا):

فخاريات الأوراس الحالية

بالرغم من الرتابة الظاهرة التي توحي بها الأشكال الهندسية المثلثية الطاغية في كل المناطق، فإن الرسومات شديدة التنوع. في حدود معرفتي هناك مقاطعة واحدة محدودة في القبائل الصغرى غرب جيجلي ترسم على فخارياتهـا، بالإضافة إلى الأشكال الهندسية المعتادة، أزهار وخضراوات تتداخل بغرابة مع الأشكال الهندسية. كان هذا الأسلوب الزهري سيعتبر استثناء غير قابل للتفسير لو لم يُمكّن فحص دقيق من العثور على علامات صغيرة إنسانية الشكل وحيوانات وخضراوات مختفية ـ أحياناً ـ بين زخارف فخاريات المناطق الأخرى. وقد كشفت دراسة معمقة أن الأشكال الهندسية ذاتها، الكاملة التجريد اليوم، هي ثمرة ـ أو بالأحرى بقايا ـ رسوم قديمة أنحلت تدريجياً بالرسم التبسيطي. وتوجد نفس هذه الأشكال الهندسية المرسومة على الأواني أو على الجدران، وغير المفهومة اليوم من الذين ينتجونها تقليدياً، على المنسوجات وفي الوشم. وتبرز الأسماء المجازية المعطاة لهذه الأشكال (الجندي، الفراشة، عين الحمار........) جذورها التشكيلية، وتمكّن أحياناً من التعرف على معناها البدائي.

يبدو من غير المفيد التأكيد على العلاقة المباشرة بين زخارف الفخاريات قبيل التاريخية وزخارف الفخاريات الحالية. ومازالت تزخرف حتى اليوم أواني بأسلوب تيديس (القرن الثالث قبل الميلاد). إن التطابق لا يقتصر على الرسوم، ولكنه يشمل التكوين، وترتيب الفراغ، وتوازن الرسومات. وكم كانت دهشتي عندما وجدت على طبق مرسوم سنة 1955 م في شمال الأوراس زخارف محفورة على بيض نعام بونيقي تعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد.

لا تجب المبالغة في قدم الأشكال الهندسية ـ وهي أكبر في المشرق منها في المغرب ـ، لأنه خلافاً لما يمكن أن يعتقد، ليس التبسيط الهندسي الذي ربما يحول ظل إنسان إلى لعبة شيطان، أو العصفور إلى مثلث، أو الشجرة إلى حسكة، نتيجة تطور طويل. وقد أوضحت آنية صغيرة اكتشفت في تيديس كيف أن هذا التبسيط يتم فوراً تقريباً. فهذه الآنية مزخرفة بنقش لعصافير مرتبة بين شبكتين. وقد بدأ الصانع برسم ثلاث بطات يمكن تمييزها بسهولة، ثم انتقل إلى رسم مثلثات بزوائد تمثل الرأس والمنقار، ولم تصبح هذه الزوائد لاحقاً إلا مجرد خطوط معقوفة.

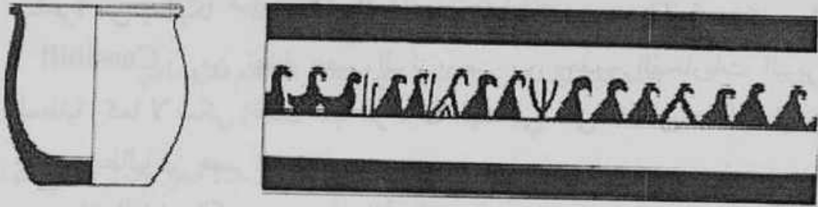


فخاريات مطلية من منطقة القبائل الصغرى

* الأصول المتوسطية للفخاريات المقولبة والمطلية :

تكون هذه الزخارف التي تبدو ألغازاً رمزية، جزءاً من الإرث الفني القديم للسكان البربر في الشمال. لقد تم تجاهل وجود الخزف المطلي القديم لزمن طويل، ومن المحتمل أن التشابه الكبير بين الإنتاج القديم والإنتاج

الحديث أدى إلى إهمال الأعمال القديمة. مع ذلك لم يتردد بعض علماء الأجناس والآثار (ماك إفر، Mac Iver، وفان جنب Van Gennep، وشانتر Chantre) في عقد مقارنات بين الخزف المقولب في شمال أفريقيا والمنتجات الرائعة من العصور قبل التاريخية وقبيل التاريخية في منطقة البحر المتوسط والمشرق. وقد أوضحت الأشكال والزخارف، في مختلف دراسات الأساليب، تشابهاً كبيراً لا يمكن معه تجاهل فكرة العلاقة والإرتباط. وتقدم قبرص خاصة بأسلوبها الهندسي قرابة قوية مع منتجات خزف بربريا، وبالفعل كانت هناك علاقات بين هذه الجزيرة وشمال أفريقيا فقد كان القبارصة من بين مؤسسي قرطاج.



آنية تيديس (القرن الثالث قبل الميلاد)، المرور من زخارف رسم الأشكال إلى الرسوم المبسطة

لقد حورب بشدة هذا الافتراض الذي كثيراً ما اقترح دون أن يُدعم في أي يوم مـن الأيام، بدراسة كاملة لمختلف المجموعات الفخارية. وبدا من الأفضل عند أ. ج. جُوبير E.G. Gobert على سبيل المثال، الاعتقاد بأن هذه الخزفيات، المعزولة زمانياً ومكانياً، كانت تظهر أوجه تقارب غريبة نابعة من استعمال نفس التقنيات في التشكيل كما فـي الزخرفة، ومن ثم فلا يتعدى الأمر تشابهات بالصدفة.

لم يعد هذا الوضع قابلاً للدفاع عنه منذ اكتشاف الفخاريات المطلية في النصب الجنائزية الشمال أفريقية من العصر قبيل التاريخي. وقد مكنتني منذ سنة 1956 م، مقابلة الفخاريات المطلية المختلفة التي تعود إلى عدة قرون قبل

الميلاد من ربط إدخال تقنية الخزف المطلي مع ملامح ثقافية أخرى أصولها من شرق المتوسط ووسطه.

قد لا يكون في مقدورنا أن نؤكد أن الخزف الشمال أفريقي يعود في جذوره إلى هذا الإنتاج أو ذاك المميز لإقليم معين أو ثقافة محددة، ولكنني أميل لإعطاء أهمية خاصة، بسبب التشابه والقرب الجغرافي، لفخاريات صقلية من بداية عصر الفلزات وبشكل خاص للفخاريات من أسلوب كاستيلوكسيو (1800 ـ 1400 قبل الميلاد) التي انتشرت في جميع أنحاء الجزيرة وتم تقليدها في مالطا، وذلك أكثر من التأثير القبرصي المباشر. كما يمكن اعتبار أساليب متأخرة من بنتاليكا " Pentalica "، وتابسوس " Thapsos "، وكاسيبيلي " Cassibili " من نهاية عصر البرنز، من بين جذور الفخاريات البربرية المطلية. كما لا يمكن إغفال غلبة الزخرف الهندسي على الفخاريات المحلية في جنوب إيطاليا في عصر الحديد.

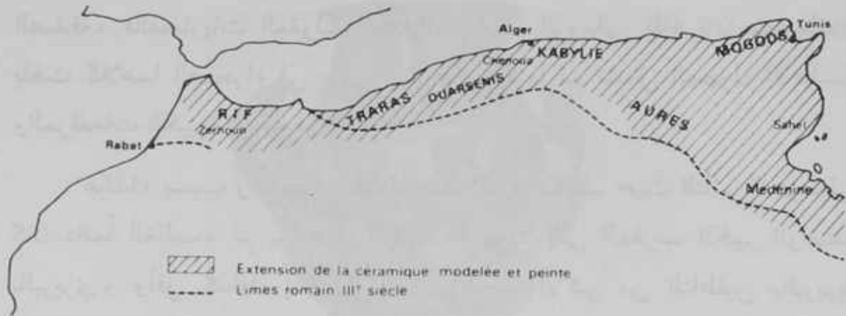
إن التشابه الكبير بين هذه الأساليب الخزفية على جانبي مضيق صقلية ليست الملامح الثقافية الوحيدة المُوضحة للعلاقات الموغلة في القدم بين شبه الجزيرة الإيطالية والجزر الإيطالية من جانب والمناطق الشرقية من شمال أفريقيا من جانب آخر. إن أكثر الظواهر دلالة بعد التصدير القديم جداً لأحجار السبج[1] من الجزيرة إلى أفريقيا والإدخال بنفس الطريقة للدلمنات والنصب الميجاليثية[2] ذات العلاقة، هو الوجود في شمال تونس وشرق للجزائر لنفس النواويس[3] الصغيرة الموجودة في صقلية. وتحتوى هذه القبور المكعبة المحفورة في سفوح الصخور في صقلية على مختلف أساليب الفخاريات (كاستيلوكسيو، وكاسيبيلي) التي قبلنا بأنها يمكن أن تكون منبع الخزف المقولب المطلي في المغرب.

---

(1) السبج: حجر زجاجي أسود. المترجم.

(2) السابقة للتاريخ والمبنية من الحجارة الضخمة. المترجم.

(3) ناووس: مدفن تحت الأرض. المترجم.



يتطابق امتداد الفخاريات المقولبة

والمطلية في المغرب الكبير مع امتداد الحكم الروماني

تأتي ملاحظة أخرى لتدعم بشكل أكيد القول بالأصل المتوسطي لهذا الخزف. من المدهش هذا التوزيع الغريب للخزف الذي يبدو أنه لا يخضع لأي اعتبار جغرافي أو اثني. فهو غير مرتبط بمناخ معين لأنه يوجد في المناطق شبه الصحراوية للجنوب التونسي (تطاوين ومدنين) كما في المنطقة المطيرة من المغرب (رأس بايرس، وقبس بنى مكادة)، وهذه الفخاريات تصنع من قبل سكان الجبال (الأوراس، والقبائل، والريف) كما تصنع من قبل سكان السهول (عين البيضاء) ويصنعها الناطقون بالبربرية (القبائليون، والأوراسيون، والريفيون) كما يصنعها الناطقون بالعربية (شمال تونس وشرق الجزائر وتراراس في منطقة وهران). بالرغم مما سبق، توجد كل مراكز الإنتاج شمال خط يبدأ من الجنوب التونسي (تطاوين / ودوز) ويمر جنوب نمامشة (نغرين) والأوراس ثم يصعد نحو شمال هونده ليتبع الحد الجنوبي للأطلس التلى في غرب الجزائر ويصل الأطلسى ليشمل مرتفعات زرهون شمال غرب مكناس. ومن الغريب أن هذا الخط يتوافق مع خط التحصينات الرومانية في القرن الثالث عندما بلغ الحكم الروماني توسعه الأقصى في أفريقيا. لا يمكن أن يكون هذا التطابق نتيجة

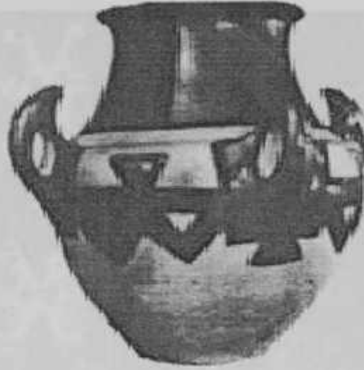
الصدفة، فالفخاريات المقولبة المطلية والحكم الروماني ظاهرتان متوسطيتان بلغت كلاهما الصحراء في بربريا الشرقية ولكنها لم تشمل السهول الأطلسية والمرتفعات الكبيرة في المغرب.

هكذا، بسبب وجوده في مناطق شديدة الاختلاف حيث التأثير المتوسطي كان دائماً الغالب، لم يستحق الخزف المقولب في المغرب الكبير الوصف بالبربري، وأقل كذلك بالقبائلي، لأن الجزء الأكبر من الناطقين بالبربرية في المغرب والصحراء لا يعرفونه، كما يُنتج من مجموعات معربة منذ زمن طويل جداً. مع ذلك، يمثل هذا الخزف الرمز الحي للمحافظة التقنية والجمالية الشمال أفريقية التي تمتد جذورها في قرون ما قبل التاريخ. هذا مثل للاستمرارية البربرية.



جرة بطلاء أحمر وأبيض.

ترميتين (القبائل الكبرى)



آنية كبيرة للزاد في وذياس

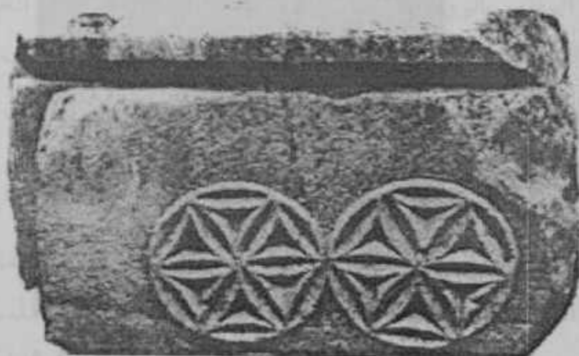
(القبائل الكبرى) زخرفة لامعة بالطلاء

الصناديق القبائلية

تستجيب أعمال الخشب، خاصة نحته بالحفر، والمنسوجات الكثيرة، لنفس القواعد الفنية، وتمثل أهمية كبيرة لموضوعنا، ولكن تحليلها يقودنا إلى تطورات تخرج عن إطار هذه الدراسة. سنتناول، مع ذلك، الحالة المدهشة للصناديق القبائلية. إنها قطع أثاث مهيبة ذات أشكال في غاية البساطة: صندوق طوله متران أو أكثر وعرضه من 0.60 متر إلى 0.70 متر على اقدام ضخمة وعالية. كان لهذه القطع من الأثاث، وهى الوحيدة في المساكن القبائلية، استعمالات عديدة. من حيث المبدأ، كانت تستخدم مثل كل الخزائن لحفظ الملابس والمجوهرات والمقتنيات القيمة (التي يعد لها صندوق داخلي)، وحتى للبندقية والأسلحة البيضاء. باختصار كل ما يستحق أن يُخفي. هكذا فالممتلكات الموضوعة تكون محمية أكثر كلما مكنت أبعاد الصندوق وصلابته رب العائلة الحذِر من النوم على غطاء الصندوق المصنوع من قطعة واحدة ثقيلة جداً.

تعود أهمية هذه الصناديق المميزة لمنطقة القبائل بشكل خاص، إلى الزخرفة التي تزين واجهاتها والجوانب المرئية لأرجلها. وتفسر الزخرفة المرتبطة بشكل أصلي يلائم الذوق الحديث، الولع الذي شهدته هذه الصناديق من قبل الأوربيين.

بالرغم من أن زخرفة الصناديق هندسية صرفة إلا أنها تختلف اختلافاً كبيراً عن زخرفة الفخاريات. وبينما يتطلب شكل الأواني ذاته ترتيباً أفقياً تتوزع فيه الرسومات بين مجموعات متتابعة، تستدعى الواجهات المستطيلة الطويلة للصناديق ترتيباً عمودياً للزخرفة. ويفرض هذا الترتيب نفسه بسهولة لاسيما وأن عناصر الزخرفة غالباً ما تتكون من قطع مثبته على الصندوق. عليه، ليس من المستغرب أن تأخذ الزخرفة المنحوته للصناديق المقواة بمسامير ذات رؤوس بارزة، مظهراً معمارياً غير معروف كلياً على الفخاريات التي تقترب الأفكار فيها كثيراً من رسوم المنسوجات. ويقوى هذا الانطباع كذلك وجود سلاسل عقيدات على واجهات الصناديق متوجة أحياناً بلوحات ذات سنينات أو مربعات منسقة وبتكوين متوازن متشابه. إن نفس الأفكار الرئيسية ونفس الروح تغلب في زخرفة الأبواب الخشبية المنحوتة.



نجمية من 6 عناصر من العهد الروماني. فولوبيليبس

المغرب



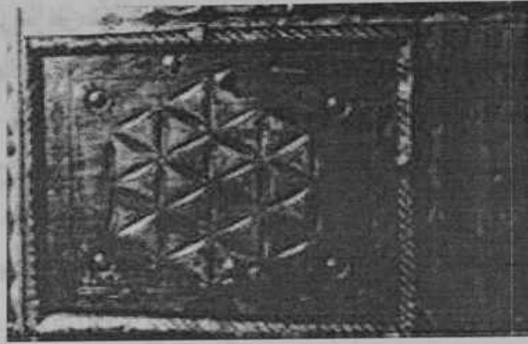
باب منحوت

تمسغيدة القبائل الكبرى



قطعة منحوته من باب قبائلي. غرغور.

فكرة الصليب الدائري الأطراف



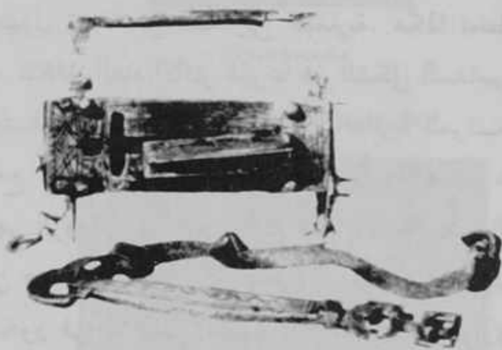
قطعة منحوتة من باب قبائلي

من غرغور. فكرة الشكل السداسي

لتخطيط الأفكار الرئيسية لهذا النحت بالحفر يستعمل الحِرَفي القبائلي الفرجار وهو مجهول تماماً من الفخارين المغاربة. هكذا تخطط على الخشب نجميات مختلفة، شكلها العام الأكثر شيوعاً هو الشكل السداسي بستة تويجيات. ويمثل الصليب متساوي الأضلاع ذو الأطراف الدائرية المرتب في إطار مقوس الخطوط يتوافق مع أطرافه، شكلاً آخر أقل شيوعاً ولكنه ذو طابع أكثر بربرية. بالرغم من المظهر الروماني لنحت أبواب عديدة، فإن من العبث البحث في هذه الأشكال عن صدى للماضي المسيحي للبربر لأن الصليب القبائلي يوجد محفوراً على صخور في الأطلس الكبير والأطلس الصحراوي ربما منذ ألف سنه قبل الميلاد، بجانب رسوم أسلحة تعود إلى عصر البرونز.

يمثل هذان الشكلان؛ السداسي، والصليب المنحنى الأضلاع، شواهد قيمة جديدة على هذه الاستمرارية الفنية للبربر التي لا يمكن إيقافها. لقد تركت لنا العصور القديمة المتأخرة على أحجار الكنائس المسيحية سلسلة من الأشكال المنحوتة التي أُستخف بها في العهد الكلاسيكي: أشكال سداسية، ونجميات متنوعة، وشارات ذات سنينات، ومربعات منسقة، وخوابير وخطوط منكسرة، وهى اليوم متطابقة مع ما يوجد على خشب الصناديق والأبواب القبائلية.

هكذا فالزخرفة على الخشب، مثل زخرفة الفخاريات المقولبة بالرغم من أنها تختلف عنها، قديمة جداً وهى من عمل الرجال، ولكنها مستوحاة أكثر من الحياة الحضرية كما أنها أكثر تعقيداً. إن الصناديق نفسها الحاملة لهذه الزخارف تمثل شواهد في غاية الأهمية. فهي غالباً مصنوعة من خشب الأرز ويمكن أن يكون بعضها الذي وصلنا قديماً جداً. ولكن، إذا لم يكن في حوزتنا لتأريخها إلا قدم زخرفتها وأشكالها فإننا لا يمكن إلا أن نتساءل عن عمرها وأصولها الحقيقية. ومرة أخرى يقوم علم الآثار شاهداً على هذه الاستمرارية: يحتوى متحف باردو في مدينة تونس على صندوقين من الأرز استخدما توابيت وجدا في المقابر البونيقية في قصور الساف (الساحل) وقطيس في مواجهة جربة. إن هذه الصناديق مشابهة تماماً للأثاث القبائلي بشكلها وأبعادها. إن عمر " الفن القبائلي " يزيد عن الفي سنة.



قفل طوارق ومفتاحه.

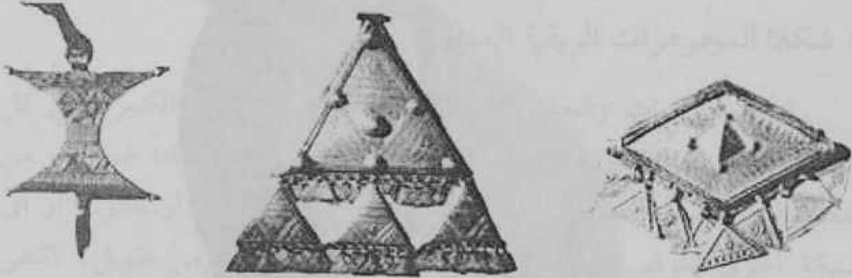
*** عمل الحداد : الصياغة عند الطوارق :**

تمكننا منتجات الصياغة التقليدية من لمس مظاهر أخرى للقدم والمحافظة التقنية.

يجب أن نضع جانباً الصياغة الطوارقية التي بقيت في أشكالها كما في زخرفتها محصورة في أشكال هندسية ذات خطوط مستقيمة صارمة وهو ما

يعطى مظهراً مثيراً لأطقمها؛ سواء الرجالية أو النسائية. فالأشياء التي هي أساساً نوط أو أغمدة للأحجبة أو خواتم كلها ذات زوايا في محيطاتها الخارجية. يستخدم الحدادون (الحداد هو الاسم الذي يطلق على كل من يشتغل في المعادن) الفضة والتوتيا التي يقطعونها بالمقص ويحفرونها بالمنقاش ولا يظهرون قدرة على التخيل، وذلك باستثناء ما في صناعة الأقفال من الحديد والشَبَه، وهى مزخرفة بسخاء.

تفتح هذه الأقفال ذات الجسم المستطيل بمفتاح أو عدة مفاتيح مزخرفة. وهذا النوع من الأقفال، المعروف أيضاً عند البربر في الجنوب المغربي، من أصل قديم جداً. وقد كان شائعاً في العالم الإسلامي في القرون الوسطى ويبدو أنه كان معروفاً منذ القدم. واعتادت نساء الطبقة النبيلة من الطوارق على ربط مفتاح قفل الجراب الكبير المصنوع من جلد الغزال الذي يحتوي المؤن، بطرف حجابها. ومن هذه الممارسة تولدت حلية سميت بمفتاح الحجـاب (اسارو أوُان أفير).



حلي طوارقية

وتُحمل ملاقط الشوك، وهي أعمال فنية بقدر ما هي نفعية، من قبل النساء معلقة في الرقبة: ويمكن عدم تمييزها من الحلي لأنها مسطحة وبها الزوائد ذات الزوايا المقدرة تقديراً خاصاً في الصياغة الطوارقية. ومن الضروري للرجل حمل منقش في قِراب يحتوى كذلك على الملقط الذي لا يستغني عنه



رسوم بساط في غرداية.

مزاب



علامة أسرية في نسيج (تليس)

الأوراس.

وسكين مُذلّق ومخرز. ويُحمل أيضاً معلقاً في الرقبة بخيط من الجلد صندوق الحجاب والتمائم، وهي ضرورية مثل المحفظة.

باستثناء الأشياء المفيدة للاستعمال التي يمكن أن تضاف إليها المطارق النحاسية الصغيرة المستعملة لكسر كتل السكر، يمكن حصر قائمة أشكال المجوهرات بسرعة، مثل قائمة الرسوم، لأن مكونات الحلى لا تحتوي على أي أسلوب من أساليب الربط ولا تُحمل إلا معلقة أو في الأصبع أو حول الذراع. إن من الصعب تمييز جذور الصياغة الطوارقية التي احتوت إضافة أفريقية إلى أساس " بربري "، ومجمل القول أنها محدودة العلاقة جداً بعالم المتوسط.



أمرأة من الطوارق تحمل مفتاحاً

في حجابها، ولغرض الزينة فقط.

تمنسه . النيجر



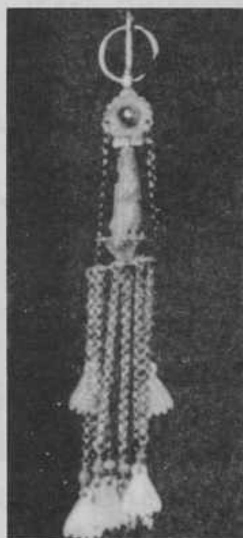
حرفي يستكمل صناعة قفل.

الأهقار. الجزائر

* شكلا المجوهرات الريفية المغاربية :

إن المجوهرات والحلي أكثر ثـراء في أرياف المغرب الكبير. ففي كل الأرياف والجبال المغاربية، تصنع الحلي التي تبلغ أحياناً أبعاداً ضخمة، من الفضة التي تستبدل أحياناً في الأوقات الحالية بمعدن أبيض أو بالتوتيا أو أى سبيكة أخرى يعوض بريقها النوعية المتواضعة للمادة. لزمن طويل، اكتفى الجوهريون بصهر النقود الفضية للحصول على كميات المعادن الضرورية، ولكن الأكثر شيوعاً هو صهر المجوهرات القديمة واستعادة أحجار المرجان والأحجار شبه الكريمة والزجاجيات. وقد منعت هذه الممارسة الثابتة من الاحتفاظ بالمجوهرات القديمة. مع ذلك، وبسبب بقاء التقنيات كما كانت، احتفظت المجوهرات بمظهرها القديم جداً مثلها في ذلك مثل الفخاريات والمنسوجات والأثاث الخشبي.

على إثر أعمال هـ. كامب ـ فابر H. Camps - Fabrer يمكن بسهولة تمييز مجموعتين كبيرتين من التقنيات في صناعة الحلي المغاربية، وتعطى هاتان المجموعتان منتجات متنوعة بالرغم من أن الأساس واحد، وهما: صناعة الحلي المقولبة المخرمة، وصناعة الحلي المطلية. الأولى معروفة في كل مكان ويمكننا القول بأنها مغاربية بعكس الثانية المحصورة جداً فى مقاطعات متناهية الصغر عندما لا تكون مقصورة على مجموعة من القرى المتخصصة. وفي القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين كانت صناعة الحلي المطلية ممارسة في منطقة القبائل عند آيت ينى، وفي تونس في بلدة مكنين وجزيرة جربة، وفي المغرب في الأطلس الصحراوي، في تيزنيت، على وجه الدقة. وقد توقف أصحاب المشاغل في مكنين وجربة عن إنتاج هذه المجوهرات كما أنخفض الإنتاج إلى حـد كبير جداً في المغرب. القبائل لوحدها حافظت بصعوبة على صناعة المجوهرات المطلية.



مشك ثوب بمعلقات من الأوراس.

وهذه الحلي قريبة جداً من الحلي القديمة.



زخرفة مشك صدري كبير.

جنوب تونس

المجوهرات المقولبة والمخرمة : إرث من القدم :

لا تخلو المجوهرات المقولبة من خصائص مميزة. ففي كل نواحي المغرب الكبير تقريباً، كانت هذه المجوهرات من عمل حرفيين يهود كانوا يتجولون في البلاد، ويلاحقون البدو في تنقلاتهم أحياناً. ويفسر جزئياً، غياب المشاغل الثابتة الوحدة الكبيرة لهذا الإنتاج، ولكن مـن الممكن، كما في الفخاريات والمنسوجات، التعرف، إن لم يكن على الأساليب فعلى الأقل على الأقاليم التي فيها هذه المجوهرات منمذجة أكثر من غيرها من الأماكن. يجب إضافة أن من الصعب في هذه الصياغة الموغلة في القدم، حيث التقنيات بسيطة، التمييز بين ما يمكن أن يستند إلى أسس بربرية قديمة والإضافات اليدوية الأحدث. في الأوراس يمكن التعرف على المظاهر الأكثر تمييزاً لهذه الصياغة.

إن أشكال المجوهرات شديدة التنوع: فبالإضافة إلى العقود والأساور والحلق التي هي حلي للجسم يمكن التعـرف على نماذج عديدة من مشابك

الثياب، التي تُحمل بالاثنين على الملابس، ومشابك دائرية. أغلب هذه المجوهرات تصنع في قوالب. ومن ثم فبالإضافة إلى الأشكال الناتجة عن الصهر يمكن للجوهري باستعمال الحز، وأحياناً بالرشم عن طريق مثقب محفور، أن يضيف أشكالاً أخرى. في بعض الحالات، تعد الزخرفة على الرصاص وهو ما يُمكّن من الحصول على أشكال بارزة مثلما على علب التمائم. والفتيلة المعدنية في أغلب الأحيان عبارة عن سلك محلزن ملحوم إلى جسم مسطح؛ وهى شائعة في مجوهرات الأوراس. وتُعطى لمسات ملونة بواسطة أحجار كريمة غير مصقولة ولآلي من الزجاج الأحمر أو الأخضر.

إن السمة في هذه المجوهرات هي طول السليسلات الدقيقة التي تتدلى من العقود حول الرقبة والحلقيات وحلق الأذن وكثرتها. وتحمل هذه السليسلات جواهر من أشكال مختلفة يمكن أن تميز من بينها أشكال ظلال إنسانية تقريبية جداً، وأيد، وصلبان، واسطوانات ومستطيلات تسمى " بذور البطيخ " وهى مشابهة إلى حد التطابق مع " مجوهرات ـ المدُى " في زمن قبيل التاريخ الأوربي. بالفعل، تذكر هذه السليسلات ومجوهراتها بحلى نهاية عصر البرونز وعصر الحديد الأول ولكن هذه لم تختف إطلاقا من المجوهرات القديمة بل تظهر وبشكل بارز في الإمبراطورية المتأخرة وعند البيزنطيين. يعود نمط آخر من زخرفة المجوهرات الأوراسية والجنوب تونسية إلى تقنية معروفة جداً في الصياغة الإغريقية ـ الرومانية L' Opus interrasile . وتتضمن هذه الطريقة قطع وتخريم لوح الفضة بطريقة تظهر أشكالاً دقيقة، هندسية في غالب الأحيان، ولكنها كثيراً ما تُستوحى من عالم النبات أو حتى من عالم الحيوان. وفي الجنوب التونسي تصل هذه الطريقة عن طريق القطع والحز لرسم عصافير وأسماك تبدو منسوخة عن المجوهرات القديمة أو عن النقوش الصغيرة في الكنائس المسيحية.



أساور من الأوراس بالطريقة الإغريقية . الرومانية

Opus interrasile

المصوغات المدهونة، بربرية وغريبة

تنتمي المصوغات المدهونة، التي رأينا تمركزها الغريب، إلى عالم فني آخر.

لا تختلف هذه المصوغات، سواء في جنوب المغرب أو في منطقة القبائل الكبرى، اختلافات جوهرية في أشكال المجوهرات مع منتجات التقنية الأخرى، لكنها أكثر تنوعاً. من بين الأشكال المميزة، تجب الإشارة إلى هذه اللآلئ الضخمة في حجم البيضة في جنوب المغرب التي توضع في حلي الصدر بين مشبكين كبيرين مثلثي الرؤوس. وتحل هذه البيضات المسلم بفاعليتها الحمائية من الأمراض محل صندوق التعاويذ المربع الزوايا في الحلي القبائلية. هناك شكل آخر أصيل وهى الشعرية الكبيرة التي تثبت إلى منديل الرقبة وتبلغ في منطقة القبائل أبعاداً مبالغاً فيها. وهى تتكون، في هذه المنطقة، من صفائح مدهونة مربوطة بعدة صفوف من الحديبات المثبتة إلى سلاسل. إن العقود والأقراط والأساور هي الأكثر عدداً وتنوعاً. بل إن من الجواهر مجوهرات

حقيقية مستقلة ذات حجم وزخرفة من الحبيبات والفتائل المعدنية، وليست مجرد قصاصات. وهي تأخذ أشكال " ورق ـ البلوط " والنجوم والأيدي والأواني الصغيرة (تابوكالت).

بشكل عام، لهذه المجوهرات أبعاد أكبر من أبعاد المجموعة الأولى، فلمشابك الأثواب دوماً رؤوس مثلثة مضخمة، ويصل قطر المشابك الدائرية في منطقة القبائل إلى 15 سم ويزن الواحد منها حتى 800 جرام وهى دائماً من الفضة مرتفعة العيار.

يحتل المرجان في صناعة الحلي القبائلية مكاناً مهماً، وتستخدم الأجزاء السميكة منه أحجاراً كريمة تثبت على كل أنواع المجوهرات. وتثقب البقايا في الاتجاه الطولي لتصبح لآلي أنبوبية أو نوطاً.

تكمن الأصالة الأكثر نقاء في الطلاء. يسبق عمليةَ الطلاء لحامُ الفتائل المعدنية المحلزنة أو الفتائل من سلك سميك التي تقسم الزخرفة. في الفراغات توضع مساحيق الدهانات المختلفة: الأصفر والأخضر والأزرق ثم توضع الحلية في بؤرة من الفحم ينشطها الحِرَفي بالنفخ أو بواسطة الكير. في مكنين وجربة حيث الفضة غالباً مذهبة، يستعمل كذلك اللون الأحمر. وفي جنوب المغرب ومكنين تحل أحجار شبه كريمة وزجاجيات محل المرجان.

هكذا لكل مركز إنتاج من مراكز إنتاج المصنوعات المدهونة أصالته المميزة ولكنها تشترك، بالإضافة إلى تقنية الطلاء، في أشكال المجوهرات وتنسيق الحلي الذي يمثل الأساس لكل الصياغة البربرية في الشمال. مع ذلك، فبسبب فظاظة الأشكال، والتناقضات الصارخة لألوان الطلاءات وتكوين الزخرفة فإن هذه الصياغة أكثر " توحشا " من الصياغة المقولبة والمقطعة. هكذا لا نجد مثل هذه الحلي خلال العصور القديمة في شمال أفريقيا، قبل وصول الوندال.

بالفعل، تنتمي الحلي القبائلية وحلي المراكز الأقل أهمية في جنوب المغرب وتونس إلى الأسرة الكبيرة من المصاغات المحوجزة حيث الفتائل المعدنية المطلية التي ظهرت في المشرق وعرفت أوج تطورها في أوروبا في الممالك المتخلفة: الفرنجة، واللومبارد والويزيقوط، من العصور الوسطى المبكرة. عليه، قد يكون الوندال وهم قوم آخرون من الجرمان هم الذين أدخلوا هذه التقنية إلى أفريقيا. ولكن يبدو من الصعب الاعتقاد أن الوندال وهم قليلو العدد واقتصر حكمهم على الجزء الشرقي من أفريقيا الرومانية لقرن واحد تماماً كان لهم من التأثير ما جعل هذه التقنية تستمر في مناطق (القبائل والأطلس الصحراوي) التي كانت خارج سيطرتهم كلياً.

هكذا فكر عدد من المؤلفين، مثـل ج. مارسي G. Marcais و د. جــاك مونيي D. Jacques - Meunié، وهــ . كامب– فابر H. Camps - Fabrer، بالرغم من أنهم لا يرفضون إدخالاً مبدئياً في العهد الوندالي، في تغلغل جديد أحدث وأكبر. فبالقرب من المغرب الكبير بقيت عند المسلمين في أسبانيا مصنوعات مدهونة ذات فتائل معدنية ربما استخدمت نماذج للمصنوعات الأفريقية. وعند الناصريين في غرناطة أعطت هذه الصياغة بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر تحفاً حقيقية مثل السيف المسمى " بو عبد الله ". لاحقاً، استمر الفن المدجن[1] حتى الطرد النهائي للموريين في بداية القرن السابع عشر. وقد جاء المسلمون الذين طردوا ـ تحت اسم الأندلسيين ـ للاستقرار في المناطق الساحلية للمغرب الكبير. وقد تم وصولهم بموجات متتابعة منذ استكمال السيطرة المسيحية الكاملة على الأندلس حتى عمليات الطرد في السنوات 1609 م ـ 1614 م الذي أدى لوصول أكثر من 000 200 شخص لأفريقيا. ونعرف أن أندلسيين استقروا في الداخل في المغرب حتى مراكش وتارودانت، وشكلوا في وسط الجزائر جزءاً مهماً من سكان مدينة الجزائر

(1) صفة للمسلم الذي أستمر عند المسيحين بعد سقوط الأندلس. المترجم

وبجاية من جانب ومنطقة القبائل الكبرى من جانب آخر. وفي تونس استقبلت مدن تونس وسوسة والمهدية أعداداً كبيرة منهم.

عليه، فإن من المغري أن ينسب إلى الأندلسيين إدخال، أو إعادة إدخال، هذه التقنية إلى المغرب الكبير والتي أدخلها الويزيقوط إلى أسبانيا وحافظ عليها العرب وأثروها طوال قرون.

كانت صناعة الحلي المطلية في المغرب وفي تونس بين أيدي اليهود. وقد كان هؤلاء وسطاء بين الجواهريين الأندلسيين، وهم أيضاً من اليهود، والزبائن المغاربيين. لكن من الصعب التسليم بهذا الدور لليهود في منطقة القبائل لأن القبائليين أنفسهم كانوا صناعاً للحلي. ولم تكن هذه هي الحالة دائماً، ففي بعض القبائل مثل آيت خيار كان يوجد صاغة من اليهود ولا يبدو أن تخصص آيت يني أقدم بقرنين، بل من المحتمل أنه نشأ من استقرار حرفيين من بنى عباس جاءوا من القبائل الصغرى وكانوا على علاقات وثيقة مع بجاية.

في جميع الأحوال يبدو من الواضح أن الطلاء المزخرف بالفتائل الغريب على أفريقيا الشمالية قد أدخل من أسبانيا ابتداء من القرن السادس عشر. كانت هذه التقنية حضرية في البداية، مثل أي إضافة أجنبية، ثم انتشرت في الأرياف واستمرت في المناطق البربرية بينما كانت تتغير في المدن التي هي أقل محافظة.

هكذا، من غرائب التاريخ؛ تقنية مشرقية نبعت من مكان ما في شمال إيران، ونُقلت عبر السهول الأوربية من قبل الجرمانين، استطاعت الاستمرار طوال عدة قرون في أقصى الغرب الأيبيري قبل أن تتوغل في العصور الحديثة في شمال أفريقية. وتبقى هذه الحلي بتقنيتها وفظاظتها الفخمة في قلب القرن العشرين تحفاً قروسطية.

إن الأكثر غرابة هو الدمج الكامل خلال زمن قصير نسبياً لتقنية كانت بالتتابع ساسانية، ثم ويزيقوطية، ثم إسلامية ـ أندلسية قبل أن تصبح بربرية صرفة. من هذا أيضاً تظهر الاستمرارية البربرية مكونة من نفوذية غير قابلة

للتصديق للمساهمات الخارجية، وتقبل هذه بسهولة أكبر بقدر ما يدخل عليها من دمج يعطى المصنوعات لمسة بربرية يصعب تمييزها بقدر ما يصعب إنكارها.



فتاة قبائلية ترتدي حليها



طاحونة زيتون ومعصرة زيت

في قرية قبائلية.

السلطة بدون الدولة

ليس هناك نموذج للمجتمع البربري، ولكن من بين الأشكال السياسية العديدة التي يعرفها البربر أو عرفوها خلال القرون، يعتبر نوع من الجمهورية القروية النموذج الأكثر تميزاً وشيوعاً بين الحضر. ولا يمكن إنكار الطابع الريفي لهذه المؤسسات.

الجمهورية القروية في منطقة القبائل

سلطة القرار في القرية عند " الجماعة "، وهى مجلس شعبي حيث الأمقرار " الشيوخ، أرباب الأسر " لهم وحدهم الحق في الحديث. وعليه فإن السلطة ديمقراطية من حيث المبدأ ولكنها مقصورة على الوقائع. ففي القرية دائماً أسرتان أو ثلاثة أسر هي التي تأخذ القرار عن طريق التحكم في الرأي بفضل لعبة بارعة من العلاقات والضغوط، أو المرجعيات التاريخية. هذا بالإضافة إلى أن المحافظة على روابط قوية بين أعضاء الأسرة الموسعة تؤمن تجمعاً للمساكن في الأحياء أو القرى الصغيرة التي تحافظ بغيرة على استقلاليتها في داخل الجماعة.

القرية القبائلية، المعروف تنظيمها جيداً، ليست هي ذاتها إلا فرعاً من القبيلة عادة ما تسمى وفق نسب اصطناعي. يقال آل آيت يني، وآل آيت اراتن، وآل آيت منقلت. تلتقي الجماعة في مبنى جماعي تسبقه مساحة، عبارة عن أجورا[1] حقيقية مصغرة يجتمع فيها الرجال وحتى المراهقين. يبدأ الاجتماع بتلاوة بعض سور من القرآن من قبل أكبر الرجال النافذين سناً أو من الشيخ ممثل الأسرة المرابطة التي أدمجت في كل قبيلة قبائلية. عادة ما تلقى بعد هذا

(1) أجورا: ساحة كانت المجالس النيابية الإغريقية تجتمع فيها. وهي في المدينة الأغريقية ميدان عام أو سوق ويقابلها الفوروم في المدينة الرومانية. المترجم

التبرك، بعض كلمات حيث تطلق فيها الفصاحة والبلاغة المتوسطية العنان لنفسها. وتدريجياً يتطـور الاجتماع من العموميات إلى وقائع محددة تكون هي موضوع النقاش. يمكن أن يستمر الاجتماع طويلاً. وعادة ما يؤخذ القرار إما بالموافقات الفردية أو بالإجماع التلقائي تقريباً عن طريق الهتاف.

تتناول القرارات كل حياة القرية. كانت الجماعة تلعب دور المحكمة، فهى تصدر الأحكام، وتحدد الغرامات لكل مخالفة أو تحكم بالأبعاد، وتسوى النزاعات بين الجيران العنيدين أو الورثة المتخاصمين. وكانت الجماعة تلعب دور المجلس البلدي، وتحدد أساس المساهمات في أزمان الخضوع، وتقرر أعمال المصلحة العامة في حدودها الدنيا. كما كانت تؤدي دوراً سياسياً، فقد كانت الجماعة تحدد العلاقات مع الخارج سواء منها العلاقات مع القرى المنتمية لنفس القبيلة أو العلاقات مع الأجانب أي القبائل القبائلية الأخرى، والعرب ثم الغزاة الأتراك والفرنسيين.

كما تصدر الجماعة قرارات متعلقة بالحياة اليومية والفصلية، فهي تحدد تاريخ بداية الحرث والحصاد. وأكثر أهمية كان تاريخ جني التين، وكانت تصب لعاناً فظيعة على مخالفي هذا القرار. كان هذا الإعلان الرسمي تأكيداً للسلطة الجماعية التي لم تتخلص بعد من طابعها المقدس البدائي، ولكننا نلمس فيها تباشير الديمقراطية.



رسومات جدارية في منزل قبائلي. واذياس.

* التنظيم البلدي في دقة[1] في القرن الثاني قبل الميلاد :

على مستوى أعلى، وجدت منظمات بلدية أكثر تطوراً على رأس القرى الإفريقية النادرة التي لم تكن من تأسيس الغزاة الأجانب.

إن أكثر هذه المنظمات البلدية إثارة للاهتمام، لأنها الأقدم، هى حالة المدينة النوميدية القوية ثقة (دقة، تونس)، إحدى المدن الرئيسية في مملكة مسينيسا. وتعطى كتابات عديدة ثنائية اللغة، الليبية والبونيقية، صورة دقيقة إلى حد ما عن تنظيم الحكومة البلدية في عهد الملك ميسبسا. كان هناك مجلس للمواطنين باسمه كُرس المعبد لميسينيسا سنة 138 قبل الميلاد. كانت الشخصية الرئيسية في المدينة ملك سنوى (بالليبية Aguellidوبالبونيقية MMLKT)، كان يحمل نفس لقب العاهل النوميدي. كانت مهمته سنوية لأنه يعطي اسمه للسنة التي يحكم فيها ولكن يمكن إعادة انتخابه. يأتي بعد الملك السنوي قاضيان يحملان لقب (رئيس المائة) (MUSN بالليبية، RBTMT بالبونيقية). يُذكّر هذان القاضيان بقضاة قرطاج ولكن الترجمة البونيقية تتناقض تماماً مع هذا الخلط. ويعتبر ج. فيفريى J. Fevrier هذين القاضين رؤساء للمجلس. وتحت هذين Musn قاض آخر يحمل الاسم الليبي MSKU وهى وظيفة ليس لها ما يعادلها في التنظيمات البلدية للمدن الفينيقية لأن النص البونيقي ينقل الاسم دون ترجمته.

من الأمور الغامضة كذلك وظائف GZB و GLDGMIL وهى أسماء غير مترجمة إلى البونيقية ولكنها منسوخة. ويقترح ج. فيفرى بالنسبة للثاني أن يُرى فيه ذكر رئيس القساوسة، أي القسيس الأكبر.

---

(1) بلدة في تونس. المترجم.



القرية القبائلية تاوريرت ميمون في الشتاء

تكمن أهمية كتابات دقة في إبراز تنظيم لا علاقة تذكر له بالفينيقين، على ما يبدو. كان للمدن النوميدية الرئيسية، مع ذلك، تحت حكم المنحدرين من مسينيسا إدارة منقولة عن المؤسسات البونيقية، فكثير منها كان يحكمه قاضيان حتى في العهد الروماني. لكن من بينها من لها تحت الحكم الروماني ثلاث قضاة مثل مكثر والثيبوروس وتوبورنيكا وثقة. وتذكر كتابة من العهد الروماني في كلاما (قالمة) في نفس الوقت، قاضيان و Princip الذي يبدو أنه معادل لملك ثقة.

من المؤكد، أنه كان على رأس المدن، بالإضافة إلى القضاة، مجلس يتكون من الرؤساء الرئيسيين أو جمعية من الشعب تحتفظ بالسيادة المحلية. كانت هذه المدن التي لم تكن كلها من جذور فينيقية غيورة على سيادتها، وكانت خلال القرن الأول من الحكم الروماني، تحت ملوك وتضرب النقود. وكان الطابع البلدي لنقود مدن معينة مثل ليكسوس، وطنجة مبينا بذكر "الباليم" " المواطنين " الذين أمروا بسكها.

* **الجمهورية الثيوقراطية المزابية :**

سنختار للزمن الحديث نموذجاً لجمهورية حضرية مؤسسة هذه المرة على الثيوقراطية موروثة عن التقاليد القروسطية.

تمثل مدن مزاب الخمسة (الصحراء الجزائرية) آخر ورثة السيادة الأباضية المنبثقة عن حركة الخوارج. لهذه المدن الخمسة؛ غرداية، ومليكة، بني يزقن، وبونورة والعطاف تاريخ معقد. فقد تأسست في القرن الحادي عشر من قبل الأباضيين بعد تدمير مملكة تاهرت الرستمية. لجأ الأباضيون أولاً إلى سدراتة (منطقة ورقلة)، ومنذ تلك اللحظة اختارت مجموعة أكثر جسارة وأكثر حذراً المنطقة المنعزلة، وادي مزاب. كان الاحتلال في بدايته فوضوياً، على مايبدو، لأن كل واحدة من المدن الحالية الخمس باستثناء غرداية نشأت من اندماج قرى عديدة. وقد تقوى أباضيو مزاب بعد ذلك بقليل بقدوم أباضيي سدراتة التي هدمت سنة 1078 م ثم بمجموعات معزولة جاءت من تجمعات أباضية أخرى من جربة وجبل نفوسة. جعل المزابيون الشديدو الإيمان من مدنهم قلاعاً دينية. فقد منعوا على اتباع المذهب المالكي دخول المزارات والأماكن المقدسة والأحياء الدينية. لهذا السبب تقع الأسواق دائماً، وهى مناطق غير طاهرة يتردد عليها جيرانهم غير الأباضيين مثل عرب الشعامبة، خارج حرم المدن. وتعلو المدينة المحصنة جيداً مئذنة المسجد. يقع مسجد غرداية، وهو قلب المدينة، في مركز اقدم الأحياء وهو حالياً محدد بشارع مساره بيضاوي الشكل، ويمثل هذا الحي نسخة طبق الأصل من الحرم الأول.



في مزاب

عرف المزابيون كيف يصونون استقلالهم وحافظوا جزئياً على الحكومة الثيوقراطية كما كانت حكومة تاهرت. لم يعد لهم إمام، وهو عاهل منتخب من حيث المبدأ، لأن كل مدينة تحكم نفسها بنفسها، ولكن كما في المملكة القديمة كانت السلطة مركزة في أيدي مجلس من رجال الدين؛ العزابة والطلبة. كانت هذه الجماعة تقيم العدل، وتحدد اتفاقات التحالف والمعاهدات، وتعاقب مخالفة العقيدة والخروج على العادات. ولكن كما في المحاكم الدينية الغربية في القرون الوسطى، كانت جماعة الطلبة تعهد بتنفيذ أحكامها لسلطة مدنية مكونة من جماعة القدماء " جماعة الأعوان ". وكانت هذه تعقد اجتماعها في ساحة السوق برئاسة حكيم كانت مهامه الشرطية ومهامه في مراقبة السوق تذكّر بمهام شيخ التجار. أما عن القاضي، خليفة الحكام القدماء، فقد كان يمارس مسؤوليات ثقيلة جداً لأنه كان يجمع بين وظيفته قاضياً ومهام رئيس الإدارة البلدية. ومن ثم فليس من المستغرب أن يكون تعيينه من اختصاص جماعة الطلبة. وكانت في المدينة انقسامات أخرى تحد من السلطة الدينية. فكما في كل المجموعات البربرية كان المزابيون منقسمين إلى " سوف " متعادية تندمج فيها القبائل المجاورة التي لا تنتمي إلى الجماعة الأباضية.

*** التنظيم المجزأ لآيت عطا :**

ليست الجمهورية القروية أو الحضرية هي أساس السلطة لأنها منشغلة بمشاكلها الداخلية وحريصة على بقائها وممزقة أحياناً بنزاعات دامية. تكون السلطة في تجمعات أكبر؛ قبيلة أو تحالف قبائل. وحاولت هذه التجمعات بانتظام طوال القرون تكوين دول.

سنضرب مثلاً لهذه التنظيمات القبلية بالتجمع القوى لآيت عطا في الجنوب الشرقي للمغرب الذين يعتبرهم بعض المؤلفين على أثر د. هارت D. Hart مكونين" لقبيلة عظمى "، إذ إن كل المجموعات المكونة لآيت عطا تدعى

الانتساب لجد مشترك؛ ددا عطا الذي قتل عند محاربته العرب الرحل. كان هذا التجمع موجوداً منذ القرن السادس عشر، وربما قبله، لأن بعض الروايات تقول بإن ددا عطا كان تلميذ سيدي سعيد احنسال الذي عاش في القرن الثالث عشر.

يعود آيت عطا لصنهاجة الذين جاءوا من الصحراء وتغلغلوا تدريجياً في وديان الأطلس الكبير (آيت أنو مالو). وتمثل سلسلة مرتفعات ساغو الجرداء حالياً مركز موطـن آيت عطا، ولكن أجزاء كثيرة منهم (آيت عطا الصحراء) منتشرة في تافلات ودرا والزيغ والدادى. وهناك مجموعات منهم وصلت عبر الأطلس إلى الشمال حتى جوار مكناس.

يعيش الآيت عطا، الذين هم أساساً من البدو الرحل على تربية الأغنام، وفي الجنوب على رعي الإبل. ويمارسون نوعاً من السيادة أو بتعبير أدق يوفرون حمايتهم " رعايتهم " لمزارعي النخيل مقابل 1/14 ثم 1/31 من المحصول. وقد كان الآيت عطا محاربين قساة، وفي حالة حرب مفتوحة مع أغلب جيرانهم خاصة مع العرب من بنى معقل، وفي القرن الثامن عشر مع المجموعة البربرية القوية آيت يافلمان. وكان الآيت عطا آخر من قبل سلطة السلطان ولم يخضعوا للقوات الفرنسية ـ الشريفية إلا سنة 1934 م. يقدر عددهم الإجمالي بحوالي مائتي ألف شخص.

يستند التنظيم السياسي لآيت عطا إلى ركيزتين. الأولى نوع من المقاطعة الفيدرالية، وهى فضاء مقـدس (حرم) يسمى تفراوت نآيت عطا في جبل ساغو. كانت محكمتهم العليا (الاستئناف) تنعقد في ايغرم ـ أمازدار، وفي تينى ـ اورشام كانت تحفظ راية آيت عطا الحمراء ووثيقة من جلد الجمل مكتوب عليها التقسيمات إلى خمس لمجموعة القبائل.

تمثل هذه الأخماس الركيزة الثانية لتنظيم سياسي في غاية التعقيد. لا تمثل الأخماس تقسيمات تحتية إقليمية وانما مكونات تدعى نَسَبية بعضها إلى بعض واندمجت فيها بالاختيار قبائل "اجنبية "، ولعل الحالة الأكثر دلالة هى

حالة بنى محمد وهي قبيلة عربية انضمت لخمس آيت أونبقوى. عليه فقد تكون المجموعات المكونة لأي خمس متباعدة نسبياً بعضها عن الآخر ومختلطة مع الأخماس الأخرى.

كان لتجمع آيت عطا رئيس أعلى، " الأمقر انوفيلا "، أي الرئيس الأعلى للدولة. وكان تعيينه حتى سنة 1926 م مثلاً للبراعة في التوازن السياسي. وهو ينتخب كل سنة في خُمس مختلف من الأخماس ويكون المنتخبون من الأخماس الأخرى التي لا يكون لها في تلك السنة تقديم مرشحين. وكان هذا الأسلوب المعقد الدوري التناوبى في نفس الوقت يسمح نظرياً بالتخلص من الضغوط التي كان يمكن أن تمارسها في داخل الأخماس الفروع القوية لصالح مرشحين ينتسبون لها.

كانت كل مجموعة أو قبيلة من قبائل الخمس تنتخب "شيخ علم" يحكم بمساعدة مجلس يتكون، حسب القبائل، من وجهاء وكهول أو من كل الرجال البالغين.

ليس هذا التنظيم القطاعي الخمسى حالة فريدة في الحياة السياسية البربرية. يذكر د.هـ. هارت العديد من هذه التطبيقات في المغرب لوحده عند آيت اورياغل في الريف أو عند الدوكالة في السهل الأطلنطي. وكان يوجد في الجزء من موريتانيا القيصرية الذي يتوافق مع منطقة القبائل الحالية في الثلث الأخير من القرن الثالث تجمع قوى سماه المؤرخون الرومانيون والكتابات الرسمية كوينكقيتيانى. ولا يتعلق الأمر باسم بربري محرف ولكن بتسمية إدارية لتجمع من خمس قبائل. ونعرف على وجه التقريب أسماء القبائل التي كانت تكون هذا التجمع، ومن المحتمل جداً، كما يعتقد ل.قالاند L. Galand، أن يكون هذا التجمع قد نُظم وفق أسلوب خماسى شبيه بتنظيم آيت عطا. ويمكن أن نذكر بهذا الخصوص الأسطورة التى أوردها بوليفه القائلة بأن القبائليين يعتبرون أنفسهم منحدرين من خمس أبناء لأحد العمالقة. وقد شكلت القبائل الخمسة المنحدرة من هؤلاء الأشقاء لاحقاً تجمع زواوة.

التجمعات النوميدية والمورية

طوال العصور القديمة، وفي القرون الوسطى بشكل خاص، يمكن التعرف على وجود هذه القبائل القوية التي غالباً ما تتحكم في أخرى وتسيطر على الاتحادات القبلية.

إن الأمثلة غير قليلة، هكذا تكونت بين تونس والجزائر الحاليتان في إطار المملكة النوميدية قوة قبيليه مهمة على طول نهر موتهول (وادى مليج)، المزالمة. وقد ذاع صيت هؤلاء بسبب ثورة تاكفاريناس Tacfarinas في زمن الإمبراطور تيبيريوس Tibere، وشهدوا تقلص موطنهم بسبب الإستعمار الروماني أولاً ثم تحدد هذا الموطن بعناية: وقد بقى هذا الإقليم شاسعاً جداً فهو يمتد من مادور إلى ثيفيست Theveste ومن همادارا Hammaedara إلى الجزء الأعلى من وادي مسكيانا. وقد تكونت أقاليم بلديات ومستعمرات همادارا وتالا ومادور وثيفيست على حساب المزالمة.



رجال من آيت إسفول

تجمع آيت عطا. المغرب

كان هناك بنفس الاتساع، إقليم آخر لتجمع نوميدى أقل شهرة وهو تجمع الميسيسيريين الذين كانوا يقطنون المنطقة الغابية الجبلية شمال مجردة على التخوم الجزائرية التونسية. وبفضل ثلاثة نقوش لاتينية واثنين وستين نقشاً ليبياً أمكن التعرف في إقليم الميسيسيريين (بالليبية MSKRH) على المجموعات المسماة بالتتابع NBIBH (قد تكون ناباب المعروف اسمها في أماكن أخرى) و NNDRMH التي يذكّر اسمها باسم ندرومة (منطقة وهران)، و CRMMH، والـ NSFH، والـ NFZIH. هكذا، كان الميسيسيريون ينقسمون، على ما يبدو، إلى خمس قبائل أو عشائر. وهذا عنصر جديد في ملف احتمال تنظيم خماسي قديم للقبائل الكبيرة أو تجمعات القبائل البربرية.

عرفت الموريتانيتان، حيث قاوم التنظيم القبلي بسهولة أكبر ولمدة أطول التغييرات التي أدخلتها الرَّوْمنة، تجمعات أكثر أهمية. هكذا كان البافار الذين نجدهم مذكورين في أكثر من منطقة من موريتانيا القيصرية لدرجة أنني اعتقدت التعرف إلى مجموعتين على الأقل، واقعة إحداهما في جبال بابور (التي من المحتمل أن اسمها على اسم البافار) على حدود نوميديا وموريتانيا، والأخرى في المرتفعات الساحلية في الغرب الوهراني بالقرب من مولوية التي يقول كاتب لاتيني من القرن الخامس، هو جوليوس هونوريوس Julius Honorius، أنها تفصلهم عن باكات موريتانيا الطنجية. كانت هناك مجموعات أخرى من البافار معزولة كما في وسط الجزائر (نقش مانليانا، وذُكر من قِبل إميان مارسلان Ammien Marcelin). وقد دفع هذا التشتت إلى الاعتقاد ببداوة البافار، ومن جانبي أري الرأي المعاكس. فقد ذُكر اسم البافار دائماً في مناطق جبلية سُكنت في كل الأزمان من قبل مستقرين (بابور، تراراس، والوارسنيس).

نعرف (بافار الشرق) بواسطة إهداءات من الحكام الرومانيين. وقد هدد البافار خلال الثورة المورية الكبيرة من سنة 253 م الي سنة 262 م مناطق سطيف والجزء الغربي من نوميديا. وفي سنة 255 قتل ثلاثة من ملوكهم خلال

معركة طاحنة. وبعد ذلك ببضع سنوات غزوا شمال نوميديا تحت قيادة أربعة من ملوكهم. من هذا يتضح أن كانت هناك عدة قبائل، ربما خمسة أو أكثر، متحدة في تجمع قوى.

أما عن بافار الغرب، فذكرهم أكثر قدماً وربما وردوا في نقوش فولوبيليس التي ترجع لمنتصف القرن الثاني، وفيهم أيضاً كان يفكر كتاب متأخرون مثل جوليوس هو نوريوس الذي يوقعهم في جوار موريتانيا الطنجية.

وشكل البافار مع الباكات بين سنتى 222 م و 235 م تحت أمارة الاسكندر سيفيروس مجموعة واحدة، وكان للبافار المقام الأول في هذا الاتحاد.

يمكننا تتبع التطور السياسي لقبيلة الباكات بفضل سلسلة مهمة من الوثائق الكتابية التي عُثر عليها في فولوبيليس وتذكر هذه الوثائق لقاءات دورية بين حكام موريتانيا الطنجية ورؤساء هذه المجموعة. ويورد الكتاب، وخطوط السير الرسمية والكوزموغرافيات بشكل متكرر اسم الباكات، مع تحريفه أحياناً، لدرجة تغري بتوقيعهم في مكان ما شرق وجنوب فولوبيلس. وهذا ما قد يفسر تحالفهم أحياناً مع بافار منطقة وهران وأحياناً أخرى مع المسينيين من الأطلس الأوسط، ولا نعرف ما إذا كانوا هم نفس الباكات الذين قاموا بين سنتي 117م و 122 م بغارة على تينيس Tenes (الجزائر): وتشيد قاعدة تمثال اكتشفت في هذه المدينة بالمقاومة الظافرة لها. وتوقع كل الوثائق الأخرى الأحدث الباكات في موريتانيا الطنجية.

خلال النصف الثاني من القرن الثالث، لم يعد الباكات مذكورين لوحدهم في هياكل فولوبيلس بل عرفنا كذلك أن رئيس هذه القبيلة قد أصبح يوصف بالملك بعد أن مُنح المواطنة الرومانية بين سنتى 245 م، 249 م. وهكذا في سنة 277 م وقع جوليوس نوفوزي، ابن الملك جوليوس ماتيف Julius Matif تحالفاً حقيقياً (Foedarata pax) مع الوالي الروماني لا مجرد

معاهدة سلام. ويبرز حدث آخر صعود قبيلة الباكات والأسرة الحاكمة: فلم يشارك الملك في المفاوضات مع الوالي كما فعل أسلافه وإنما فوض فيها ابنه، وعندما تطلب تأكيد الحلف بعد ذلك بثلاث سنوات لقاء جديداً كلف جوليوس نوفوزى، الذي كان قد خلف والده، أخاه جوليوس ميرزى Julius Merzi لتمثيله لدى الوالي.

شهدت القرون الوسطى تطورات مشابهة، ولكن على مقياس أكبر. فقد تمكنت قبائل وضعت أنفسها في خدمة قضية مثل كتامة ومجموعات صنهاجية أخرى من التكلتة من تأسيس مملكة أو عدة ممالك: الزيريين والحماديين الذين انتهوا بالتنكر للقضية الدينية التي كانوا أبطالها.



سيده طارقية من طبقة

النبلاء تعزف بالإمزاد.

إن كل الممالك التي لم تعمر طويلاً، تقريباً، التي شهدها التاريخ المعقد للمغرب الكبير في القرون الوسطى لها أسس دينية وقبلية.

* المجتمع الأرستقراطي للطوارق :

يشهد الزمن الحالي مثل هذه التنظيمات القبلية التي تتضمن في هياكلها بذور دولة. هذا هو الحال في مجتمع الطوارق خاصة مجتمع " الإهقارن " الذين أعطوا اسمهم (اهقار، هوقار) للبلاد التي يقطنونها.

لهذه الجماعة إقليم شاسع يسمى، كعلامة السلطة " الإتيبيل " أو "توبول" وهو نوع من الطبول الكبيرة بصندوق نصف كروي. هكذا يوجد توبول الكل ريلا وهو الأكثر أهمية ولا يميز عادة عن توبول الكل اهقار (ناس الهوقار)، وتوبول التجيهى ميلت الذي قُلص حالياً إلى حد كبير ويصل إلى مستوى رئاسة بسيطة لقبيلة أفُقرت.

ينقسم طوارق الهوقار إلى طبقتين. الأولى الطبقة الأرستقراطية للاموهار وتتكون من عدة أنساب سائدة. من بينها الكل ريلا الذين يقولون بانتسابهم الأمومي إلى سلف أنثى، التن هنان وهم القابضون على التوبول. ومن بينهم يختار دائماً الأمينو كال أي الرئيس الأعلى.

الطبقة الأخرى هي طبقة التبع، الإمراد الذين يسمون كذلك كل أولى ("أصحاب الماعز " بعكس النبلاء المهاريين). ويتكون الإمراد من قبائل عديدة (تاوسيت) لها قواعد إقليمية بعكس قبائل الإموهار. وفي التنظيم الاجتماعي - الاقتصادي التقليدي لمجتمع الطوارق يقوم الإمراد بتأمين معيشة النبلاء الذين يطلقون عليهم التسمية الجماعية " تامسكيت ": القوت. والإمراد رجال أحرار، وغالباً ما يكونون قد شاركوا في الحملات العسكرية بل يمثلون أساس القوة العسكرية للتوبول.

حسب م. جاست M. Gast، يجب تمييز وضعين غير واضحين للمراقب الخارجي عند هؤلاء التبع. إن بعض قبائل هؤلاء تعود جذورها لأقوام أُخضعوا قديماً من قبل الإهقارن وتستحق هذه القبائل التسمية بالإمراد (عبيد)

مثل الداق رالى الذين يقيمون في الأتاكور وهي المنطقة الأكثر ارتفاعاً في الهوقار، وآيت لو أين، والكل أهنت.

لا تعترف قبائل أخرى مثل إسكا مارين رسمياً بوضعهم كتبع ويعلنون عدم دفع الضريبة (تيوزى) بالإكراه، ويقدمون للأمينوكال ما يعادل الضريبة في شكل عطايا للتعبير عـن ولائهم. وتعكس هذه التدقيقات اللغوية اختلافات ذات طابع تاريخي: فالمجموعة الأولى من الإمراد تمثل مهزومين أو مخضعين، بينما الثانية عبارة عن جماعات اندمجت حديثاً في عرق الطوارق.

يكتمل مجتمع الكل أهقار باختلاط جماعات أخرى مـع هاتين الطبقتين. ويكون الحرفيون؛ اللحامون ـ الجواهريون، طائفة مغلقة تمارس الضعالة، وهم يعيشون مع البدو في منتجعاتهم بتفضيل لمنتجع الأمينوكال. ويمثل الحرفيون أقل من 2 % من السكان. لم يكن العبيد كثيرو العدد في أي يوم من الأيام وقد أصبحوا بفضل ثورة لغوية " خدماً ". وهم من أبناء الرقيق أو أسرى غارات على السودان وكانوا يعملون رعاة أو خدم منازل أو بستانيين. ويؤمن الطُّلبة، الذين يعرفون العربية ويقولون بأنهم أشراف (منحدرون من النبي) وقادمون من توات أو الساقية الحمراء البعيدة، حداً أدنى من التعليم الديني ويعيشون على العطايا العينية التي يقدمها لهم البدو والمزارعون.

يمثل المزارعون في الواقع مجتمعاً موازياً غير مندمج اندماجاً حقيقياً في التنظيم الاجتماعي ـ السياسي للإهقارين الذين أتوا بهم من توات في القرن التاسع عشر لزراعة بعض الوديان الطَّرفية. وكان للبستانيين في النظام القديم وضع الخماَّسين أي هؤلاء الذين يحتفظون بخمس المحصول. ثم حصلوا بعد ذلك على عقود مزارعة ثم حدث تحسين جديد في أوضاعهم بإعطائهم حق الانتفاع بالأراضي الجديدة التي يستزرعونها بإنشاء " فقارات " وهى إنفاق تحت الأرض تُمكن من الري. وفي الأخير أصبحوا ملاكاً بحقوق كاملة على الأراضي التي يزرعونها. وهم اليوم أكثر ثراء وأكثر عدداً من السادة القدماء.

يبدو هذا المجتمع الطبقي، المنظم لصالح مجموعة غالبة، مختلفاً تماماً عن مجتمع مجموعات البربر في الشمال. فعلى رأس هذا المجتمع الأمينوكال وهو سيد له كثير من ملامح الملك الإقطاعي وربما احتفظ بسلطات ملوك البربر القدماء. فهو يأخذ الجزية السنوية من العبيد، ويحصل رسوماً على القوافل الأجنبية التي تعبر الإقليم، وله جزء من غنائم الغارات التي يقوم بها الإمراد (وليس على غنائم غارات النبلاء)، وأخيراً يدفع له المزارعون أتاوة. بالإضافة إلى ما سبق، للأمينوكال حق الانتفاع من الخزينة العامة التي تتكون من قطيع التوبول غير القابل للتصرف وينمى بالأموال التي لا وارث لها.

على الأمينوكال مسؤولية التوزيع السخي للجزء الأكبر من هذه المنتجات والعطايا العينية. وعليه، فهو حامى مجتمع الطوارق مادياً. ومن أجل أن يحكم ويقضى، يحيط نفسه بمجلس ليس له وضعاً محدداً، وإنما هو دائرة ضيقة من الأقارب والأصدقاء. كما أنه يستشير النساء النبيلات اللاتي يتمتعن بدرجة كبيرة من الحرية وبكثير من الاعتبار وغالباً ما يتبع نصحهن.

يدعو الأمينوكال، في نوع من الخيام وبضرب الطبل، لاجتماع الرجال الأحرار والنبلاء والتبع الذين بلغوا من العمر ما يمكنهم من حمل السلاح. من هذه الجمعية الشعبية تنبثق السلطة في الحقيقة. لكل شخص الحق في الحديث في هذا الاجتماع، وبمهارة يعطى الأمينوكال الاهتمام الأكبر لأحاديث امغار (رؤساء) قبائل التبع. وقد يعتمد عليهم ليعادل أي قرار قد يتخذه هذا أو ذاك من أقاربه، وهم منافسون كامنون لأن لهم الحق مثله في القيادة.

لم يستطع مثل هذا المجتمع القديم، العسكري الروح، أن يقاوم التغييرات التي أدخلتها النظم السياسية والاقتصادية الحديثة. لقد كان انحلال ـ حتى لا نقول سقوط ـ النبلاء مدهشاً، لا سيما وأن الإموهار زلزلوا كل الصحراء منذ أقل من نصف قرن. كان ذلك نتيجة مباشرة للاحتلال الفرنسي. فقد أدت السيطرة الأوربية على المغرب الكبير وأفريقيا السوداء (السودان والساحل) لإضعاف

تجارة القوافل التي تمثل مصدراً مزدوجاً للعوائد للطوارق. فقد كانوا يحصلون رسوم عبور أو حماية كما كانوا يقومون بغارات مجزية على حساب التجار.

بعد ذلك، جعل الاحتلال العسكري للصحراء من المستحيل كل أعمال الغزو، كما تحرر المزارعون تدريجياً. وهكذا لم يعد للطوارق في الهوقار قبيل استقلال الدول الأفريقية مباشرة في سنة 1960 م إلا ثلاث مصادر للدخل: قطعانهم من الماعز والجمال التي ترعى خاصة في الساحل، وما يأخذونه على انتاج البساتين، وتجارة صغيرة للملح المستخرج من الأمادرور (شمال شرق الهوقار)





خرج ودرع طارقيان

يقايضونه مقابل الذرة الدقيقة في النيجر. وقد نفذت كل هذه المصادر إلى حد كبير. فمنذ الاستقلال وبفضل المبادئ الاشتراكية أصبح العاملون في البساتين ملاكاً ولا يؤدون أي اتاوات. وفقد ملح الأمادرور قيمته التجارية بمنافسة الإنتاج الصناعي لا سيما وأن المقايضة لم تعد مجدية، وتضاءلت القطعان عملياً إلى المجموعة الصغيرة الواحدة من الماعز التي بقيت في الهوقار. واختفت الثروة الكبيرة من الإبل، وحتى من الأبقار، التي كان يمتلكها الكل ريلا في تمنسة البعيدة في النيجر. كانت هناك أولاً الملاحقات الإدارية من قبل الدول الناشئة الغيورة على استقلالها من جانبى الحدود التي لم يعترف بها البدو الصحراويون قط، ثم بعد ذلك الجفاف الشنيع الذي ضرب الساحل طويلاً خلال السنوات 1970 م ـ 1977 م الذي قضى على آخر القطعان التي كانت تمثل ذكرى باهتة لسلطة قديمة.

توفى بَىْ، أمينوكال الكل أهاجار، الذي عرف في السنوات الأخيرة من حياته الوضع الغريب المتمثل في كونه ملكاً للطوارق وفي نفس الوقت نائباً في الجمعية الوطنية لجمهورية ديمقراطية شعبية، سنة 1975 م. لم يحل محله أحد. لم يعد للطوارق أمنيوكال. لقد انتهى الطوارق... أو على الأقل أصبحوا آخرين. فبعد زمن طويل من ازدرائهم المدارس والحرف اليدوية والنقود، وبعد زمن طويل كانوا فيه يستعرضون حاملين سيوفهم في جنباتهم، انتهي الاموهار، بعد الإمراد وبعد المزارعين والحدادين بزمن طويل، بقبول القانون القاسي للعمل والأجر.

الفوضى المتوازنة

تعطى مراقبة المجتمع البربري في شكله القروي والقبلي الانطباع، مهما كانت تغيراته باستمرارية طويلة لم تتمكن من النيل منها إلا التغيرات الأساسية الاقتصادية في العصر الحديث. وبالعكس لم تتمتع الدول المغاربية التي تكونت طوال التاريخ بأي استقرار، ولم تستمر عادة إلا لفترات قصيرة.



طارقي أجر

في لباس احتفالي

* الملكية المستحيلة :

هكذا، في بداية الزمن التاريخي، لا يعطي ما يمكن أن نتصوره من محاولات لتنظيم الدولة في الممالك النوميدية والمورية إلا انطباعاً مؤسفاً بمحاولات ارتجالية دائمة أو تبنيات لنماذج أجنبية. في العصور الوسطى كانت الصراعات والاضطرابات في الممالك والإمبراطوريات الإسلامية سمة دائمة. ولم تكن هذه الدول الجنينية إلا تركيبات لقبائل وأقاليم لا تدوم إلا حتى تكبر ثم يبدأ الانحصار مباشرة بعد التوسع. وقد أدان مراقب نَبِه مثل ابن خلدون عجز المغاربة عن تكوين دول مستقرة. يُؤمن الجيل الأول الأسس ـ التي كم هي هشة ـ للملكة المستقبلية، ويصنع الجيل الثاني عظمة الإمبراطورية ويحصل على ولاء الإمارات البعيدة، ثم يعجز الجيل الثالث الذي يفسده الترف عن المحافظة عليها. لا تتسق ـ بكل تأكيد ـ كل الممالك القروسطية تماماً مع هذه الرؤية المتشائمة، ولكن من الصحيح أن انحطاط هذه الممالك، التي لا تستحق هذه التسمية، ثم سقوطها يحدثان بسرعة لا سيما إذا كان التوسع سريعاً: ويعود هذا إلى عدم وجود أساس إقليمي لهذه الدول في الغالب.

تجرى الأمور كما لو كان البربري إذا خرج من إطاره البلدي والقبلي أصبح عاجزاً عن تصور دولة منظمة، هذا بالرغم من عدم قلة رجال الدولة العظام من ملوك وسلاطين ووزراء في تاريخ أفريقيا الشمالية.

يكمن أحد الأسباب الرئيسية لضعف الدول في بلدان البربر في قواعد ـ أو غياب قواعد ـ انتقال السلطة. إن مبدأ الوراثة العائلي الذي يبدو لنا بديهياً لأننا أبناء الملكية ليس مبدأ أصيلاً في مجتمع البربر. وهو لا يظهر إلا عندما تتجه الدولة لتنظيم نفسها على قواعد أكثر ثباتاً.

لنأخذ مثلاً أسرة المسيليين النوميدية. لم يكن تتابع الذين سبقوا مسينيسا من الأب إلى الابن. يبدو أن السلطة الملكية كانت ملكاً للأسرة المسيلية جميعها وكانت تنتقل بطريقة غير منتظمة إلى الأكبر سناً من الرجال. هكذا لم يكن

الملك جايا، والد مسينيسا، ابن ملك وعندما مات حوالي 207 ـ 206 ق. م أُعلن أخوه أوزلسيس ملكاً. وبعد موت أوزلسيس بعد فترة قصيرة جداً من توليه الحكم، كان أكبر الذكور في الأسرة هو ابنه كابوسا الذي أصبح ملكاً. ولم تكن مطالبة مسينيسا ـ وهو ابن ملك ـ بحقوقه في مواجهة لاكوميز، شقيق كابوسا، إلا بعد موت هذا الأخير. (انظر الجدول السابق ص 128).

بقيت الأسرة المسيلية قابضة على السلطة بعد حكم مسينيسا الذي أستمر طويلاً، ومع ذلك حدثت قسمة غريبة بين خلفائه. فقد تقاسم أبناء مسينيسا الثلاثة السلطة ويبدو أن تلك كانت إرادة روما: تولى ميسبسا، الابن الأكبر، السلطة الرئيسية على الحكومة المدنية، وتولى جولوسا قيادة الجيوش واستلم مستانابال السلطة القضائية، وكان الاشقاء الثلاثة ملوكاً كما تؤكده نقوش سيرتة. وليس من المستبعد أن سكيبيون إميليان Scipion Emilien استوحى هذا التنظيم من تنظيم ثلاثي تقليدي حرصاً منه على إضعاف القوة النوميدية. وقد رأينا أن مدناً نوميدية عديدة كانت محكومة من ثلاثة ولاة بعكس التشريعات القرطاجية التي لم تشهد إلا اثنين.

وحد ميسبسا الذي عاش بعد أخويه الأصغر سنًّا، السلطة الملكية، ولكن عند وفاته ترك المملكة من جديد لثلاثة ورثة؛ ابنيه ادهربال وهيمبسال وابن أخيه يوغرطة الذي تبناه بالرغم من أن هذا الابن لمستانابال كانت أمه مجرد عشيقة.

كانت الملكية وحدها يجب أن تقسم لا المملكة، هذا ما كان يفكر فيه الملك الشيخ. ولما لم يتمكن الورثة الثلاثة من الاتفاق قرروا تقسيم الأموال والإقليم. خفض مقتل هيمبسال عدد الورثة إلى اثنين، فكانت ليوغرطة نوميديا الغربية أي مساسيليا القديمة وأحتفظ ادهربال بالجزء الشرقي أي مسيليا بسيرتة عاصمة،. ونعرف أن توحيد يوغرطة للمملكة كان هشاً واضطر لأن يتنازل عن ماسيليون لصهره، أب زوجته، بوخوس ملك الموريين من أجل الحصول على تحالف معه. وعندما سلم بوخوس نفسه يوغرطة لسيلا، أصبح أخوه غير

الشقيق جودا ملكاً لنوميديا المقلصة إلى جزئها الشرقي. منذ ذلك الوقت حكم بوخوس وخلفاؤه على نوميديبي الغرب الذين أصبحوا بسرعة موريين.

لم يتمكن ما بقي من مملكة نوميديا من المحافظة على وحدته، فعلى أثر وفاة جودا كانت هناك مملكتان على ما يبدو؛ مملكة مسينيسا الثاني ومملكة هيمبسال الثاني الذي ورث منه يوبا الأول آخر ملوك نوميديا.

إذا كان أسلوب انتقال السلطة غير مستقر في المملكة النوميدية منذ جائيا إلى يوبا الأول وذلك بالرغم من الحكم الذي استمر طويلاً لمسينيسا (56 سنة) وميسبسا (30 سنه) فمرد ذلك إلى أن المملكة لم تكن تستند إلى مؤسسة ثابتة. ويبدو أن السلطة الملكية نفسها لم تكن محددة في الحقيقة، فقد كان يمكن تقسيمها. إذ يبرز فيها أولاً نظام قديم من جذور قبلية جعل من السلطة ملكية أسرية، ونتعرف فيها على عناصر سحرية ـ دينية ربما تعود إلى عدة أشخاص في نفس الوقت، وأخيراً نرى أن السلطة متأرجحة بين سيد ذي طابع عسكري يفرض نفسه بالقوة والبسالة الشخصية، والهيبة الأبوية بشكل ثانوي، ورؤساء قبائل غيورين على استقلالهم.

إننا لا نعرف جيداً تنظيم الممالك البربرية المسيحية في نهاية العصور القديمة لنحاول تحديد كيفية انتقال السلطة. وقد عرفت الممالك والإمبراطوريات الإسلامية القروسطية الكثير من المؤسسات بما فيها الملكية الانتخابية في بعض إمارات الخوارج. بعضها كان نابعاً من التنظيم الداخلي للقبائل الحاكمة وأخرى كانت منقولة عن نظام الخلافة. ويبدو أن انتقال السلطة مثَّل باستمرار نقطة الضعف في هذه الدول وذلك بالرغم من أن انتقال السلطة من الأب إلى الابن (ليس بالضرورة الابن الأكبر) كان هو الاتجاه الغالب لا سيما وأن الأصل الشريف كان في أحيان كثيرة أساس السلطة.

حتى في عصور متأخرة، لم يكن انتقال السلطة من الأب إلى الابن هو القاعدة السائدة بالضرورة. فعند بايات تونس، وهم من أصل تركي، كانت

السلطة تنتقل إلى الابن الأكبر للباى الأقدم في الحكم. وهذا النظام المعقد هو، في الحقيقة، أقل تعقيداً بكثير من نظام تعيين الأمينوكال عند الطوارق. كان لابد أن يكون لهذا الأخير الحق في القيادة (أتبل، أو توبول) أي لابد وأن يكون منحدراً من " تن هينان " عن طريق النساء أي بالنسب عن طريق الأم. كان هؤلاء الرؤساء يُختارون نظرياً من بين أولاد هاتة النساء بمراعاة الأقدمية. ولكن هذا الانتقال ليس تلقائياً لأن الأمينوكال منتخب من قبل الاموهار ورؤساء قبائل التبع. وتختار هذه الجمعية، التي هي المصدر الحقيقي للسلطة كما سبق لنا قوله، من بين المطالبين من ترى أنه الأقدر على حماية التوبول. هكذا، تتدخل الانتهازية السياسية لتصحيح القواعد لتوارث عشوائي للسلطة.

* قبائل المخازن وبلاد الإنشقاق :

إذا كانت الدول تبدو هشة، فإن القبائل التي تكونها هي في حالة إعادة تشكيل مستمرة وفق مشيئة التجمعات والتباينات والتحالفات والتقلبات السياسية المختلفة. ومع ذلك قد يحتفظ اسم هذه التجمعات المتحركة باستمرارية مدهشة. وبالعكس نرى طوال التاريخ جماعات كاملة تغير الاسم والنعت العرقي: فطوال العصور القديمة أصبح جزء كبير من النوميديين ثم كل الأفارقة غير المترومين، موريين، وفي العصور الوسطى تعرب أغلب الزناتيين لساناً وأسماء، وقد اشتدت هذه الحركة في العصور الحديثة.

لا يمكن أن يكون التشرذم إلا مصدراً لإضعاف السلطة السياسية وبالقدر الذي تستند فيه هذه السلطة على قبيلة من القبائل أو تحالف قبائل من التحالفات عندما تعجز عن تنظيم قواها الذاتية. وفي العصور الحديثة حاول الأتراك في الجزائر وتونس، والعلويون في المغرب، هيكلة هذا الشكل من الإدارة. فقد كانت هناك قبائل مخلصة تتمتع بمزايا أو بإعفاءات ضريبية وتقوم بأعمال الشرطة وتحصيل الضرائب. كانت هذه هي القبائل " المخازن " " الحكومية ".

ففي المغرب، حيث التناقض الأوضح بين المناطق الجبلية الناطقة بالبربرية والسهل المعرَّب، استقر مفهوم البلاد " المخزن " حيث كانت تمارس سلطة السلطان كاملة، ومنطقة " السيبا " "الانشقاق " حيث كانت الإدارة خارجة عن أيدي السلطان بالرغم من أن الرؤساء الأساسيين التقليديين يعترفون بتبعيتهم للسلطان. ولم يكن لمناطق " المخزن " ومناطق " السيبا " أي حد ثابت؛ فوفق النزاعات القبلية تتوسع السيبا حتى جوار فاس ومكناس أو تتقلص حتى المرتفعات المنيعة في بلاد البربر.

إن وجود القبائل " المخزن " ليس واقعاً حديثاً في تاريخ شمال أفريقيا السياسي. فقد عرفت الإمبراطوريات البربرية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر نظاماً مشابها. وقبل ذلك كان في خدمة الأسرة الفاطمية قبائل صنهاجية من التكلاته وخاصة من كتامة. وإذا ما صعدنا إلى ما قبل الرومان فسيبدو لنا أن المملكة النوميدية عرفت تنظيماً مشابهاً لأن قبائل مثل الموسونى والسوبوربور كانت توصف بـ " Regiani "وهو ما يدفع إلى الاعتقاد بأن هذه الجماعات كانت تتميز عن القبائل الأخرى بروابط خاصة مع السلطة الملكية.

❋ الصفوف والظروف والتحالفات :

تتدخل بين القبائل والسلطة السياسية للدولة التي لم تتمكن من تثبيت اقدامها، تصدعات أخرى لعبت دوراً مهماً في تاريخ أفريقيا الشمالية، وساهمت في استقرار الفوضى إلى حد ما، إذا جاز التعبير. إنها " الصف " المسمى في المغرب " لف " وهما كلمتان عربيتان تعنى الأولى " صف " وتعنى الثانية " ظرف "، تدلان على نظام اجتماعي ليس مقصوراً على البربر.

إن القبائل لا تبقى معزولة بل إن أغلبها ينضم إلى أنواع من الجامعات (الصفوف) التي أظهرت استمرارية قوية. ولكن يجب التأكيد على أن مكونات القبيلة الواحدة قد تنضم إلى صفوف مختلفة. وهى تتوافق مع تصدعات

اقتصادية ـ سياسية تمتد جذورها إلى أزمان موغلة في القدم ولكنها تُحيا دورياً بالصراعات الداخلية أو الخارجية للدول. ففي جنوب تونس كان يوجد تقليدياً صفان لعبا دوراً تاريخياً مهماً. وقد مدا تفرعاتهما إلى شمال تونس ومنطقة قسطنطينة وطرابلس الغرب، وهما صف شداد وصف يوسف. قد نميل إلى البحث عن ما إذا لم يكن هذا التقسيم ذا أصل عرقي وعما إذا لم يكن مؤسساً على مواجهة بين البربر والعرب. يدعى البعض ذلك، ويقول بأن صف يوسف بطن من بطون العرب وصف شداد بربري ولكن هذه الثنائية العرقية ـ الاجتماعية لا تقاوم التحليل: في جبل نفوسة ينتمي رئيسا الصفين المتنافسين إلى قبيلة المحاميد العربية وتنتمي قبيلة النوايل العربية إلى صف شداد. وفي جنوب تونس، حسبما أورد أ. مارتل " A Martel " الذي صنف المكونات حسب انتمائها للصفوف، يجمع صف شداد غالبية من العرب بينما البربر هم المجموعة الغالبة في صف يوسف.

يلعب هذا التصدع غير الواضح الجذور دوره تلقائياً عند كل أزمة؛ هكذا في القرن الثامن عشر، نتيجة لثورة على باشا ضد الباى حسين (1729 م) والقلاقل التي استمرت حتى سنة 1756 م، انقسم التونسيون إلى صفين؛ صف الباشية أنصار على باشا وصف الحسينية أنصار حسين. في الجنوب، ناصر صف شداد الباشية بينما كان أنصار الحسينية من بين صف يوسف. وفي شرق الجزائر، استند فرع بن غانة الذي انضم إلى توغرت، واستند العربة والحننشة على جماعة يوسف، بينما نال خصومهم من بوعكاز الذين اتبعهم الشعامبة والترود وواحات تمارسين والوادي دعم صف شداد. ونحو الشرق وصل هذا التصدع عن طريق التحالفات تدريجياً مناطق فزان وسرت حيث كانت عشائر أولاد سليمان والفقهى في إطار صف شداد بينما كانت صفوف المغارة والبيهار حلفاء لليوسفيين. هكذا من سرت الكبيرة إلى ورقلة كانت هناك مجموعتان كبيرتان تتواجهان تقليدياً وباستمرار على كل المسائل السياسية.

ليس لكل الصفوف نفس الاتساع ونفس الإشعاع اللذان لصفي الجنوب التونسي، ففي منطقة القبائل كانت الصفوف تجمع العشائر ولكنها تقسم القرى أحياناً.

في المغرب، كان للفوف نفس الملامح ونفس الأهمية الاجتماعية، ومثل الصفوف أحدثت اللفوف تصدعات أفقية عبر التحالفات والقبائل، وجمعت الفروع والأسر الكبيرة في تحالفات دامت أحياناً أكثر من الهياكل الأولية.

تأكدت هذه الأحلاف باتفاقات " تاتا " التي تنشئ بين القبائل أو الفروع روابط قرابة وهمية. وتُؤكَّد هذه القرابة بواسطة رمزية، خاصة بالرضاعة؛ فأثناء وجبة لهذا الغرض يتم تناول الكسكسي مرشوشاً بحليب امرأة، وفي نفس الوقت تتبادل النساء المرضعات من المجموعتين أطفالهن الرضع. هكذا يصبح الرجال أخوة وهكذا يكون عليهم مساعدة بعضهم البعض ونجدة كل طرف للآخر. وينظر إلى هذا الشكل من أشكال التحالف بقدر كبير من الإعتبار لا سيما وأن التآخي بين المجموعتين يعتبر حقيقياً لدرجة أن التزاوج محرم بين المجموعتين الموحدتين بتحالف تاتا المقدس. ويتعلق الأمر هنا بطقس من الطقوس البدائية، وقد عرفت هذه الممارسة أشكالاً مخففه مثل تبادل أواني الحليب، وقطع الملابس.

هناك شكل غريب آخر مرتبط برمزية الفعل وهو متجذر في المغرب الكبير والصحراء والمشرق، ويقضي بإخفاء أحذية الأقدام اليمني لكل ممثلي المجموعتين المتحالفتين، وتُكَّون منهما كومتان مغطاة كل واحدة ببرنوس. ويقوم الوجهاء بأخذ حذاء من كل كومة في نفس الوقت فيتقدم صاحبا الحذائين أحدهما نحو الآخر وهكذا يصبحان متحدين بالحلف.

حلف الأنايا شكل آخر من أشكال الحذر أو توقي الخطر من خارج المجموعة، وكان يقضي بوضع الشخص تحت حماية رجل قوى أو رئيس ديني. وكان المستفيد يستطيع السفر دون خوف حتى في نطاق قبيلة عدوة بشرط أن تكون هذه معترفة بسلطة من أعطى الأنايا.

هكذا أفرز المجتمع البربري بإكثاره من الأحلاف والحمايات من شخص لشخص أو من مجموعة إلى مجموعة أساليب علاج نجحت في الحد من تطور الفوضى دون أن تقضي على بذورها. عليه فإن النموذج السياسي المستعرض نوع من الفوضى المتوازنة.



عروس من آيت حديدو

" داديس الأعلى . جنوب المغرب "

الحياة في مجتمع

لا يهتم الشخص العادي في المجتمع البربري التقليدي بالمشاكل السياسية الكبيرة، وبدرجة أقل بتحديد فلسفة السلطة. ما يهمه في المقام الأول هو الاندماج الكلي في الوسط العائلي، وفي صفه، وفي قريته، وفي عشيرته. وتفرض هذه العلاقات المتعددة التزامات تتسم بدرجة كبيرة من السرية والتحفظ، في نفس الوقت.

كانت روح التضامن دائماً متطورة كما في أغلب المجتمعات الريفية، وهذه الروح هي منبع مبدأ " التويزا " المعروف في كل المغرب الكبير،

والقاضي بقيام عمل جماعي تطوعي لصالح مجموعة أو رئيس عائلة ويشمل كل أنواع العمل من تشييد مبنى، أو إصلاح طريق أو حفر قناة ري إلى الأعمال الزراعية المهمة مثل الحصاد أو الدرس.

* وضع المرأة :

تنظم العادات والتقاليد الحياة الاجتماعية، ولم تتأثر العادات في بعض المجموعات البربرية إلا تأثراً محدوداً بالشريعة الإسلامية. ليس هناك عرف بربري وإنما مجموعة كبيرة متنوعة من القواعد المنظمة للأحوال الخاصة. وكان تأثير الشريعة الإسلامية قوياً في أمور الزواج في كل مكان بالرغم من أن تقاليد خاصة بقيت في العديد من المناطق. هكذا، للمرأة الحق في طلب الطلاق من زوجها عند مجموعات بربرية كثيرة في المغرب، وهي حرية لا وجود لها في القانون القرآني. وفي المقابل تقضى ممارسة أخرى غريبة تتيح للزوج معارضة زواج زوجته السابقة، وعادة ما تُرفع هذه المعارضة مقابل دفع مبلغ ما. وفي شرق الأطلس الكبير، لأقرب عشرين شخصاً للفتاة نوع من حق الشفعة (أنهاد) في الفتاه العذراء، بينما يتمتع بهذا الحق ابن العم المباشر فقط في العالم العربي: صحيح أنه في الممارسة العملية عندما لا يتزوج القريب الفتاة التي اعترض على زواجها من " اجنبي " فلا يحق لأي قريب آخر ممارسة هذا الحق.

ليس للمرأة نفس الوضع في كل مكان في دنيا البربر، ومن المسلم به عادة أن وضعها أقل مما جاء به القرآن. ولكن غالباً ما بولغ في طابعه الجائر لأن التفكير ينصب بشكل خاص على وضع المرآة القبائلية لأنه أقدم ما عرف من أوضاع المرأة البربرية. بالفعل، كان الوضع القانوني للمرأة القبائلية في منتهى القسوة، فهي لا تستطيع أن ترث فقط وإنما كانت، إلى حد ما، جزءاً من الإرث، وحتى وهى أرملة ليس لها ـ من حيث المبدأ ـ تقرير أمر زواجها. ولا تستطيع المطلقة الزواج بدون موافقة زوجها السابق، وهى موافقة بمقابل نقدي غالباً.

يشكل هذا الوضع ـ مع ذلك ـ حاله متطرفة، وحتى في منطقة القبائل نفسها كان حرمان النساء من حق الإرث قراراً جماعياً من قبائل زواوة في القرن الثامن عشر، بالرغم من أن هذا الحق تعترف به الشريعة الإسلامية. وبالعكس بولغ في الادعاء باستقلال وتحرر سلوك المرأة الطارقية. لا شك أن الطارقية النبيلة، وهي غالباً أكثر تعليماً من زوجها، تحتل موقعاً متميزاً في المجتمع خاصة عندما تكون من نسل كل ريلا لأن الحق في القيادة ينتقل بواسطتها. وهي تتمتع ببعض الحرية، وتتردد على هذا النوع من مجالس الحب "الأهل" ولكنها محرومة من حق الوراثة[1].

في الأوراس تمتع الأرامل والمطلقات بقدر كبير من الحرية ويصبحن في الغالب " عزريات " وتعني كلمة "عزرية" حرفياً "المرأة التي ليس لها زوج"، ولكنهن في الواقع بغايا. قد يكون وضعاً مؤقتاً ويمكن " للعزرية " التائبة أن تبدأ بدون صعوبة حياة زوجية عادية. ولا تعزل " العزرية " عن الحياة الأسرية وتقيم غالباً عند أمها. كما أنها لا تعزل كذلك في مجتمع الشاوية وهي غير مزدراة لا من أهلها ولا من النساء الأخريات. ومع ذلك، فإن المرأة الشاوية محرومة كذلك من حق الإرث بالرغم من أن القرآن أقر بشكل قاطع هذا الحق.

يفسَّر هذا الاستبعاد العام للمرأة في بلاد البربر، والذي يتوافق مع ممارسة سابقة للإسلام فقط بالحرص على حماية الأموال العائلية. يعرف هذا جيداً الفلاح الأوراسي الذي كان يقول لـ م. جودرى M. Gaudry. " لو كانت نساؤنا ترث لآثرت أسر أزواجهن وأفقرن أسرهن ".

القوانين القبائلية :

يكرس العرف مكانة مهمة للقسر والدفاع عن الكون الصغير المتمثل في القرية أو العشيرة. وبما أن السجن غير معروف وأن القتل يولد الثار أو بديلاً

(1) بالمعنى السياسي. المترجم

نقدياً فإن القانون الجنائي البربري يحدد بشكل خاص غرامات. ومن ثم تكَّون قضاء اجتهادي تأكد في أحيان كثيرة بالكتابة: فقد تعود بعض " مواثيق أغادير " في بلاد الشلوح (غرب الأطلس الكبير) إلى القرن الرابع عشر. وهذه النصوص مكتوبة بالأحرف العربية مثل " أزرف " المجموعات البربرية. وأغرب هذه الأحكام هي قانون منطقة القبائل الكبري الذي يحدد بدقة أصغر المخالفات وعقوبتها، وهى دفاعات هزيلة لمجتمع مغلق على نفسه. مع ذلك تقدم بعض هذه القوانين الدليل علـى تغلغل ثقافة أجنبية في قلب أهم المجموعات الناطقة بالبربرية في الجزائر. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر حُرِّرت بعض القوانين باللغة الفرنسية. ويستحق هذا الحدث أن يذكر لا سيما وأن هذه القواعد التي صيغت، كانت بعيدة عن القانون الجنائي الفرنسي الذي أدخلته الإدارة الاستعمارية في نفس الوقت إلى البلاد.

* الشرف أو الأنف الشامخ :

تعني الحياة في المجتمع فقدان الاستقلالية؛ أى ترتبط بشبكة معقدة من العلاقات التي تتيح للجماعة، أكثر من الفرد، أن تعبر عن نفسها وتفـرض حقوقها. وهذه العلاقات غامضة:وإذا كان هناك تضامن داخل المجموعة الاجتماعية فإن هناك أيضاً، بسبب واقع تجاور الوحدات العائلية في فضاء محدود، مخاطر دائمة للإحتكاك فيما بينها وفيما بين الأشخاص الذين يكونونها. من ثم يجب أن يكون الشخص يقظاً ومستعداً للدفاع عن حقوقه وأن يحذر من النيل من حقوق الآخر. إن هذا التوتر، الذي لمسه كل من عاش في المغرب الكبير، ثابت ويفسر الكثير من التصرفات. فالبربري سريع الانفعال والغضب. والأنف بالنسبة للقبائلي حساس بنفس الدرجة التي كان عليها الشرف بالنسبة لنبيل (أوروبي)[1] من القرن السابع عشر. وحتى لا يفقد الشخص مكانته واعتباره عليه تقديم تضحيات لا يمكن تصورها، وتتحمل أسرته أسوأ أشكال الحرمان.

---

(1) إضافة من المترجم لغرض التوضيح. المترجم

الشرف الذي تجب حمايته في المقام الأول، هو شرف الأسرة أي النساء بشكل خاص، واللاتي من خلالهن تنتقل الحياة. ولا يمكن غسل الشرف الملطخ لزوجة، أو ابنة، أو أخت إلا بالدم. ولا يثير قتل المجرمين أي إدانة، بل هو مفروض بالقسر الاجتماعي.

لكـن " للنيف " (الأنف) متطلبات أخرى، فلا يمكن قبـول الإهانة من خصم أو منافس. فسرقة سلة من التين أو إعطاب آلة أو كسر حاجز كلها تؤدي إلى ردود فعل، لا محالة. فإذا كان الضحية ذكياً فإنه يعرف كيف يلون إجابته ويحرص على أن يكسب إلى جانبه حكماء الجماعة والضحاك، ولكن المتهور قد يذهب بعيداً: هكذا تبدأ عملية قد تقود حتى القتل.

هكذا تتولد نزاعات أسرية فظيعة، فالقتل يستدعى القتل. لاشك أن الأخذ بالثأر ليس حكراً على البربر، ولا حتى متوسطياً، ولكن من النادر أن يصل إلى درجة الشراسة المتجذرة كما في المغرب الكبير. وغالباً ما تُذكر الحرب الداخلية التي أبادت قريتين متنازعتين من بنى اورياغل في منطقة الريف (المغرب)، فقد أدت عمليات القتل المتتالية خلال سبع سنوات لخمسين قتيلاً في إحدى القريتين وستين في القرية الأخرى، وكان السبب موت كلب، وأخيراً هاجرت القبيلة التي أُضعفت أكثر إلى زرهـون المجـاورة. وقـد أورد أ. إيبازيزن A.Ibazizen بعض الحالات التي يمكن مقارنتها مع التراجيديات الإغريقية الأكثـر دموية. مثل هذه السلسلة من أعمال القتل في أسرتين متنازعتين مـن أغيل بوعماس (منطقة القبائل) حوالي سنة 1930 م. فبعد حملة تأديبية أدت إلى مقتل ثلاثة مراهقين لم يتبق من الشبان والفتيان ما يُمكّن من استمرار المجموعة. وقد رفضت أم الضحايا العجوز وفقاً للتقاليد أن تدفن الجثامين في المقبرة. وطلبت حفر حفرة في أرضية أكبر حجرات المنزل ووضعت الجثامين على بلاطات بالملابس ملطخة بالدماء وذلك ليتذكر الأطفال الصغار كل يوم الجرائم التي يجب الثأر لها.

يمثل الثار لجريمة الدم (تسآر) واجباً لا يتقادم: ولا يستطيع أي رجل - يستحق هذه التسمية - أن يتخلص من القسر الاجتماعي الذي يجبره على أن يكون بدورة قاتلاً إذا ما سُمي للأخذ بثأر الضحية القادمة.



نساء من منطقة القبائل

جرجرة 1930

لقد سهل الالتزام بالثأر، وعوامل أخرى أقل علاقة بالشرف، ظهور قتلة بالأجر في منطقة القبائل، وهى ممارسة اختفت لحسن الحظ منذ بضع سنوات. وقد لاحظ القضاة أنها تطورت، عندما أعاقت العدالة الفرنسية عملية الأخذ بالثأر بالتطبيق الصارم للقانون الجنائي. وقد كان القاتل للأخذ بثأر قريب له، يتمتع بالاحترام من قبل أقربائه في الماضي، ولكنه بعد تطبيق القانون الجنائي أصبح مطارداً وملاماً بقسوة. وبالنسبة للأشخاص الفخورين الواثقين من حقوقهم تبدو هذه الأحكام كما لو كانت إنكاراً للعدل. فمن أجل الالتزام بالأخذ بالثأر وتفادي الوقوع تحت طائلة عدالة لا ترحم في نفس الوقت، كان اللجوء إلى قتلة بالأجر حل سهل بقدر ما هو غير أخلاقي.

* ثمن الرجل :

بالرغم من أن عملية الأخذ بالثأر لا تقيم اعتباراً كبيراً للحياة على ما يبدو، إلا أنها مرتبطة بوعي عميق لقيمة الإنسان.

لا شك أن التقاليد تتيح دفع تعويض يخلص من الجريمة أو القتل، حتى القتل العرضي غير المقصود، وذلك عند الكثير من الجماعات البربرية كما عند العرب وأقوام آخرين كثيرين. وتُحدد هذه الدية نقداً أو بالحيوانات أو غيرها من الأموال. وبمجرد دفع تعويض مقابل الدم المسال يتوقف تلقائياً حق المتابعة. ولا تخص هذه التسوية الأفراد بقدر ما تخص الجماعات الأسرية.

تتيح ممارسة قديمة جداً محصورة في ميثاق أجاريف (الأطلس الكبير - المغرب) أن تُعطي عشيرة الضحية امرأة من عشيرة القاتل وتقيم هذه المرأة عندهم حتى تنجب ولداً. وهكذا تجد جماعة الضحية في هذا الطفل الرجل الذي غيبه القاتل. ويجب الإقرار بأن هذه العملية الميكانيكية تقريباً للإنجاب الموكلة إلى المرأة لا تخلو من المنطق ومن بعض العظمة بالرغم من أنها تصدم الحساسيات الحديثة، فهي تقر - على الأقل - بأن لحياة الإنسان قيمة لا تقاس بالذهب والفضة. " لقد حرمناكم من رجل فاضل، ونتيح لكم من خلال هذه المرأة إمكانية البديل، إن شاء الله! ".

تظهر قيمة الرجل، كقوة عمل أو كمحارب محتمل، في ممارسة أخرى شائعة عند بربر وسط المغرب وهي " الأمهار ". فعن طريق عقد حقيقي تسمح جماعة القبيلة لأجنبي بالاستقرار في أسرة. ويعطي الأجنبي من قبل رب الأسرة التي تستقبله ما هو ضروري لاستقراره، ويحدد جزء الأرباح الذي يمكن الاحتفاظ به في نهاية العقد ومدة العقد. لوتوقفت العلاقات عند هذه الشروط لما كان في عقد الأمهار شيء غير عادي، ولكنه في الحقيقة عقد تبني: يعطي رب الأسرة للأجنبي الذي اسكنته امرأة من عشيرته، عادة ما تكون ابنته. هكذا يصبح الرجل مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالأسرة المتبنية. وقد كان للأمهار - نظريا - الحق في

ترك المرأة عند نهاية العقد، ولكن في الممارسة العملية كان الزواج يشرع هذا الارتباط ويصبح التبني نهائياً. هكذا في الوقت الذي حوفظ فيه على تجانس المجموعة يزيد عقد الأمهار من زيادة قدرتها البشرية. والأمزال في المغرب والمشروط في الجزائر أشكال أخرى من العقود مصدقة بزواج مؤقت. المهم في مجتمع لا يعرف الأجرة هو جذب أهم مصدر للثراء والاحتفاظ به: الإنسان نفسه.



ابتسامة فتاة تارقية

الترتيب الزمني

من الجذور إلى القرن السادس عشر.

10 000 ق.م	بداية الحضارة الأيبيرية ـ المورية. كان إنسان مشتى العربي يحتل كل الشمال الأفريقي.
7000 ـ 5000 ق.م	الحضارة القفصية. ظهور المتوسطيين الأوائل.
6500 ـ 2000 ق.م	تطور الحضارات النيوليتية في الصحراء والمغرب الكبير. وصول المتوسطيين إلى الصحراء (حوالي سنة 3000 ق.م). بداية العلاقات مع البلدان الأوربية.
حوالي سنة 1000 ق.م	وصول جديد للمتوسطيين إلى المغرب الكبير. بداية توطن الفينيقيين.
800 ـ 146 ق.م	قرطاج
حوالي 450 ق.م	كونت قرطاج إمبراطورية أفريقية.
396 ق.م	استيلاء الليبيين والنوميديين الثائرين على تونس.
379 ق.م	ثورة جديدة من قبل الليبيين.

311 ـ 307 ق.م	حملة اغاتوكل على أفريقيا. ايليماس ملك لليبيين (النوميديون المسيليون؟).
238 ـ 237 ق.م	حرب المرتزقة والنوميديين. نرفاس أمير نوميدي.
قبل 220 ـ 203 ق.م	حكم سيفاكس، ملك النوميديين المزالمة الذي أستولي سنة 203 على المملكة المسيلية.
القرن الرابع ـ 46 ق.م	مملكة النوميديين المسيليين.
203 ـ 148 ق.م	حكم مسينيسا الذي وحد نوميديا وأستولي على جزء من إقليم قرطاج.
146 ق.م	تهديم قرطاج. تكوين ولاية أفريقيا الرومانية (شمال شرق تونس الحالية).
148 ـ 118 ق.م	حكم ميسبسا.
118 ـ 105 ق.م	حكم يوغرطة. صراع ضد روما. سقوط الجزء الغربي من نوميديا في أيدى بوخوس، ملك الموريين.
قبل 203 ـ 33 ق.م	أسرة البوخوسيين المورية (باجا، بوخوس الأول، سوسيس، بوخوس الثاني، وبوجود).
105 ـ 46 ق.م	الأسرة المسيلية في الشرق (جودا، ماستيبار، هيمبسال الثاني، مسينيسا الثاني، يوبا الأول).
46 ق.م	هزيمة يوبا الأول وموته، وإنشاء الولاية الرومانية لأفريقيا الجديدة (مملكة نوميديا السابقة)

سنة 25 ق.م ـ 40 م	**الأسرة الموريتانية (يوبا الثاني، وبطليموس).**
سنة 42 م.	إنشاء الولايات الرومانية (موريتانيا الطنجية (المغرب)، وموريتانيا القيصرية وسط الجزائر وغربها).
146 ق.م ـ 439 م	**الحكم الروماني.**
100 م ـ 400 م	تحول جزء كبير من البربر إلى المسيحية في أفريقيا ونوميديا.
حوالي سنة 225 م	التوسع الأقصى للحكم الروماني في أفريقيا.
250 م ـ 300 م	ثورات البربر الكبيرة في موريتانيا.
305 م ـ 313 م	بداية الدوناتية.
372 م ـ 376 م	ثورة فيرموس، الموظف الإمبراطوري والرئيس الأفريقي.
396 م ـ 430 م	القديس أوغسطين، أسقف هيبون.
439 م ـ 533 م	**المملكة الوندالية.**
حوالي 455 م	الرئيس البربري ماستيس يعلن نفسه "إمبراطوراً" في الأوراس.
حوالي 470 م	وصول تين هنان إلى الهوقار. يدعى نبلاء الطوارق انحدارهم من هذه الأميرة التي تم العثور على قبرها.
508 م ـ 535 (؟) م	ماسونا ملك " الموريين والرومان " في موريتانيا القيصرية.

533 م ـ 647 م	**الحكم البيزنطي. تعدد الإمارات البربرية. توغل البدو الجمالين من البربر الجدد، الزناتيون الذين أغلبهم وثنيون وبعضهم تهودوا.**
647 م	**ظهور العرب في أفريقية (أفريقا). معركة سيفتولة (سبيطلة).**
670 م	تأسيس القيروان من قبل عقبة الذي بدأ الفتح. تقول الأسطورة بأنه وصل حتى شواطئ المحيط.
683 ـ 686 م	كسيلة ينظم المقاومة البربرية ويصبح لثلاث سنوات سيد أفريقية.
695 م ـ 702 م	الكاهنة ملكة الجراوة (الأوراس) تطرد العرب إلى طرابلس، وتمارس سياسة الأرض المحروقة، ولكنها تهزم في النهائية وتطلب إلى ولديها قبل أن تقتل الانضمام إلى صفوف المنتصرين.
711 م	تحت قيادة طارق تعبر وحدات من البربر المسلمين مضيق جبل طارق وتحطم المملكة الويز قوطية في أسبانيا.
حوالي 670 م ـ حوالي 750 م	تحول البربر إلى الإسلام. تطور مذهب الخوارج.
750 م ـ 780 م	ثورة الخوارج في أفريقية ووسط المغرب الكبير.

800 م ـ 909 م	**الأمراء الأغالبة في أفريقية.**
776 م ـ 909 م	**الأسرة الرستمية، مملكة تاهرت الخوارجية في وسط المغرب الكبير.**
757 م ـ 922 م	أسرة الادارسة في المغرب.
809 م	تأسيس فأس من قبل إدريس الثاني.
893 م	ينشر أبو عبد الله المذهب الشيعي عند كتامة (بربر صنهاجة في منطقة القبائل الصغري).
902 م ـ 910 م	غزو كتامة الشيعيين لوسط المغرب الكبير وأفريقية.
910 م ـ 973 م	**الأسرة الفاطمية الشيعية.**
913 م ـ 920 م	الحملات الأولى على مصر.
922 م	فتح المغرب الأقصى (المغرب) من قبل مكناسة باسم الفاطميين.
940 م ـ 947 م	ثورة الخوارجي " أبو يزيد " ـ "صاحب الحمار "
969 م ـ 973 م	فتح مصر وانتقال الفاطميين إلى القاهرة.
973 م ـ 1060 م	**الأسرة الزيرية في وسط المغرب الكبير وأفريقية.**
973 م ـ 984 م	حكم بلكين وتأسيس مدينة الجزائر.
1015 م ـ 1163 م	**أسرة بنى حماد في وسط المغرب الكبير.**
1061 م ـ 1088 م	حكم الناصر. تأسيس بجاية.

1050 م	**بداية الغزوات الهلالية، إبعاد قبائل الرياح واثبج ثم بنى سليم وبنى معقل من مصر وتوغلهم في المغرب الكبير بموجـات متعاقبة.**
1050 م	دعوة ابن ياسين عند لمتونة الصحراء، منبع حركة المرابطين.
1055 م ـ **1146** م	**إمبراطورية المرابطين (الصحراء الغربية المغرب، غرب الجزائر، وأسبانيا).**
1059 م ـ 1062 م	تحطيم بدعة البرغواطة.
1061 م ـ 1088 م	حكم يوسف بن تاشفين. تأسيس مراكش.
1115 م ـ 1120 م	ابن تومرت يدعو لعقيدة الموحدين.
1125 م ـ **1269** م	**إمبراطورية الموحدين (المغرب، الجزائر، تونس، أسبانيا).**
1142 م ـ 1160 م	احتلال عبد المؤمن للمغرب الكبير. اختفاء آخر الجماعات المسيحية عند البربر.
1206 م	تعيين أبي حفص على راس أفريقية.
1236 م ـ **1449** م	**مملكة الحفصيين في شـرق المغرب الكبير (تونس العاصمة).**
1235 م ـ **1554** م	**مملكة عبد الوديد فـي وسط المغرب الكبير. (العاصمة تلمسان).**

1248 م ـ **1456** م	مملكة المرينيين في المغرب الأقصى (العاصمة فأس). صراعات مستمرة وتنافس بين هذه الممالك؛ تحت ابي الحسن (**1331** ـ **1351** م) توحيد مؤقت للمغرب الكبير بواسطة المرينيين.
1415 م	استقرار البرتغاليين في سبتة ثم طنجة والاعراش (1471)، مسات (1488م) اسفى واغادير (1508م)، ازمور (1513 م) ومزغان (1514 م).
1497 م	استيلاء الاسبان على مليلة ثم مرسى الكبير (1505 م)، وهران (1509 م)، بنون الجزائر (1510 م) شرشل، دليس ومستغانم (1511 م).
القرن الخامس عشر ـ القرن السادس عشر:	منافسات بين سلاطين بنى عباس وملوك كوكو في منطقة القبائل.
1514 م	استيلاء التركي عروج على جيجلى ثم مدينة الجزائر سنة (1516 م). وقد ثبت خلفاؤه الحكم التركى على ولايات الجزائر، وتونس وطرابلس. كون المغرب الإمبراطورية الشريفية، وصول جماعي للاجئين الأندلسيين إلى المغرب الكبير.

** ** **

الفهرس

أقوام على هامش التاريخ

السيطرة الأجنبية وعمليات الثاقف

البربر والدين

الدوام البربري

***　***　***

الكشاف العام

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

فهرس الأماكن و البلدان والدول والمواقع

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس الشعوب والقبائل والأقوام

(أ)

(ب)

(ل)

(م)

فهرس الفرق والجماعات

(أ)

(ب)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس الحضارات والممالك والمؤسسات

(م)

(ن)

فهرس العصور التاريخية والأجناس البشرية

فهرس الثورات والمعارك

فهرس اللغات

(أ)

(ب)

(ت)

(س)

(ع)

العربية 22، 313

(ف)

الفينيقية 314

(ق)

القبطية 83

(ك)

الكوشية 9، 22، 83

(ل)

اللاتينية 40، 313
الليبية 22، 314

(م)

المصرية 22